تفسير موضوعي للقرآن

٤٣٧

مفاهيم القرآن

دراسة شاملة لأهم الرسالة المحمدية ومعالم
النبي الأكرم وكراماته وما أثير حولها من شبهات
وشفاعته المقبولة

الجزء الرابع

تأليف جعفر السبحاني

مؤسسة النشر الإسلامي (التابعة)
لجماعة المدرسين بقم المشرفة (ايران)

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 012081939

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

مفاهيم القرآن

الجزء الرابع

مواصفات الكتاب

* الكتاب : مفاهيم القران
* المؤلف : جعفر السبحاني
* الموضوع : أبحاث حول النبوة
* الطبعة : الاولى
* الناشر : مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة - ايران
* تاريخ الطبع : ١٤٠٥هـ ق - ١٣٦٤هـ ش
* المطبوع : ٣٠٠٠ نسخة
* المطبعة : مطبعة سيد الشهداء عليه السلام - قم

J. al-Subhani

تفسير موضوعي للقرآن

مفاهيم القرآن

احمدیان

الجزء الرابع

دراسة شاملة لأجر الرسالة المحمدية ومعاجز
النبي الأكرم وكراماته وما أثير حولها من شبهات
وشفاعته المقبولة

تأليف جعفر السبحاني

2273
.935
.3
v.4

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

أما بعد: فهذا هو الجزء الرابع من أجزاء موسوعتنا القرآنية « مفاهيم القرآن » نقدمه الى القراء الكرام. راجين منهم العفو عن ماوقع من التأخير في نشره وقدكان جاهزاً للطبع يوم طبع الجزء الثالث منهاغير انه طلباً لوقوعه موقع القبول والرضامن القراء، قد غيّرنا بعض مطالبه عندتقديمه للطبع في هذه الايـام . ولنعم ماقال الكاتب الكبيـر عماد الدين أبو عبدالله محمد بن حامـد الاصفهاني المتوفى عام ٥٩٧ بدمشق : اني رأيت انه لايكتب انسان كتابـاً في يوم الا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولوترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على البشر .

المؤلف

كلمة قيمة

تفضل بها العلامة الحجة الاستاذ المحقق والكاتب الاسلامى الكبير السيد مرتضى العسكرى *

ننشرها مشفوعة بالشكر والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيله العالم الباحث الحجة الاستاذ الشيخ جعفر سبحاني متعنا الله بطول بقائه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد: فقد تسلمت بيد الشكر هديتكم النفيسة وهي الجزء الاول والثاني والثالث من موسوعتكم المباركة «مفاهيم القرآن» وتمتعت زمناً طويلا بمطالعتها كما تمتعت بمطالعة سائر مؤلفاتكم، خاصة مؤلفاتكم في سيرة النبي والوصي، واريدان اتحدث عن اتجاهكم المحمود هذا، وابدى تقديرى لكم، فقد وجدت في هذه الموسوعة القرآنية بحوثاً مقارنة أصيلة نافعة ـ شكر الله مساعيك ، وجزاك الله خيراً على دأبك في بذل الجهد المتواصل ، في هذا السبيل في عصر عز فيه وجود الباحثين ـ وأخص بالذكر الجزء الثالث من تلك الموسوعة

---

* الاستاذ العسكرى علم من اعلام الامة، يدافع عن ساحة الاسلام والتشيع بآثاره القيمة المبتكرة مثل : مأة وخمسون صحابى مختلق ، وعبدالله بن سبأ فى التاريخ واخيراً «معالم المدرستين» .

حيث وجدت فيه اختياراً موفقاً للمواضيع الهامة من حقول المعرفة القرآنية، واسلوب البحث حول كل موضوع على حدة مثل عالمية الاسلام وخاتمية النبي الاكرم واميته مع ذكر الشبهات المثارة حول تلك المواضيع ودفعها سواء من قبلكم اوبنقل كلمات المفسرين الاسلاميين حولها بامانة تثير الاعجاب في عصرنا الحاضر .

نعم اني لا اتفق معكم في بعض ما اخترتموه في رسالة نوح وانما اختار في ذلك رأي العلامة الطباطبائي قدس الله سره.

وفي الختام أقول: انهذه الموسوعة قد طرحت على بساط البحث مواضيع هامة ينبغي ان تتناولها اقلام المفكرين الاسلاميين بالبحث والنقد وان تنتخب منها خلاصات تترجم الى سائر اللغات الحية وتنشر على جماهير المسلمين لحاجتهم الى هذه الابواب من المعرفة .

اطال الله عمرك ، أيها الاخ البحاثة ، واخذ بيدك فى ما أنت بصدده من نشر فنون المعرفة القرآنية ، وتقبل منك عملك والسلام عليك من مرتضى العسكري .

مرتضى العسكرى

١٤٠٣/٣/١٩ هجـ

رسالـة قيمة
بعثها الينا الكاتب الكبير الاستـاذ الحجة الشيخ سلمان الخاقانى
صاحب التآليف القيمة الممتعة ، حياه الله وبياه

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفتي بالاستاذ العلامة الحجة الشيخ جعفر السبحاني لم يكن حدثاً جديداً فقد عرفته منذ أكثر من عشرين عاماً من خلال كتبه العلمية التي جاوزت العشرات في جميع نواحي الدين والعلم .

وفي عام ١٣٩٥ هـ ج حمل الي البريد كتاباً من بعض أصدقائي الاعـزاء القاطنين بطهران يحمل اسم « مفاهيم القرآن » وهو من تأليف صديقنا الاستاذ السبحاني ، وقد تصفحته فأعجبت به ، وزاد اعجابي بمؤلفه ، وعرفت انه ذو مواهب عالية، وزاد كل ذلك معرفتي به، وحمدت الله على أن جعل في مجتمعنا من يخدم اللغة العربية والقرآن والحديث بقوة واقتدار كما خدمها سلفنا الماضي.

وقد مرت على هذه الاحاسيس سنوات وأنا في دار هجرتي قم يدخل عليّ صديقنا السبحاني زائراً ومواسياً ومتلطفاً ويهدي الي الجزء الاخر من تلك الموسوعة القرآنية ، وهو «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وهي محاضرات كتبت بقلم أحد تلامذته النجباء الاوفياء .

وقـد تناولت الكتاب بالبحث فوجدت فيها مواضيع مفيدة يحتاج اليها كل فرد مسلم ، يريد أن يعرف حقائق الدين المبين .

واستوقفني من تلك المواضيع موضوعه الاخير الحاكمية، ولمن تكون.

أقـول استوقفني هذا الموضوع لانه من المواضيع الهامـة التي نشرت حولها رسائل وكتابات .

وليس قولي ـ استوقفني هذا الموضوع ـ ان غيره لايستحق الوقوف ، لا ، ففي مواضيع الكتاب مباحث نافعة ومفيدة لكل من يريد الوقوف .

والى الاستاذ العلامـة الشكر والامتنان قي اخراج هذه التحف ، وأرجو لكتابه هذا ، بل ولجميع كتبه، الرواج والانتشار وليتقبل هوقولي مخاطباً له :

لقـد أحسنت يـاجعفر فـلتهنـأ بـاحسـان
لمـا فصلت مـن آي لتـوحيـد وعـرفـان
ومـا بينت من شرح علـى آيـات قـرآن
فـأنت الـكاتب الفـذ بـاخـلاص وايمـان
لقـد سبحت تمجيـداً بـاسـرار واعـلان
الى مـن يهب العقل ويغنـي المملق العانـي
ويهـدي النائـه الضال لـذا لقبت « سبحاني »
ألا فأقبل أخـا الفضل نشيد المخلص الجاني :

ربيـع المولـود ١٤٠٣هج **سلمان الخاقانى النجفى**

خطـاب

تفضل به العلامة الحجة الحكيـم المتأله الشيخ حسن الاملى
ننشره مشفوعاً بالشكر والتقدير (دام ظله الوارف)

بسم الله الرحمن الرحيم

ن والقلم وما يسطرون

سماحة العلم الاية العلامة العبقري الشيخ جعفر السبحاني متعنا الله بطول بقائه
بعد التحية والسلام :

سلام كمثل الروض باكره الصبا فـصادف ريـحاناً ونوراً مفتـقاً

انه سبحانه كتب على نفسه واخبر في كتابه بقوله : «ما ننسخ مـن آية او ننسها نات بخير منها او مثلها» فهوسبحانه يقيض في كل دور وكور اعلاماً يهتدى بهم ، ويستضاء بنـور هداهم ، فقد عرّفهم ولـّي ذي الجـلال ، زارع المعارف في مزارع القلوب في خطابه الفصل الملقى الى كميل الكامل الباخع النخعي بقوله : «يحفظ الله بهـم حججه وبيناته ، حتى يودعوها نظراءهـم ، ويزرعوها في قلوب اشباههم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم»

وانتم ـ بحمد الله سبحانه ـ ممن حذى حذو هؤلاء ، وتتلمذ في مدرستهم وتعرف على مناهجهم فلا جل ذلك اخرجتم الى المجتمع الاسلامي تفسيركم الموضوعي لحبل الله : «القرآن الكريم» في حلقات عديدة وقد حالفني التوفيق

لاقف على اجزاء منها تتناول موضوعات قرآنية هامة كانما هي نسمات انس هبّت من حظائر القدس، وقد تجلى فيها القرآن بمفاهيمه ومعالمه للذي قدجاء في طلب القبس . رزقنا الله واياكم فهم الخطاب الالهي واسأله سبحانه غرة جدّكم ، وعزة جداكم ، والحمد لله الذي فضّل مداد العلماء على دماء الشهداء .

تحريراً في ٢٤/ شعبان المعظم/ ١٤٠٣ هـ ق

قم : حسن الاملى

* * *

ملحوظة :

هذا ماسمح به المجال بنشره مماتفضلت به الاساتذة حول كتابنا « مفاهيم القرآن » وقد نشرناها مشفوعة بالشكر والتقدير ، وسوف نقوم بنشر بعض الرسائل والكتب الاخرالتي وصلتنا من قادة الفكروأرباب القلم في الجزء الاتي ان شاء الله تعالى .

المؤلف

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الايمان بالغيب فى الكتاب العزيز

الايمان بـالغيب عنصر أساسي في جميع الشرائع السماويـة ، والشرط الرئيسي في التدين بالدين الالهي على الاطلاق ، بحيث لو انتزع هذا العنصر من برامج الدين أصبح الدين دستوراً عادياً يشبه الدساتير والايديولوجيات المادية البشرية ، ونظاماً لايمت الى الدين الالهي بصلة .

ولاجـل ذلك نرى أن الله سبحانه يعد الايمان بالغيب في طليعة الصفـات التي يتصف بها المتقون اذ يقول سبحانه في الآية ٣ من سورة البقرة : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

والمراد من « الغيب » هو مايقابل الشهادة ، ومن أجل مصاديقه : الروح والملائكة ، والجن والمعاجز ، والكرامات ، والوحي ، والبرزخ ، والقيامة ومايرجع الى الله تعالى من ذاته وصفاته .

ولايشك أحد في ان تجريد الدين من هذه الامور ومن الاعتقاد بها يوجب أن يصبح الدين نظاماً مادياً ، ومبدأ بشرياً كسائر الانظمة والمباديء والبرامج البشرية الارضية .

وقد كانت أصحاب الشرائع ، وأنصارها ، وفي مقدمهم علماء الاسلام ، وكتابهم محتفظين بهذا الاصل ، معتصمين بـه أشد الاعتصام ، مؤكدين عليه في كتاباتهم غايـة التأكيد باعتباره ميزة الشرائع الالهية ، وقوامها ، والفارق الجوهري بينها وبين الانظمة والايديولوجيات الارضية البشرية .

غير ان الحضارة المادية الحديثة التي اعتمدت على الحس والتجربة ، وأعطت كل القيمة والوزن لما أيدته أدوات المعرفة المادية ، أدهشت بعض المفكرين المسلمين ، فوجدوا أنفسهم في صراع عنيف بين الايمان بالغيب باعتباره عنصراً اساسياً في الدين ، وبين الحضارة المادية الحديثة التي لاتعتمد الا على الحس والتجربة ، وربما لم يتجرأوا على انكار ماهو خارج عن اطار أدوات المعرفة المادية ، فلم يقدروا على الانحياز الى أي واحد من الطرفين فلو صاروا الهيين مطلقاً لوجب عليهم مقابلة الماديين المنكرين لعالم الغيب .

ولو انحازوا الى جانب الماديين لانخرطوا في صفوف الملحدين ، ولذلك اختاروا طريقاً وسطاً وهو تأويل بعض ماورد في مجال الغيب عامة ، والمعاجز والكرامات خاصة ، وزعموا انهم يستريحون بهذا التأويل،ويرضون كلتا الطائفتين .

وممن سلك هذا الطريق بعض السلوك الشيخ المصلح «محمد عبده» والسيد سير« أحمد خان » الهندي ، « والطنطاوي » الجوهري، وتلامذة هذه المدرسة.

ولكي لايحمل القارىء كلامنا هذا على القسوة والتحامل على أحد نأتي فيما يلي بنماذج من كتابات أصحاب هذه المدرسة ، ونختارها مما كتبه السيد محمد رشيد رضا منشيء «المنار» تقريراً لدروس الاستاذ الامام الشيخ «محمد عبده » في التفسير ، ونكتفي ـ في هذا الاقتباس ـ على ماضبطه حول سورة البقرة فقط ونحيل البحث المفصل حول هذا التفسير المنشور في أحد عشر جزءاً الى وقت آخر .

النموذج الاول

قوله سبحانه «واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم

الصاعقة وأنتم تنظرون.ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون (سورة البقرة. - ٥٥ - ٥٦)

لاشك ان المتبادر من الاية هو احياؤهم بعد الموت والخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ باعتبار احوال أسلافهم ولايفهم أي عربي صميم من لفظة: «ثم بعثناكم من بعد موتكم» غير هذا الا ان صاحب المنار ذهب الى ان المراد من البعث هو كثرة النسل أي انه بعدما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن انهم سينقرضون ، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها »[1].

ولم يكن هذا التفسير من الأستاذ الا لاجل ان الاعتراف بالاحياء بعد الموت في الظروف المادية مما لايصدقه العلم الحسي والتجربة فلاجل ذلك التجأ الى تفسيره بماترى وماأظن ان الاستاذ يتفوه بهذا التفسير في نظائر الاية الكثيرة في القرآن الكريم.

النموذج الثانى

لقد كتب الأستاذ في تفسير قوله سبحانه : «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » (البقرة ٦٥ - ٦٦) مايلي :

«ان السلف من المفسرين - الا من شذ - ذهب الى أن معنى قوله: «كونوا قردة خاسئين » أن صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين».

وحيث كان هذا المعنى يصطدم بالاتجاه المادي ولاتصدقه انصار الحضارة المادية الذين ينكرون امكان صيرورة الانسان قرداً حقيقياً دفعة واحدة ، عمد

(١) تفسير المنار ج١ ص ٣٢٢ .

الاستاذ الى تأويل هذه الاية، وتفسيرها على النحو والنهج الجامع بين الاتجاهين المادي والديني !!

فمع انه نقل عن الجمهور أن معنى الايـة ان صورهم مسخت فأصبحوا قردة على الحقيقة والواقع، نجده ينحاز الى رأى مجاهد الذي قال: مامسخت صورهـم ولكن مسخت قلوبهـم فمثلوا بالقردة ،كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (الجمعة ـ ٥)

ثم قال : ومثل هذا قوله تعالى : « وجعل منهـم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » (المائـدة ـ ٦٠) وقال: الخسوء هو الطرد والصغار ، والامـر للتكوين، أي فكانوا بحسب سنة الله في طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس .

ثم اخذ في رد قول الجمهور وقال : ولو صح ماذكره الجمهور لما كان في الاية عبرة ولا موعظة للعصاة، لانهم يعلمون بالمشاهدة ان الله لايمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان اذ ليس ذلك من سننه في خلقه، وانما العبرة الكبرى في العلم بان من سنن الله في الذين خلوا من قبل: أن من يفسق عن ربـه ويتنكب الصراط الذي شرّعه لهم ، ينزل عن مرتبة الانسان ، ويلتحق بعجماوات الحيوان ، وسنـة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية .

(الى أن قال :) فما قاله مجاهد هو الاوفـق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة [1] .

ونحن لسنا ـ هنا ـ في صدد تفسير الاية وتوضيح مفادها، غير أنه ـ ايقافاً

(١) تفسير المنار ج١ص٣٤٣ ـ ٣٥٤

للقارىء الكريم على الحقيقة ـ نلفت نظره الى امور تثبت مانسبناه الى هذه الجماعة من موقف خاص تجاه المعاجز والكرامات وما شاكلها ، وهذه الامور هي :

اولا : ان المشهود من تفسير صاحب المنار انه مقلد قوي للسلف في أكثر الموارد والمجالات فلماذا عدل في هذا المضمار، واختار القول الشاذ أعني قول مجاهد .

ثانياً: كيف رضيت نفسه أن يفسر الاية بمثل قوله سبحانه: « مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها . . » مع ان المذكور في تلك الاية انما هو على سبيل المثل ، فان لفظة «مثل» تنادي بأن حالهم ـ في عدم الفهم والانتفاع بالتوراة ـ كمثل الحمار الحامل للكتب والاسفار من دون فهم لمافيها، لأنهم حمر بالهيئة والصورة والحقيقة ، وهذا بخلاف ظاهر الاية الحاضرة فانها بظاهرها حاكية عن انهم صاروا قردة حقيقيين لأنه صار مثلهم مثل القردة .

ثالثاً : لماذا غفل الاستاذ عماورد في تلك القصة في سورة الاعراف من قوله سبحانه : « فلما نسوا ماذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بماكانوا يفسقون . فلما عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين» (الاعراف ١٦٥ ـ ١٦٦)

أفيمكن تفسير الاية ـ حينئذ ـ بغير ما اختاره جمهور المفسرين من صيرورتهم قردة حقيقيين، وأي عذاب بئيس أشدّ من صيرورة الانسان بصورة القردة المطرودة .

رابعاً : ان ما ردّ به نظرية الجمهور من انه لايكون المسخ الصوري موعظة للعصاة لانهم يعلمون ـ بالمشاهدة ـ ان الله لايمسخ كل عاص... الى آخر كلامه، مردود بوجهين :

الاول : انه لوصح ذلك لوجب تأويل جميع ماورد في القرآن الكريم من الابـادة والاهلاك بالخسف والامطار بالحجارة ، والغرق، والريح ، وغير ذلك مماوقع بالامم السالفة عقاباً وعبرة للاخرين ، وذلك مثل قوله سبحانه : « وقوم نوح لماكذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً » (الفرقان - ٣٧) . ومثل قوله سبحانه في شأن فرعون : « فقال: أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الاخرة والاولى، ان في ذلك لعبرة لمن يخشى» (النازعات - ٢٤)

انه سبحانه يصرح في الاية الاولى والثانية بأنه انما فعل مافعل بقوم نوح وبفرعون ليكون عبرة للاخرين، وتذكاراً .

علـى ان الله سبحانـه يذكر نظير ذلك في سورة هود ، غير مامر أيضاً ، وذلك عندما يستعرض قصص من أرسل اليهم الانبياء وانهم كذبوهم، فأصابهم الله بشتى ألوان العذاب والاهلاك، وذلك مثل قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط ، وقوم شعيـب ، وقوم فرعون ثم يختـم هذا الاستعراض المفصل بقوله تعالى: « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ، ان أخذه أليم شديد ان في ذلك لاية لمن خاف عذاب الاخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (هود ١٠٢ - ١٠٣)

انه تعالى يصرح بان كل ماذكر حول ما وقع بالامم السابقة من العذاب والاهلاك انما ذكر ليكون عبرة لمن خاف ، وآية للناس، وكيف يكون عبرة وآية للناس مع انهم يعلمون بالمشاهدة ان الله لايؤدب الامة المحمديـة بما أدب به الامم السالفة .

الثانى : أن كون هذه القضايا وسيلة للعبرة والاعتبار لايستلزم أن تتحقق تلك العقوبـات بعينها في حق العصاة والطغاة في الامم اللاحقـة ، بل يكفي

ـ في ذلك ـ أن تدل على أن الله لهم بالمرصاد، فهو لايترك الظالم بلاعقاب ، ولايفوته العصاة دون أخذ .

ان الاخذ والعقوبة يختلف حسب مشيئة الله وارادته ، ولايلزم أن تكون العقوبة متحدة النوع مع العقوبات السابقة حتماً .

وهذه هي الحقيقة التـي تؤكدها الايات (١٠ ـ ١٤) من سورة الفجر اذ يقول سبحانه : « وفرعون ذي الاوتاد. الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد » .

* * *

النموذج الثالث

لقد قص الله سبحانـه في سورة البقرة قصة البقرة التي أمر بنـوا اسرائيل بذبحها اذ قال : « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . . . (الى أن قال) واذ قتلتم نفساً فادارءتم فيها، والله مخرج ماكنتم تكتمون . فقلنا: اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى، ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (٦٧ ـ ٧١).

ومجمل القصة هوأن رجلا قتل قريباً له غنياً ليرثه، واخفى قتله له ، فرغب اليهود في معرفة قاتله فامرهم الله ان يذبحوا بقرة ويضربوا بعض المقتول ببعضها ليحيا ، ويخبرعن قاتله .

ولقد بين الله لنـا في هذه القصة لجاجة بني اسرائيـل ورفضهم للطاعة ، وانحرافهم عن منهج الله ، ونتائج ذلك في نفوسهم ومجتمعـاتهم حيث آل أمرهم في هذه الواقعة ـ الى انيضطروا الى ذبح البقرة ـ وبعد ما ذبحو هـا أمرهم الله سبحانه ان يضربوه ببعضها (اى يضربوا المقتول ببعض البقرة) حتى

يحيا ويخبر عن قاتله .

وهذا هو مااختـاره الجمهور في تفسير الاية وهـو صريح قوله سبحانه : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى» .

واما الاستاذ فقد سلك طريقا آخر تحت تاثير موقفه المسبق من المعاجز والكرامات وخوارق العادة فهو بعد أن نقل رأى الجمهور قال : قالوا : انهـم ضربوه فعادت الى المقتول الحياة ، وقال : قتلني أخي ، او ابن أخي فـلان قال : والاية ليست نصاً في مجمله فكيف بتفصيله .

ثم فسر الاية بماورد في التوراة من أنه اذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله، فالواجب ان تذبح بقرة في واد دائـم السيلان ويغسل جميع افراد القبيلة ايديهـم علـى العجلة المكسورة العنق في الوادي ويقولون: ان ايدينا لم تسفك هذا الدم . اغفر لشعبك اسرائيل ، ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين انه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء .

ثم قال : وهذا الاحياء على حد قوله تعالى : «ولكم في القصاص حياة» (البقرة - ١٧٩) ومعناه حفظ الدماء التي كانت عرضة لان تسفك بسبب الخلاف في قاتل تلك النفس . (١)

وانت ترى ان هذا التفسير لاينطبق علـى قولـه «فقلنا اضربوه ببعضها» اى اضربوا النفس المقتولـة ببعض جسم البقرة «كذلك يحيي الله الموتـى» فهل كان في غسل الايدي على العجلة المكسورة العنق، ضرب المقتول ببعض البقرة هذا اولا .

واما ثانيا: كيف استند الاستاذ - في تفسير الاية الحاضرة - بماورد في التوراة مع ان المشهود منه انه يستوحش كثيراً مـن بعض الروايات التي ربما

(١) المنار ج١ ص ٣٤٥ - ٣٥٠ .

توافق ماورد في الكتب المقدسة ، ويصفها بالاسرائيليات والمسيحيات. ومع ذلك عدل عن مسلكه واستند في تفسير الذكرالحكيم بالكلم المحرف .

وليس هذا التفسير ـ في حقيقته ـ الا لاجل ما اتخذه الاستاذ من موقف مسبق تجاه المعاجز والكرامات، وخوارق العادة ، وغير ذلك مما يرجع الى عالم الغيب .

* * *

النموذج الرابع

قال الله سبحانه : «الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله : موتوا ثم احياهم ، ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون» . (البقرة ـ ٢٤٣)

ذهب الجمهور الى انهم قوم من بني اسرائيل فروا من طاعون أو من الجهاد فارسل عليهم الموت فلما رأوا أن الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً منه فاماتهم الله جميعاً وامات دوابهم ثم احياهم ، لمصالح وغايات اشير اليها في الاية .

هذا هو ما ذهب اليه الجمهور ولكن الاستاذ انكر ذلك واختار كون الاية مسوقة سوق المثل ، وان المراد بهم قوم هجم عليهم اولوا القوة والقدرة من اعدائهم لاستذلالهم واستخدامهم وبسط السلطة عليهم، فلم يدافعوا عن استقلالهم وخرجوا من ديارهم وهم الوف ، لهم كثرة وعزة حذر الموت ، فقال لهم الله : موتوا موت الخزي والجهل ، والخزي موت ، والعلم واباء الضيم حياة فهؤلاء ماتوا بالخزي وتمكن الاعداء منهم ، وبقوا أمواتاً ثم احياهم بالقاء روح النهضة ، والدفاع عن الحق فيهم ، فقاموا بحقوق انفسهم، واستقلوا في

امرهم[١].

ولايخفى على القاريء الكريم ان تفسير الاستاذ هذا ينبع من مواقفه المسبقة من خوارق العادة والكرامات والمعجزات وذلك :

اولا: انه لو كانت الاية مسوقة سوق المثل وجب ان تذكر فيه لفظة «المثل» كما هو دأبه سبحانه في الامثال القرآنية مثل قوله: «كمثل الذي استوقد ناراً» (البقرة ـ ١٧) وقوله تعالى: «انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه» (يونس ـ ٢٤) وقوله تعالى : «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً» . (الجمعة ـ ٥)

فحمل الاية على المثل واخراجه عن كونه ورد لبيان قصة حقيقية ، تفسير بلا شاهد ، وتأويل بلا دليل .

ثانياً : لو كان المراد من الموت هو موت الخزي والجهل ، ومن الحياة روح النهضة والدفاع عن الحق، فحيث ان المفروض انهم قاموا بحقوق انفسهم واستقلوا بامرهم ، وجب ان يمدحوا ، ويذكروا بخير ، مع انه سبحانه يقول في ذيل الاية ذاماً لهم : «ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون» .

والعجب ان الاستاذ رد نظرية الجمهور بقوله سبحانه : «لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى» (الدخان ـ ٥٦) قائلا بانه لامعنى لحياتين في هذه الدنيا[٢].

والجواب : ان الحياة الدنيا لاتصير بتخلل الموت حياتين ، بل هي حياة واحدة ايضاً، والا فماذا يقول في اصحاب الكهف الذين ضرب الله على اسماعهم

(١) المنار ج٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

(٢) المنار المصدر نفسه .

ثلاث مأة سنة انقطعوا فيها عن هذه الحياة ثم رجعوا اليها . والسبات على طائفة بمدة ثلاث مأة سنة ، لاتقصر عن الموت ، بل هو والموت سواسية .

ولو قال بأن ظاهر الاية ان الناس لايذوقون الا موتة واحدة وعلى هذا التفسير فهؤلاء ذاقوا الموت مرتين، فجوابه :أن مشيئته سبحانه هو ان لايذوق الانسان الا موتة واحدة الا اذا كانت هناك مصالح توجب تعدد الموت مثل قوله سبحانه : «ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين» (غافر ـ ١١) وقوله : «يوم نبعث من كل امة فوجاً (النمل ـ ٨٣) وليست الاية راجعة الى يوم البعث ، فانه يحشر فيه جميع الناس والامم جمعاء لافوجا منهم .

* * *

النموذج الخامس :

قال الله سبحانه : «أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فاماته الله مأة عام ثم بعثه قال :كم لبثت ، قال : لبثت يوماً اوبعض يوم ، قال بل لبثت مأة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له قال : أعلم ان الله على كل شيء قدير» .(البقرة ـ ٢٥٦)

ذهب الجمهور الى ان الرجل المذكور في الاية كان من الصلحاء عالماً بمقام ربه، مراقبا لامره، بل كان شخصاً مكلما كما يحكي عنه قوله سبحانه : «ثم بعثه ، قال :كم لبثت» فخرج من داره قاصداً مكانا بعيداً عن قريته التي كان بها، والدليل على ذلك خروجه مع حمار يركبه وحمله طعاماً وشرابا يتغذى بهما، فلما صار الى ما كان يقصده مر بالقرية التي ذكر الله انها كانت خاوية على عروشها ، ولم يكن قاصداً نفس القرية ، وانما مر بها مروراً ثم وقف معتبراً

بما شاهده من القرية الخربة قائلا : «انـى يحيى هذه الله بعد موتها» مستغطما بذلك الاحياء بعد طول المكث في القبور ورجوعهم الى حياتهم الاولى، فاماته الله سبحانه ثم بعثه .

وقد كانت الاماتة والاحياء في وقتين مختلفين مـن النهار ، واستفسر عنه سبحانه بقوله « كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم » فرد الله سبحانه عليه بقوله : «بل لبثت مأة عام » فرأى من نفسه انه شاهد مأة سنة كيوم أو بعض يوم فكان في ذلك جواب ما استعظمه من امكان الاحياء بعد طول المكث .

ولكن الاستاذ فسر « الموت » في الايـة بالسبات وهو أن يفقد الموجود الحي، الحس والشعور مع بقاء أصل الحياة مدة من الزمان ، أياماً أو شهوراً، أو سنين ، كما انه الظاهر من قصة أصحاب الكهف ، ورقودهم ثلاث مأة وتسع سنين ثم بعثهم عن الرقدة فالقصة تشبه القصة[1].

وانت تعرف ان تفسير الموت بـ« السبات » ناشىء من موقف مسبق في هذا النوع من الموضوعات ، مع كونه خلاف ظاهر «فأماته ألله» وهو ظاهر في الموت الحقيقي المتعارف دون السبات الذي ابتدعه الاستاذ ، وقيـاسه على اصحاب الكهف قياس مع الفارق حيث انه سبحانه يصرح هناك بالسبات بقوله: « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً » (الكهف ـ ١١)

ثم انه ارتكب مثل هذا التـأويل في قوله سبحانه «وانظر الى حـمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً» فمن اراد الوقوف عليه فليرجع الى تفسيره .

* * *

(١) تفسير المنار ج٣ ص٤٩ ـ ٥٠ .

النموذج السادس

وليس ما ذكر هو الخطاء الاخير الذي وقع فيه الاستاذ في تفسير سورة واحدة ، وهى سورة البقرة ، فقد ارتكب مثل هذا التأويل البارد ايضاً في تفسير قول الله سبحانه : « واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال او لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال : فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم » (البقرة ـ ٢٥٩) .

فقد ذهب الجمهور الى ان ابراهيم طلب من ربه ان يطلعه على كيفية احياء الموتى ، فامره الله تعالى بان يأخذ اربعة من الطير فيقطعها اجزاء ويفرقها على عدة جبال هناك ثم يدعوها اليه فتجيئه ، وانه عليه السلام قد فعل ذلك .

ولكن الاستاذ اتخذ رأيا خاصاً نقل عن ابي مسلم ايضاً وهو انه ليس في الاية مايدل على ان ابراهيم عليه السلام فعل ذلك ، وما كل امر يقصد به الامتثال ، فان من الخبر ما يأتي بصيغة الامر لاسيما اذا اريد زيادة البيان ، كما اذا سألك سائل كيف يصنع الخبز مثلا فتقول : خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن خبزاً ، تريد هذه كيفيته ، ولاتعني تكليفه صنع الخبز بالفعل . وفي القرآن كثير من الامر الذي يراد به الخبر والكلام ها هنا مثل لاحياء الموتى .

ثم انه جاء بتفسير عجيب للاية اذ قال : معناه خذ اربعة من الطير فضمها اليك ، وآنسها بك حتى تأنس ، وتصير بحيث تجيب دعوتك فان الطيور من اشد الحيوان استعداداً لذلك ثم اجعل كل واحد منها على جبل ثم ادعها فانها تسرع اليك ، لا يمنعها تفرق امكنتها ، وبعدها عن ذلك ، كذلك امر ربك اذا اراد احياء الموتى، يدعوهم بكلمة التكوين «كونوا احياء» فيكونوا احياء،

والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الارواح الى الاجساد على سبيل السهولة [١] .

ثم ان الاستاذ اختار هذا المعنى قائلا : ان تفسير ابى مسلم هو المختار!!.

نحن لانرد على هذ النظر بما في امكاننا ، غيرانانكتفي في ابطال هذا التفسير بانه سبحانه قال في الاية : « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً »ولم يقل : واحداً منها وعلى ما ذكره يجب ان يقول « واحداً » .

فاذا كان هذا هو مسلك الاستاذ الذي كان يعيش في بيئة علمية دينية تؤمن بالسنن والصحاح والمسانيد .

اقول: اذاكان هذا موقف الاستاذ من المعاجز والكرامات وخوارق العادة، فكيف يكون ترى موقف الجدد من الكتاب الذين تاثروا بالحضارة الغربية المادية والافكار الالحادية الواردة من الشرق والغرب فصاروا الى تأويل هذه المعاجز والخوارق على هذا النمط ، اسرع وأميل .

ان هذا الامر هو الذي دفع بنا الى نجعل البحث في هذا الكتاب حول المعاجز والكرامات الواردة للنبي الاكرم في القرآن وان نشبع الكلام فيه ، وان نقوم في وجه المعاندين الذين جعلوا بعض الايات القرآنية ذريعة الى نفي ان يكون لنبي الاسلام ﷺ معاجز غير القرآن ، آملين ان ينفع به الجيل الحاضر كما انتفع بالاجزاء السابقة ، ويقوى به ايمانه ليكون ممن يشمله قوله : «الذين يؤمنون بالغيب» والله المستعان .

قم ـ ساحة الشهداء مؤسسة الامام الصادق(ع)

جعفر السبحانى

١٥ شعبان المعظم من شهور عام ١٤٠٥

---

(١) المنار ج٣ ص٥٤ ـ ٥٦ .

١

أجر الرسالة المحمدية

فى القرآن الكريم

في هذا الفصل :

١ ـ توضيح المراد من «المودة في القربى» حسب معاجم اللغة العربية، وفهم السلف من الامة .

٢ ـ كيف التوفيق بين مفاد الاية المثبتة للاجر للنبي ﷺ المطلوب من الامة ، والايات النافية له بتاتاً . ؟

٣ ـ كيف يعود هذا الاجر الى الناس انفسهم دون النبي ﷺ كما هو صريح قوله سبحانه :«قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » ؟

٤ ـ هل المستثنى في الاية هو المستثنى في قوله سبحانه «قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا» .

٥ ـ حال الاقوال الشاذة التي ربما يذكرها المفسرون حول الاية .

٦ ـ نقل بعض ما رواه الفريقان من المأثورات حول الاية .

شعار الانبياء فى طريق دعوتهم هو :

«ماأسالكم عليه من اجر»

ان اخلص الاعمال وأطهرها من شوائب المادية ما يكون الدافع الى الاتيان بها وجه الله سبحانه وكسب مرضاته ، وامتثال امره ، واطاعة فرضه ، ولو اردنا انناتي بمثال ، أو نري نموذجا فعمل الانبياء ، ودعوتهم الى اصلاح المجتمع خير مثال ونموذج له .

* * *

وقد اتفقت كلمة الانبياء في هتافاتهم على انهم يبلغون رسالات الله تطوعاً وطلبا لمرضات الله ، ولايسألون الناس أجراً ولاجزاء ، حتى صار ذلك شعاراً لهم .

وقد ورد هذا المضمون في قولهم الذي حكاه الله عنهم فى قرآنه الكريم اذ قال :

«وما اسألكم عليه من اجر ان أجري الا على رب العالمين».

(الشعراء ـ الايات :

١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠)

وقد امر الله سبحانه نبيه الكريم ان يقول :

«قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا» .

(الفرقان - ٥٧)

وقد اصبح هذا الشعار يعرف به النبي عن غيره ويميز به المبعوث من جانبه سبحانه عن المبعوث من جانب نفسه ونفسانياته أو من جانب غيره .

ويشهد على ذلك قوله سبحانه حاكيا عن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة داعيا للناس ان يتبعوا المرسلين لانهم مبعوثون من جانبه سبحانه بشهادة انهم لايسألون أجراً في دعوتهم، قال سبحانه :

«وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ،اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون» (يس : ٢٠ - ٢١)

ثم ان رفضهم الاجر في تبليغ أوامره سبحانه كان لاجل أمرين :

١ - ان اما قام به الانبياء من الخدمة للناس اعلى وانبل من ان يقوّم بالدراهم والدنانير ، أو بالمناصب والمقامات الدنيوية ، فاى شيء يساوي انقاذ الناس من الخضوع للحجر والمدر ، والاشكال والصور والخوض فى قبائح الاعمال، ورذائلها مما يحطم السعادة الانسانية ويجلب للبشر الشقاء والانحطاط؟؟

ام ترى بماذا يقوّم انقاذ الامم مما كانت عليه قبل بعث الانبياء من الفتك والقتل وأد البنين والبنات، وشن الغارات، وقطع الرحم وأكل الميتة والجيف وغير ذلك من الفظائع الشائعة في الامم الجاهلة، والمتفشية في الاقوام المنحطة.

وتوقفك على قيمة أعمالهم، وخدماتهم التي قدموها الى المجتمع الانسانى ملاحظة البيئات التي لم يبلغ اليها نور النبوة، ودعوة الانبياء فهم على وحشيتهم الاولى ، وجاهليتهم الجهلاء ، فما صعدوا مرقاة الكمال درجة واحدة .

فاذا كان العمل هذه قيمته ، وهذه نتيجته فلا يصح تقويمه بزخارف الدنيا،

وملاذ الحياة ، وخاصة اذا لاحظنا انعمل الانبياء في مجال الدعوة كان مقرونا بالتضحية، وبذل النفوس والاموال ، وترك الاوطان ، وتحمل الشدائد والمصائب والدفاع عن الرسالة بافلاذ اكبادهم فهل يمكن ان تقدّر تلكم التضحيات الجسام بالدراهم والدنانير ، أو بالمناصب والمقامات ؟؟ .

* * *

٢ ـ ان الدافع الى قيامهم ودعوتهم كان هو امتثال أمره سبحانه وتعالى وما كان كذلك فالله سبحانه أولى بان يرجى منه الاجر والجزاء لاغيره ، فهولاء الرسل كانوا يقومون بافضل خدمة للبشرية امتثالا لامره سبحانه ، وتنفيذاً لارادته من غير ان يتوقعوا من سواه أجراً ولاجزاء .

ولاجل ذلك نجد شيخ الانبياء نوحاً يهتف في قومه بقوله :

«فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين» (يونس ـ ٧٢)

وبقوله :

«ويا قوم لا اسألكم عليه مالا ان أجري الا على الله ، وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون» (هود ـ ٢٩)

ونجد هوداً يهتف في قومه بقوله :

«يا قوم لااسألكم عليه أجراً ان أجري الاعلى الذي فطرني افلا تعقلون»

(هود ـ ٥١)

وهذا نبي الاسلام ﷺ يأمره سبحانه بالاجهار بذلك الهتاف (عدم سؤاله اجرا) بجمل وتعابير مختلفة نأتي بالجميع :

أ ـ «قل ما أسئلكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين . ان هو الاذكر للعالمين» . (ص : ٨٦ ـ ٨٧)

ب ـ «قل ما اسئلكم عليه أجراً ان هو الا ذكرى للعالمين» .
(الأنعام ـ ٩٠)

ج ـ «أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون» .
(الطور ـ ٤٠ والقلم-٤٦)

ويعود سبحانه ينبه نبيه بانه قد أعد له أجراً عاريا عن المنة ويقول :
«وان لك لاجراً غير ممنون» . (القلم ـ ٣)

فاجره سبحانه عار وخال عن كل منة بخلاف الاجر المتوقع من الناس، فانه مقرون بها .

هذا حال الايات الواردة في اجر الرسالة، وهي بكلمة واحدة تنفي الاجر الموضوع على عاتق الناس .

والمراد من الاجر المرفوض هو الاجر الدنيوي الذي يتنافس فيه الناس ويتعاركون في تحصيله من المال والثروة والمناصب والمقامات .

ويدل على ذلك وضع المال مكان الاجر في كلام نوح ، حيث قال :
«ويا قوم لااسألكم عليه مالا ان اجري الا على الله». (هود ـ ٢٩)

فالاجر المنفي والمرفوض بتاتا هو ذلك الاجر الدنيوي بلا اشكال.

* * *

نعم يظهر من سورة الشورى انه سبحانه استثنى من الاجر المنفي أجراً واحداً وهو المودة في القربى حيث يقول: «قل لااسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى» . (الشورى ـ ٢٣)

كما انه سبحانه استثنى في سورة الفرقان من الاجر المرفوض امراً ربما يتوهم تغايره مع ما سأله فى سورة الشورى قال سبحانه :

«قل ما اسألكم عليه من أجر الامن شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا» .

(الفرقان ـ ٥٧)

ثم انه سبحانه قد اخبر فى آية ثالثة بأن الاجر الوارد في هاتين الايتين يرجع بالنتيجة الى الناس انفسهم لا الى النبي نفسه كما قال سبحانه :

«قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد» . (سبأ ـ ٤٧)

* * *

ولاجل الاجابة على هذه الاسئلة ورفع الستار عن وجه الحقيقة في هـذا المجال يقع البحث في مقامات هي :

الاول : ـ ماالمراد من المودة في القربى التي جعلها الله سبحانه في ظاهر الاية أجراً للرسالة ؟

الثانى : ـ كيف التأليف والتوفيق بين هذه الاية والايات النافية للاجـر بتاتا ؟

الثالث : ـ كيف يعود نفع هذا الاجر الى الناس انفسهم دون النبي ﷺ ؟

الرابع : ـ هل المستثنى في قوله : «الا المودة في القربى» هو المستثنى فى قوله : «الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا» أو غيره ؟

الخامس : ـ حال الوجوه التى ذكرها المفسرون فى تفسير «المودة في القربى» .

السادس : ـ سرد الروايات والمأثورات التى رواها الفريقان فـي تفسير الاية .

واليك البحث في المقام الاول :

المقام الاول

ماالمراد من « المودة فى القربى » ؟

قبل كل شيء نلفت نظر القارىء الى امرين :

الاول : انه لا مجال للشك في ان هذه الاية كانت واضحة المفهوم ، بينة المراد عند نزولها، ولم تكن تشير الا الى معنى واحد .

الثانى : انه لاشك في ان السلف هم افضل من يمكن الرجوع اليهم في تفسير مفاد الاية لقرب عهدهم بعصر الرسالة .

وعلى هذين الامرين نبدأ بتفسير الاية، ولنقدم عرض مفرداتها على معاجم اللغة ، وفي محاولتنا لعرضها على اللغة لاتمس الحاجة الى البحث الاّ عن كلمتين وهما : «المودة» و «القربى» .

اما كلمة المودة فقد اتفقت كتب اللغة والقواميس على أنّها لاتعني الاّ شيئاً واحداً وهو المحبة فاذا قيل فلان يودّ فلاناً معناه : ان فلاناً يحب فلاناً .

ويقول ابن فارس في مادة ود : «الود» أي الحب. وددته أي احببته .

ثم قد تأتي كلمة الود بمعنى الحب مع التمني كما لو قيل وددت انذلك كان : اذا تمنيته .

ويقول الفيروزآبادي في قاموسه في باب ود : «الود» و « الوداد » تعنى « الحب » .

هذا ولم يذكر صاحب القاموس ان الود قد يستعمل في الحب مع التمني.

اما كلمة «القربى» فكتب اللغة ومعاجمها متفقة على انها تعني القرابة والوشيجة الرحمية لا غير.

يقول ابن فارس في مادة قرب القربى: القرابة، وفلان قريبي وذو قرابتي.

ويقول الفيروزآبادي في مادة «قربى»: والقربى: القرابة وهو قريبي وذو قرابتي.

ويقول الزمخشري في الكشاف: «القربى» مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى القرابة، والمراد اهل القربى [١].

وفي المنجد: «القربى» و «القربة» ـ بضم الراء ـ والقرابة: القرابة في الرحم.

فاتضح من هذه النصوص ان المراد من القربى هو الرابطة النسبيّة بين الشخصين ليس غير.

ويؤيد ذلك ان المتبادر من هذه الكلمة في الموارد التي استعملها القرآن ليس الا ذلك المعنى الواحد الذي تصافقت عليه كتب اللغة، ولم تعرف له بديلا.

واذا استعملت هذه الكلمة في غير ذلك المعنى احياناً فلابد من اعتباره معنى شاذاً بعيداً عن الافهام العرفية، ولا يصح لنا الاخذ به مطلقاً.

نعم ان كلمة «القربى» استعملت في القرآن بضميمة مضاف في مواضع وبدونها في مواضع اخرى، وقد وردت كلمة القربى في القرآن (١٥) مرة [٢]

---

١) الكشاف ج٣ ص٨١.

٢) لاحظ سورة البقرة الاية ٨٣ و١٧٧ النساء ٨ و٣٦. المائدة ١٠٦، الانعام ١٥٢. الانفال ٤١ التوبة ١١٣. النحل ٩٠. الاسراء ٢٦. النور ٢٢. الروم ٣٨. فاطر ١٨. الحشر ٧. وقد تكررت الكلمة في الاية ٣٦ من سورة النساء مرتين فلاحظ.

ماعدا الاية التي نحن بصدد تفسيرها. واليك بعض الايات التي وردت فيها كلمة «القربى» وهي تقصد القرابة الرحمية ليس غير .

«وبالوالدين احساناً وذى القربى واليتامى » (البقرة - ٨٣)

« وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى » (البقرة - ١٧٧)

« واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب» (النساء - ٣٦)

« ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا اولي قربى» (التوبة - ١١٣)

* * *

ماذا فهم الاوائل من المودة فى القربى ؟

قد تبين مما اوردناه من كلمات اللغويين مفاد مفردات الاية ، ويجب الان ان نبين ما هو المقصود من هذا التركيب فنقول : ان جمهور العلماء والادباء والمفسرين بمختلف طبقاتهم وفنونهم لم يفهموا من هذه الاية سوى لزوم ولاء اقرباء النبي وعترته . نعم في مقابل هذا المعنى محتملات اخر يذكرها بعض المفسرين ، ولكنها ليست الا اقوالا شاذة لايعبأ بها وسيوافيك بعض هذه المعاني الشاذة في الفصل الخامس من هذا البحث فنقول :

اما المحدثون فقد نقل الفريقان من السنة والشيعة عشرات الاحاديث الدالة على ان الاية نزلت في لزوم ولاء اهل البيت ، ومودة اقرباء النبي ﷺ وسوف يوافيك بعض نصوصهم فـي بحثه الخاص . واما من هم اهل بيته واقربائه ؟ فسيوافيك البحث عنهم في المستقبل .

واما غيرهم فقد فهم الادباء من الاية نفس مافهمته اللغة ، ورجالها ، وحيث انهم بحكم انهم من العرب الاقحاح ، وبحكم احاطتهم باللغة العربية يكون فهمهم حجة في تفسير الاية .

ولاجل هذا نورد في مايلى نماذج من الشعر الذي يؤكد على ان المودة في القربى انما يعنى المحبة لاهل البيت النبوي ، ونذكر من الكثير، القليل .

١ ـ لقد صاغ الامام الشافعي مافهمه من هذه الاية في البيتين التاليين واثبت بذلك حبه لاهل البيت وولاءه لاقرباء النبي فقال :

يا اهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله
كفاكم من عظيم القدر انكم من لم يصل عليكم لاصلاة له[1]

٢ ـ وقد سبق الامام الشافعي سفيان بن مصعب العبدي الكوفي وهو من تلاميذ الامام جعفر الصادق عليه السلام فصاغ مافهمه في احدى قصائده ولعظمة شأنه واهمية ما قاله من الشعر في هذا المضمار اوصى الامام الصادق شيعته بتحفيظ شعره لابنائهم[2] وهو يقول :

آل النبي محمد اهل الفضائل والمناقب
المرشدون من العمى والمنقذون من اللوازب
الصادقون الناطقون السابقون الى الرغائب

---

١) لاحظ شرح المواهب للزرقانى ج٧ ص٨ ، والصواعق لابن حجر ص٨٧ والاتحاف للشبراوى ص٢٩ واسعاف الراغبين للصبان ص١١٩ ومشارق الانوار للحمزاوى المالكى ، راجع الغدير ج١ ص١٥٢ .

٢) روى الكشى عن الصادق (ع) انه قال : يا معشر الشيعة علموا اولادكم شعر العبدى فانه على دين الله ، رجال الكش ص٣٤٣ .

فولاهم فـرض من الـر حمان في القرآن واجب[١]

٣ ـ وممن صاغ مفاد الاية في قالب شعره هو الشيخ شمس الدين ابـن العربي على ما نقل ابن حجر عنه في صواعقه ص ١٠١ ، ففي البيتين التاليين يكشف ابن العربي بصراحة عن ان المقصود من المودة في القربى ليس سوى محبة عترة الرسول حيث يقول :

رأيت ولائـي آل طـه فريضة على رغم اهل البعد يورثني القربى

فماطلب المبعوث اجراً على الهدى بتبليغه الا « المودة فـي القربى »

٤ ـ نجد ابن الصباغ المالكي ينسب في كتابه « الفصول المهمة ص ١٣ » البيتين التاليين الى شاعر :

هـم العروة الوثقى لمعتصم بهـا مناقبهم جـاءت بوحي وانزال

مناقب في شورى وسورة هل أتى وفي سورة الاحزاب يعرفها التالي

ومن الواضح ان الشاعر يقصد بقوله « مناقب في شورى » مفاد الاية التي نبحث عنها « قل لا اسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى ».

وكما يذكر ايضاً لقائل آخر قوله :

هم القوم من أصفاهم الود مخلصا يمسك في اخراه بالسبب الاقوى

هم القوم فـاقوا العالمين مناقبـا محاسنهم تجلى وآثارهم تروى

مـوالاتهم فـرض وحبهم هـدى وطاعتهـم ود وودهـم تـقوى

٥ ـ وينسب الشبلنجي في نور الابصار ص١٣ الابيات التالية لابي الحسن ابن جبير :

احب النبي المصطفى وابن عمـه عليا وسبطيـه وفاطمـة الزهـرا

---

١) لاحظ الغدير ج١ ص٢٧٥ط النجف .

هم اهل بـيت اذهب الله عنهـم واطلعهم افق الهدى أنجماً زهرا
موالاتهم فـرض على كل مسلم وحبهم اسنى الذخائر للاخرى

٦ ـ وقال النبهاني:

آل طـه يـا آل خيـر نـبـي جـدكـم خيـرة وانتـم خيـار
اذهـب الله عنكم الـرجس اه ل البيت قدما وانتـم الاطهـار
لم يسل جدكم على الدين اجراً غير ود القربى ونعم الاجار[1]

هذه نماذج مماقيل شعراً في مفاد الاية ، وهي تكشف بكل وضوح وجلاء عن ان الاية لم تقصدمنذ أن نزلت الا تكريس محبة ذي القربى .

ولاشك ان الاشعار استوحت محتواها من اللغـة ومافهمه المحدثـون ، والعلماء الاوائل .

فالابيات الماضيـة اما كانت من انشاء العلماء انفسهم ، او لقيت تأييدهـم الى درجـة انهم نمقوا بها كتبهم في تفسير الايـة ، وهذا ان دل علـى شيء فانّما يدل على انّ الايـة لاتحتمل الاّما اسفرت عنه كتب الحديث والتفسير والتاريخ .

فهذه هي اللغة كمارأيناها ، وهؤلاء هم الادباء وأبياتهـم كماقرأناها كلها تتفـق على ان الله سبحانـه لم يطلب اجراً لرسالة نبيّه ﷺ الاّ محبّة ذوي القربى .

وأما انه كيف يصلح ان تكون المودة في القربى أجراً للنبي ﷺ فسوف نعود اليه عند البحث عن المقام الثاني فارتقب .

* * *

١) لاحظ : الكلمة الغراء فى تفضيل الزهراء ص٢٢٩ .

اسئلة وأجوبتها

ثم ان هاهنا اسئلة حول مفاد الاية طرحها بعض من لاالمام له بتفسير كلام الله وتوضيح سنة نبيّه ﷺ، ونحن نوردها هنا مع الاجابة عليها .

السؤال الاول :

لوأراد الله سبحانه من الاية مودة القربى لقال: الا مودة أقربائه، اوالمودة للقربى .

الجواب: ان السائل توهم ان « القربى » جمع « القريب » او«الاقرب» فقال لوأراد مودة أقربائه لقال كذا ، وكذا ولكنه غفل عن ان القربى مصدر كزلفى وبشرى كما قال الزمخشري في كشافه . ولاجل ذلك لم يستعمل في القرآن الاّ مع المضاف كقوله: « ذي القربى » و « ذوي القربى » و « اولي القربى» مشيراً الى صاحب القرابة الرحمية ، واما في مورد الاية فقد استعمل بلفظة « في القربى » بحذف المضاف من الاهل وغيره .

قال الزمخشري في كشافه : فان قلت فهلا قيل الا مودة القربى ، أو الا المودة للقربى »، ومامعنى قوله: « الا المودة في القربى »، قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك: « لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد» تريد أحبهم وهم مكان حبي، ومحله، وليست « في » بصلة للمودة كاللام اذا قلت « الا المودة للقربى »، انما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس ، وتقديره الا المودة ثابتة في القربى ، ومتمكنة فيه « والقربى » مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى القرابة والمراد « في أهل

القربى »[1] .

قال النبهاني في الشرف المؤبد : القربى مصدر وهو على تقدير مضاف أي ذو القربى يعني الاقرباء قال: وعبر بـ «في» ولم يعبر بـ (اللام) لان الظرفية ابلغ وآكد للمودة .

السؤال الثاني :

ان تفسير الاية بمودة اهل البيت وعترة النبي غفلة عن نقطة هامة وهي ان الاية وردت في سورة الشورى وهي سورة مكية ولم يكن يومذاك الحسنان بل ربما لم تكن فاطمة أيضاً فكيف تفسر الاية بعترة النبي ، وتخصص العترة بجماعة خاصة أعني علياً وفاطمة والحسن والحسين ، مع ان اكثرهم لم يكونوا موجودين زمن نزول الاية ؟ وهذا السؤال يرجع الى ابن تيمية في منهاجه ص٢٥٠. حيث قال ان سورة الشورى مكية بلاريب نزلت قبل ان يتزوج علي بفاطمة وقبل ان يولد له الحسن والحسين .

الجواب: ان هناك طريقين لمعرفة الايات المكية وتمييزها عن المدنية .

الطريق الاول : هو ملاحظة نفس مفاد الاية فهو الذي يكشف عن موضع نزول الاية أو السورة، اذ الايات التي تدور حول التوحيد والمعارف العقلية، وانتقاد الوثنية وشجب الاوثان والدعوة الى الايمان بالله واليوم الاخر وبيان ماجرى في القرون الغابرة على الامم السالفة ومايشابه هذه الموضوعات هي مكية في الاغلب على اساس ان القضايا الوحيدة التي كانت تطرح في

---

١) الكشاف ج٣ ص٨١ ط مصر عام ١٣٦٧ .

٢) الشرف المؤبد نقله عنه العلامة شرف الدين في الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء ص٢٢٥ .

المحيط المكي كانت تدور حول هذه المسائـل وأمثالها ، فان محيط مكة في فجر الدعوة الاسلامية ماكان يتحمل اكثر من طرح هذه القضايا .

امّا الايات التي تدور حول شؤون النظام الاسلامـي والجهاد ومحاجة اليهود والنصارى والاحكام الشرعية والنظم الاجتماعية فهي مدنية غالباً .

ولقدتمكن العلماءمؤخراً ان يحصلوا بمعونةهذا المعيارالدقيق، علىنتائج باهرة في مجال فهم النصوص القرآنية .

فاذا كان هذا هو الملاك في تشخيص مكية الايات عن مدنيتها فهذا يقودنا -بيسر- الىاعتباركون الاية المبحوثة هنامدنية لا مكية . لانها تناسبظروف المدينة ، ولاتناسب ظروف مكة اذ ليس من المعقول ان يتحدث النبي بمثل هذا الطلب في مكة حيث لميكن قد آمن به بعد الا نفر يسير لايتجاوز عددهم عدد الاصابع أو يزيد عن ذلك بقليل حيثكان يواجه اغلبية معادية، مبالغة في عدائها، متعنتـة في خصومتها ، وأما النفر اليسير اعني الشرذمة القليلة المؤمنة فماكان يناسب طلب شيء منهم حتى المودة وهم على ذلك الضعف والمحنة الشديدة والتشرد والمعاناة .

لندع الرسول الكريم ولنأخذ اي رجل بليـغ آخر يعرف متـى يتكلم وماذا يقول ترى هل من الصحيح ان يقول لجماعة لمتؤمن به بعد أو لشرذمة قليلة مؤمنةكانوا يعذبون بألوان التعذيب « لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » سواء أفسرت الاية بعترة الرسول واهل بيته ، او غيرها من المعاني التي ابدعها بعضهم في تفسير الاية ؟

اجل ان مثل هذا الطلب انما يصح أنيوجهه الى الذين صدّقوه وآمنوا به وقبلوا دعوته وكانوا قد وصلوا الى بعض الاهداف والنجاحات واستقرت امورهم وصفى لهم الجو والحال .

وخلاصة القول: ان سؤال الاجر من جانب النبي وهو في أبّان الدعوة ليس امراً بليغاً حيث لم يستتب لـه الامر بعد ، ولم يحصل هناك هدوء ولا سكون له ولمن آمن به واتبعه، وانما هو مناسب لظروف اخر مثل اواخر عهد الرسالة .

* * *

الطريق الثانى لتمييز مكيـة الايـات عن مدنيتها هي الرجوع الـى النصوص الواردة في هذا المورد عن العلماء وكبار المفسرين ، فاذا كان هو الميزان لمعرفة الايات المكية من المدنية فاننا نجد المفسرين وبالاخص اولئك الذين التفوا كتباً حول مواضع نزول الايات والسوره نجدهم يقولون : ان سورة الشورى مكية الا اربع آيات أولاها قوله تعالى : « قل لااسئلكم عليه أجراً الاالمودة في القربى » وهذا هو ابراهيم بن عمر البقاعي، فقد ألف كتاباً في هذا المضمار واسماه « نظم الدرر وتناسق الايات والسور» يقول في كتابه هذا: « سورة الشورى مكية الا الايات ٢٣، و٢٤ و٢٥ و٢٧ »[١] .

والواقع أنه لم يكن البقاعي وحده هو القائل بمدنية هذه الآية وانما قال به عدة من المفسرين منهم نظام الدين النيسابوري ، صاحب التفسير الكبير يقول في ابتداء تفسيره لسورة الشورى «سورة الشورى مكية الا اربع آيات ومنها آية المودة في القربى نزلت في المدينة »[٢] .

ويقول الخازن في تفسيره: «سورة الشورى مكية ، ونقل عن ابن عباس

---

١) راجع تاريخ القرآن للزنجانى ص٨د ، والبقاعى هذا هو برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن عمر الشافعى ولد عام ٨٠٩ وتوفى فى دمشق عام ٨٨٥ قال فى كشف الظنون ج٢ ص٦٠٥ وهو كتاب لم يسبقه اليه احد جمع فيه من أسرار القرآن ماتتحير فيه العقول .

٢) تفسير النيسابورى ج٣ ص٣١٢ .

ان اربع آيات منها نزلت في المدينة أولاها: قل لااسئلكم عليه اجراً الاالمودة في القربى، (ثم يضيف قائلا) « وليست هذه الايات الاربع مدنية فحسب بل هناك آيات اخرى نزلت بالمدينة أيضاً، فقد ذهب فريق الى ان الايات من٣٩ الى ٤٤ أيضاً مدنية» [١] .

ثم ان بامكان القارىء ان يراجع المصاحف التي طبعت تحت اشراف لجان ازهرية ومحققين منهم ليجد فيها هذه العبارة فوق سورة الشورى «سورة الشورى مكية الاالايات ٢٣، و٢٤ و٢٥، و٢٧ فمدنية» .

وليعلم القارىء ان ترتيب الكتاب العزيز في الجمع ليس على حسب ترتيبه في النزول اجماعاً وباتفاق جميع العلماء ، ومن ثم كان اغلب السور المكية لاتخلو من آيات مدنية، وكذلك اكثر السور المدنية لاتخلو من آيات مكية، بحكم ائمة السلف والخلف من الفريقين ووصف السورة بكونها مكية أومدنية تابع لاغلب آياتها لاجميعها [٢] .

ولكي يكون هذا الكلام مقروناً بالدليل ومدعماً بالبرهان نأتي بنماذج من هذا :

١ ـ سورة العنكبوت مكية الا من اولها عشرة آيات فهي مدنية[٣] .

٢ ـ سورة الكهف مكية الا من أولها سبع آيات فهي مدنية ، وقوله «واصبر نفسك » الاية[٤] .

---

١) تفسير الخازن ج٤ ص٩٤ .

٢) الكلمة الغراء ص٢٢٧ .

٣) راجع تفسير الطبرى ج٢٠ ص٨٦، والقرطبى ج١٣ ص٣٢٣ والسراج المنير ج٣ ص١٦ .

٤) تفسير القرطبى ج١٠ ص٣٤٦ والاتقان ج١ ص١٦ .

٣ ـ سورة هود مكية الا قوله « واقم الصلاة طرفي النهار» وقوله «فلعلك تارك بعض مايوحى اليك»[١] .

٤ ـ سورة مريم مكية الا آية السجدة وقوله: « وان منكم الا واردها»[٢]

٥ ـ سورة الرعد فانها مكية الا قوله : « ولايزال الذين كفروا » وبعض آيها الاخر، أوبالعكس[٣] .

٦ ـ سورة ابراهيم مكيـة الا قوله « الم تر الى الذين بدّلـوا نعمة الله الايتين» [٤] .

٧ ـ سورة الاسـراء مكية الاقوله ، « وان كادوا ليستفزونك من الارض » الى قوله « واجعلني من لدنك سلطاناً نصيراً » [٥].

٨ ـ سورة الحج مكية الاقوله «ومن الناس من يعبد الله على حرف » [٦].

٩ ـ سورة النمل مكية الاقوله «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به»[٧] .

١٠ ـ سورة القصص مكية الاقوله « الذين اتيناهم الكتاب من قبله »[٨].

١١ ـ سورة القمر مكية الاقوله « سيهزم الجمع ويولون الدبر » [٩]

---

١) تفسير القرطبي ج٩ ص١ والسراج المنير ج٢ ص٤٠ .

٢) اتقان السيوطي ج١ ص١٦ .

٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٧٨ ، ومفاتيح الغيب ج٥ ص٢٥٨ .

٤) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٣٨ والسراج المنير ج٢ ص١٥٩ .

٥ ـ تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٠٣ والرازي ج٥ ص٥٤٠ والسراج المنير ج٢ ص ٢٦١ .

٦ ـ تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١ والرازي ج ٦ ص ٢٠٦ والسراج المنير ج ٢ ص ٥١١.

٧ ـ تفسير القرطبي ج٥ ص٦٥ ، والسراج المنير ج٢ ص٢٠٥ .

٨ ـ تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٤٥ والرازي ج٦ ص٥٨٥ .

٩ ـ السراج المنير ج٤ ص١٣٦ .

١٢ - سورة يونس مكية الاقوله « وان كنت في شك » الايتين[١] .

وغيرها مما نص به ائمة التفسير ، وماذكرناه نماذج مما ذكروه .

فكما ان كون السورة مكية لايستلزم كون جميع آياتها كذلك فكذلك كون السورة مدنية لايستلزم كون جميعها كذلك ، كما يجده المتتبع في طيات التفاسير .

كما ان بعض الايات نزلت مرتين ، نص بذلك العلماء ، وعللوه بكونها عظة وتذكيراً ، او لاقتضاء علل متعددة ذلك[٢].

وان شئت التفصيل فلاحظ اوائل السور من التفاسير تجد ان المفسرين حيث يحكمون بان السورة مكية اومدنية يستثنون في اغلب السور ايات خاصة فلاحظ التفاسير في تفسير السور : المائدة ، الاعراف ، الرعد ، الاسراء ، الكهف ، مريم ، الحج ، الشعراء ، القصص ، الروم ، لقمان ، سبأ ، الزمر ، الزخرف ، الدخان ، الرحمان .

فان نظرة فاحصة في هذه السور والتفاسير حولها توقف الانسان على ان كون السور مكية اومدنية بمعنى ان اغلب آياتها لاجميعها كذلك .

* * *

ولو فرضنا كون الاية مكية لكنه لايستلزم كون المودة مقصورة على الموجودين من اقربائه بل يكون حكما اسلامياً شاملا لمن يتولد بعد نزول الاية من اقربائه نظيرقوله « يوصيكم الله في اولادكم » فانها شاملة لاولاد المخاطبين

---

١ - تفسير الرازى ج٤ ص٧٧٤ والاتقان ج١ ص١٥ والسراج المنير ج٣ ص٢

٢ - الاتقان ج١ ص٦٠ تاريخ الخميس ج١ ص١١ ومنها سورة الفاتحة ولاجل تكرار نزولها سميت المثاني . وقد اخذنا هذه النصوص فى مورد تلك الايات عن الغدير ج١ ص٢٣٣ و٢٣٤ شكرالله مساعيه .

المتولدين بعد نزول الاية .

ثم ان تفسير النبي الاية بعلي وفاطمة وابنيهما يمكن ان يكون متأخراً عن نزول الايةلرفع الستار عن وجه الاية،فيكون من الاخبارات النبوية بالمغيبات .

ثم انفرض مودتهما على الامة قبل ولادتهما لكرامتهما عليه وقرب منزلتهما منه ،كما بشر الله آدم ونوحاً وابراهيم وموسى وعيسى بالنبي الخاتم، وعرفهم جلالة قدرة وعظم شأنه .

وعلى كل تقدير سواء أكان تفسير الاية بعلي وفاطمة وابنيهما مقارنا مع نزول الاية ام بعده فقد روى المحدثون عن ابن عباس انه لما نزلت هذه الاية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ، فقال «علي وفاطمة وابناهما »[1].

وخلاصة القول:ان ما يعين مكية الايات ومدنيتها هي الاحاديث الاسلامية فالاحاديث التي تقول بان سورة الشورى مكية هى التي تقول بان آية قل لا اسئلكم بل بضع آيات وردت فيها، نزلت في المدينة، ومخالفة هذه الاحاديث ليس سوى نوع اجتهاد في مقابل النص بل النصوص .

وعلى تسليم كونها مكية برمتها لايضير عدم وجود بعض افرادها حين النزول في مكة اذ ان من الجائز أن يشرع مقنن قانونا يحترم طائفة من الناس يوجد بعض افرادها حين التشريع ، وهذا هو الاسلوب الذي يتبعه القرآن في كثير من تشريعاته حيث يقول «واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول

---

١ ـ الذخائر ص٢٥ ، والكشاف ج٢ ص٣٣٩ ، مطالب السؤول ص٨ مفاتيح الغيب ج٧ ص٦٦٥ ، مجمع الزوائد ج٩ ص١٦٨ الفصول المهمة ص١٢ الكفاية للكنجي ص٣١ ، شرح المواهب ج٧ ص٣و٢١ والصواعق ص١٠١ وص١٣٥ عند البحث في المقام السادس ، نور الابصار ص١١٢ ، الاسعاف ص١٠٥ وستوافيك نصوصهم .

ولذي القربى»(الانفال ـ ٤١) فلفظ الغنيمة يشمل كل ما تغلب عليه المسلمون في الاجيال كلها كما ان لفظ «ولذي القربى» يشمل أقرباء النبي سواء أكانوا موجودين زمن نزول الاية أم لا.

والعجب تسمية ذلك في كلام بعضهم (أي ادراج الاية المدنية في السورة المكية أو بالعكس) تحريفا باطلا فان هذا تصور باطل عن معنى التحريف الذي هو بمعنى الزيادة والنقيصة في القرآن والا يلزم ان نعتبر كل المفسرين والمحدثين من القائلين بالتحريف لانهم كثيراً ما يعتبرون الاية مدنية في ضمن السورة المكية وبالعكس .

على ان التحقيق هو ان القرآن جمع في عصر الرسول بهذا الشكل الحاضر فبأمره رتبت سوره ونظمت آياته، ووضعت كل آية في موضعها فاذا كان ذلك بأمر الرسول فهل يصح ان نعتبره تحريفاً ؟

روى المفسرون عن ابن عباس والسدى: ان قوله تعالى «واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون (البقره ـ ٢٨٠) آخر آية نزلت من الفرقان على رسول الله وان جبرئيل قال له ضعها على رأس الثمانين والمأتين من البقرة وهذا القول كانما اجماعي ، وانما الاختلاف في مدة حياة الرسول بعد نزولها... [1] .

السؤال الثالث

ان المحبة حالة قلبية غير اختيارية فلا يمكن الامر بها بأن تقع تحت دائرة الطلب، لانه لو كانت هناك موجبات الود وجدت المحبة قهراً وان لم يوص بها، وان لم تكن فلا توجد وان كانت هناك توصية بذلك .

---

(١) الكشاف ج١ ص ٣٠٣ مجمع البيان ج١ ص٣٩٤ الاتقان ج١ ص٧٧ .

الجواب: عزب عن المستشكل انه لو كانت المودة امراً غير اختياري موجبا لعدم صحة الامر بها ، لزم عدم صحة النهي عنها أيضاً فان الموضوع غير الاختياري لايقع تحت دائرة الطلب مطلقاً لا تحت دائرة الامر ولا تحت دائرة النهي، بينما نرى القرآن ينهى عن مودة الكفار واعداء الله ويقول وهو يصف المؤمنين: «لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله» .

(المجادلة ـ ٢٢)

كما يقول سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة» (الممتحنة ـ ١).

والاية الاولى وان كانت تخبر في الظاهر عن أحوال المؤمنين الا ان المقصود منها هو الحث على الاجتناب عن مودتهم ومحبتهم .

اذا كانت المودة لاجل كونها امراً خارجاً عن الاختيار لايتعلق بها الامر لماذا نجد الرسول العظيم ﷺ يدفع المسلمين الى التوادد والتحابب ممثلا لذلك بمثل جميل ورائع حيث يقول :

«مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1] .

وهذا الحديث ونظائره كثيرة في الاحاديث الاسلامية وكلها تعطى ان المودة موضوع قابل للطلب كما ان المحدثين عقدوا في موسوعاتهم الحديثية أبواباً من قبيل باب «الحب في الله» وباب «البغض في الله» وادخلوا في هذه الابواب مجموعات كبيرة من الاحاديث التي تبدو منها بجلاء الدعوة الى التوادد والتحابب بين الامة الاسلامية ونبذ الكفار وعدم موالاتهم .

ومن هنا يبدو أن البغض والحب ليسا كما يتوهم أمرين غير اختياريين

(١) مسند احمد ج٤ ص٧ والتباح ج٥ص١٧، ناقلا عن صحيحى البخارى ومسلم .

وغير خاضعين للارادة الانسانية ، بـل هما حالتان اختياريتان تتحققان بالتدبر واعمال النظر في مقدماتهما .

يقول الامام الصادق : «من أوثق عرى الايمان ان تحب في الله وتبغض في الله»[١] أي تحب المؤمن لايمانه بالله ، وتبغض الكافر لكفره بالله .

ويقول الامام أمير المؤمنين في عهده الى مالك الاشتر النخعي :«واشعر قلبك الرحمة والمحبة لهم واللطف بهم» [٢].

ولو اتيح لك ان تطلع بالتفصيل على النصوص الواردة في مجال الحب والبغض لرأيت كيف ان الـرسول والائمة عليهم السلام أوصوا بمحبة جماعـة معينة ، ونهوا عن مودة آخرين ، فها هـو الرسول يقول : «عنوان صحيفة المؤمـن حب على بن أبي طالب عليه السلام» [٣] والهدف النهائي من هذه الكلمة هو الدعوة الى موالاة علي وعقد القلب على محبته .

ويقول الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً:«من سره ان يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليوال عليا من بعدي وليوال وليه وليقتد بالائمة مـن بعدي فانهم عترتي خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهماً وعلماً»[٤] .

وقال صلى الله عليه وآله في حق علي أيضاً: « ومن أحبني فليحبه، ومن احبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة » [٥].

---

(١) سفينة البحار ج١ ص١٢ .

(٢) نهج البلاغة قسم الكتب رقم ٥٣ .

(٣) تاريخ بغداد ج٤ ص٤١٠ .

(٤) حلية الاولياء ج١ ص٨٦ .

٥) مسند أحمد ج٥ ص٣٦٦ وصحيح مسلم كتاب الفتن ص١١٩ ، وصحيح الترمذى كتاب المناقب ص٢٠ .

ولا شك ان هدف الرسول ﷺ ليس الا دفع الناس الى محبتهم وموالاتهم، اضف الى ذلك ان دعوة النبي الى حب وموادة جماعة خاصة ، يكـون سبباً قوياً لغرس بذور المحبة لتلك الجماعة في قلوب الناس، وسرعان ماتنمو تلك البذور وتتحول الى حب عميق لتلك الجماعة ، فعندما يأخذ الرسول بيد علي ويقول من أحبني فليحبه ، تكون تلك العبارة حافزة لمشاعر القوم تجاه مكانة علي ، وسبباً لنمو بذور المحبة في أفئدتهم . كيف لا وهذه الكلمات من رسول الله هي التي صنعت جماعة أحبت علياً وآله غاية الحب .

نعم لو اوصى بمحبة من لايتوفر فيه ملاك المحبة، اما لوجود نقاط ضعف في خلقه أو عمله لما نفعت التوصية، على ان هناك قد يوجد من يتوفر فيه ملاك المحبة دون أن يعلم أكثر الناس به، فدعوة الناس الى محبتهم وولائهم تكون سبباً الى التفتيش في موجبات هذه الدعوة ، وفي نهاية المطاف يكون هـذا الامر سبباً الى التفات الناس الى سجاياهم وأخلاقهم التي تخلق المحبة فـي قلوب الناس .

وبذلك يتضح أن دفع الناس الى التعرف على عظمة الشخص يحصـل بأحد أمرين :

الاول : رفع الستر عن سجاياه الاخلاقية وملكاته الفاضلة ببيان فضائله وهو عمل يوجه الناس الى القائد بصورة مباشرة .

الثانى : الامر بحبه وموالاته ، ويكون سبباً لاقبال الناس عليه، والتعرف بالتدريج على مؤهلاته وصفاته وسجاياه .

وعلى هذا الاساس يعتبر الامر بمودتهم منطلقاً للتعرف وأساساً للاتباع .

* * *

السؤال الرابع :

كيف يأمر الرسول بمودة أقربائه مع انا نجد في صفوفهم من عادى الله ورسوله ، وانه سبحانه نهى عن مودة من يعاديه أويعادي رسوله ؟ .

الجواب: لا شك ان القرآن الكريم نهى عن موالاة الكفار سواء أكانوا من اقرباء الرسول أم لا قال سبحانه :

«ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى» (التوبة ـ ١١٣) .

وقال سبحانه :

«ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون» (التوبة ـ ٢٣) .

وقال سبحانه :

«ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة» (الممتحنة ـ ١) .

فبملاحظة هذه الايات والايات التي نزلت في مكة وطلبت من المؤمنين أن يجانبوا آباءهم وامهاتهم المشركين ، يقضى العقل بأن الرسول انما طلب موالاة من يرتبط به بوشيجة القربى اذاكان موصوفاً بالايمان و التقى، وليس من المعقول ممن ينهى عن موالاة الكفار والمشركين ، ان يطلب موالاة اقربائه على الاطلاق حتى المشركين .

وقصارى الكلام هو ان نخصص اطلاق الاية بمادل على المجانبة من الكفار والمشركين، وان كانوا من اولي القربى .

وهذا الاشكال ضئيل غاية الضئالة، فكأن صاحبه جهل أوتجاهل ان القرآن

يصدق بعضه بعضاً، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، فالقرآن هو الذي يقول فى حق ولد نوح: « انه ليس من أهلك انه عمل غيرصالح » (هود ـ ٤٦) فعندئذ لايتبادر من الاية سوى محبة المؤمنين والمخلصين من أقرباء النبي دون الكفار والمشركين .

على أن الاية كما أسلفناه نزلت في المدينة ولم يكن يومذاك حول النبى صلى الله عليه وآله وسلم غيرذوى القربى المؤمنين ، وقد أجاب دعوته كل من بقى من بني هاشم ممن لم يؤمن بـه قبل ، فاذا كان نزول الايـة فى عام الفتح وبعده فلـم يكن فى أرض المدينـة ومكة من أقرباء النبي (ص) كافر أو منافق .

وبذلك يعلـم أن ماذكره روزبهان [1] من أن ظاهر الايـة شامل لجميع قربات النبي ﷺ ضعيف جداً وعلى فرض الصحة فالحديث الصحيح خصصها بعدة خاصة كماذكرنا صورة الحديث فيمامر .

واظن ان هذا الاشكال لم يكن يحتاج الى هذا التفصيل لظهور بطلانه .

(١) احقاق الحق ج٣ص٢٠ .

المقام الثانى

التأليف بين هذه الاية والايات الاخر

ان الايات القرآنية تشهد على انه كان شعار الانبياء فى طريق دعوتهم وتجاه أممهم هورفض الاجر، وعدم طلبه من الامة وكلهم يقولون: « ان أجري الاّ على الله » .

فالقرآن يحدثنا في سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب بأن شعارهم الوحيد طوال فتراتهم الرسالية كانهو قولهم«وما اسألكم عليه من أجـر ان اجـري الاّ على رب العالمين » (الشعراء ـ الايات ١٠٩ ، و ١٢٧ و ١٤٥ و١٦٤ و١٨٠) .

كما يخبـر فى سورتـي هود ويونس [1] هذا المضمون عن نوح وهود أيضاً وان من علائم النبوة ان اصحابها لايطلبون اجراً على رسالتهم .

ولاجل ذلك لما لاحظ المبعوث الثالث اعراض اهالي انطاكية عن رسل المسيح، التفت الى أهاليها وقال : « اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون » (يس - ٢١) .

ومع ذلـك كيف يصح ان يقال ان الرسول بـدل هذا الشعار الذي ظل يتمسك به كل الرسل على مدار التاريخ، وجعل مودة اقربائه أجراً على رسالته

---

١) سورة يونس ٧٢، وهود ٢٩ و ٥١ .

اضف الى ذلك ان الرسول الاعظم نفسه يصرح بأمر من الله بأنه لايسأل أجراً ويقول: «لااسألكم عليه أجراً ان هو الا ذكرى للعالمين» (الانعام - ٩٠) ؟

الجواب : ان الاجر فى اللغـة هو العوض الذي يتلقـاه المرء لقاء عمل يؤديه وهو بمفهومه يشمل كل الاجور الدنيويـة والاخروية، بيد ان المقصود بالاجر المنفي فى هذه الايات، بقرينة توجيه الخطاب الى البشر، هو الاجر الدنيـوي الذي كان بامكان البشر تقديمه الى الرسل ، ولاشك ان الرسول لم يطلب من أحد مثل هذه الاجور الدنيوية كمالم يطلب أيضاً اخوانه من الرسل من قبل .

ولفظ الاجر فى الاية وانكان يشمل الاجور الدنيوية كلها حتى التكريم والتبجيل لنفسه وقومه واقربائه ، وعند ذاك تكون المودة داخلة في المستثنى منه قطعاً .

غير ان المطلوب فى الاية ليس نفس المودة والولاء لاقربائه بماهي هي حتى يعود أجراً دنيوياً مطلوباً ويصير طلبها من الامة مصادماً للايات الحاكية عن رفض الانبياء للاجر بتاتاً بل المودة فى القربى وسيلة لاتصال الامة بعترة النبي ويكون نفس ذلك الاتصال ذريعة لتكامل الامـة في المراحل الفكريـة والعملية فعندئذ تنتفع الامة الاسلاميـة بها قبل ان تنتفع بـه العترة ، فحينئذ لا تكون المو ّدة في القربى أجراً حقيقياً وان اخرجت بصورة الاجر .

هذا هو مجمل الجواب، وأما التفصيل فيبين في ضمن أمرين :

الاول: ان الاجر وانكان يطلـق على الاجر الدنيوي والاخروي ، ولكن المقصود من الاجر المنفي في هذه الايات هو الاجر الدنيوي بقرينـة توجيه الخطاب الى الناس .

أضف اليه انه ليس من المعقول انيطلب الرسول من الناس أجراً اخروياً

اذليس للناس أن يقدموا مثل هذا الاجر الى الرسول، هذا وان القرآن يحدثنا بأن الرسول كان يعلن للناس بأنه لايريد من أحد أجراً ، وقد أمره سبحانه ان يقول :

« قل مااسئلكم عليه أجراً ان هو الاّ ذكرى للعالمين» (الانعام - ٩٠) .

وقوله سبحانه: «مااسئلكم عليه من أجر ومأأنا من المتكلفين» (ص - ٨٦)

فمع مثل هذه التصريحات التى تمت في بدء الرسالة، لايمكن للنبي أن يطلب من الناس شيئاً يعتبره الناس أجراً على عمله، كيف والنبي الاعظم كالانبياء السابقين من نخبة المجتمع وصفوة البشرية ، والاخلاص منطلقهم الوحيد في عملهم ودعوتهم،وكان شعارهم: كل شيء لاجل الله .

قل شيخنا المفيد: ان أجر النبي هو الثواب الدائم، وهو مستحق على الله في عدله وجوده وكرمه ، وليس المستحق على الاعمال ، يتعلق بالعباد لان العمل يجب أن يكون لله تعالى خالصاً وماكان لله فالاجر فيه على الله تعالى دون غيره[1] .

الثانى: هل الاستثناء في الآية استثناء منقطع أو استثناء متصل ؟ فقد نقل روزبهان عن بعضهم ان الاستثناء منقطع والمعنى: لااسألكم على تبليغ الرسالة أجراً «لكن المودة في القربى حاصل بيني وبينكم» فلهذا اسعى وأجتهد في هدايتكم وتبليغ الرسالة اليكم[2] .

---

١) شرح عقائد الصدوق ص٦٨ .

٢) احقاق الحق ج٣ ص٢٠ وسوف نرجع الى نقد هذا الفكر الذى زعمه روزبهان تفسيراً للاية وممن اختار كون الاستثناء منقطعاً، الرازى فى تفسيره ج٧ص٣٩٠ وقال تم الكلام عند قول: «عليه أجراً ثم قال: الا المودة فى القربى : اى لكن اذكركم قرابتى منكم . فلاحظ

وقال بعضهم: الاستثناء متصل والمعنى: لااسالكم عليه أجراً من الاجور الاّ مودّتكم في قرابتي، وأيّد ذلك القول بأن الاستثناء المنقطع مجاز واقع على خلاف الاصل ، وانه لايحمل على المنقطع الا لتعذر المتصل ولاجل ذلك لايحمل العلماء الاستثناء على المنقطع الاّ عند تعذر المتصل ، حتى عدلوا للحمل على المتصل، عن الظاهر في قوله: له عندي مأة درهم الاّ ثوباً وله علي ابل الاّ شاة. وقالوا معناه الا قيمة ثوب أوقيمة شاة، فيرتكبون الاضمار وهو خلاف الظاهر ليصير الاستثناء متصلا .

وممن ذهب الى ان الاستثناء منقطع الشيخ المفيد، فقال: « ان قال قائل مامعنى قوله تعالى قل لااسئلكم عليه أجراً الاّ المودّة في القربى أوليس هذا يفيد ان قد سألهم النبي مودة القربى أجراً على الاداء قيل له ليس الامر على ماظننت لماقدمنا من حجة العقل والقرآن، والاستثناء في هذا المكان ليس هو من الجملة لكنه استثناء منقطع، ومعناه: قل لااسألكم عليه أجراً لكني الزمكم المودة في القربى، واسألكموها، فيكون قوله لااسألكم عليه أجراً كلاماً تاماً قد استوفى معناه، ويكون قوله الا المودّة في القربى كلاماً مبتدءاً. فائدته لكن المودّة للقربى سألتكموها، وهذا كقوله « فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس » (الحجر ٣٠ ـ ٣١) والمعنى فيه لكن ابليس وليس باستثناء من جملة وكقوله «فانهم عدو لي الا رب العالمين» الشعراء ـ ٧٧ معناه لكن رب العالمين ليس بعدو لي ، قال الشاعر :

وبلدة ليس بها انيس الا اليعافير والاالعيس

وكأن المعنى في قوله : «وبلدة ليس بها انيس» على تمام الكلام ، واستيفاء معناه ، وقوله «الا اليعافير» كلام مبتدأ معناه لكن اليعافير والعيس فيها وهذا بين لايخفى فيه الكلام على احد ، ممن عرف طرفا من اللسان، والامر فيه عند أهل

اللغة اشهر من ان يحتاج معه الى استشهاده» . [١]

والحق في المقام ان يقال : انتقسيم الاستثناء الى المتصل والمنقطع ليس على ما اشتهر ، من أن المستثنى المنقطع غير داخل في المستثنى منه لا موضوعا ولا حكما ، لا حقيقة ولا ادعاء ، اذ لو لم يكن المستثنى داخلا بنحو من الانحاء في المستثنى منه كان استثناؤه عنه لغوا غير صالح لان يذكر في كلام العقلاء، فالمستثنى حتى المنقطع داخل في المستثنى منه دخولا ادعائيا لا حقيقياً اذ ليس الاستثناء الا اخراج ما لولاه لدخل، ومعلوم ان الاخراج فرع الدخول بالضرورة غاية الامر ان المستثنى منه بمفهومه اللغوى شامل للمستثنى كما في قولنا جائني القوم الا زيد ، بخلاف الاستثناء المنقطع ، فالمستثنى منه وان كان غير شامل للمستثنى بمفهومه اللغوي لكن المخاطب ربما يتوهم شمول الحكم المذكور للمستثنى منه ، للمستثنى أيضاً ، فيعود المتكلم الى استدراك ذلك الوهم بعدم شموله للمستثنى ، مثلا اذا قلنا : جاء زيد الا خادمه ، وجاء القوم الا مراكبهم فالاستثناء لاجل دفع توهم، وهو ان مجيء زيد والقوم كان مع خادمه ومراكبهم ولو لا هذا التوهم لما صح الاستثناء ، ولاجل ذلك قلنا بان المستثنى في الاستثناء المنقطع داخل في المستثنى منه ادعاء لا حقيقة ولولا توهم الدخول، لا يصح الاستثناء فلا يصح ان يقال جائني القوم الا الغراب أو الا الشجر، اذ ليس مجيء الغراب والشجر معرضا للتوهم .

وبذلك يظهر ان مصحح الاستثناء هو دخول المستثنى في المستثنى منه بنحو من الانحاء وعند ذلك لا فرق بين جعل الاستثناء متصلا أو منقطعاً .

والظاهر ان مصحح الاستثناء في الاية هو دخول المودة تحت الاجر حقيقة اذ الخارج عن الاية بقرينة توجه الخطاب الى الناس هو الاجر الاخروي الخارج

١) شرح عقائد الصدوق ص ٦٨ .

أو طلبا للمودة لشخصه أو لقريبه .

ومع هذا الاعتراف (أي دخول المودة تحت المستثنى منه وكون الاستثناء حقيقياً) ليس طلب المودة للقربى أجراً حقيقياً عائداً نفعه الى النبي ﷺ اذ لو كان المطلوب من الامة نفس المودة وتكريم الاقربين وتبجيلهم لكان محلا لان يعد أجراً حقيقياً ، ومصادماً للايات النافية لطلب الاجر عن الانبياء .

واما اذا كانت مودتهم طريقاً لتربية الامة واسعادهم وتكاملهم كما سنشرحه عند البحث عن المقام الثالث فعند ذلك يعود طلب المودة كسائر التكاليف المطلوبة من الناس، فهو قبل ان يكون مفيداً لصاحب الرسالة، مفيد لنفس الامة ولاجل ذلك قلنا عند الاجابة على وجه الاجمال: بأن طلب المودة ليس أجراً حقيقياً وان اخرجت بصورة الاجر .

وحاصل ما ذكرناه امران :

الاول : ان المودة داخلة تحت الاجر بلا اشكال والاستثناء متصل جداً .

الثاني : ان المودة ليست أجراً حقيقياً لانها ليست مطلوبة بالذات بل هي طريق وسبيل الى نجاة الامة عن الهلاك والضلال ، بل هي وسيلة الى هدف تربوي ، وهو اتباع أقربائه في أقوالهم وأعمالهم .

وان شئت قلت : ان المودة الحقيقية لاقربائه لاتنفك عن اتباعهم ، فيما يفعلون وفيما لايفعلون ، واما المودة المنفكة عن الاقتفاء بهم فانما هي مودّة كاذبة أو خدعة يخدع الانسان بها نفسه، وهو يحب نفسه وميوله لا سيده ومولاه، وان اطلق عليها المودة فبالعناية والمجاز ، بل طبيعة المودة لشخص يوجب انصباغ صاحبها بصبغة من يحبه، والتكيف بكيفه. والتخلف في مورد أو موارد لايضر في هذا المضار لاختلاف مراتب الود .

وبعبارة ثالثة : تصبح المودة لأهل بيت النبي الذين هم أحد الثقلين [١] وسفينة النجاة [٢] وورثة علم الرسول وحملة احكام الدين سبباً لاغناء الامةمن الناحية الدينية عن الرجوع الى غيرهم ، ووسيلة لازالةكل احتياجاتها ، فعند ذلك يكون طلب المودةكمثل قول الطبيب المعالج لمريضه ، بعدما يفحصه بدقة ، ويكتب له نسخة : « لاأطلب منك أجراً الا العمل بهذه الوصفة » ، فهو في الظاهر أجر مطلوب ربما يوجب نشاط الطبيب وسروره القلبي اذا رأى ان مريضه قد استعاد صحتّه ولكنّه قبل أن يرجع نفعه الى الطبيب يعود نفعه الى المريض .

وبملاحظة هذه الامور يتضحان الهدف النهائي من طلب المودة لاقربائه هو دفع الناس الى الاقتداء بهم واتباعهم لهم في شؤون الدنيا والاخرة، وهذا سبب لوعي الامة وتكاملها ، في المرحلتين : الفكرية والعملية .

اذا عرفت هذه الامور وقفت على انه لاتناقض بين هذه الاية الناصةعلى طلب المودة أجراً على الرسالة وبين الايات المتضافرة الناصة على انالانبياء لايطلبون أيأجرمناممهم بل هميبلغون رسالاتالله مندونطلبأجر منالناس.

ووجه عدم المنافاة واضح جداً لان المودة ـ كما أسلفناه ـ وان كانت مطلوبة بصورة الاجر الا ان نتيجتها عائدة الى ذات الامة لانها سبب رقيّها مدارج الكمال، واسعادها وتكاملهافي المراحل الفكرية والعملية، وتعرفها على اصول دينها وفروعه ، واستغنائها عن أي منهج لا ضمان لصحته ، فلايعدطلب ذلك الاجر مضاداً للهتافات المتضافرة الصادرة عن الانبياء طيلة اداءرسالاتهم.

---

١) قال رسول الله (ص) : « انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتىأهل بيتى ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً » حديث رواه الفريقان .

٢) قال رسول الله (ص) « مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق » رواه جمع من المحدثين من العامة والخاصة .

المقام الثالث

كيف يعود نفع المودة الى الناس ؟

ان القرآن الكريم اعتبر مودة القربى أجراً على الرسالة في آيـة ، وفي آية اخرى اعتبر الاجـر المطلوب عائـداً نفعه في نفس الامر الى الامة ، قال سبحانه : « وما سألتكم من أجر فهو لكم » (سبأ ـ ٤٧) فكيف يعود نفعهاعلى الامة ؟.

الجواب : لاحاجة الى افاضة القول في المقام على وجـه التفصيل اذ قد تبين الجواب عن البحث السابق الدائـر حول الجمع بين هذه الاية والايات النافية . ومع ذلك نشير هنـا الى الجواب على وجـه الاجمال وهو : ان الله سبحانه عندما أمرنبيه بطلب المودة من الناس لاقربائه، أراد ايصال الناس الى فائدة اخرى ، وذلك لان مودة أقربائه تنطوي على فائدتين مهمتين لنا :

الاولى : ان العترة بحكم أنهم قرنـاء القرآن[1]، معصومون مـن الخطأ والاشتباه فعند ذلك بأمكانهم أن يلبوا حاجات الناس العلمية في اصول الدين وفروعه ، وبما أنهم كسفينة نوح لايتصور لهم انحراف في أقوالهم وأعمالهم فمودتهم، والارتباط بهم يوجب تعرف الامة على حقائق دينها على وجه الصحة

---

(١) في قوله (ص) : انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى» وقرين القرآن وعديله معصوم مثله والا لما صح جعله عديلا وقريناً . فلاحظ .

واليقين ، بخلاف ما اذا راجعت الى غيرهم فلايحصل لهم الا الشك والظن والتخمين .

الثانية: لما كانت العترة النبوية تمثل بحكم تربيتها المتعالية قمة الاخلاق والسجايا النبيلة ، كان الارتباط بهم طريقاً الى الحصول على التكامل الروحي والمعنوي وسبباً للوقوف على الرضا الالهي .

اذ عندما يكون ارتباط عامل برب عمله أو تلميذ باستاذه موجباً لتكامل العامل والتلميذ ، فالارتباط بعترة النبي سيكون بصورة أولى موجباً للحصول على تكامل أرقى ، كيف وهم بحكم الحديثين الماضيين مبرؤون من كل رذيلة أخلاقية ، وصفات ذميمة .

وقد وردت الاشارة الى مثل هذا التأثير الذي يتركه الحب والود في نفس المحب من محبوبه في كلام الامام الصادق عليه السلام حيث قال : « ما أحب الله من عصاه » ثم أنشد الامام قائلا :

تعصي الاله وأنت تظهر حبه هذا محال في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع[1]

وبذلك يظهر أن ما ربما يتفوه به من لاقدم راسخ في هذه الابحاث ويقول ان طلب المودة من جانب النبي لاقربائه أمر غير متين، خال عن السداد والمتانة لان القائل تصور ان المقصود هو المحبة القلبية أومايصاحبه من التظاهر باللسان ، ولكنك قد وقفت على ان المقصود من المودة هو الارتباط وبالنتيجة التعرف على المعارف والاصول ، وفي مرحلة اخرى الاتباع والاقتداء العملي فيصير طلب المودة نوعاً من طلب الاتباع للرسول وكتابه سبحانه، قال سبحانه «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»(آل عمران-٣١).

---

(١) سفينة البحار ج١ مادة حب ص١١٩ .

ثم ان للمفسرين في تفسير قوله : « وما سألتكم من أجر فهو لكم » (سبأ - ٤٧) وجهين :

الاول: انه كناية عن نفي الاجر رأساً كما يقول الرجل لصاحبه ان أعطيتني شيئاً فخذه وهو يعلم انه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت لتعليقه الاخذ بما لم يكن[١] .

وقال الطبرسي : لاأسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من عرض الدنيا فتتهموني، فما طلبت منكم من أجر على أداء الرسالة وبيان الشريعة، لكم وهذا كما يقول الرجل لمن لايقبل نصحه : ماأعطيتني من أجر فخذه ومالي في هذا فقد وهبته لك ، يريد ليس لي فيه شيء[٢] .

الثاني : أن يريد بالاجر ماجاء في قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا » وفي قوله « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » لان اتخاذ السبيل الى الله نصيبهم ومافيه نفعهم وكذلك المودة في القربى[٣].

---

(١) الكشاف ج٢ ص٥٦٦ .

(٢) مجمع البيان ج٤ ص٣٩٦ .

(٣) الكشاف ج٢ ص٥٦٦ .

المقام الرابع

المودة فى القربى نفس اتخاذ السبيل الى الله

لقد بانت الحقيقة من هذا البحث الضافي بأجلى مظاهرها ، غير انه يجب البحث عن نكتة اخرى وهي انه سبحانه جعل اتخاذ السبيل الى الله أجراً لرسالة نبيه في الاية التالية ، قال سبحانه « قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا » (الفرقان ـ ٥٧) ، وقبل الاجابة على السؤال وان المستثنى في هذه الاية هو المستثنى في آية سورة الشورى نعمد الى توضيح الاية .

ان الضمير في « عليه » يرجع الى القرآن وقد وضع الفاعل ، وهو « من اتخذ الى ربه سبيلا » موضع فعله، وهو نفس اتخاذ السبيل ، فالاجرالمستثنى هو عمل المسلمين ، وهو اتخاذ السبيل لانفس المتخذكما هوظاهر الايةاعني قوله : « من اتخذ » والمراد الا فعل « من اتخذ » والنكتة في العدول ، هو المبالغة في اتخاذ السبيل فكأنالشخص بوجوده الخارجي نفس اتخاذ السبيل الذي هو معني عرضي يحمله الانسان ولذلك نظائر في القرآن الكريم قال سبحانه: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر » (البقرة ـ ١٧٧) فان الظاهر من الاية ، ان البرهونفس من آمن مع انه لايمكن أنيكونهو براً، ولكن لاظهار المبالغة في العمل بالبر

ربما يخبر عن البر بـ « من آمن بالله واليوم الاخر » وكأن المؤمن لاجل ايمانه بالامرين صار نفس البر .

ثم المراد من اتخاذ السبيل هوتلاوة القرآن والعمل بمافيه من الفرائض والمحرمات بقرينة قوله سبحانه «ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا» (المزمل - ١٩) .

وقدوردت هذه الاية أيضاً بنصها في سورة الانسان في الاية ٢٩ .

وعلى ذلك يكون مفاد الاية : اني لااطلب منكم أجراً سوى استجابة دعوتي واتباع الحق وهو نهاية استغنائه عن الاجور الدنيوية التافهة .

وقدعلّق سبحانه اتخاذ السبيل على مشيئتهم للدلالة على حريتهم الكاملة فلااكراه ولا اجبار في ذاك الاتخاذ من قبل احد ، ولا وظيفةللنبي سوى التبشير والانذار « ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

قال الزمخشري في الكشاف : وهذا نظير قول من قد سعى لك في تحصيل مال وقال: مااطلب منك ثواباً على ماسعيت الا ان تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صورة هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين: « احدهما » قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله ، « والثانية » اظهار الشفقة البالغة . . . الى ان قال : ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا ، تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة . وقيل التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله[1] .

وماذكره من ان المراد من اتخاذ السبيل هو الايمان والطاعة يرجع الى ماذكرنا من انه يطلب اجابة دعوته والاتباع للحق ، وتلاوة القرآن والعمل بمافيه، والكل يرجع الى أمر واحد، وهو انه لايطلب سوى العمل بالشريعة

١) الكشاف ج٢ ص٤١٢ .

والاتباع للدين الحنيف، ومن ذلك يظهر ان تفسير « اتخاذ السبيل » بالانفاق في سبيل الله واعطاء الصدقة تفسير بالمصداق وليس اتخاذ السبيل منحصراً فيه .

قال الطبرسي : ما اسألكم عليه : على القرآن وتبليغ الوحي من اجر تعطونيه الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا بانفاقه ماله في طاعة الله واتباع مرضاته والمعنى لااسألكم لنفسي اجراً ولكن لامنع من انفاق المال في طلب مرضاة الله سبحانه بل ارغب فيه واحث عليه وفي هذا تأكيد للصدق لانه لو طلب على تبليغ الرسالة اجراً لقالوا انما يطلب اموالنا [1] .

وجه الجمع بين الاجرين الظاهريين

هذا هو معنى ايجاب اتخاذ السبيل الوارد في الاية وهو لايفترق عن ايجاب المودة في القربى لغرض الوصول الى الشريعة والتعرف على أحكامها والعمل بمافيها من الفرائض والتجنب عن المنهيات، لان مودتهم الحقيقية كما عرفناك لايفترق عن الاتباع لاقوالهم والاقتداء بأعمالهم وهو نفس الاتباع للشريعة والعمل بمافيها من الاحكام ونفس استجابة دعوة النبي ﷺ فعادت الايتان متوافقتي المضمون ومتحدتي المعنى .

فالنبي ﷺ لم يطلب نهاية في كلتا الايتين سوى العمل بالشريعة واجابة دعوته وهو يحصل من طريق المودة في القربى كما يحصل من الايمان بالنبي ومودته ولا معنى للمودة الحقيقية الا العمل بقول المحبوب والاقتداء به فيما يأمر وينهي والمودة الفارغة عن الاتباع ليست سوى خدعة يخدع الانسان بها نفسه .

---

(١) مجمع البيان ج٤ ص١٧٥ .

هذا على القول بان المراد من «اتخاذ السبيل» هو اجابة دعوة النبي ﷺ والعمل بماأتى به والتمسك بشريعته، ولكن يمكن ان يقال ان المراد من اتخاذ السبيل هو نفس المودّة في القربى فانها احدى الطرق الى التعرف على الشريعة، والتمسك بها كما ان القرآن أيضاً أحد هذه الطرق، وقد وافاك ان المودة ليست الا امراً طريقياً لهذه الغاية المهمة وليست مطلوبة بماهي هي ولذاتها.

وتؤيد ذلك الصحاح الحاكمة بوجوب التمسك بالثقلين اعني الكتاب والعترة في قوله ﷺ: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

وقوله ﷺ: ان مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق»[2].

وقوله ﷺ: «النجوم امان لاهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لامتي من الاختلاف، فاذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس»[3].

وعلى هذا فينطبق المستثنيان الواردان في الايتين على معنى واحد ويكونان هادفين الى معنى فارد وهو المودة في القربى، غير انه جاء الاجر المطلوب في سورة الشورى على وجه الصراحة، وفي سورة الفرقان على وجه الكناية.

---

١) راجع مصادر حديث الثقلين، في مانشرته دار التقريب بين المذاهب الاسلامية ـ القاهرة ـ عام ١٣٧٤ ـ والمراجعات ص٢٠ ـ ٢٣.

٢) مستدرك الحاكم ج٣ص١٥١.

٣) المصدر السابق ص١٤٩.

ويؤيد ذلك مارواه الطبري في ذخائر العقبى عن رسول الله ﷺ قال:

« أنـا وأهل بيتـي شجرة في الجنة واغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ الى ربه سبيلا»[١] .

وأخرج شيخ الاسلام الحموينى في فرائـد السمطين عن الامام الصادق عليه السلام قوله:

«نحن خيرة الله ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم الى الله»[٢] .

وقد روي عن تفسير الثعلبـي عن عبدالله بن عباس في تفسير قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم: انه قال « قولوا معاشر العباد ارشدنا الى حب محمد وأهل بيته» عليهم السلام [٣] .

وفي بعض الادعيـة المأثورة عن بعض ائمة اهل البيت تلويح الى ذلك الجمع والتفسير حيث جاء في دعاء الندبة قوله عليه السلام :

« ثم جعلت اجر محمد صلواتك عليه وآله مودتهم في كتابك فقلت قل لااسئلكم عليه أجراً الا المودة في القربى، وقلت ماسألتكم من اجر فهو لكم وقلت ماسألكـم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا فكانـوا هم السبيل اليك والمسلك الى رضوانك» [٤] .

---

١) ذخائر العقبى ص١٦ .

٢) الغدير ج٢ ص٢٨٠ ط النجف .

٣) المصدر السابق.

٤) راجع كتب الادعية .

المقام الخامس

« مناقشة الاحتمالات الواردة حول آية المودة »

قد عرفت في المقام الاول ان المتفاهم من المودة في القربى هو موالاة أقرباء النبي ﷺ، ولم يفهم صحابة النبي ولا جمهور المفسرين الا هذا المعنى وقدمنا لك اسماء الذين رووا هذا المعنى من النبي الاكرم ﷺ عند البحث عن الحديث الوارد حول الاية .

غير ان بعض المفسرين أضاف الى المعنى المختار محتملات اخر ، يأباها الذوق السليم، ولا يرتضيها العارف بأساليب الكلام البليغ، ولاجل ذلك ليست تلك المحتملات الا مجرد احتمالات فارغة، ودونك بيانها :

الاول : لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قربى ، فلما كذبوه وابوا ان يبايعوه نزلت الاية ، والمعنى الا ان تودوني في القربى اي في حق القربى، ومن اجلها كما تقول: الحب في الله ، والبغض في الله بمعنى في حقه ومن أجله ، يعني انكم قومي واحق من اجابني ، واطاعني ، فاذ قد ابيتم ذلك فاحفظوا حق القربى، ولاتؤذوني، ولاتهيجوا علي.[1] وعلى ذلك يكون «في» للسببية ، ومفاد الاية الا مودتي لسبب القرابة .

---

١) الكشاف ج ٣ ص٨٢ ط مصر عام ١٣٦٨ هـ والمفاتيح للرازي ج٧ ص٣٨٩ وعلى هذا التفسير يكون «القربى» بمعنى الرحم .

ولايخفى على العارف البصير ان سؤال الاجر ممن يكذبونه ولا يؤمنون به ويبغضونه ودعوته، ويرونه خطراً على كيانهم ، لايصدر من عاقل، فضلا عن النبي الاكرم ﷺ، فان الاستثناء سواء أكان متصلا ام منفصلا اما اجر حقيقي للنبي، اوشبيه له وطلب الاجر بكلا المعنيين لايصح الا ممن اسدى اليه طالبه شيئاً من الخدمة المادية والمعنوية ، فيصح عندئذ ان يطلب منه شيئاً تجاه ما قدم له ، وأما طلبه ممن لايؤمن به ولايراه خدمة له ، فلايصح في منطق العقل والعقلاء، فطلب الاجر على فرض البغض والعداء لايصح، وعلى فرض الايمان به فالمودة حاصلة لاحاجة لطلبها .

الثاني : اتت الانصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه فقالوا يا رسول الله قدهدانا الله بك وانت ابن اختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت الاية ، ورده [1].

وهذا المحتمل كسابقه من الضعف فان مودة الانصار للنبي ﷺ كان امراً حاصلا فلم يكن النبي في حاجة الى طلبها منهم، كيف وهم الذين بذلوا دون النبي ﷺ النفس والنفيس، وآووه ونصروه ، وفدوه بشبانهم في طريق دعوته، فاذا كانت الحالة هذه ، فلا وجه لطلب المودة منهم .

على ان الوشيجة التي كانت تربطهم بالنبي ﷺ لم تكن قوية بل ضئيلة جداً اذ كانت العرب لاتعتني بالقرابة من ناحية النساء وكان منطقهم :

بنونا بنوا ابنائنا وبناتنا بنوهن اولاد الرجال الاباعد

ومنهم من يقول :

وانما امهات الناس اوعية مستودعات وللانساب آباء

---

١) الكشاف ج٣ ص٨٩ ومفاتيح الغيب ج٧ ص٣٨٩ ومعنى الاية على هذا التفسير «الا ان تودوني لاجل قرابتي منكم» .

وانما ادخل الاسلام القرابة من جانب النساء وساوى بين البنات والبنين، واعتنى بكل وشيجة حصلت بينهم سواء أكانت من جانب الرجال امن جانب النساء، وكان النبي ﷺ يرتبط بالانصار ومن جانب النساء، فان هاشم تزوج ببنت «عمرو الخزرجي» فولدت لها عبدالمطلب وهوجد النبي الاكرموما كان العرب الجاهلي يقيموزنا للقرابة الحاصلةمن جانب البنت.

الثالث: ان الخطاب لقريش، والمقصود مودة النبي اياهم، والمعنى لااطلب منكم اجراً ولاجزاء ولكن حبي لكم بسبب ما تربطني بكم من قرابة هو الذي دفعني الى الاعتناءبكم وبهدايتكم.

وهذا المعنى اختاره روزبهان حيث قال: لكن المودة في القربى حاصل بيني وبينكم فلهذا اسعى واجتهد في هدايتكم وتبليغ الرسالة اليكم [1].

ولايخفىان لفظ الايةلايحتملذاك المعنى، ودلالتها عليه تحتاج الىتقدير امور كثيرة، وماحمله على تفسير الاية بما ذكر الا مخالفته للعلامة الحلي في الاستدلال بالاية علىعصمة من وجبت محبتهم،ولوكان القائلمجرداً عن جميع الميول والاغراض لم يحمل الاية على هذا المعنى. فان الذي دفع النبي الى الاهتمام بامر قريش هو امتثال امرالله حيث قال: «وانذر عشيرتك الاقربين» (الشعراء ـ ٢١٤) «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين» (الحجر ٩٤ و ٩٥).

اضف الى ذلك ان حرص النبي على انقاذ المجتمع الانساني من الضلالة لميكن منحصراً بقريش بلهم وغيرهم فيهذا الاهتمام سواسية، وقال سبحانه حاكيا عن اهتمام النبي بهداية المؤمنين: «وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (يوسف ـ ١٠٣).

١) احقاق الحق ج٣ ص٢٠.

على ان ارادة هذا المعنى تحوجنا الى التصرف في الاية بجعل « الا » بمعنى « لكن » والقول بان الخبر محذوف وتقدير الاية هكذا ولكن المودة في القربى دفعتنى الى دعوتكم وهدايتكم وهذا تكلف واضح في تفسير الاية .

الرابع : ان المقصود مودة كل واحد من المسلمين لاقربائه وهو عبارة اخرى عن صلة الرحم التي دعى اليها الاسلام[1].

ولايخفى ان هذا الاحتمال لايساعده اللفظ ولا الذوق القرآني ، فان عد مودة الناس لاقربائهم اجراً للنبي ﷺ لايستحسنه الذوق السليم ، فان المودة اما أجر حقيقي او أجر غير حقيقي (اى حكمى) أخرج بصورة الاجر ، وعلى كلا التقديرين انما يصح الاستثناء اذا كان المستثنى عائداً الى النبي اما حقيقة، أومجازا ، ومودة كل مسلم لاقربائه وان كان امراً مطلوبا بذاته في الشرع الاقدس، لكنه لايصح ان يعد اجراً اويخرج بصورة الاجر فان الاستثناء كما اوقفناك على حقيقته هو اخراج ما لولاه ، لدخل ، والاخراج حقيقة اوحكما فرع الدخول كذلك ، وقد قلنا ان المستثني المنقطع ، منقطع حقيقة لاظاهراً وحكماً ، وان المستثنى منه شامل للمستثنى المنقطع شمولا حكميا ولو في وهم المخاطب فاذا قال القائل : جاء القوم الامراكبهم ومواشيهم انما يصح هذا القول لاجل توهم شمول الحكم (اعنى المجيء) لمراكبهم ومواشيهم ، اوخدامهم فان القبيلة اذا ارتحلت من مكان الى مكان آخر فانما ترتحل مع مواشيها ومايتعلق بها ، فالحكم بالمجيء على القوم كانه حكم على توابعهم ولوازمهم بالمجيء ولاجل ذلك لايصح ان يقال : جائنى القوم الا الشجر .

---

١) مفاتيح الغيب ج٧ ص٣٩٠ ذكره في توجيه طلب الاجر للرسالة حيث قال : لان حصول المودة بين المسلمين واجب وقال تعالى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض .

وعلى ذلك فالمصحح لاستثناء المودة في القربى هودخولها في المستثنى منه بنحو من انحاء الدخول اما حقيقياً او حكميا وحينئذ فلو قلنا ان اجر النبي صلى الله عليه وآله هي مودة أقربائه بماهي هي وبما انها مطلوبة بذاتها ، لصح الاستثناء لدخولها في الاجر دخولا حقيقياً ، ويصح ان يطلق عليه الاجر على نحو الحقيقة .

وان قلنا بان اجر النبي وهي مودة اقربائه بما انها ذريعة لتكامل الامة في مرحلتى الفكر والعمل لصح الاستثناء ايضاً ، لكونها داخلة في الاجر دخولا حكميا ، وعلى كلا التقديرين يصح ان يطلق عليه الاجر ، وبتبعه يصح الاستثناء والاستدراك .

واما لوقلنابان المراد هومودة كل ذى رحم لرحمه كمودة المسلم الافريقي لاخيه والاسيوية لاختها فذلك وان كان امراً مطلوبا لكن لايشمله لفظ الاجر لاحقيقة ولاعناية حتى يصح الاستثناء والاستدراك وعلى الجملة فالاجر الوارد في الاية انما يراد منه ما يرجع الى الانسان الطالب للاجر رجوعاً واقعيا اوظاهريا،وهولايحصل الا ان تفسر المودة،بمودة اقرباء ذلك الرجل الطالب .

واما اذا اريدمنه مودة كل بعيد لرحمه فذلك لايعد اجراً حتى بصورة الظاهر، ليصح الاستثناء .

وان شئت قلت : ان الاجر هو المكافأة والاثابة على العمل ، ولايطلق الا على الشيء الذي تعود نتيجته الى العامل بنحو من الانحاء وعلى ذلك فالمستثنى يجب أن يكون من جنس المستثنى منه أو مرتبطاً به بنحو من الارتباط لاأجنبياً عنه ، فعندئذ لو اريد مودة نفسه، وأقربائه، لصح أن يستثنى من الاجر المنفى لدخوله في المستثنى منه واما اذا اريد مودة كل رجل لرحمه فلايشمله لفظ الاجر حتى بنحو العناية والمجاز ، ليصح الاستثناء ، ولايتوجه ذهن السامع

عند سماع كلمة الاجر الى مثل ذاك الامر حتى يصح الاستدراك بخلاف مودة أهل بيته وعترته ، فانها مما يسعه اللفظ بعموم معناه .

على انه لم يعهد من القرآن حث الافراد على موالاةومودة أقربائهم بما هم أقرباؤهم، وانما أمر بموالاة المؤمنين وموادتهم، نعم للقرآن اهتمام شديد بصلة الرحم ، ودفع عيلة ذوى القربى وحاجاتهم وهو غير موالاتهم القبلية .

اضف الى ذلك انه سبحانه حينما يأمر بصلة الرحم جعل الغاية من هـذا الامر وجه الله وحده لا بعنوان الاجر للرسالة حيث قال :

« وآتى المال على حبه (حب الله) ذوي القربى واليتامى والمساكين » (البقرة ـ ١٧٧) .

وقال سبحانه : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيـراً »[1] (الانسان ـ ٨) .

ثم ان جعل الاية كناية عن صلة الرحم واسداء الخدمة الى ذوي القربى لايتحمله اللفظ ولايقوم به ظاهر الاية .

الخامس : ان المقصود انني لاأطلب منكم أجراً فانما هدفي هو ايجاد التآلف والتحابب وحسن المعاشرة بين أفراد البشر فكل ماأطلبه هو ان ازيـل بهذا القرآن كل الضغائن والعداوات من بينكم واحل محلها المودة بين قبائلكم.

ولايخفى انه لو كان المراد هو توحيد الامة وجمع شملهم لكان ينبغي أن يعبر عنه بأسد العبارات وأتقنها ،كأن يقول لاأسئلكم عليه أجـراً الا الاعتصام بحبل الوحدة وصيانة الاخوة الاسلامية ومايفيد هذا المعنى .

على انه يستلزم أن يكون لفظ القربى على هذا المعنى حشواً بل كان اللازم

---

١) الاستدلال مبنى فى كلتا الايتين على رجوع الضمير فى «حبه» الى الله لاالى المال أو الطعام .

أن يقول الا المودة بينكم .

* * *

السادس : ان المقصود هو لاأسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً الا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم اليه بالطاعة والعمل الصالح [١] .

وحاصل هذا الوجه ان حبكم لله ورسوله يتجسم في تقربكم اليه بالطاعة والعمل الصالح، فيكون «في» للسببية. وكأنه يدعو الناس الى حب الله ورسوله بتجسيد هذا الحب في قالب الطاعة والعمل الصالح .

وهذا الوجه من أبعد الوجوه عن مراد الاية اذ هو مبني على تفسير القربى بالمقرب أي مايقرب العبد الى الله سبحانه ، من الطاعة والعمل الصالح، مع ان أهل اللغة والاستعمال قد اتفقوا على حصر معناها في الوشيجة الرحمية ، والرابطة النسبية ، وقد قدمنا لك نصوصاً في هذا المجال في المقام الاول .

* * *

السابع : لااسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة اجراً الا التواد والتحاب فيمايقرب الى الله تعالى من العمل الصالح وروى هذا المعنى عن الحسن والجبائي، وأبي مسلم .

وهذا الاحتمال مبهم لايعلم مراد القائل منه الا بطرح جميع محتملاته واليك بيانها :

١ - ان المقصود اني لااسألكم اجراً الا ان تودوا وتحبوا مايقربكم الى الله سبحانه كالاعمال الصالحة .

وفيه: مضافاً الى ماعرفت من عدم صحة تفسير القربى بالمقرّب، انه يكون الغرض الاقصى عندئذ هو اطاعة الله سبحانه والاتيان بمايقرب العبد منه وحينئذ

١) الكشاف ج٣ ص٨٢ ومجمع البيان ج٥ ص٢٨ .

يكون لفظ المودة غيرمحتاج اليها ومخلا بالفصاحة ، وكان الاولى أن يقول : اطاعة الله سبحانه والعمل بما أمركم به، والاتيان بمايقربكم .

وكأن القائل بهذا التفسير اعطى القيمة لنفس المودة لا لنفس العمل مع ان المهم هو العمل لا مجرد المودة اذ كل تارك للواجبات ربما يود العمل الصالح وان لم يقم بالاتيان بها .

٢ ـ ان المقصود من المودة في القربى هو اظهار الحب والتودد اليه تعالى بالطاعة ، والمعنى الا ان تتوددوا الى الله بالتقرب اليه والاتيان بما يقربكم اليه [١] .

وفيه: مضافاً الى ماعرفت مافي تفسير القربى بالمقرب، انه لم يرد في كلامه تعالى اطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وان ورد العكس كمافي قوله سبحانه: « ان ربي رحيم ودود » (هود - ٩٠) وقوله : « وهو الغفور الودود » (البروج - ١٤) .

ووجهه واضح فقد فسر الراغب المودة بقوله: ان مودة الله لعباده مراعاته لهم ، وفيها اشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقده ، ولايناسب ذلك من العبد بالنسبة الى الله سبحانه .

اضف الى ذلك انه يرجع الى الوجه السادس الذي نقلناه عن الكشاف.

٣ ـ لا اسألكم اجراً الا ان تتوادوا بما يقربكم الى الله كأن يحسن بعضكم الى بعض فيحصل التحابب والتوادد بماهو يقربكم الى الله .

ولعل هذا الوجه أوفق لعبارة بعضهم حيث قال : لااسئلكم على تبليغ الرسالة اجراً الا التواد والتحاب فيمايقربكم الى الله من العمل الصالح .

وفيه ان تفسير المودة بالتوادد والتحابب غير صحيح فان المودة تطلق

---

١) ذكره الرازى وجهاً للاية راجع ج٧ ص٣٨٩ من مفاتيح الغيب .

على المحبة وانكانت من طرف واحد ، والوارد في القرآن هو لفظ المودة لا التواد ولا التوادد .

اضف الى ذلك ان حمل القربى على المقرب الى الله غير مأنوس في اللغة العربية وهو خلاف ماتفق عليه اللغويون .

٤ ـ المراد لااسئلكم اجراً الا التقرب الى الله والتودد الى الله بالطاعة ذكره الطبرسي في ذيل هذا القول، وهو أبعد الوجوه عن مراد الاية . اذ هو جعل الاجر أمرين: أحدهما: التقرب والثاني : التودد . مع ان ظاهر الاية ان الاجرالمستثنى شيء واحد .

* * *

وخلاصة هذه الوجوه المذكورة في السادس والسابع هي ما نأتي بها ـ ثانية ـ تسهيلا للقارىء الكريم :

١ ـ الاجر هو حب الله ورسوله بالطاعة والعمل الصالح .

٢ ـ الاجر حب المقربات الى الله سبحانه .

٣ ـ الاجر اظهار الحب الى الله بالطاعة [1] .

٤ ـ الاجر حب بعضكم بعضاً بالعمل الصالح كالاحسان .

٥ ـ الاجر امران: التقرب الى الله، والتودد اليه بالطاعة .

وغير خاف على القارىء الكريم ان هذه الوجوه تشبه التفسير بالرأي ، ولا مبرر لها في اللغة ومنطق التفسير. وهي برّمتها غيرماكان المسلمون الاوائل يفهمونه من ظاهر الاية. قال الكميت الاسدي شاعر اهل البيت :

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقي ومعرب

١) والفرق بينه وبين الوجه الاول ان الاجر في الوجه الاول هو نفس الحب، وفي هذا اظهاره .

المقام السادس

فى سرد الاحاديث الواردة حول الاية

لقد بانت الحقيقة باجلى مظاهرها وبان الصبح لذي عينين ولم يبق شك لمشكك في أن الاية تهدف الى طلب المودة لاقرباء النبـي ﷺ .

وقدكان الاولون لايرتضون للاية غيرهذا المعنى، وهم العرب الاقحاح ، الذين يعرفون معنى الاية باذواقهم العربية .

ومن راجع كتب التفسير والحديث يرى أن الرأى العام عند علماء الاسلام واساطين التفسير لم يكن سوى هذا المعنى ، وقد افرغوا نظرياتهم في نقلهم المأثورات حول الاية ولكن لايسعنا نقل جميعها في هذه الصحائف كيف وقد نقل المحدث الخبير السيد هاشم البحرانى سبعة عشر حديثا من طرق السنة واثنين وعشرين حديثا من طرق الشيعة كلها تنص على الرأي المختار[1].

وقدجمع العلامة الاميني طرق الحديث ونصوصه وكلمات العلماء، حول الاية في كتابه القيم الغدير الجزء الثاني والثالث [2].

وقد استقصى بعض الاجلة في تعاليقه على احقاق الحق[3] مصادر الحديث

---

١) غاية المرام ص٣٠٧ ـ ٣١٠ .

٢) الغدير ج٢ ص٢٨٠ و ج٣ ص١٥١ ـ ١٥٣ طبعة النجف .

٣) احقاق الحق ج٣ ص٢ ـ ١٨ .

من طرق اهل السنة فتجاوزت خمسين مصدراً لاعلام الحديث شكر الله مساعي الجميع ، ولايسعنا نقل ما وقفنا عليه برمته غير اننا نقتطف مايلي :

الاحـاديث الواردة في تفسير الاية على قسمين : قسم يصرح بان الاية وردت في حق علي وفاطمة وابنيهما وقسم يدل على نزولها في اقرباء النبي ﷺ من دون تسمية لاسمائهم .

اما القسم الاول فاليك بيانه :

روى الامام احمد بن حنبل في فضائل الصحابة عن جبير بن عامر قال : لما نزلت قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى ، قالوا يا رسول الله من قرابتك من هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام . وقالها ثلاثاً [1].

روى الزمخشري في تفسيره حول الاية : روي انها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك ومن هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علـي وفاطمة وابناهما . ونقله الامام الرازي في تفسيره ج٢٧ ، ص١٦٦ .

وقد نقل ابن بطريق في العمدة عن تفسير الثعلبي نزول الاية في حقهم بالعبارة المتقدمة .

وقد اقتفى اثرهم في هذا النقل الشيخ كمال الدين فـي مطالب السؤول ص٨ فصرح بنزول الاية فيهم بالعبارة الماضية ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص٢٥ والعلامة النسفي في تفسيره ص٩٥ بهامش تفسير الخازن ، والحموينى في كفاية الخصام ص٩٦ ونظام الدين النيسابوري في تفسيره المطبوع بهامش تفسير الطبري ج ٢٥ ص٣١ وابوحيان في البحر المحيط ج٧ ص٥١٦ ، وابن كثير الدمشقي في تفسيره ج٤ ص١١٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٥ ص١٦٨

١) مسند الامام احمد بن حنبل فى فضائل الصحابة ص٢١٨ .

الى غير ذلك من اعلام الحديث وحفاظه .

وكلهم ينص على نزول الاية في حقهم ، باشخاصهم .

وأما القسم الثاني الذي يدل على نزول الاية في اقرباء النبي ﷺ على وجه عام فاليك بعضها :

روى محب الدين الطبري في الذخائر ص٢٥ وابن حجر في الصواعق ص١٢٠ ، و١٣٦ ان رسول الله ﷺ قال : ان الله جعل اجري عليكم المودة في اهل بيتي واني سائلكم غداً عنهم .

وروى الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩ ص١٤ وابن صباغ المالكي في الفصول المهمة ص١٦٦ والحافظ الكنجي في الكفاية ص٣٢ ، وابن حجر في الصواعق ص١٠١ و١٣٦ ، ان الحسن بن علي خطب بعد شهادة ابيه بقوله : « ايها الناس لقد فارقكم رجل ماسبقه الاولون ولايدركه الاخرون (الى ان قال) وانا من اهل البيت الذين افترض الله عزوجل مودتهم وولايتهم فقال فيما انزل على محمد ﷺ قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » .

واخرج الطبري في تفسيره ج٢٥ ص١٦ باسناده عن ابي الديلم قال لما جيء بعلي بن الحسين رضى الله عنهما اسيراً فاقيم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام ، فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرنى الفتنة ، فقال له على بن الحسين رضى الله عنه : اقرات القرآن ؟ قال: نعم قال: اقرات آل حم ، قال : قرأت القرآن ولم اقرا آل حم ، قال : ماقرات قل لااسئلكم عليه اجراً الا المودة فى القربى ، قال : وانكم لانتم هموا ؟ قال : نعم » .

واخرجه السيوطى فى الدر المنثور ج٦ ص٧ ، وابن حجر فى الصواعق ص١٠١ ، وص١٣٦ ، والزرقانى فى شرح المواهب .

وروى الطبري فى تفسيره ج١٢ ص١٦ و١٧ عن سعيد بن جبير ، وعمرو

ابن شعيب ، انهما قالا : هي قربى رسول الله ﷺ .

ورواه البخاري فى صحيحه ج٦ ص١٢٩ عن سعيد بن جبير : انها قربى آل محمد .

وقال الرازي : لاشك ان النبى ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال ﷺ : فاطمة بضعة منى يؤذينى مايؤذيها ، وثبت بالنقل المتواتر عن محمد ﷺ انه كان يحب علياً والحسن والحسين واذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى : واتبعوه لعلكم تهتدون ولقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره ولقوله ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ولقوله سبحانه : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة .

ثم قال : ان الدعاء للال منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الال ، فكل ذلك يدل على ان حب آل محمد واجب ، وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه :

يـاراكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكـن خيفها والنـاهض
سحراً اذا فـاض الحجيج الى منى فيضاً كمـا نظم الفـرات الغـائض
ان كان رفضـاً حـب آل محمـد فـليشهد الثقـلان انـي رافضي [1]

ولو ان القارىء الكريم اضاف الى هذا الجم الغفير من الاحاديث التى اكتفينا بنقل النزر اليسير منها ، مارواه ائمة الحديث من الشيعة لوجد الحديث فى اعلى درجة الاستفاضة والتواتر، فلايبقى لقائل شك فى ان المراد من القربى اقرباء النبى ، ولامن المودة اظهار الحب اليهم ، نعم قد يصعب على بعض من لاخبرة له بالحديث والتفسير قبول هذه القضية فى حق آل طه وياسين .

---

١) مفاتيح الغيب ج٧ ص٣٩٠ - ٣٩١ .

وقد اشار النبهانى فى خطبة كتابه الى ذلك البعض وقال : ومن هذاالقبيل ماوقع فى عصرنا فى القسطنطنية سنة سبع وتسعين ومأتين والف هجرية من قوم جهال غرقوا من احوال البغضاء لال محمد فى اوحال فأخذوا يتأولون بجهلهم ماورد من الايات والاخبار فى فضل اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحى ومنبع الحكمة ، ويخرجونها عن ظواهرها بافهامهم السقيمة وآرائهم الذميمة ، ومع ذلك فقد زعموا انهم لاهل البيت من اهل المحبة والوداد ولم يعلموا انهم هائمون من الخذلان فى كل واد[1] والحق ينطق منصفاً وعنيداً .

١) الشرف المؤبد راجع الكلمة الغراءفى تفضيل الزهراء ص٢٣٠ .

۲

معاجز النبی الاکرم (ص)

و کراماته

فى هذا الفصل:

١ ـ دعوة الانبياء والقيام بالمعاجز والكرامات .

٢ ـ قساوسة الغرب ومعاجز النبي الاكرم .

٣ ـ المحاسبة العقلية تفند مزاعم القساوسة .

٤ ـ معاجز النبي الاكرم الواردة في القرآن : انشقاق القمر ، معراجه و مباهلته مع نصارى نجران .

٥ ـ الاتيان بالمعجزة بعد الاخرى .

٦ ـ الكفار يصفون معاجز النبي بالسحر.

٧ ـ النبي الاعظم وبيناته .

٨ ـ اخبار النبي عن الغيب .

٩ ـ معاجز الرسول الاعظم في الاحاديث .

١٠ ـ امتياز الاحاديث الاسلامية حول معاجز النبي على أحاديث اليهود والنصارى حول معاجز أنبيائهم .

النبي الاكرم ومعاجزه وكراماته

شهد التاريخ البشري اناساً ادعوا النبوة كذباً ودجلا، واتخذوا ميل الانسان الفطري نحو قضايا الدين ذريعة للوصول الى مآربهم ، وجعلوا سذاجة بعض الامم والجماعات ، وسيلة لتغطية دجلهم وكذبهم .

لاشك ان تمييز الحق عن الباطل والصادق عن الكاذب وتشخيص النبي الحقيقي عن المتنبيء والمنتحل للنبوة كذباً ودجلا، يحتاج الى ضوابط ودلائل ومعايير.

وقد كان هناك طرق ووسائل ظلت البشرية تتوسل بها لمعرفة الحقيقة واستجلاء الصواب ، وكان الاتيان بالمعجزة في طليعة تلكم الطرق حيث كانت احدى الطرق التي تثبت بها صحة دعوى النبوة وان لم تكن الطريق الوحيد.

والمعجزة هي العمل الخارق للعادة الذي يعجز عن الاتيان به البشر حتى نوابغ الحياة وعباقرتها .

وهناك تعاريف اخر ربما تكون أكمل من هذا التعريف ، ولسنا بصدد تحديدها على وجه الدقة ، والمهم هو أن نعرف ان المعجزة كان أول مايطالب به من يدعي النبوة كوثيقة تثبت صدق مدعاه، وصحة انتسابه الى الله ، اذا قام بها ، دون تهرب وتملص ، فهاهو القرآن يحدثنا ان صالحاً عندما حذر قومه من سخط الله وأخبرهم بأنه رسوله اليهم ، طالبوه بالمعجزة قائلين : « ماأنت

الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين » (الشعراء ـ ١٥٤) .

وقد وردت آيات اخر بهذا المضمون في سور شتى .

ولاجل ذلك كان الانبياء لايتأخرون عن تلبية هذا الطلب الطبيعي والمنطقي بل يبادرون الى اظهار معاجز حسبما تقتضيه الظروف مبرهنين بذلك على صحة دعواتهم وصدق أقوالهم ، بينما ينكص الكذابون ومنتحلوا النبوة ، وتخيب مساعيهم .

وقد جرت سيرة الناس مع النبي الاكرم محمد ﷺ على ذلك حيث طالبوه بالمعاجز في بدء دعوته وكان الرسول العظيم يلبي طلبهم ، ويأتي بمعاجز عديدة يشهدها الناس ويرونها بأعينهم .

وبالرغم من كثرة هذه المعاجز التي وقعت على يد رسول الاسلام ﷺ في موارد كثيرة ، أبى بعض من ناوأ الاسلام الا انكار هذه المعجزات وادعاء ان نبي الاسلام لم يأت بمعجزة سوى القرآن فقط .

ان هذه الشبهة حول معاجز الرسول الكريم طرحت من جانب الكتاب المسيحيين تقليلا من أهمية الدعوة المحمدية ، وحطاً من شأن الرسول ومكانته وعظمته فاذا بهم يزعمون ان معاجز النبي كانت تنحصر في القرآن دون سواه وانه كلما طالبه قومه بان يأتي لهم بمعجزة ، أحالهم على القرآن ولم يظهر آية معجزة سواه .

فها هو « فندر » القسيس الالماني المعروف يقول في كتابه ميزان الحق ص٢٧٧ ، وهو كتاب حول حياة الرسول :

ان من شروط النبوة أن يأتي مدعيها بمعجزة لاثبات مدعاه، ولكن محمداً لم يأت بأية معجزة قط ، ثم استشهد بآيات في سورة العنكبوت والاسراء والانعام وغيرها مما سنفرد لدراستها فصلا خاصاً بعد هذا الفصل .

على ان « فندر » لم ينفرد بطرح هذه الشبهة، بل طرحها قساوسة آخرون قبله وبعده .

وقد ذكر فخر الاسلام : أن المسيو « جورج دوروي » رسم في ص١٥٧ من كتابه صورة خيالية عن النبي الاكرم وبيده ورقة من القرآن الكريم وكتب تحت الصورة هكذا كان محمد كلما طالبه قومه بمعجزة ردهم قائلا : « ليس لي أن آتيكم بمعجزة الا بأذن الله ولكن الله لم يمن عليّ بهذه النعمة أي نعمة اظهار المعاجز »[1].

وبهذه الكيفية حاول المسيو « جورج دوروي » المسيحي أن ينفي معاجز النبي محمد ﷺ ولكن مانقله عن رسول الله ﷺ يتألف من صحيح وسقيم .

أما الصحيح فهو قوله في جواب قومه : « انه ليس لي أن آتيكم بمعجزة الا بأذن الله » وذلك أمر يؤيده القرآن حيث يقول: « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله » (الرعد ـ ٣٨) .

وأما السقيم فهو ماألحقه بكلام الرسول افتراءاً عليه ، وهو قوله « ولكن الله لم يمن عليّ بهذه النعمة ولم يعطني أية معجزة » فان هذا الكلام المنقول عن لسان النبي تقول على رسول الله ، وقد دلت شواهد كثيرة على أنه أتى بمعاجز كثيرة لقومه يوم طلبوا منه ذلك ولم يكن شأنه الا شأن سائر الانبياء والرسل .

ثم ان القسيس « أنار كلي » مؤلف كتاب « مشكاة الصدق » الذي طبع في لاهور سنة ١٩٠١ قد بسط الكلام في هذا الباب فهو بعد أن طرح الشبهة في كتابه

---

١) أنيس الاعلام ج٥ ص٣٥١ لفخر الاسلام وهو قس مسيحي أسلم وكتب حول النصرانية ، ومافيها من تناقضات وخرافات كتابه القيم « **أنيس الاعلام** » وغيره من الكتب القيمة .

واستشهد بآيات من القرآن على مزعومه قال: « ان محمداً كل ماطالبه قومه بأن يأتي لهم بمعجزة لاذ بالصمت أو تهرب من ذلك الطلب مكتفياً بقوله « انما أنا بشر مثلكم » « وانما أنا منذر » الى غير ذلك من العبارات، وسوف نقوم بتحليل هذه الايات التي استند اليها « انار كلي » في مزعومه .

أجل هكذا سعى الكتاب المسيحيون الى انكار معاجز الرسول ونفوا أن تكون له معجزة اخرى سوى القرآن فهل هم على حق فيما يزعمون ؟ بكل تأكيد لا ، لان المحاسبة العقلية ـ قبل أي دليل ـ تفند هذه المزعمة ، وتثبت نفس المحاسبة ان الرسول الاعظم كان صاحب معاجز اخرى عدا القرآن الكريم (معجزته الخالدة) اذن فما هذه المحاسبة واليك بيانها .

المحاسبة العقلية تفند مزعمة القساوسة

ان الرسول الاعظم ﷺ وصف نفسه بأنه خاتم الانبياء وان رسالته خاتمة الرسالات وكتابه خاتم الكتب ، حسبما اوردنا ادلته في هذا الباب في الجزء الثالث من هذه السلسلة[1].

ثم اخبر عن وقوع معاجز على ايدي الرسل والانبياء حيث قال في شأن موسى عليه السلام « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » (الاسراء ـ ١٠١) وقال ايضاً : « وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين » (النمل ـ ١٢) .

ثم انه عندما يتحدث عن المسيح ودعوته ، يصفه بوحي من الله بقوله : « ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابريء الاكمه والابرص

---

١) لاحظ الجزء الثالث من هذه السلسلة ص١١٨ ـ ١٨٠ .

واحيي الموتى باذن الله وانبئكم بماتاكلون وماتدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين » (آل عمران ـ ٤٩) .

ثم انه ﷺ لم يخص هذين النبيين العظيمين بالاتيان بالمعاجز بل اثبتها لكثير من الانبياء من قبله كما هو لائح لمن سبر احوالهم في القرآن المجيد.

وعند ذلك كيف يكون للنبي الاعظم وهو يخبر بهذه المعاجز للانبياء ويصف نفسه بانه خاتمهم وآخرهم، وافضلهم، اذا طلبوا منه اظهار المعجزة ان ينكص ويتهرب او يلوذ بالصمت ، اليس في مثل هذا مايوهن دعوته، وينقض اقواله؟

لو فرضنا ان النبي الاعظم ﷺ لم يكن الا نابغة من النوابغ الذين نهضوا لاصلاح امتهم متسترأ برداء النبوة، لماكان يصح منه ان يخبر بمعاجز للانبياء الماضين ثم ينكص هو نفسه عن الاتيان بمثلها ومع ذلك يزعم انه خاتمهم واكملهم ديناً، فكيف وهو نبي صدقاً وحقاً ، قد بانت دلائل صدق دعوته ، باوضح الدلائل واتقن البراهين ؟.

فالمحاسبة العقلية تحكم ببطلان مـازعمه القساوسة بل تثبت بكل قوة ان النبي ﷺ قد اظهر معاجز عديدة لقومه عندما طلبوا منه ذلك ، كيف والقرآن يصفه بما لايصف به احداً من انبيائه ، وهو يقتضي عقلا ان تكون له مثل مـا اوتي سائر الانبياء ، وان يكون قد اتى بها مبرهناً على صدق دعوته خصوصاً اذا توقفت هداية قومه على اظهار معاجزه .

ولهذا السبب كان منتحلو النبوة « كذباً » ينكرون معاجز الانبياء اويتاولونها تخلصاً مـن الاحراج اذا طالبهم الناس بالمعجزة ، على العكس مـن سيرة الرسول ﷺ واقواله الذي اخبر بصراحة عن معاجز الانبياء بالتفصيل كما اخبر ان دعوات الانبياء ماكانت تنفك عن طلب المعاجز منهم فما من نبي راح ينذر قومه الا وطالبوه بـان يظهر لهم معجزة يبرهن بها على صدق مدعاه وصدق رسالته ، وقد اسلفنا بعض الايات في هذا المورد .

القرآن يثبت للنبى معاجز غير القرآن

ان القرآن يخبر بصراحة عن وقوع معاجز غيرالقرآن على يدي الرسول الامين واليك الآيات القرآنية الواردة في هذا المورد :

١ ـ انشقاق القمر :

قال سبحانه : «اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل امر مستقر، ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر » (القمر ١ ـ ٤) .

اطبق المفسرون مثل الزمخشري في كشافه، والطبرسي في مجمعه والرازي في مفاتيحه على مايلى :

اجتمع المشركون الى رسول الله ﷺ فقالوا ان كنت صادقاً فشق لنا القمر فلقتين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ان فعلت تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، وكان ليلة بدر فسأل رسول الله ربه ان يعطيه ماقالوا فانشق القمر فلقتين ، ورسول الله ينادي يافلان يافلان اشهدوا .

وقال ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله شقتين فقال لنا رسول الله ﷺ اشهدوا اشهدوا .

ونقل عن ابن مسعود انه قال : والذي نفسى بيده لقد رايت حراء بين فلقتى القمر .

وعن جبير بن مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله حتى صار فلقتين على هذا الجبل ، وعلى هذا الجبل ، فقال ناس : سحرنا محمد ، فقال رجل : ان كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم .

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم عبدالله بن

مسعود ، وانس بن مـالك وحذيفة اليمان وابن عمر وابن عباس ، وجبير بن مطعم ، وعبدالله بن عمر وعليه جماعة المفسرين ، الى ان قال: فلايعتدبخلاف من خالف فيه لان المسلمين أجمعوا على ذلك ، والطعن في ذلك بأنه لووقع انشقاق القمر في عهد رسول الله لماكان يخفى على أحـد من أهـل الاقطار ، قول باطل فيجوز ان يكون الله تعالى قد حجبه عن أكثرهم بغيم وما يجري مجراه ، ولانهقدوقعذلك ليلا، فيجوز أن يكون الناس نياماً فلم يعلموا بذلك ، على ان الناس ليس كلهم يتأملون مايحدث في السماء وفي الجو من آية وعلامة فيكون مثل انقضاض الكواكب وغيره ممايغفل الناس عنه، وانما ذكرسبحانه اقتراب الساعة مع انشقاق القمر، لان انشقاقه من علامةنبوة نبينا، ونبوتهوزمانه من اشراط اقتراب الساعة »[1].

وما ذكره من الاعتذار فيعدم رؤية اكثر الناس انشقاق القمر مبني على ما كان يعتقده علماء الفلك في الازمنة السابقة من كون الارض مسطحة لاكروية بحيث اذا طلع البدر يطلع على الناس كلهم . واذا غرب غرب عنهم جميعاً في وقت واحد ، وهذا مرفوض لكروية الارض .

وقال الرازي : المفسرون باسرهم علىان المراد: ان القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الاخبار على حديث الانشقاق وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة وقالوا سئل رسول الله ﷺ آية الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقه ، ومضى .

وقال بعض المفسرين المراد سينشق ، وهو بعيد ولا معنى له لان من منع ذلك وهوالفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوزه لاحاجة الى التأويل وانما ذهب اليه ذلك الذاهب لان الانشقاق امرهائل ، فلووقع لعم وجه الارض

١) مجمع البيان ج٥ ص١٨٦ .

فكان ينبغي ان يبلغ حد التواتر، نقول : النبي لماكان يتحدى بالقرآن وكانوا يقولون انا نأتي بافصح ما يكون من الكلام وعجزواعنه فكان القران معجزة باقية الى قيام القيامة لايتمسك بمعجزة اخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر واما المورخون فتركوه لان التواريخ في اكثر الامر يستعملها المنجم وهولما وقع الامر قالوا بانه مثل خسوف القمر وظهور شيء في الجوعلى شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم، والقران ادل دليل واقوى مثبت له ، وامكانه لايشك فيه ، وقد اخبر عنه الصادق ، فيجب اعتقاد وقوعه،وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام ، وقدثبت جواز الخرق والتخريب على السماوات » [1].

وقال الزمخشري : ان انس بن مالك قال : ان الكفار سألـوا رسول الله آية فانشق القمر مرتين ، قال ابن عباس انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت ، وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر،وعن حذيفة انه خطب بالمدائن وقال : الا ان الساعة قد اقتربت وان القمر قد انشق على عهد نبيكم »[2].

هذه عبائر اشهر المفسرين الذين اسميناهم ومثلها غيرهم ، ونحن لايهمنا البحث في تفاسير هذه المعجزة ولا الاعتراضات الطفولية التي تثار حولها انما يهمنا ان نبحث في دلالة الايات المذكورة على وقوع هذه المعجزة العظمى على يد الرسول الكريم .

اما قوله سبحانه : اقتربت الساعة فمعناه ان الساعة اي القيامة قـد قربت وقرب موعد وقوعها وان كان الكفار يتصورنه بعيداً ، وقداشار القران الكريم الى هذه الحقيقة في موضع آخر حيث قال : « انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » (المعارج ٦ - ٧) .

---

١) مفاتيح الغيب ج٧ ص ٧٤٨ .

٢) الكشاف ج٣ ص ١٨٩ .

واما قوله : وانشق القمريدلعلىوقوع انشقاق القمرلانه فعلماض ولاوجه لحمله على المستقبل بان يكون المراد سينشق القمرفي المستقبل أي عند وقوع القيامة ، لان ارادة المضي من لفظ انشق اولى ، للمناسبة بينها وبين الجملة السابقة : « اقتربت » وحمل الثاني « انشق » على المستقبل نوع مجاز وان كان بادعاءكونه محققالوقوع، واما وجه الربط بين الجملتين فهو ما اشار اليه امين الاسلام الطبرسي فيمجمعه من ان انشقاقه من علامة نبوة نبينا ، ونبوته وزمانه من اشراط اقتراب الساعة .

وبهذا يكون القران قد اخبرفيهذه الاية عنتحقق هذين الشرطين «ظهور نبيالاسلام وانشقاقالقمربيده»وانهما من اشراط الساعةكما يقولفيايةاخرى: فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها » (محمد ـ ١٨) .

وعندئذ لامجال لحمل الجملة « انشق » على المستقبل .

اضف الى ذلك ان قوله تعالى« وان يروا آية يعرضوا عنها ويقولوا سحر مستمر» اوضح شاهد علىوقوع هذه المعجزة «انشقاق القمر» فيعهدالرسول لان المقصود من الاية فى قوله « وان يروا آية» غير القرآن من المعاجزبدليل انه يقول : « وان يروا » ولوكان المراد منالاية هىالايات القرآنية لكانااللازم ان يقول ، وان سمعوا آية او تنزلت عليهم آية، وعلى هذا تكون الايةالمرئية هى انشقاق القمر الذي سبق ذكره فى الاية السابقة .

ثم ان الدقـة والامعان فى قوله تعالى « يقولوا سحر مستمر» يقودنا الى الاذعان بان ظرفهذا الحدث«انشقاقالقمر» انما هوهذا العالم الدنيوي،وقبل بعث الناسوحشرهم حتى يكون مجال للناس لان يتفوهوا بغير الحق،ويقولوا هذا سحرمستمر، واما الاخرة فليس هناك لاحد ان يتفوه بغير الحق او يصف الاعجاز بالسحر اذ يختم فى ذلك اليوم على الافواه وتكلم الايدي و الارجل

قال سبحابه : « اليـوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم و تشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » (يس ـ ٦٥) .

بل لايؤذن لهم حتى يعتذروا فضلا عن ان يتكلموا بماسولت لهم انفسهم من الكذب والدجل، قال سبحانه : « هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون» (المرسلات ـ ٣٦) بل هناك تنكشف الحقائق وتظهر البواطن ويقف الانسان على الحقائق ببصرحديد قال سبحانه : «لقدكنت فى غفلة من هذا فكشفناعنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (ق ـ ٢٢) .

هكذا يدل هذا المقطع من الايـة على ان ظرف الانشقاق كان فى زمـن الرسول ، ولاجل ذلك اتخذ منه المشركون موقفاً متعنتاً مجادلا ، وقال قائلهم: سحركم ابن ابى كبشة ، حيث كان المشركون يدعون الرسول الاعظم بابن ابى كبشة وهو من اجداد النبى من ناحية امه[1].

٢ ـ معراج النبى

ان اسراء النبي ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى احدى المعاجز العظيمة التي اثبتها الله سبحانه لنبيه ، و اخبر عنه القرآن حيث قال : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير» (الاسراء ـ ١) .

وليست تلك الرحلة الطويلة التى تحققت في زمن قصير في ذلك الظرف الذى لم تكن تتوفر فيه ما يتوفر الان من وسائل النقل السريعة ، الامعجزة من معاجزه .

---

١) الدر المنثور ج٦ ص١٣٣ وقد جمع النقول الواردة عن الصحابة حـول شق القمر فلاحظ .

ان القرآن الكريم لايثبت هذا الاعجاز للرسول في هذا الموضع فحسب بل يذكرها في موضع آخر أيضاً ويدافع عنها هناك بقوة بحيث لايبقى معها شك، بل يخبر ان رحلة النبي ومعراجه تجاوز عن المسجد الاقصى الى «سدرة المنتهى». قال سبحانه «علمه شديد القوى، ذومرة فاستوى وهو بالافق الاعلى. ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين او ادنى. فاوحى الى عبده ما اوحى . ماكذب الفؤادمارأى. افتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وماطغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى». (النجم / ٥ ـ ١٨) .

ونحن لسنا بصدد القول في تفاصيل قضية المعراج بل يكفى في الاذعان بوقوعها وروده في هاتين السورتين مضافا الى الاحاديث المتواترة حول قضية المعراج ، وان لم تكن الخصوصيات بالغة الى هذا الحد من التواتر . بل حولها احاديث احاد غير جامعة لشرائط الحجية وقد قسم الطبرسي في مجمعه الاحاديث الواردة حول المعراج . الى اربعة اقسام فلاحظ .

* * *

٣ ـ مباهلة النبى لاهل الكتاب

تعرض القرآن لقضية المباهلة ، في الاية التالية : قال سبحانه : «فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (آل عمران ـ ٦١) .

قال الزمخشري في تفسير الاية لما دعاهم النبي ﷺ الى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر ، فلما تخالوا قالوا للعاقد وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح

ماترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من امر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ، ولانبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن، فان ابيتم الا الف دينكم والاقامة على ما انتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم ، فاتوا رسول الله ، وقد غدى محتضناً الحسين اخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي خلفها .

وهو يقول : اذا انا دعوت فأمنوا ، فقال اسقف نجران يا معشر النصارى انى لارى وجوها لو شاء الله ان يزيل جبلا من مكانه لازاله بها . فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولايبقى على وجه الارض نصراني الى يوم القيامة .

فقالوا : يا ابا القاسم رأينا ان لانبا هلك وان نقرك على دينك ، ونثبت على ديننا قال : فاذا ابيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ماعليهم فابوا ، قال فانى أنا جزكم فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على ان لاتغزونا ولاتخيفنا ولاتردنا عن ديننا على ان نؤدي اليك كل عام ألفي حلة . الف في صفر، والف في رجب وثلاثين درعا عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك . قال : والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على اهل نجران ولو لاعنوا لاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستاصل الله نجران واهله ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» .

ثم قال الزمخشري : ما كان دعاؤه الى المباهلة الا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك امر يختص به وبمن يكاذبه ، واماضم الابناء والنساء فلاجل ان ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض اعزته وافلا ذكبده ، واحب الناس اليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع احبته واعزته هلاك الاستئصال ان تمت المباهلة ، وخص الابناء والنساء لانهم اعز الاهل والصقهم بالقلوب

وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثم كانوا يسوقون مع انفسهم الضعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب ويسمون الذادة عنهم بارواحهم حماة الحقائق [١] .

ان معجزة النبي وهي حلول العذاب على نصارى نجران وان لم يتحقق بسبب انصراف النصارى عن المباهلة ، الا ان ذهاب الرسول الى المباهلة واستعداده لذلك من جانب، وانسحاب نصارى نجران من الدخول مع الرسول في هذا التباهل من جانب آخر ، يكشفان عن ان حلول العذاب كان حتميا لو تباهلوا ، فقد ادركوا الخطر واحسوا بخطورة الموقف ، فاستعدوا للمصالحة والتنازل .

* * *

٤ ـ مطالبة النبى بالمعاجز ، الواحده بعد الاخرى

ان القرآن يصرح بأن النبي كلمااتى لقومه بمعجزة طالبوه بمعجزةاخرى واصروا على ان تكون معاجزه مثلما اوتي رسل الله من قبل ، وهذا يدل على ان الرسول اظهر معاجز غير القرآن فوقع مورد الاعتراض والاصرار .

قال سبحانه : «واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله» (الانعام ـ ١٢٤) .

فلنقف على المراد من لفظ «آية» الواردة في هذا المورد . فليس المراد منها نفس القرآن ولا الاية القرآنية لان لفظ الاية كما ترى جاءت بصورة النكرة وهي تكشف عن نوع خاص منها ، بينما اذا كان المقصود هو القرآن

---

١) الكشاف ج١ ص٣٢٦ ـ ٣٢٧ (بتلخيص يسير) ولاحظ مجمع البيان ج١ ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

او الاية القرآنية ، كان ينبغي ان يكون الكلام على نحو آخر ، والاية نظير قوله سبحانه : «ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم» (يونس ـ ٩٧).

والمقصود منها «كل آية معجزة» تثبت صلة الرسول بالله سبحانه نظير قوله سبحانه : «ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك». (البقرة ـ ١٤٥).

ان لفظ الاية يستعمل في القرآن في موارد :

١ ـ العلامة المطلقة فيقال هذا آية ذلك، قال سبحانه : «وكأين من آية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله الاوهم مشركون» (يوسف /١٠٥ ـ ١٠٦) .

ومثله قوله سبحانه : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (الاسراء ـ ١٢) .

وقد استعمل لفظ الاية في هذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم. وتقصد من الاية، علامة الشيء ، اذا كانت دالة على وجوده سبحانه وصفاته ، أو ماذا كانت مقارنة مع العبرة كمافي قوله سبحانه : « فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » (يونس ـ ٩٢) .

٢ ـ الاية القرآنية مثل قوله سبحانه : « ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم » (آل‌عمران ـ ٥٨) وقوله سبحانه : « ليسوا سواءاً من أهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون »

(آل عمران ـ ١١٣)

٣ ـ المعجزة لا بمعنى ان الاية بمعنى المعجزة بل بمعنى نفس العلامة ولكن مقرونة بهذا الوصف وكأن لفظة المعجزة مقدرة بعدها، ومن هذا القبيل قوله سبحانه : « اني قد جئتكم بآية من ربكم أني اخلق لكم من الطين كهيئة

الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن‌الله» (آل‌عمران ـ ٤٩) .

وعلى الجملة فليس للفظ « الايـة » الا معنى واحد وانما الاختلاف في المستعمل فيه ، فيكون الشيء آيـة للعبرة أو آية لقدرته وعلمه أو آيـة لكون الاتي بها مبعوثاً من جانبه سبحانه الى غير ذلك، فالتمييز بين الموارد انماهو بحسب القرائن الحافة بالكلام .

وعلى ذلك فالمراد من قوله سبحانه : « واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتي رسل الله » هو العلامة الدالة على ان الاتي‌بها مبعوث من جانبه سبحانه، فتكون معجزة للناس وموجبة للتحدي .

ولو كان المراد الايـة القرآنية لكان الانسب بل المناسـب ان يستعمل كلمـة « النزول » بدل « المجيء » فيقال : واذا نزلت عليهم آيـة مكان «واذا جاءتهم آية » .

على ان الدقة في مضمون الاية والقرائن الحافة بها تعطي ان‌المقصود من لفظ الايـة هنا هو غير القرآن غايـة مافي الباب ان المشركين كانوا يريدون أن تكون المعاجز التي يأتي بها رسول الله ﷺ مثل المعاجز التي اتـى بها موسى مثلا .

وأما علة اختلاف الانبياء في صنوف المعاجز فسيوافيك بيانها في‌الفصل القادم .

* * *

٥ ـ وصف معاجز النبى بالسحر

ان هناك آيات تصرّح بأن المشركين كلمارأوا من الرسول ﷺ معجزة قالوا انها سحر وهذا أدلّ دليل على ظهور معاجز عدا القرآن على يد النبي الامين ﷺ .

أما هذه الايات فمنها قوله سبحانه : « واذا رأوا آيـة يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين » (الصافات ١٤ ـ ١٥) وكلمـة « رأوا » وتنكير لفظ « آية » شاهدان على أن المقصود من الاية هو غير القرآن من المعاجز، والا كان المناسب ان يستعمـل ألفاظ « النزول » أو « السماع » أو غير ذلك مكان « الرؤية » أوتبديل النكرة بالمعرفة ، نظير قوله سبحانه: « وانيروا كل آية لا يؤمنوا بها».

ولاجل ذلك نرى المفسرين يستشهدون بهذه الاية وغيرها على اثبات معاجز للنبي ﷺ غير القرآن الكريم .

* * *

٦ ـ النبى الاعظم وبيناته

تفيد الايـة التالية ان النبي الاعظم ﷺ جاء الى الناس بالبينات وهي المعاجز بقرينة سائر الايات الاخر التي استعملت فيها كلمة البينات في المعاجز قال سبحانه: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين» (آل عمران ـ ٨٦) .

والبينات جمع البينة بمعنى المبين لحقيقة الامر وربما يحتمل ان المراد منها هو القرآن أو البشائر الواردة فى الكتب النازلة قبل القرآن حول النبي الاكرم ﷺ ، ولكن ملاحظة الايات الاخر التي استعملـت فيها هذه الكلمة واريد منـه المعاجز والاعمال الخارقة للعادة ، توجب القول بأن المراد امّا خصوص المعاجز أو الاعم منها ومن غيرها . وقدورد فيمايلي من الايات لفظ «البينات» واريدت منها المعاجز .

قال سبحانـه : « وآتينا عيسى بن مريم البينات » (البقرة ـ ٨٧) ، « ثم

اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات» (النساء - ١٥٣) «اذ جئتهم بالبينات (المائدة - ١١٠)، « ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات » (المائدة - ٣٢) الى غير ذلك ممّا ورد فيه لفظ البينات واريد منه الخوارق للعادة فلاحظ المعجم المفهرس لفظة البينات .

ولانقول ان لفظ البينة بمعنى المعجزة بل هي كماعرفناك هوالدليل المبين للحقيقة والمعاجز أحد مصاديقها .

* * *

٧ ـ اخبار النبى عن الغيب كالمسيح

يعد القرآن الاخبار عن المغيبات من معاجز السيد المسيح عليه السلام ويقول: حاكياً عنه : « وانبئكم بماتأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين » (آل عمران ـ ٤٩) . وقد اخبر النبي محمد صلى الله عليه وآله عن طائفة من المغيبات بواسطة الوحي الذي يوحى اليه ، وجاءت عدة من هذه المغيبات في القرآن الكريم منها قوله مخبراً عن انتصار الروم بعد هزيمتهم « الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين» (الروم ١ - ٣) .

كماأخبر عن هزيمة قريش في بدر قال: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» (القمر - ٤٥) وقدجمعنا موارد اخبار النبي صلى الله عليه وآله عن المغيبات عن طريق الوحي في الجزء الثالث من هذه الموسوعة[1] فلاحظ .

* * *

١) معالم النبوة فى القرآن الكريم ص٤٥٥ الى ٥٥٦ وأيضاً ص٥٠٣ ـ ٥٠٩ .

٨ - معاجز الرسول الاعظم فى الاحاديث الاسلامية

ماذكرناه بعض ماورد من معاجز النبي الاكرم في القرآن غير انه ورد فى الاحاديث والروايات الصحيحة ماينص على ان الرسول اظهر معاجز غير القرآن أكثر من أن تحصى ، وقد جمعها وأحصاها علماء الحديث ودوّنوها فى كتبهم ، ومؤلفاتهم واجمع كتاب الف في هذا الموضوع ماجمعه الشيخ العاملي المتوفى عام ١١٠٤ هـ وأسماه (اثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) وقد نقل فيها معجزات النبي بمئات الاسناد، استخرجها من كتب الشيعة والسنة جزاه الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

على ان احاديث المسلمين حول معاجز نبي الاسلام تمتاز على روايات اليهود والنصارى حول معاجز انبيائهم من ناحيتين :

الاولى: قلة المسافة الزمنية بيننا وبين حوادث العهد النبوي وكثرتها بيننا وبين حوادث عهود النبيين موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهما وهذا يوجب الاطمئنان الى روايات المسلمين أكثر من غيرهم .

الثانية: تواتر الروايات الاسلامية حول معاجز النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وعدمه فى الجانب الاخر خاصة اذا عرفنا ان الروايات التي ينقلها اليهود والنصارى حول معاجز انبيائهم تنتهى الى أفراد قلائل .

وليعلم القارىء انا لسنا بصدد تصحيح كل مانسب الى النبي صلى الله عليه وآله من المعجزات وخوارق العادات سواء أصحّ سنده، أملا، اطابق كتاب الله أملا ، أوافق الاصول العقلية أملا، بل نحن بصدد نفي السلب الكلي الذي ادعاه أعداء القرآن والسنة .

هذا بعض مايمكن التحدث عنه هنا حول معاجز نبي الاسلام العظيم ، غير القرآن الكريم: «معجزته الخالدة» .

٣

تحقيق وتحليل

لمفاد الايات النافية للمعجزة

فى هذا الفصل

١ ـ الطرق العلمية الثلاثة لاثبات نبوة مدعي النبوة .

٢ ـ يجب على النبي أن يكون مزوداً بالمعاجز ولايجب عليه القيام بكل مايقترح الناس عليه .

٣ ـ انما يصح القيام بالمعجزة المطلوبة اذا تعلق الطلب بالامر الممكن لاالمحال ، وكانت بين الطالبين جماعة مستعدةللانضواء تحت راية النبي .

٤ ـ المعجزة نوع تصرف فى الكون ولاتتحقق الاّ باقدار واذن من الله سبحانه .

٥ ـ الهدف الاسمى من الاعجاز هو هدايةالناس فلوتعلق طلبالمقترحين بابادتهم لماصح القيام به .

٦ ـ هناك معاجز لو طلبها الناس ولميؤمنوا بالنبي بعد الاتيان بها لعمهم العذاب .

٧ ـ عرض الايات الثمانية عشر التي استدل بها القساوسة على عدم تجهز النبي بمعجزة سوى القرآن .

٨ ـ عدم قيام النبي بمقترحاتالطالبين بالمعجزة لفقدان الشرائط اللازمة فى القيام بمقترحات الطالبين، وهي عشرة .

مفاد الايات النافيـة للمعجزة

لاشك ان المعجزة احدى الطرق لاثبات دعوى النبي نعم الاعجاز أحدى الطرق لاالطريق الوحيد ، وقد قرر في الابحاث الكلامية بـأن هناك طريقين آخرين لاثبات دعوى النبوة :

الاول : تصريح النبي السابق بنبوة النبي اللاحق كما ورد التصريح في التوراة والانجيل بنبوة النبي الخاتم ﷺ ، وحكاه سبحانه في القرآن الكريم بقوله : «الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم فـي التوراة والانجيل» (الاعراف ـ ١٥٧) .

وقوله سبحانه : «واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل انـي رسول الله اليكم مصدقاً قالما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (الصف ـ ٥) .

والايتان تشيران الى تنصيص الكتب السابقة علـى نبوة النبي الخاتم ، فعلى من يريد الاهتداء فعليه ان يرجع الى تلكم الكتب التي تحتوى على بيان صفات النبي وخصوصياته حتى يكون ذا بصيرة في الامر ، فالايتان تنبهان بهذا الطريق الذي هو احدى الطرق .

الثانى : ملاحظـة القرائـن والشواهد من حياة مدعـي النبوة وشريعته ومحتوى كتابه وأصحابه واخلاقه وسوابقه وممارساته الى غير ذلك من القرائن

التي لو تضافرت لافادت اليقين بصدق دعوى المدعي للنبوة وانه صادق في ادعائه ، وهذا الطريق هو المتعارف في المحاكم القضائية لتمييز المحق عن المبطل وهو الطريق الاتقن والاكثر اطمئنانا .

وقد سلكنا هذين الطريقين في اثبات نبوة نبينا في ابحاثنا الكلامية .

وعلى ذلك فالا عجاز احدي الطرق لا الطريق الوحيد ومع الاعتراف بهذه الحقيقة ، يجب الفات القاريء الى النقاط التالية :

الاولى: هل يجب على النبي القيام بكل ما يقترحه الناس عليه من معاجز او انه يجب ان يتمتع بالدلائل المثبتة لصدق دعواه وبالمعجزات الساطعة التي تفيد القطع لكل من يريد الحقيقة ويتحراها دون غرض او مرض ، سواء اطابقت تلك المعاجز مقترحات من بعث اليهم أم خالفها .

وبعبارة اخرى يجب ان تبلغ معجزات النبي حداً يوجب طمأنينة النفس واستيقانها برسالته لكل من يطلب الحقيقة ويتوخاها ولايجب على النبي حتماً ان يقوم بالاتيان بكل ما يطلب منه .

ان العقل لايوجب أكثر من أن تكون دعوى النبوة مقترنة بالدلائل والشواهد التي تثبت صلة النبي ﷺ بالله سبحانه، وتكون كافية في افادة الاذعان بصدقهم واما قيامه بكل ما يطلب منه فلا دليل على وجوبه لامن العقل ولامن الشرع .

ومن هنا يتبين ان اللازم على النبي هو القيام باقناع الناس من حيث المجموع ، واما قيامه باقناع كل فرد فرد على حدة وتنفيذ طلبات آحاد الناس فلا دليل عليه ، ويشهد على ذلك حياة الانبياء فقد اعطى سبحانه لموسى الكليم تسع آيات بينات وللمسيح ما آتاه من المعجزات الواردة في قوله سبحانه : «أني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرىء الاكمه والابرص واحيى الموتى باذن الله وانبئكم بما تاكلون

وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين» .

(آل عمران ـ ٤٩)

أقول: ان الله سبحانه قد اعطاهما تلكم المعاجز ولم يكلفهما بالقيام باقناع كل فرد بالاتيان بكل ما يقترحه حسب ميوله واغراضه .

نعم لابد ان تكون معجزة كل نبي مشابهة لارقى فنون عصره وزمانه، والتي يكثر العلماء بها من اهل عصره ، فانه اسرع للتصديق، واقوم للحجة، فكان من الحكمة والصواب ان يخص موسى بالعصا واليد البيضاء لما شاع السحر في زمانه وكثر الساحرون ولذلك كانت السحرة اسرع الناس الى تصديق ذلك البرهان والاذعان به حين رأوا العصا تنقلب ثعبانا وتلقف ما يأفكون ثم ترجع الى حالتها الاولى، فرأى علماء السحر ذلك وعلموا انه خارج عن حدود السحر وآمنوا بانه معجزة الهية واعلنوا ايمانهم في مجلس فرعون ، ولم يعبأوا بسخط فرعون ولا بوعيده .

وشاع الطب اليوناني في عصر المسيح واتى الاطباء في زمانه بالعجب العجاب ، وكان للطب رواج باهر في سوريا وفلسطين لانهما كانتا مستعمرتين لليونان وحيث بعث الله المسيح في هذين القطرين شاءت الحكمة ان تجعل برهانه شيئاً يشبه الطب، فكان من معجزاته ان يحيى الموتى ويبريء الاكمه والابرص ليعلم أهل زمانه ان ذلك شيء خارج عن قدرة البشر وغير مرتبط بمبادىء الطب وانه ناشيء عما وراء الطبيعة .

واما النبي الاكرم ﷺ فقد برعت العرب في عصره في البلاغة وامتازت بالفصاحة ، وبلغت الذروة في فنون الادب حتى عقدوا النوادي واقاموا الاسواق للمباراة في الشعر والخطابة فلاجل ذلك اقتضت الحكمة ان يخص نبي الاسلام بمعجزة البيان وبلاغة القرآن ليعلم كل عربي ان هذا خارج عن طوق البشر

ويعترف به كل من يتوخى الحقيقه[١] .

نعم هناك وجوه اخر اقتضت جعل المعجزة الخالدة للنبي الخاتم هو القرآن وقد اوضحنا تلك الوجوه في ابحاثنا الكلامية .

نعم يجب ان تكون معجزة النبي مشابهة لارقى فنون العصر ، فقط ، واما لزوم قيامه بكل المقترحات والمطلوبات فلا ، لان الانبياء بعثوا لغرض التربية والتعليم ، وتجب عليهم مكافحة الجهل بالوسائل الصحيحة الكافية ، لا أن يأتوا بكل مطلوب لكل جاهل أو متجاهل حسب هوسهم .

كما يجب ان تكون دعوتهم مقترنة بالمعاجز حتى تحقق صلتهم بالله سبحانه ويتبين ان الله الحكيم هو الذي اعطاه تلك المقدرة ، ولو كانوا كاذبين لما جاز في منطق العقل والحكمة اقدارهم عليها ، لان في اقدار الكاذب على المعاجز ، اغراء بالجهل واشادة بالباطل وذلك محال على الحكيم تعالى فاذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوته سواء اطابقت مطلوب الناس أم لا .

واذا رأينا أن نبياً من الانبياء قد امتنع عن القيام ببعض المعاجز وبعبارة صحيحة : اذا لم يأذن الله له في الاتيان بها فانما هو لاجل انه سبحانه جهزه باوضح الدلائل وزوده باتقن المعاجز بحيث تكون كافية لكل من يتوخي الحقيقة ويطلب الواقع ، وليس عليه سبحانه ازيد من نصب الدلائل واقامة البراهين ، فلو ان القرآن يصف الانبياء بقوله : «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» . (البقرة - ٢١٣)

ويصف نبيه بقوله : «انما انت منذر ولكل قوم هاد» (الرعد - ٧) .

فلا تهدف تلك الجملة الا الاشارة الى ان وظيفته الاساسية انما هو التبشير والانذار المقترنين بالمعاجز الكافية ، وانه لا يجب عليه ان يستجيب لطلب كل

---

(١) البيان ص ٤٨ - ٤٩ .

من اقترح عليه امراً أو يطلب منه معجزه حسب هواه . وليست هذه الاوصاف نافية لاصل المعاجز من رأسها .

الثانية : انما يصح قيام النبي بالاتيان بالمعجزة المطلوبة منه اذا تعلق الطلب بالامر الممكن لا المستحيل لانه خارج عن اطار القدرة ، فعند ذلك لو طلب من النبي رؤية الله سبحانه جهرة او ولوج الجمل في سم الخياط فالسؤال ساقط من اساسه لاستحالة الموضوع .

* * *

الثالثة: انما يجب على النبي القيام بالاتيان بالمعاجز المطلوبة المقترحة عليه من قبل الناس، اذا كانت بين الطالبين بها جماعة مستعدة للانضواء تحت لواء الحق بعد ان شاهدوا المعجزة ، وأمّا لو كانوا يطالبون بها ويقترحونها عناداً ولجاجاً ومع ذلك يصرون على كفرهم وانكارهم حتى لو اتي بمطلوبهم فلا يجب على النبي الاجابة لدعوتهم لان الاتيان بالمعاجز في هذه الحالة يعد امراً لغواً وعبثاً وذلك لان الهدف من المعاجز أحد أمرين :

الاول: سوق الناس الى الله سبحانه عن طريق الايمان بنبوة النبي ﷺ ورسالته ، والمفروض ان تلك الغاية منتفية في المقام لان الطالبين بالمعاجز يشكلون جماعة متعنتة ومعاندة فلا يؤمنون وان اتي بأضعاف ما يريدون ويطلبون .

وأمّا الكلام في ان النبي ﷺ من أين يحصل له هذا العلم ويكشف أحوالهم فهو خارج عن هذا البحث .

الثاني : اتمام الحجة على الكافرين المعاندين المغرضين حتى لا يقولوا يوم القيامة ولا يحتجّوا على الله سبحانه بأنه ما جاءهم من بشير ولا نذير ، والمفروض ان تلك الغاية قد حصلت بالاتيان بسائر المعجزات التي جاء بها

النبي ﷺ من غيراقتراح لماعرفت من انه يجب تزويد النبي ﷺ وتجهيزه بالمعاجز سواءأ طابقت مقترحات قومه أم لا .

ان القارىء الكريم سيلمس تلك الحقيقة عند استعراض الايات التي رفض النبي فيها اجابة الطالبين بالمعاجز فان أكثرها واردة في ذلك المجال وانه لم يكن غرض الطالبين الاهتداء والانتفاع بها ، بل كانوا يطلبونها لاغراض اخر امّا تعجيزاً للنبي ﷺ بحسب أهوائهم أو تلاعباً بماسيصدر منه ﷺ .

الرابعة: ان المعجزةنوع تصرفي العالم والنبي بماله‌من‌ولاية تكوينية مكتسبةمنه سبحانه، يقدر علىالتصرف في الاكوان بأن يخلع صورة من‌المادة ويلبسها صورة اخرى كماخلع موسى الكليم صورة العصا من مادتها وألبسها صورة الثعبان باذن ربه . وكما بدل المسيح الصورة الطينية الى الصورة الطيرية ،كل ذلك باذنه سبحانه، وأمر منه ، وعند ذلك فليس لهم حرية مطلقة في الخلع واللبس والتنفيذ والتصرف وانما يفعلون ذلك باذن منه سبحانه ، قال الله تعالى: « وماكان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله » (الرعد ـ ٣٨) .

وبما انهذه الاية تعد نفس النبي ﷺ آتياً بالمعجزة، تدل على انالاتي بها والمتصرف فى الاكوان هو النبي ﷺ بماله من روح قدسية يقدر معها على ذلك الامر .

ولكنها تقيد تنفيذ النبي وتصرفه باذنه سبحانه فالاولياء وفي طليعتهم الانبياء لايشاؤون الا ماشاء الله ولايخرجون عن اطار مشيئته سبحانه .

فلورأينا ان النبي قد رفض بعض المقترحات فانما هو لاجل هذا السبب فلم‌يكن اذن من الله سبحانه بالقيام بتلك المعاجز المقترحة، وعدم اذنه سبحانه لاجل كون عمل النبي ﷺ لغواً لايترتب عليه أثر من هداية السائلين أواتمام

الحجة على المغرضين ، اذ المفروض ان السائليـن ليسوا في مقام الاهتداء ، والحجة قد تمت على المغرضين من قبل، ولاجل ذلك ليست هناك غاية صحيحة تبعث النبي الى القيام بالمعاجز .

* * *

الخامسة: ان الهدف الاسمى من الاعجاز هو هدايـة الناس الى الطريق المستقيم، فلو كانت نتيجة الاعجاز افناء الناس واهلاكهم ، لما صحّ في منطق العقل القيام بتلك الدعوة فلو طلب من الرسل أن يخسف الله بهـم الارض أو يسقط عليهم السماء كسفاً أو يبيدهم العذاب من وجه الارض فلا يصحّ القيام بذلك الطلب لان في اجابته نقضاً للغرض وافناءاً للهدف وهم عليهم السلام قد بعثوا لهداية الناس لا لابادتهم واهلاكهم، وسوف يلمس القارىء ان النبي صلى الله عليه وآله لو امتنع في بعض المواقف عن القيام ببعض المقترحات فقد كان لأجل ذلك الاصل الذي دل العقل على رصانته .

* * *

السادسة : قد دلت الايات الكريمة على أن هناك معاجز لو طلبها الناس من نبيهم وقام هو بمقترحهم ومع ذلك قد رفضوا الاعتناق بدينه والتصديق برسالته، سيصيبهم العذاب الاليم . قال سبحانه : « وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقـة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفاً » (الاسراء - ٥٩)

والمراد من الآيات المقترحة هى المعاجز التي طلبها اقوام الانبياء منهم ثم كذبوها فنزل العذاب عليهم بسبب تكذيبهم وسيوافيك بيان مفاد الاية في محلها وان اية معجزة يوجب تكذيبها نزول العذاب .

هذا من جانب ومن جانب آخر ان الله سبحانه وعد النبي برفع العذاب

الدنيوي عن هذه الأمة مادام هو فيها اكراما لمقامه وتعظيما لشأنه ، قال سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم » (الانفال - ٣٣)

وعلى ضوء هذين الامرين يتبين ان الامتناع عن القيام ببعض المعجزات المقترحة التي يستلزم تكذيبها نزول العذاب انما هو لاجل هذا الوعد القطعي الذي قطعه الله على نفسه لنبيه ، فكل معجزة يستلزم تكذيبها نزول العذاب فهي معجزة ممنوعة لاجل هذا الامان الذي اعطاه الله سبحانه لامة نبيه .

السابعة : ان شرط القيام بالمعجزة المطلوبة هو ان لاتكون الاجابة لطلب القوم سبباً لتحقير المعاجز الاخر وازدراءاً لها اذ في القيام في هذه الصورة نوع تصديق لموقف الخصم ، واغراء له في الضلالة ولاجل ذلك نرى النبي يجيب القوم عندما طلبوا منه معجزة غير القرآن بصورة التحقير لهذه المعجزة الخالدة الباقية على وجه الدهر بقوله : « فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين » (يونس - ٢٠)

الثامنة : ان الهدف من بعث الانبياء وتزويدهم بالآيات والبينات هو ايجاد الارضيات المناسبة لايمان قومهم واذعانهم بما جاء به الرسل اختياراً فان الايمان بل كل عمل حسن انما يعد كمالاً اذا اختاره الانسان وانساق اليه بصميم قلبه . واما اذا الجيء واضطر اليه بلا اختيار فلا يعد كمالا له ولا يستحق ثوابا .

ولذلك نرى في مورد يتمنى النبي (او يشعر كلامه بذلك التمنى) ان يأتي بآية ملجئة لهم الى الايمان وملزمة لهم على الاذعان اجابه سبحانه : « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقاً في الارض او سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (الانعام / ٣٥)

وسوف يوافيك شرح الاية وهدفها .

التاسعة : ان القيام بالطلب انما يصح اذا لم يكن المطلوب على خلاف السنة الالهية الحكيمة الجارية في الكون ، وعلى ذلك فلوطلب القوم ان يأتي لهم النبي بجنة وينبوع حتى يريحهم من الكد والكدح فلا يستحق هذا الطلب الاجابة لان سنته تعالى جرت على ارزاق الناس من طريق العمل والكسب وسيوافيك توضيح ذلك عند البحث عن قوله : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً .. » . (الاسراء ـ ٩٠)

العاشرة : انما يصح القيام اذا كان بين المطلوب والمقترح والرسالة الالهية رابطة منطقية حتى يستدل بالاول على الاخر ، وعلى ذلك فلو طلبوا من النبي ان يكون ذا ثروة طائلة فلا يصح للنبي الاجابة ، لان ثروة الرجل ليست دليلا على صحة منطقه ، وسيوافيك شرح ذلك عند البحث عن قوله سبحانه : « او يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً » .

(الاسراء ـ ٩١)

فلو ان النبي امتنع عن القيام ببعض المعاجز فانما هو لاجل هذا الاصل ، وانت اذا لاحظت هذه الامور تبين لك ان الآيات التي رفض فيها النبي القيام بمقترحات القوم ومطلوباتهم من المعاجز فانما هو لاجل فقدان احدى هذه الشرائط التي نعيد الاشارة اليها في مايلي باختصار :

١ ـ ان الواجب هو اقتران دعوة النبي بالدلائل والمعاجز الكافية حتى تفيد الاذعان بصدق دعوته لا القيام بكل معجزة تقترح عليه من احاد الامة .

٢ ـ لو اقتضت الحكمة الالهية قيام النبي بمقترحات قومه فانما تصح عقلا الاجابة لها اذا تعلق الطلب بالامر الممكن لا المستحيل ، فعدم الاجابة للمقترح المستحيل لايدل على انه لم يزود بالمعاجز .

٣ ـ انما يجب على النبي القيام بالمعاجز اذا دلت القرائن على ان الهدف

من طلبها هو الانضواء تحت لواء الحق والاهتداء بها لا طلبها عناداً ولجاجا وتلاعبا بشأن النبي ومعجزاته .

٤ ـ الاعجاز نوع تصرف في الا كوان يقوم به النبي بأذن منه سبحانه ولا يصدر الاذن منه في كل الاحايين والاوقات وانما يصدر فيما اذا كانت هناك مصلحة مقتضية للتصرف .

٥ ـ ان الهدف من الاعجاز هو هداية الناس فلو تعلق الطلب باهلاكهم وابادتهم لم تكن اجابته صحيحة في منطق العقل لكونها نافية للغرض .

٦ ـ ان المعاجز التى يستلزم تكذيبها نزول العذاب الاليم كما نزل على الامم السابقة لايصح للنبي القيام بها لانه سبحانه كتب على نفسه دفع العذاب عن الامة مادام النبي فيهم . وهذا الوعد القطعى الالهى يمنع عن القيام بتلكم المقترحات .

٧ ـ ان كل معجزة مطلوبة صارت سبباً لتحقير المعاجز الاخرى وازدراءاً لها لايجب على النبي في منطق العقل القيام بها لان فيه نوع تصديق لموقفهم المتعنت .

٨ـ ان الايمان انما يعد كمالا اذا دفع اليه الانسان باختياره واذا كانت الاية المطلوبة او المتمناة سببا لايمانهم الالجائى فلا يجب بل لايحسن فى منطق العقل القيـام بها .

٩ ـ انما يصح للنبي ان يقوم بمقترح قومه اذا لـم يتعلق طلبهم بما يكون على خلاف السنة الحكيمة الجارية في الكون والحياة .

١٠ ـ انما يصح ايضا القيام اذا كان بين المطلوب والرسالة رابطة منطقية بحيث يصح الاستدلال باحدهما على الاخر فلو كانت الرابطة مفقودة فلاتصح في منطق العقل اجابة الاقتراح .

وانت اذا استعرضت الايات التى استدل بها كتاب المسيحيين والمستشرقون

على انه لم يكن للنبي الخاتم معجزة غير القرآن تقف وقوف مستشف للحقيقة على ان عدم قيامه بالمعجزات والآيات التى كانوا يطلبونها منه كان لاجل احدى هذه العلل اوما يضاهيها واليك استعراض هذه الآيات واحدة بعد اخرى حتى تتجلى الحقيقه باجلى مظاهرها .

* * *

« استعراض الايات التى استدل بها القساوسة »

الاية الاولى :

قال سبحانه : « وقال الذين لايعلمون لولايكلمنا الله اوتاتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الايات لقوم يوقنون » .

(البقرة - ١١٨)

الظاهر ان القائلين هم مشركوا العرب بقرينة قوله : « الذين لايعلمون » مشيراً الى انهم ليسوا من أهل الكتاب. واستقربه الطبرسي فى مجمعه[١] .

وهذه الاية تدل على انهم طلبوا من النبي امرين :

أ /لولا يكلمهم الله سبحانه ؟

ب /لماذا لاتأتي الاية اليهم أنفسهم ؟

وكلا السؤالين ساقطان فى منطق العقل ، بملاحظة الشرائط المصححة لطلب الاعجاز التي مرّت .

اما السؤال الأول :

فان كان مرادهم هلايكلمنا الله معاينة فهومحال لانه يستلزم جسمانيته سبحانه.

---

١) ج١ص١٩٥ .

وان كان مرادهم تكليمهم مخبراً بان مدعي النبوة نبي ولكن لابالمعاينة بل باحدى الطرق المألوفة من اسماعهم فهو وان كان امراً ممكناً لكنه لايفيدهم الاذعان ، اذ من الممكن اتهام ذلك الاسماع بالسحر كما قالوا ذلك فى غير هذا المورد .

واوضح فى البطلان لوكان مرادهم لولايكلمنا الله مثلما كلم موسى وغيره من الانبياء، فان هذا يستلزم نزول الوحي عليهم، وهو يتوقف على توفر شرائط معينة وهي غيرموجودة الا في افراد قلائل .

ولايقل عنه فى البطلان لوكان مرادهم سماع الوحي النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فان السماع متوقف ـ كذلك ـ على توفر الشرائط غيرالموجودة فى المشركين . وعلى فرض الاسماع لايفيدهم الاذعان لامكان اتهامه بالسحر أيضاً .

وهذه الوجوه الاربعة محتملات لقولهم «لولايكلمنا الله» ، وهي كماترى غيرمستحقة للاجابة بل جديرة بالاعراض .

أضف الى ذلك ان المحتمل الثالث (وهو تكليم الله اياهم كتكليمه سائر الانبياء) يستلزم لغوية بعث الانبياء الذي جرت عليه سنة الله من لدن نزول آدم الى الارض .

وقد نقل هذا السؤال فى مورد آخر، حيث حكاه سبحانه بقوله: «بل يريد كل امرىء منهم ان يؤتى صحفاً منشرة » (المدثر ـ ٥٢)، وكأن كل واحد من افراد المشركين يتوقع انتنزل عليه صحائف فيها تكاليفه، وهي تؤيد انمرادهم من تكليمه اياهم هو المحتمل الثالث .

هذا كله حول السؤال الاول .

وأما السؤال الثاني أعني قوله: « اوتأتينا آية »، فهو يشير الى انهم طلبوا

من النبي ﷺ ظهور المعاجز على ايديهم وهذا السؤال سخيف جداً اذ ظهور المعاجز على ايديهم يتوقف على توفر شرائط غيرموجودة فى المشركين ولا فى غيرهم الا فى افراد قلائل أعني الانبياء والمرسلين .

ويحتمل ان يكون المراد « ان يأتي النبي بآية موافقة لطلبهم» ويشير اليه قوله فى ذيل الايـة « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهـم » حيث اقترح اليهود الايات على موسى والنصارى على المسيح .

ولكن عدم اجابة النبي ﷺ لاقتراحهم لانه كان فيما أتى بـه من الحجج والمعاجز الباهرة كفايـة لمن كان بصدد تحصيل اليقيـن ولمن ترك التعنّت والعناد .

والى هذا الجواب اشار سبحانـه فى ذيل الايـة « قد بيّنا الايات لقوم يوقنون » .

على انه من المحتمل ايضاً ان تكون الايات المطلوبة من النبي ﷺ من الامور المستحيلة، ويقرب ذلك قوله سبحانه فى نفس الاية: «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم» ومن المعلوم ان اليهود طلبوا من موسى رؤية الله جهرة .

وقوله سبحانه «تشابهت قلوبهم» يشير الى ان سؤالهم كان أشبه بسؤال من تقدمهم فى الكفر والقسوة والتعنت والعناد ، ولذلك قال سبحانه، فى موضع آخر: «كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الاّ قالوا ساحر أو مجنون . اتواصوا بـه بل هم قوم طاغون فتولّ عنهم فما انت بملـوم » (الذاريات ٥٢ - ٥٤) .

والحاصل ان ذيل الاية يشير الى ان الواجب على الله فى هداية الناس هو بعث الانبياء وتزويدهم بالدلائل والمعاجز التي تثبت بوضوح صلتهم بالله

وصدق مقالتهم، واما اجراء المعاجز المطلوبة منهم على ايديهم فليس بواجب في منطق العقل اذ لمن يريد تحصيل اليقين كفاية فيما اتوا به من المعاجز .

* * *

الاية الثانية

قال سبحانه : « يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبينا» (النساء ـ ١٥٣) .

ان الاية تدل على ان اهل الكتاب سألوا النبي ان ينزل عليهم كتاباً من السماء وهذا السؤال يحتمل وجوهاً نأتي بجميعها ، وسوف يرى القارىء ان الوجوه المحتملة كلها غيرجامعة للشرائط المصححة لقيام النبي باجابة طلبهم، واليك هذه الاحتمالات :

١ ـ انيعرج النبي الى السماء ويرجع مع كتاب اليهم وقدسأل المشركون نظير ذلك حيث حكى الله سبحانه عنهم في سورة الاسراء اذ قال : « اوترقى في السماء ولننؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأوه » (الاسراء ـ ٩٣) وكيفية السؤال هذه، تدل على انهم لم يكونوا بصدد كشف الحقيقة ، لان في واحد من الامرين (العروج الى السماء وحده، اونزول الكتاب الى النبي مع عدم عروجه) كفاية ، فطلب الامرين معاً يكشف عن انهم لم يتخذوا لانفسهم موقف المتحري للحقيقة، بل كانوا يتبعون في سؤالهم هوسهم، وهواهم .

٢ ـ انينزل النبي عليهم انفسهم كتاباً من السماء مكتوباً كماكانت التوراة مكتوبة من عندالله في الالواح حتى يروا نزول الكتاب من السماء بام أعينهم.

ولكن هذا الاحتمال أيضاً ينبيء عن انهم اتخذوا لانفسهم موضع اللجاج والعناد كما ينبيء عن ذلك تشبيه هذا السؤال بسؤال بني اسرائيل من نبيهم موسى حيث قال : « فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة » وعندئذ لايجب فى منطق العقل الاجابة على هذا السؤال، لان موقف السائل لو كان موقف المستشف للحقيقة لاكتفى بمازوّد به النبي من المعاجز ، ولما شبه الله سبحانه سؤالهم بسؤال بني اسرائيل من نبيهم، علم منه انهم لم يكونوا فى موقف المتحري للحقيقة .

أضف الى ذلك انه لوقام النبي بهذا الاعجاز كان من المحتمل جداً ان لايؤمن به اهل الكتاب أيضاً، وعندئذ يسقط القيام بالاعجاز لماقلنا أنه انما يجب القيام بالمعاجز المقترحة اذا كان هناك مظنة ايمان السائل .

ويدل على ما ذكرنا من الاحتمال انه سبحانه يقول : « ولونزّلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الاّ سحر مبين » (الانعام - ٧) .

وليس لقائل ان يقول ان هذه الاية واردة فى حق المشركين ولم يعلم وحدة تفكيرهم مع اهل الكتاب، وذلك لان المراد من اهل الكتاب فى الاية هم اليهود القاطنون فى المدينة وماحولها، وهم كانوا اشد الناس عناداً ولجاجاً فى حق النبي بدليل ان اكثر المشركين اعتنقوا الاسلام واختاروه دونهم اذ بقوا على شريعتهم، ولم يؤمن الا قليل منهم .

ثم ان في الاجابة على هذا الاقتراح ضربا من الاهانة للقرآن والاستهانة به فان طلب نزول الكتاب عليهم من السماء ، ينبيء عن ان القرآن النازل على قلب النبي لم يكن كافياً فى اثبات نبوته ، وتصديق رسالته وانما يجب التصديق اذا رئي نزول القرآن بام الاعين .

على ان كيفية السؤال تنبىء عن الاعتقاد الفاسد وهو ان الله تعالى جسم واقع فى السماء، ولاجل ذلك اقترحوا على النبي ان ينزل الله سبحانه كتاباً من السماء يرون نزوله برأي العين .

ولنفترض قيام النبي ﷺ باجابة هذا السؤال او ليست تلك الاجابة توجب ان يطمع الاخرون فى هذا الامر ويطلبوا من النبي ان يفعل لهم مافعل لغيرهم ، المرة بعد المرة ، والكرة بعد الاخرى . مع كثرة القبائل وتعدد البطون، وعندئذ تصبح النبوة العوبة بأيدي الجهال ويصبح مثله كمثل المرتاضين والسحرة الذين غدوا اداة طيّعة لترفيه الناس .

هذه الوجوه ترد على هذا المحتمل من السؤال غير ان هاهنا اشكالا آخر وهو انه لوقام النبي ﷺ بهذا الوجه من السؤال وهو ان ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً كماكانت التوراة مكتوبة من عند الله فى الالواح ـ اذ على هذا الوجه ـ لفاتت المصالح المترتبة على نزول القرآن تدريجياً ، فان لنزول القرآن نجوماً عللا وغايات اشير اليها فى الكتاب العزيز كما اشير الى اعتراض من المشركين بانه لماذا لاينزل عليه القرآن جملة واحدة، قال سبحانه: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولايأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً» (الفرقان ٣٢ ـ ٣٣) اذ فى نزول القرآن نجوماً أسرار قد اشير فى الاية الى واحد منها وهو تثبيت فؤاد النبي ﷺ . فنزول القرآن مكتوباً مرة واحدة يوجب فوات فوائد موجودة فى النزول التدريجي واليك بعض هذه الاسرار والفوائد :

أ / تثبيت فؤاد النبى

ان النبي اذا كان يتحمل مسؤلية ضخمة جداً وكان يواجه فى هذا السبيل

صعوبات ومشقات،كان لابد له من امداد غيبي غيرمنقطع ونجدة الهيـة متصلة ولهذا كان نزول الوحي تدريجياً موجباً لتسلية النبي وتقوية روحه وعزيمته ، والى هذا أشار القرآن اذقال:«كذلك لنثبت به فؤادك» (الفرقان- ٣٢) .

ب/ تسهيل عملية التعليم

ان صعوبة مهمة التعليم كانت تقتضي ان يتنزل القرآن شيئاً فشيئا ليسهل تعليمه للناس ، والقاؤه اليهم ،كيف لا والنبي طبيب يعالج النفوس ويداوي الارواح وذلك يقتضي التدرج فى العلاج .

وان شئت قلت: ان أفضل الطرق للتعليم والتربية هو ان يتعانق ويتصافق الفكر والعمل ويتزامن التعليم والتطبيق وان يردف المربي ما يلقيه بالعمل ، وهذا لايتحقق الا بنزول القرآن تدريجياً وحسب الحوائج والاسئلة ، ويفوت ذلك فى نزوله مكتوباً جملة واحدة .

ج/التدليل على صدق الرسالة

ان التدرج فى التنزيل احد الادلة الساطعة على صدق القرآن فى انتسابه الى الله وانـه وحي سماوي لا تأليف بشري اذ ان نزول الايات فـى مواسم وظروف متفاوتة مع حفظ النمط الخاص به، (رغم مايواجه به الرسول ﷺ فى حياته الرسالية من شدة ورخاء، وهدوء واضطراب ، وسلم وحرب)، خير دليل على ان هذا الكلام ليس الا وحياً يوحى اليه من اله قادر حكيم محيط خالق عالم. فيكون ذلك أظهر برهان لعظمة القرآن، وأقوى دليل علىاعجازه فهل فى وسع النبى أو في وسع المنطق ان يرفض تلك المزايـا ويصغي الى مقترحات اهل الكتاب بانزال الكتاب مكتوباً جملة واحدة على غرار التوراة والانجيل .

٣ ـ وربما يفسر قولهم « ان تنزل عليهم كتاباً من السماء » بأنهم سألوا النبي أن ينزل على رجال منهم باعيانهم كتاباً يأمرهم الله تعالى فيها بتصديقه واتباعه [١] .

ونقله فى الكشاف بقوله: « ان ينزل كتاباً الى فلان وكتاباً الى فلان بانك رسول الله» [٢] .

ومن المعلوم ان هذا السؤال يكشف عن تعنتهم وعنادهم فى سبيل الحق ولوقام بـه النبي ولبى طلبهم لطمع الاخرون فى ذلك وصارت النبوة العوبة بأيدي الناس .

* * *

الاية الثالثة

قال سبحانه: «وقالوا لولانزّل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن أكثرهم لايعلمون » (الانعام ـ ٣٧) .

وهذه الايـة مما تمسك بها الملاحدة على المسلمين فقالوا تدل على ان الله تعالى لم ينزل على محمد آيـة اذ لو نزلها لذكرها عند سؤال المشركين اياها [٣] .

وقدصاغ رجال التبشير هذا الاشكال فى قالب خاص وقالوا بأن الاية تدل على انـه كلماسئل محمد عن المعاجز اعرض عن السؤال وقال : ان الله قادر على الانزال كماورد فى هذه الاية ومعلوم ان هذا الجواب لايكفي للسائل لان

---

١) مجمع البيان ج٢ ص١٣٣ .
٢) الكشاف ج١ص٤٣٤ .
٣) مجمع البيان ج٢ص٢٩٦ .

قدرته سبحانه على الاتيان غير منكرة وانما السؤال هو طلب خروج هذا الامكان الى مرحلة الفعلية، فالجواب الوارد فى الاية لايدفع الاعتراض .

أقول: تحقيق مفاد الاية يتوقف على البحث حول أمرين :

الاول: لماذا لم يجب النبي دعوتهم، ولم يقم بالاتيان بمطلوبهم .

الثانى : كيف يرتبط الجواب الوارد فى الاية أعني قوله : « قل ان الله قادر على ان ينزل آية » بكلامهم أعني: « لولا نزل عليه آية من ربه » .

فنقول: أما الامر الاول ان الايات المتقدمة على هذه الاية تدل بوضوح على ان الطالبين لم يكونوا بصدد الايمان وطلب الحقيقة فلاحظ قوله سبحانه قبل هذه الاية اذ يقول: « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقاً فى الارض أوسلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون» (الانعام ٣٥ - ٣٦) .

وهاتان الايتان الواردتان قبل هذه الاية تكشفان عن انه ماكان يرجى ايمان المعترضين واذعانهم ولاجل ذلك يخاطب سبحانه نبيه بأنك ان قدرت وتهيأ لك ان تتخذ طريقاً الى جوف الارض أوسلّماً في السماء فتأتيهم بآية « فافعل ذلك لكنهم لايؤمنون لك»[1] .

ثم يضيف سبحانه ويشبههم بالموتى ويقول : « انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله» مريداً ان هؤلاء لايصغون اليك فهم بمنزلة الموتى فكل انسان عاقل ، آيس من ان يسمع الموتى كلامه فهولاء بمنزلتهم لا يستجيبون لك ومعنى الاية: انما يستجيب المؤمن السامع للحق فاما الكافر فهو بمنزلة الميت فلايجيب الى ان يبعثه الله تعالى يوم القيامة ليلجئه الى الايمان

---

١) هذا جواب الجملة الشرطية الواردة فى الاية، حذف لمعلوميته .

اضف الى ذلك أنه يحتمل ان يكون مقترحهم احد امرين:

الاول : ان يكون مقترحهم نزول الملك عليهم كما يحكي عنهم سبحانه في تلك السورة ويقول : «وقالوا لولا انزل عليهم ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وللبسنا عليهم مايلبسون » (الانعام ٨ ـ ٩)

ان نزول الملك يمكن ان يتم باحدى الصورتين:

١ ـ نزول الملك بصورته الواقعية ومن المعلوم ان رؤية الملك بهذا الشكل متوقفة على توفر شرائط في الناظر، وهم كانوا فاقدين لها، ومن الممكن جداً ان تستلزم تلك الرؤية القضاء عليهم بالموت كما قال سبحانه : «ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون»

قال العلامة الطباطبائي : ان نفوس المتوغلين في عالم المادة لاتطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم واختلطوا بهم لكون ظرفهم غير ظرف الملائكة فلو وقع الناس في ظرفهم لم يكن ذلك الا انتقالا منهم من حضيض المادة الى ذروة ماوراها وهو الموت كما قال تعالى : « وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة اونرى وربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيراً . يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً» (الفرقان ـ٢٢)[1]

ولاجل ذلك قال في مورد الاية «ولو انزلنا ملكا لقضي الامر »

٢ ـ نزول الملك بصورة الانسان وحينئذ لايفيد ذلك اذعاناً بان هذا ملك مجسد في صورة الانسان بل زعموا أنه انسان داع الى الله اومصدق لنبيه، شاهد

---

١ ـ الميزان ج٧ ص١٦ .

على نبوته والى ذلك يشير سبحانه«ولو جعلناه ملكالجعلناه رجلاوللبسنا عليهم مايلبسون»

الثانى : يحتمل ان يكون مقترحهم هو الذي حكى الله عنهم في سورة الفرقان بقولـه : « لـولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً اويلقى اليـه كنز اوتكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحوراً» (الفرقان ـ ٨) وحكاه عنهم ايضا في سورة الزخرف حيث قال: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (الزخرف ـ ٣١)

ومن المعلوم ان كون الرجل ذا ثروة طائلة لايكون آية لصحة دعوته، والا لكان كل ثري نبياً .

وبهذه الملاحظات يذعن القارىء بانه لم يكن المقام مظنـة القيام بطلب المدعو لما عرفت من الشرائط المصححة لاجابة النبي

الى هنا تبين أن عدم قيام النبي بالاجابة لمقترحهم لاجل ماعرفت في بعض المقدمات من ان شرط القيام بالطلب هو كون الطالب بصدد تحصيل الايمان وكشف الحقيقة لا التعنت والعناد وهؤلاء بحكم هاتين الايتين لم يتخذوا موقفا سوى العناد واللجاج.

واما الجواب عن السؤال الثاني الذي ركن اليـه المستشرقون وقالوا : بان الجواب الوارد في الاية لايرتبط بالسؤال لان السؤال عن الوقوع والجواب بالامكان فنقول : ان هذا الاعتراض ينشا من عدم الاطلاع على عقائد العرب الجاهليين في باب التوحيد، فان طائفة من المشركين وان كانوا يوحدون الله تعالى في ذاتـه ويقولون انه واحد ،كما يوحدونه في الخالقية ويعتقدون بانه لاخالق سواه ولكن كانوا مشركين في مسألة التدبير والربوبية التي هي احدى شعب التوحيد ، وحاصل عقيدتهم ان الله سبحانه ترك امر التدبير الـى الهة

صغيرة فهم الذين يقومون بتدبير الكون وتصريف الامور وانه سبحانه تخلى عن مسندا لقدرة وتدبير العالم بكافة شؤونه وفوض الامر اليهم، ولاجل ذلك كانوا يعبدونها زاعمين بانهم يدبرون العالم وينزلون المطر الى غير ذلك من مظاهر التدبير .

هذا من جانب ومن جانب آخر اعتقدوا بان النبي اذا رفض عبودية هؤلاء الالهة وشجب عبادتها فحينئذ لايوجد ـ حسب اعتقادهم ـ من يجري الاعجاز على يده فان الله سبحانه منعزل عن تدبير الكون ، واما هؤلاء الالهة فقد نفاهم محمد وصار مغضوباً عندهم فصارت نتيجة ذلك ان الله تعالى حسب انعزاله عن التدبير غير قادر على انزال الاية المعجزة فعند ذلك اجاب القرآن رداً على زعمهم «قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن اكثرهم لايعلمون»

ولذلك حقر السائلون آله محمد ﷺ بقولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه» ولم يقولوا من ربنا اومن الله ، فهذا الازدراء اكبر دليل على انهم كانوا يعتقدون على أن الاله الذي يدعو اليه محمد ﷺ مسلوب القدرة عندهم فعندئذ صح ان يجاب بجملة : « قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن اكثرهم لايعلمون»

ومن الممكن ان يكون المشركون متأثرين بعقيدة اليهود الذين قالوا : يد الله مغلولة ، (المائدة ـ ٦٤) وانه سبحانه غير قادر على تغيير الكون وخرق العادة ولاجل ذلك يجيب سبحانه ان الله قادر على ان ينزل اية .

ثم ان لصاحب المنار كلاما في تفسير الاية يشير الى بعض ما ذكرناه فلاحظ[1] .

* * *

١) المنار ج ٨ ص ٣٨٧ .

الاية الرابعة :

قال سبحانه: «وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض اوسلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين» (الانعام ـ ٣٥)

استدل بعض الكتاب المسيحيين بهذه الاية على أمرين:

الاول : انه سبحانه يعاتب بهذه الاية نبيه ﷺ مع ان مكانته عند المسلمين فوق العتاب .

الثاني : ان الاية تشهد على ان النبي ﷺ كان حزينا لعدم اعطائه اية معجزة له موجبة لايمان قومه . وهذا يضاد ماعليه المسلمون من انه ﷺ كان صاحب معجزات وكرامات غير القران .

ولكن الاستنتاجين باطلان جداً وقد نبعا من عناد الكاتب للنبي الاكرم صلى الله عليه وآله وبغضه له ، وليست في الاية اية دلالة عليهما

اما الامر الاول فلان النبي ﷺ كان يهتم بايمان قومه وهدايتهم، وتدل على ذلك ايات في الكتاب العزيز،

١ ـ « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»(التوبة ـ ١٢٨)

٢ ـ « وماأكثر الناس ولوحرصت بمؤمنين » (يوسف ـ ١٠٣) .

٣ ـ « ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين» (النحل ـ ٣٧) .

وهذه الايات تكشف عن حرص النبي على هداية قومه ولكن القوم كانوا في منأى عن قبول دعوته، لامتلائهم بالعناد واللجاج .

فالاية بصدد تهدئة خاطره ﷺ بان اصراره في هدايتهم غير مجد لانهم موتى والموتى لايسمعون شيئاً ولاجل ذلك قال سبحانه بعد هذه الاية: « انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه ترجعون» (الانعام ـ ٣٦) فانهم بمنزلة الموتى لا شعور لهم ولا سمع حتى يتأثروا بالدعوة الالهية ويسمعوا نداء النبي لهم، فهذه الهياكل من الناس صنفان:

صنف منهم احياء يسمعون، وهؤلاء يستجيبون لدعوة الهداة المخلصين.

وصنف منهم اموات لايسمعون وانكانوا ظاهراً بصورة الاحياء. وهؤلاء لايسمعون الاّ ان يبعثهم الله، فيسمعون مالم يستطيعوا سمعه في الدنياكما حكاه الله عنهم « ولوترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً انا موقنون» (السجدة ـ ١٢) وقال سبحانه: « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (ق ـ ٢٢) وقال سبحانه : « انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاءاذا ولوا مدبرين، وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (النمل ٨٠ ـ ٨١) والاية تدل على ان الكفار والمشركين سيفهمهم الله الحق ويسمعهم دعوته في الاخرة كما أفهم المؤمنين وأسمعهم في الدنيا، فالانسان مؤمناً كان أوكافراً لا مناص له عن فهم الحق عاجلا أوآجلا[1].

فاي كلمة اوجملة تدل على عتاب النبي وزجره، فانما هو تهدئة من الله سبحانه لنبيه ﷺ وانه قام بوظيفيه الرسالية احسن قيام، والتقصير انما هو في قومه المعاندين .

واما الثاني اي دلالة الاية على عدم اعطاء النبي ﷺ أية معجزة ، فهو

---

١) الميزان ج٧ ص٦٦ .

غفلة عن معنى الاية لما عرفت من ان الاية تمثل مدى اهتمام النبي بهداية قومه وتبين مقدار حرصه على اسلامهم، وتهالكه في اسعادهم ، وانه قد بلغ في ذلك الحرص مبلغا لو استطاع ان يستخرج لهم من بطون الارض اومن فوق السماء آية لفعل واتى بها حتى يؤمنوا وعلى ذلك فالاية التي يتمناها النبي هي الاية التي تكون ملجئة لهم الى الايمان وتجرهم الى الاذعان من غير اختيار ، فمعنى الاية ايها النبي قد بلغت في اهتمامك بهداية الناس مبلغاً ان قدرت وتهيأ لك أن تتخذ نفقاً في الارض اومصعداً في السماء فتأتيهم بآية وحجة تلجئهم الى الايمان وتجمعهم على ترك الكفر «لفعلت » او« فافعل ذلك » ولوشاء الله « لجمعهم على الهدى » بالالجاء واعطاك تلك المعجزة الملجئة الى الايمان ولكن لم يفعل ذلك لانه ينافي الغاية المتوخاة من التكليف ويسقط استحقاق الثواب .

وان شئت قلت : ان الاية تهدف الى أنه لاينبغى للنبي ان يكبر ويشق عليه اعراضهم فان الدار دار الاختبار ، والدعوة الى الحق وقبولها جاريان مجرى الاختيار ، وان النبي لايقدر على الحصول على الاية الملجئة الى الايمان لانه سبحانه لم يرد من الناس الايمان الاعلى اختيار منهم ، فلم يعط للنبي آية تجبر الناس على الايمان والطاعة، ولوشاء الله لامن الناس (على طريق الالجاء) جميعاً، والتحق هؤلا الكافرون بالمؤمنين ولكن تلك المشيئة غير واقعة لانها على خلاف السنة الحكيمة التي عليها افعاله سبحانه .

وبذلك يتبين ان الاية انما تنفى المعجزة الملجئة الى الايمان بقرينة قوله : «ولوشاء الله لجمعهم على الهدى» لا المعجزة التي يكون الافراد تجاهها مختارين في الايمان والكفر .

وبذلك يتبين مفاد كثير من الايات الواردة حول الهداية والضلالة ، وربما يتوهم منها الغافل الجبر في امر الهداية ، قال سبحانه : « ولوشئنا لاتينا كل

نفس هداها ، ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين »
(السجدة ـ ١٣)

وهـذه الاية نظيرقوله سبحانه : « فالحق والحق اقول لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين » (ص ـ ٨٤ ـ ٨٥)

وهذه الآيات ونظائرتفيد ان مشيئته سبحانه لم تتعلق بهداية الناس اجمعين، ولوتعلقت لامن كلهم ولكن المشيئة المنفية في امرالهداية هي المشيئة التكوينية التي لاتنفك عن المراد ، وتوجب ايمان الناس من غيراختيار . غير أنه لماكان هذا الايمان والاذعان لاقيمة له في عالم المعرفة لم تتعلق مشيئته تعالى بهذا النحو من الهداية الجبرية بل ترك الناس احراراً قال سبحانه : « ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا» (الانسان ـ ٢٩) وقال سبحانه : « ان هوالا ذكرللعالمين لمن شاء منكم ان يستقيم » (التكوير ـ ٢٧ ـ ٢٨)

فقد خرجنا الى هنا بهذه النتائج :

١ ـ ان المعجزة المنتفية هي المعجزة الملجئة لا المعجزة على الاطلاق .

٢ ـ ان مشيئه التشريعة قد تعلقت بهداية الناس جميعاً ولاجل ذلك بعث الانبياء وجهزهم بالدلائل والبراهين الكافية .

٣ ـ لم تتعلق مشيئه التكوينية بهدايتهم ، مشيئة لامناص عن ايمان الناس لان الايمان عقيب هذه الارادة ايمان قسري لاقيمة له .

* * *

نعم ان هاهنا سؤا صحيح ربما يختلج في بعض الاذهان وهو ان الآيات الواردة حول اختيار الانسان وارادته تصرح بـان مشيئة الانسان متوقفة علـى مشيئته سبحانه فليس لبشر ان يختار امراً اويتبع سبباً خارجا عن اطار ارادته سبحانه ومشيئته ، فالموجود الممكن بما انه ممكن ليس له ان يفعل اويترك شيئا خارجا

عن اطار ارادته سبحانه ، وبذلك يصرح سبحانه ويقول : « وما تشاؤون الا ان يشاء الله » (الانسان ـ ٣٠) ويقول : « وماتشاؤون الاان يشاء الله رب العالمين » (التكوير ـ ٢٩)

وعند ذلك ينطرح هذا السؤال وهو : ان اختيار من يختار الهداية على الضلال أو العكس تابع لمشيئته سبحانه فيعود الجبر والاضطرار فكيف الجواب ؟

غير ان الاجابة على هذا السؤال واضحة لمن له المام بالايات الواردة حول مشيئته سبحانه في القرآن الكريم، فان تعلق مشيئته بهداية انسان أوضلالته ليس تعلقاً اعتباطياً بل مشيئته تكون فى ضوء مايميل اليه الانسان فى قرار نفسه فلو كان منيباً الى ربه وجاعلا نفسه فى معرض هدايته ومسير رحمته تتعلق مشيئته سبحانه بهدايته قال سبحانه « ويهدي اليه من أناب » أي من انعطف ورجع اليه سبحانه .

كما ان من اخلد نفسه الى الارض وامتنع من التخلص من آثار المادة فلامحالة تتعلق مشيئته بضلاله قال سبحانه: « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض » (الاعراف ١٧٥)

وقال سبحانه: « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » (الصف ـ ٥) وقال: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ومايضل به الاّ الفاسقين » (البقرة ـ ٢٦) وقال سبحانه : « فبمانقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية » (المائدة ـ ١٣) .

كل هذه الايات تصرّح بوضوح فى ان مشيئته المتعلقة بهداية الناس أو ضلالتهم انما تكون فى ضوء مايميل اليه العبد ، ويحصل العشق به فى قرارة نفسه، ولايهدي الله سبحانه الاّ من تعرّض لرحمته واستعد لهدايته قال سبحانه «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» (العنكبوت ـ ٦٩)

* * *

الاية الخامسة

قوله سبحانه : « اتبع ماأوحي اليك من ربك لاالـه الاّ هو واعرض عن المشركين. ولوشاء الله ما أشركوا وماجعلناك عليهم حفيظا ، وما انت عليهم بوكيل. ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بماكانوا يعملون» .

«واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الايات عند الله ومايشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا الاّ ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون » (الانعام ١٠٦ - ١١١)

وقد استدل بعض المعاندين بالايـة الرابعة من هذه الايات على ان النبي الاكرم ﷺ لم يكن مزوّداً باية معجزة قائلا بانه لوكان مزوّداً بها لما اجابهم القرآن بقوله : « قل انما الايات عند الله » بل يأمر نبيّه بالاتيان بها ويصرّح القرآن بها .

هذا اعتراض الكاتب ويعلم قيمته اذا قمنا بتفسير ماتهدف اليه هذه الايات من المطالب فنقول :

انه سبحانـه قد أتى فى مقام الرد على حلفهـم بانهم ليؤمنن اذا جيء بالايات بامور خمسة واليك شرحها :

١ - « قل انما الايات عند الله » وهذه الجملـة تهدف الى أن النبي ﷺ ليس مفوضاً اليه أمر الاعجاز فيقوم بـه فى أي وقت شاء بل هو يتبع ارادتـه

سبحانه واذنه ، وقد جاء مفاد الجملة فى غيرموضع من القرآن قال سبحانه : « وماكان لرسول ان يأتي بآية الاّ بادن الله » (الرعد ـ ٣٨) .

ومعلوم ان اذنه سبحانه موقوف على توفر شرائط فى خرق العادة والاتيان بالمعاجز اهمها وجود استعداد للهداية فى المقترحين والطالبين . وسيوافيك فقدان هذا الشرط فى المقام .

٢ ـ « وما يشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون » وهذه الجملة تهدف الى انه مايدريكم ان الاية التي تقترحونها اذا جاءت لايؤمنون وبما ان المؤمنين كانوا يطمعون فى ايمانهم فيتمنون مجيء الاية فقال عزوجل رداً على تمنيهم بانه مايدريكم انهم لايؤمنون كما لم يؤمنوا به اول مرة .

وماذكره الكاتب من ان الاعجاز خرق للعادة والناس ينظرون الى خارقها بنظر الاعجاز فيقتفون اثره عندما جاء فكيف يقول سبحانه : « اذا جائت لا يؤمنون » جهل منه بتاريخ الامم اوتجاهل به لقدكانت دعوة الانبياء فى كل العصور مزّودة بالايات والبيّنات ، ومع ذلك لم يؤمن بهم الاّ قليل من الناس .

وهذا صالح نبي ثمود اذ دعا قومه الى ترك عبادة الاوثان والاصنام وأتى لهم بآية باهرة وقال لهم : « وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غيرمكذوب » (هود ٦٤ ـ ٦٥) [1] ومع ذلك لم تؤمن به جمهرة قومه .

وهذا موسى الكليم اذ دعا فرعون وملأه الى عبادة الله سبحانه فلم يؤمن به الاّ قليل من السحرة ، وبقي الباقون على كفرهم وعنادهم حتى ادركهم

(١) وقريب منه ماورد فى سورة الاعراف لاحظ الايات ٧٥ ـ ٧٨ .

الغرق وهم كافرون .

وقد أتى السيد المسيح الى بني اسرائيل بالبيّنات والايات فلم يؤمن به الاّ تلاميذه .

فعند ذلك يظهر بطلان قول الكاتب بان خرق العادة لاينفك عن ايمان من رآه وسمعه .

٣ ـ « ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » (الانعام ـ ١١٠)

الاية تفيد بانه كان للمشركين مع النبي موقفان موقف فى بدء الدعوة ، وموقف بعدها وبعدالاقتراح فالاية تخبر النبي بان موقفهم بعد الاقتراح حتى ولو رأوا الايات هو موقفهم الاول ، واليه يشير قواه « كما لم يؤمنوا به اول مرة » .

وأما المراد من قوله : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » فهو بمنزلة التعليل لتساوي الموقفين ، فان الله تعالى قد قلب أفئدتهم وأبصارهم فلا يدركون الحقيقة ولا يرون الحق ، وقد فعل ذلك سبحانه لهم لا خصومة معهم بل هذا التقليب نتيجة عملهم واثر أفعالهم ومواقفهم كماسيوافيك شرحه فيمابعد .

٤ ـ « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا » وهذه الاية تخبر عن عنادهم وشدة لجاجهم حتى ولورأوا أكبر الايات وأعظمها .

٥ ـ « الا ان يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » وهذه المشيئة مشيئة تكوينية لو تعلقت بهداية الناس لم تنفك عن ايمانهم الاضطراري ولكنها لا تتعلق أبداً وان شئت مزيد توضيح فاستمع لمايلي :

ولقد مرّ فى البحث عن الاية الرابعة ان مشيئته التشريعية تعلقت بهداية

وايمان جميع الناس بلااستثناء وهذه الارادة لاتستلزم جبراً ولا قسراً بل تترك الانسان ومايختار . نعم لم تتعلق ارادته التكوينية بهداية الناس الاّ من جعل نفسه فى مسير رحمته، وأناب الى ربه، ولو تعلقت ارادته التكوينية بهداية كل الناس هداية جبرية اضطرارية لم تكن لهذا الايمان قيمة ولا وزن والى هذه الخصوصية اشار سبحانه فى الاية الثانية من آيات مورد البحث بقوله: «ولو شاء الله ما أشركوا » أي لوشاء ان يتركوا الشرك قهراً واجباراً لاضطرهم الى ذلك الا انه لم يلجئهم اليه لماينافي أمر التكليف ليستحقوا الثواب والمدح .

الى هنا تبين مفاد الايات وان المقترحين لم يكونوا مستعدين للاذعان والايمان حتى ولورأوا أكبر الايات وعند ذاك يكون الشرط المصحح لخرق العادة غيرموجود .

ويزيد توضيحاًلذلك ما رواه المفسرون فى شأن نزول الايات حيث قالوا :

ان قريشاً قالت للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ماتقول أم باطل ، وأرنا الملائكة يشهدون لك أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا[1] .

والرواية على فرض صحتها تصرّح بانهم لم يكونوا بصدد فهم الحقيقة وكشف الواقع، لان كثيراً من طلباتهم كانت من الامور المستحيلة عقلا كالاتيان بالله والملائكة قبيلا مضافاً الى ان جعل الصفا ذهبا لايخرج عن صورتين :

الاولى: أن يجعله ذهبا ويبقيه كذلك لحظات ثم يعود بالجبل الى حالته الاولى .

الثانية: أن يجعله ذهبا ويتركه فى متناول أيدي الناس ليستفيدوا منه .

أما الاولى فلاشك انهم ينسبون عمل النبي ﷺ الى السحر والشعوذة ،

(١) مجمع البيان ج٢ ص٣٤٩ وراجع الدر المنثور .

كمانسبوه الى ذلك فى غيرموضع .

وأما الثانية فهي تخالف سنن الخلقة والقوانين الحاكمة على الكون فان الله تعالى خلق ذلك العنصر فى مكامن الارض وبواطنها، وجعل طريق الحصول عليه هو السعي والاستخراج .

اضف الى ذلك ان قيام النبي ﷺ بهـذا الطلب يوجب ان تتوجـه اليه طلبات كثيرة مماثلة وهذا يستلزم ان يترك النبي مهمته الرسالية ويشتغل باجابـة مقترحات الناس الناشئة من اهوائهم ، ومشتهياتهم .

* * *

حصيلة البحث

وحصيلة البحث من اوله الى هنا حتى يتبين سبب عدم قيام النبي بالمعاجز المقترحة هو ان القوم حسب مايرشد شأن النزول ومايفيده قوله سبحانه فـي الاية الاخيرة : « ولو اننانزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون» لم يكـونوا يريدون كشف الحقيقة بل كانوا ـ لشدة عنادهم ـ يشكون في المشاهدات التي لايشك فيها احد ، فهم بلغوا في الشك والعناد بمنزلة يصفهم الله سبحانه بقوله: « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون» (الطور ـ ٤٤ـ ٤٥) .

فاذا بلغ القوم الى هذه الدرجة من العناد فاية معجـزة يمكن ان تجلب ايمانهم ، ولاجل ذلك يقول سبحانه : «ومايشعر كم انها اذا جاءت لايؤمنون».

والخطاب للمؤمنين و«ما» في « ومايشعر كم» للاستفهام اي وما يدريكم ان الاية التي يقترحونها اذاجاءت لايؤمنون يعني انا اعلم انها اذا جاءت لايؤمنون

وانتم لاتدرون بذلك، ويقول في الاية التالية : «ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون » فهذه الاية تفيد بانهم كما لم يؤمنوا قبل رؤية الآيات المقترحة فهكذا لن يؤمنوا ايضا بعد رؤيتها ايضاً .

فقد بلغ عنادهم ولجاجهم الى مرتبة ودرجة صار سبباً لقلب افئدتهم وابصارهم في ادراك الحقائق فهم من جهة اتباع الهوى، والاعراض عن سليم العقل، صارت عقولهم وافئدتهم لاتدرك الحقيقةفهم كما وصفهم الله سبحانهفي ايات كثيره حيث يقول«ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة وان الله لايهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون» (النحل ١٠٧ - ١٠٨)

ويصفهم ايضا بقوله : « فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولاافئدتهم عن شيء اذكانوا يجحدون بايات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤون »

(الاحقاف - ٢٦)

ويقول أيضاً : « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم (محمد ٢٢/٢٣)

نعم أن قلب الافئدة والابصار والطبع عليها ليس امراً اعتباطيا بل هو نتيجة ما ترتكبه الطغاة من الاعمال وقد صرح بذلك القرآن في غير واحدة من الايات قال سبحانه :«كذلك يطبع على كل قلب متكبر جبار»(غافر- ٣٥) وقال سبحانه : « ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون »

(المنافقون - ٣)

* * *

الاية السادسة :

قول سبحانه : وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجر ميها ليمكروافيها ، ومايمكرون الا بانفسهم ومايشعرون واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله ، الله اعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون(الانعام ١٢٣ ـ ١٢٤)

وهذه الاية تفيد ان النبي ﷺ كان مجهزاً بآية معجزة غير القرآن ، ولذلك يقول : «واذا جاءتهم آية » بصورة التنكير ، ولو كان المراد هو الاية القرانية لناسب تعريف الاية وتبديل«جاءت» بـ«أنزلت» . وقد استعملت الاية في القرآن في نفس المعجزة قال سبحانه : «ويقولون لولا انزل عليه آيةمن ربه » فان المراد منها هو غير القرآن اذ لو كان المراد هو القرآن لما صح ان يقال : لولا انزل عليه آية من ربه» نافيا نزول القرآن ، اذلاشك ان القرآن كان ينزل عليه آية بعد آية طوال سنين.

ثم ان القائل هو اكابر القوم بقرينةقوله:«وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها» وكانوا يترقبون أن يوهبوانفس ماوهب رسل الله من المقام والنبوة كما يفيده قوله سبحانه : «حتى نؤتى مثل ما اوتى رسل الله » فاجيبوا بقوله : «الله اعلم حيث يجعل رسالته » وهو لايصطفى للنبوة الامن علم انه يصلح لها وهو اعلم بالمكان الذي يضعهافيه منهم ولو لم يكن مطلوبهم ماذكرناه لما صح هذا الجواب ، ولما ناسب هذا الرد وقد ذكر مطلربهم هذا في بعض الايات قال سبحانه : «حاكيا عنهم ذلك الطلب : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وقد اجيبوا هناك ايضا بنفس ما اجيبوا بـه هنا قال سبحانه : «أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا»

ويؤيد ذلك ما ذكره المفسرون في شأن الاية اذ قالوا : نزلت في الوليد

بن المغيرة قال : والله لوكانت النبوة حقا لكنت اولى بها منك لاني اكبرمنك سناً ، واكثر مالا وقيل: نزلت في ابي جهل بن هشام قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لانؤمن به ولانتبعه ابداً الا ان يأتينا وحي كما يأتيه.[1]

* * *

الاية السابعة :

قوله سبحانه : ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل : انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين» (يونس ٢٠)

وهذه الاية تشعر بان القوم طلبوا من النبي آية معجزة غير القرآن ، ولكن النبي اجابهم مكان الاتيان بها بقوله: «فانتظروا انى معكم من المنتظرين »

غير ان الاية على خلاف مقصود المستدل ادل فان النبي لم يرد طلبتهم بل انما امرهم بالصبر والانتظار وقد جاءت في الاية السادسة والاربعين من نفس السورة انه سبحانه وعدنبيه بانه سوف يريه بعض مايعدهم من المعجزات قال سبحانه : « واما نرينك بعض الذي نعدهم اونتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على مايفعلون»

وعلى ذلك فلم يرد النبي طلبهم انما امرهم بالصبر ووجه ذلك انهم انما طلبوا معجزة أخرى غير القرآن تحقيراً لشأنه واستخفا فأبه لعدم عده آية الهية ولاجل ذلك امر نبيه بان يقول لهم : فقل انما الغيب لله ، وان الايات المعجزة بيد الله سبحانه وليست بيدي فانتظروا اني معكم من المنتظرين:

وهذه الاية تفيد ان النبي كان ينتظر آية معجزة فاصلة بين الحق والباطل

---

١) الكشاف ج ١ ص٥٢٦ـ مجمع البيان ج٢ص٣٦١

غير القرآن قاضية بينه وبين امته، وانه سبحانه وعده بانه ربما يريه بعض مايعده كما مرت الاية

قال في الكشاف : ارادوا آية من الايات التي كانوا يقترحونها وكانوا لايعتدون بما أنزل عليه من الايات العظام التي لم ينزل على احد من الانبياء مثلها ، وكفي بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الايات دقيقة المسلك من بين المعجزات وجعلوا نزولها كلانزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط ، حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي[1]

فاذا كان الطلب سبباً لتحقير اكبر معجزة من معاجز النبي وازراءاً له لم يصح للنبي ان يقوم بطلبهم بالاعجاز لان في تلك الاجابة في ظرف الطلب ضرباً من الموافقة في تحقيرهم للقرآن وقرينة المقال يدل على ان النبي كان آيسا من هدايتهم فلم يكن هناك اي موجب في منطق العقل ان يقوم النبي بالاعجاز اويمكنه الله من القيام بمطلوبهم

وقد جاء في القرآن تصريحات عن القوم بانهم كانوا يحقرون امر القرآن قال سبحانه «واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله ، قل مايكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الاما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم» (يونس- ١٥) وقال ايضاً: «وماكان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» (يونس - ٣٧)

---

(١) الكشاف ج١ ص٧٠

ومثل هذه العصابة التى تقابل القرآن الكريم بمثل هذا الموقف المتعنت الجاهل ، وتواجه تلك المعجـزة الكبرى والايـة الباهرة بمثل هـذا التحقير والازدراء. لاتستحق جواباً احسن من قوله سبحانه: فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »

* * *

الاية الثامنة

قوله سبحانه : « واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل انما اتبع مايوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (الاعراف ـ ٢٠٣)

المراد من الاية هو الاية القرآنية لا الاية المعجزة غير القرآن التي هـي محور البحث ، والمقصود من الاجتباء هو الجمع وعلى ذلك فالاية خارجة عما نحن بصدده .

غير ان مفاد الاية هو الرد على كلامهم الجارى مجرى التحكم والسخرية حيث انهم قالوا في حق النبي ﷺ : عند ما كان الوحى يتأخر عليه لمصالح: « لولا اجتبيتها » اي لولا اجتبيت ماتسميه آية من هنا وهناك فاتيت بها فاجابهم القرآن بان يقول النبي لهم : « انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يوقنون » .

ترى ماذا يفعل النبي بقوم اذا اتاهم بآية قرآنية قالوا: ائت بقرآن غير هذا اوبدله ، واذا ابطأ عليه الوحى لمصالح قالـوا : « لـولا اجتبيتها » فكل ذلك يدل على ان موقف القوم لم يكن موقف الاهتداء وتحرى الحقيقة .

* * *

الاية التاسعة

قوله سبحانه : « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز اوجاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شيء وكيل أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لااله الاهو فهل انتم مسلمون » . (هود ١١ ـ ١٤)

ربما ينقدح في ذهن القاريء الكريم سؤالان حول الاية الاولى من هذه الايـات :

الاول :لماذا تنسب الاية الى النبي ﷺ احتمال ترك بعض مايوحى اليه، أوليس هذا مخالفاً لعصمته ﷺ ؟

الثاني : لماذا لم يجب النبي ﷺ سؤال قومه من انزال الكنز، والمجيء بالملك بل اجابهم بانه ليس الانذير ، والله على كل شيء وكيل ؟

أما الجواب عن السؤال الاول وان كان خارجاً عن موضوع البحث فحاصله : ان الله تعالى يخاطب في قرآنـه نبيه بكلام يناسب مقتضى الطبيعة البشرية ويلقى اليه خطابه مع قطع النظر عن الخصوصيات الموجودة فـي المخاطب والمخاطب (بالفتح).

ويدل على ذلك ان الله سبحانه مع انه عالم بكل شيء « ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولافـي السمـاء » يستعمل لفظة «لعل» الموضوعة للترجي الذي لا ينفك عـن وجود الشك والترديد فـي المتكلم و ليس ذلك الا لان الخصوصيات الموجودة في المتكلم اعنى علمه الواسع المحيط بكل شيء غير ملحوظة في المقام .

ومثله مخاطبة النبي ، فالنبي بما انه رسول معصوم لايترك شيئا من رسالته

لايخاطبه سبحانه في هذه الآية بل يخاطبه بما انه بشر القى اليه كلام ثقيل ورسالة شاقة ، وحيث ان طبيعة مثل هذه الرسالة الثقيلة . تلازم احتمال ان يترك حاملها بعض ماوضع على عاتقه، يعود المتكلم لاجل تقوية عزمه يخاطبه بقوله : «ولعلك تارك بعض ما يوحى اليك »وليس الهدف الاخبار عن وقوع مثل هذا الخلل أوذم مخاطبه وتوبيخه وانما يريد تقوية عزمه ، وشدازره .

وان شئت قلت : ان الرسالة الالهية لماكانت ملازمة مع المتاعب والمشاق وكان فـى مثل هذا الموقف ارضية ان يترك المخاطب بعض ما امر به ، صح للمتكلم ان يخاطبه بتلك العبارة مستلهما ذلك من طبيعة العمل وصعوبته ، وما يكتنفه من المتاعب .

وفى الحقيقة ليس الموجب لهذا الخطاب الا ملاحظة طبيعة العمل ذاته ، لا المخاطب بما يتمتع من الخصوصيات والمؤهلات .

وهذه القاعدة جارية فى كل مايخاطب به الله نبيه بمالاياسبه وعصمته وعلو همته ، وهذا واضح لمن عرف القرآن وامتزج به روحه وعقله واليك نموذجا من ذلك .

انا نرى انه سبحانه يخاطب نبيه بلحن يلازم احتمال الشك والترديد فى ذهن النبى بالنسبة الى رسالته ويقول : «فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك،لقدجاءك الحق من ربك فلاتكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

(سورة يونس ٩٤ - ٩٥)

نرى انه سبحانه يخاطب نبيه بجمل تشعر بوجود الشك والريب فى نفس النبى بالنسبة الى رسالته ، ولكن هذا الاحتمال سرعان ما يزول اذا علمنا ان الخطاب من هذا النوع يكون مع قطع النظر عن الخصوصيات الموجودة فى

المخاطب (بالفتح) من العلم القاطع بنبوته ورسالته، و العصمة عن اي شك أو تكذيب .

أضف الى ذلك ان الخطابات القرآنية تجري مجرى « اياك أعني واسمعي ياجارة » ، الذي يجري عليه فصحاء العرب وبلغاؤهم ، بل هو أصل رصين في المسائل التربوية حيث ان المربي الحكيم انما يتحاشى توجيه النقد الى الغرباء مباشرة بل يوجه النقد الى نفسه وولده وأقربائه حتى ينبه بذلك أذهان الغرباء بأنه يجري على هذا النمط مع غيرهم أيضاً فاذا هو عامل مع نفسه وولده وأقربائه بما جاء في كلامه فغيرهم أولى بذلك .

ويؤيد هذا الامر مافي الاية الماضية انه سبحانه وجه خطابه الى غير النبي بمثل المضمون الوارد في الاية المتقدمة . قال سبحانه : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون »(النحل ـ ٤٣) .

فالهدف من خطاب النبي ﷺ بالسؤال عن علماء الكتاب انما هو ترغيب غيره على السؤال من علمائهم ، مشعراً بذلك بأن احدى الطرق للتعرف على صحة نبوة المدعي هو تصريح النبي السابق على نبوة النبي اللاحق باسمه ووصفه وعلائمه وسائر خصوصياته ، وقد جاءت خصوصيات النبي بما لايدع للمراجع أي شك وريب في العهدين وكان علماء أهل الكتاب يعرفون تلك الخصوصيات ومواضعها فيهما ويعرفون النبي الخاتم كما يعرفون أبناءهم قال سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (البقرة ـ ١٤٦) .

ونظير قوله سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون » (الانعام ـ ٢٠) .

فليست في هذه الخطابات أية دلالة على شك النبي وترديده في رسالته

وليست في اختها أية دلالة على ذم النبي وتوبيخه وانما يعرف ذلك من عرف كيفية خطابات الله سبحانه في كلامه .

هذا كله حول السؤال الأول واليك الجواب عن السؤال الثاني .

ان الاجابة عن اقتراحهم بقوله : « انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » لاجل امور نشير اليها :

أولا : ان الظاهر من نفس الآيات ان المقترحين لم يكونوا بصدد كشف الحقيقة وتحري الواقع بل مازالوا يعاندون النبي ويعادون دعوته، اذ لو لم يكونوا بهذا الصدد لما عدلوا عن المعجزة الكبرى الى طلب الكنز ، ومجيء الملك معه، والى هذا الجواب يشير سبحانه بقوله : « أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون » (هود ١٣- ١٤) .

فأي معجزة أكبر من القرآن الكريم الذي كلت في فهمه الاذهان، وعجز عن مباراته البلغاء .

ثانياً : ان القيام بمقترح القوم (أعني نزول الكنز) يتصور على نوعين :

فأما أن يكون مطلوبهم نزول الكنز وبقائه لحظة أو لحظات ، وهذا لا يكفيهم ولايسكتهم بل سرعان مايتهم القوم النبي الاكرم ﷺ بقولهم: « انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (الحجر - ١٥) كما اتهموه في غير هذا المورد وسيوافيك بيانه في المستقبل .

وان كان مطلوبهم بقاء الكنز معه أبداً طيلة عمره ، وانتفاعه وانتفاع قومه من هذا الكنز وصيرورة النبي ذا ثروة طائلة فهذا نوع اعتراف بمنطقهم حيث قالوا: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»(الزخرف -٣١) .

كما ان مجيء الملك مع النبي ﷺ يتصور على صورتين :

اما بصورة الانسان .

واما بصورته الواقعية .

والصورة الاولى على فرض تحققها لاتؤدي الى ايمانهم واذعانهم بل سيتصورون الملك انساناً عادياً مع النبي .

والصورة الثانية غيرممكنة لانرؤية الملك تتوقف علىشرائطغيرموجودة فيهم . ولايمكن للانسان العادي رؤيته بشكله الواقعي .

أضف اليه ان نزول الملك مع النبي مع تكذيب القوم له يوجب نزول العذاب، وقد جرت عليه سنة الله سبحانه فيالأمم الماضية، وسيوافيكالتصريح به في الابحاث الاتية .

ثالثاً : ان قوله « انما أنت منذر » غير ناف للاتيان بالاعجاز أو عدم مقدرته عليه ، وانما يشير الى أن اعجاز النبي يتوقف على اذن منه سبحانه ، فلولا اذنه لما جاز للنبي ﷺ أن يقوم به . قال سبحانه : « وماكان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله » (الرعد - ٣٨) .

ولذلك ختم كلامه في الاية المبحوث عنها بقوله : «و الله على كل شيء وكيل » .

* * *

الاية العاشرة والحادية عشر

قال سبحانه : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد - ٧) .

وقال سبحانه : « ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه قل ان

الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب » (الرعد ـ ٢٧) .

وطريق الاستدلال بهاتين الايتين على ان النبـي لم يكـن مزوداً بمعجزة غير القرآن هو ماتقدم في الايات السابقة . غير ان الايتين تهدفان الى حقيقة ناصعة قد أوضحناها عند البحث عن مسوغات الاتيان بالمعجزة وهي :

ان المقام لم يكن مقام الاتيـان بالاعجاز حتى يقوم به النبي اذ للقيام بـه شرائط وهي غير موجودة .

أما أولا: فلان القوم قد بلغوا في العناد واللجاج مقاماً يصورهم الله سبحانه بقوله: « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال، أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا . أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » (الرعد ـ ٣١) .

فاذا بلغ عناد القوم الى درجة لايوجب قلع الجبال من أساس ايماناً ولا يوجب احياء الموتى وتكليمهم أو تقطيع الارض قطعاً ، اذعاناً لهم ، فكيف يفيدهم غير هذه الامور ؟

وثانياً ان الايتين تهدفان الى ما تكررمنا في الابحاث الماضية من ان امر الاعجاز بيدالله سبحانه ، ولايقدر النبي على شيء الا باذنه سبحانه . كما قال تعالى في نفس السورة «وماكان لرسول ان يأتي بآية الاباذن الله » فعلى ذلك فقوله « انما انت منذر ، ولكل قوم هاد » يرشد الى أن الوظيفة الاساسية للنبي هو الانذار ، واما الاتيان بالمعجزة فليس من شأنه القيام في كل يوم وساعة وعند كل طلب واقتراح .

ونفي الاعجاز بهذا المعنى لايستلزم نفى صدور المعجزة عن النبي ﷺ بتاتا عند اجتماع الشرائط .

* * *

الاية الثانية عشر

قال سبحانه : « وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذاً منظرين » . (الحجر ٦ ـ ٨)

وطريق الاستدلال مثل مامرفي الايات السابقة ، غيران هذه الايات لاتهدف الى مارامه المستدل .

اما اولا : فلان عدم القيام النبي ﷺ بالاعجاز والاتيان بمقترحات القوم لاجل ان القوم لم يكونوا بصدد كشف الحقيقة ، وتحرى الواقع اذيقول فيهم سبحانه في نفس تلك السورة « ولوفتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون » (الحجر ١٤ ـ ١٥) فاذا بلغ عناد القوم الى هذه الدرجة حيث زعموا ان عروجه الى السماء ليس الاسكراً اوسحراً فماظنك بغيره فلوقام النبي باى مقترح للقوم لقالوا فيه ماقالوه في أعظم منها .

وثانياً : ان القوم اقترحوا على النبي ان يأتيهم بالملائكة والاتيان بهم كما مر يتحقق على صورتين :

الاولى: الاتيان بهم بصورة الانسان وهولايؤدي الى ايمانهم لانهم يتصورونه بشراً عادياً .

الثانية : الاتيان بهم في صورهم الواقعية وهم غير مؤهلين لرؤيتهم .

أضف الى ذلك انه يستفاد من الايات أنه جرت سيرة الله سبحانه في الامم الماضية على أن نزول الملائكة وتكذيبهم يوجب نزول العذاب ولاجل ذلك قال سبحانه في نفس الايـات : « ماننزل الملائكة الا بالحق ، وماكانـوا اذاً

منظرين » . ويقول سبحانه : « يـوم يرون الملائكة لابشرى يـومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا » (الفرقان ـ ٢٢) وهذه الاية ، وان كانت واردة في شأن يوم القيامة الا انها تشير الى ان رؤية الملائكة لايعد أمراً مبار كاً للمجرمين بل يكون سبباً لعذابهم .

ثالثاً : ان القوم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي اليهم مع الملائكة، مع انه سبحانه قد بعث رسلا قبلـه ولم يكونوا الا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ولم يكن معهم ملك والى ذلك يشير سبحانه بقوله : « وماأرسلناقبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً » (الفرقان ـ ٢٠) .

على انـه يستفاد من بعض الايات أن مطلوب القوم كان نـزول الملائكة عليهم كما يحكيه عنهم بقولـه : « وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا انـزل علينا الملائكةأو نرى ربنا لقد استكبروافي أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً» (الفرقان:٢١).

وعلى ذلك فقد كان مطلوب القوم نزول الملائكة عليهم والاتصال بالمبدأ الا على ولايمكن للنبي القيام بمطلوبهم .

* * *

الاية الثالثة عشر

قال سبحانه : « ومـامنعنا أن نرسل بـالايات الا ان كذب بها الاولـون . وآتيناثمود الناقةمبصرةفظلموابها ومانرسل بالايات الا تخويفاً» (الاسراء ـ ٥٩).

استدل بعض الكتاب بهذه الاية بنظير ماتقدم في نظائرها .

والمراد بالايات هوالمقترحات الست الواردة في تلك السورة في الايات ٩٠ الى ٩٣، وسوف يوافيك البحث عن تلكم الايات المقترحةفي البحث الاتي.

وأما توضيح هذه الاية التي نحن بصدد تفسيرها فنقول : يمكن تفسيرها بوجهين :

أحدهما : ملاحظة نفس الاية بما فيها من الكلمات .

الثاني : دراستها بملاحظة الايات الاخر التي وردت في هذا المضمار.

أما الاول : فالتدبر في كلمة« الا ان كذب بها الاولون» يعطي ان الامتناع من نزول الايات انما هو لاجل ان المقترحين كانوا يشابهون الامم السابقة في الخلق والعناد ، فلهم ما لاوليهم من الحكم حيث كانوا يقولون:«ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين» (المؤمنون- ٢٤) وكانوا يقولون : «انا وجدنا آبائنا على امة وانا على آثارهم مقتدون» (الزخرف - ٢٣)

وعلى ذلك فلا فائدة في ارسال تلك الايات لانهم لا يؤمنون بها فيكون انزالها عبثاً لا فائدة فيها كما ان من قبلهم لم يؤمنوا عند انزال الايات[١].

وقد عرفت في مفتتح البحث ان القيام بالاعجاز ليس أمراً اعتباطياً بل يتوقف على وجود شرائط في المقترح التي منها الاستعداد والتهيؤ للايمان والتصديق ، واذا كان القوم يشبه آخرهم أولهم في العناد واللجاج فلا جدوى في الاعجاز .

ويؤيد ذلك المعنى ماقاله سبحانه في ذيل الاية « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » مشيراً بذلك الى ان القوم اخوان من سبقهم من ثمود ، حيث راوا آية مبصرة بينة فظلموا أنفسهم بالتكذيب بتلك البينة الواضحة .

وينبيء عن هذا المعنى ذيل الاية « ومانرسل بالايات الا تخويفاً » أي لا نرسل الايات التي نظهرها على الانبياء الا عظة للناس وزجراً وتخويفاً لهم من مخالفة الله ان لم يؤمنوا . غير ان هذا الشرط مفقود في هذه الزمرة فلا فائدة

(١) مجمع البيان ج٣ ص٤٢٣ .

في القيام بالاعجاز .

وعلى ذلك فالمقاطع الثلاثة في الاية تشهد على أن الامتناع من القيام هو اليأس من حصول الايمان وتأثير الاعجاز في قلوبهم واليك هذه المقاطع الدالة على ماذكرنا :

١«ان كذب بها الاولون» : والتعبير عن الامم الهالكة بالاولين يشير الى كون الاخرين امتداد لهم ولفكرتهم وطريقتهم « وكان في كل واد اثراً من ثعلبة » .

٢ـ« وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها» مشيراً الى ان القوم يشبهون قوم ثمود في تكذيب الايات والظلم بها وبانفسهم .

٣ـ«ومانرسل بالايات الاتخويفاً» مشيراً الى ان الهدف من القيام بالايات عظة الناس وزجرهم ودفعهم الى الاذعان والايمان وكان القوم خلوا من هذه الصفة .

واما الثاني اعنى تفسير الاية بملاحظة بعض الايات الواردة في هذا المضمار . فان القرآن يحكي بان القوم ربماكانوا يطلبون العذاب من النبي ، قال سبحانه «واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء اوائتنا بعذاب اليم» (الانفال ـ ٣٢)

ولاريب ان الهدف من نزول الاية هو دفع القوم الى الايمان لا ابادتهم واهلاكهم فمثل هذه الاية يضاد هدف الاعجاز وغايته فليس من البعيد ان يكون الامتناع من المجيء ببعض الايات هو لاجل ان مقترحهم كان اهلاكهم وابادتهم ولعله الى ذلك يشير قوله: «ومانرسل بالايات الاتخويفا» اي عظة للناس وزجراً لا اهلاكا وابادة .

على انه يمكن ان يكون مقترحهم بعض الايات التي يوجب تكذيبها نزول

العذاب فان القرآن يحكي لناعن وجود تلك السنة في بعض المعاجز (لاكلها) قال سبحانه : «كذب الذين من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لايشعرون» الزمر - ٣٥)

ولعله الى هذا الجانب من هدف الاية يشير قوله «وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها» ، حيث ان من المعلوم ان قوم ثمود عمهم العذاب لما قاموا بتكذيب الايـة[١] .

هذا هو مفاد الاية بملاحظة نفسها ، وبملاحظة اخواتها فمن اين يستدل بها الكاتب على ان النبي الاكرم كان غير مزود بمعجزة غير القرآن .

* * *

الاية الرابعة عشر

قال سبحانه : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فابى اكثر الناس الا كفوراً وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » . (الاسراء ٨٩ - ٩٣)

استدل الكاتب المسيحي بان نبي الاسلام لما طولب بالمعجزة اظهر العجز قائلا بانه « ليس الا بشراً رسولا » .

---

١) وقد روى صاحب البرهان في تفسيره عن ابي جعفر الباقر (ع) انـه قال : .. وكنا اذ ارسلنا الى قريش آية فلم يؤمنوا اهلكناهم فلذلك اخرنا عن قومك الايات (البرهان ج ٢ ص ٢٢٤)

هذا مقياس عرفانه بمعالم الاية واهدافها وقدنسب الى النبي هذا المضمون من دون أن يتدبر في الآيات المقترحة وانها هل كانت جامعة للشرائط التي نوهنا بها في مستهل البحث اولا و انه هل كان صحيحاً في منطق العقل القيام بها اولا . ولايظهر وجه الحقيقة الابدراسة كل واحدة من هذه الايات فنقول : ان مقترحات القوم كانت تدور بين امور هي :

١ ـ تفجير ينبوع من الارض لهم .

٢ ـ ان تكون للنبي جنة من نخيل وعنب وتجرى الانهار خلالها بتفجير منه .

٣ ـ ان يسقط السماء عليهم كسفا .

٤ ـ ان يأتى بالله والملائكة قبيلا .

٥ ـ ان يكون للنبي بيت من زخرف .

٦ ـ ان يرقى في السماء ولايكفى ذلك حتى تنزل كتاباً عليهم من السماء .

هذه هي مقترحات القوم واليك دراسة كل واحد واحد منها .

امـا الاول : فلان القيـام بهذا الامـر يتنا فـي مع سنة الله الحكيمة فـي الحياة البشرية التي استقرت على ان يصل الناس الى معايشهم ومآكلهم ومشاربهم ومآربهم من طريق السعى والجد تكميلا لنفوسهم وتربية لعزائمهم فـاذا كان مطلوب القوم ان يفجر لهم النبي ينبوعا وعينا لاينضب ماؤها حتى تتبدل اراضيهم القاحلة الى الاراضى الطيبة الـصالحة للزرع والغرس فهو على خلاف تلك السنة الحكمية التي نلمسها في الحياة الانسانية. وعلى ذلك نزل الذكر الحكيم قال سبحانه : «وان ليس للانسان الاماسعى». (النجم ـ ٣٩)

نعم ربما يقتضي بعض الاحوال والظروف ان يقوم النبي لابقاء حياة قومه ببعض المعاجز التي بها تستديم حياتهم كما نرى ذلك في حياة بني اسرائيل، فان موسى استسقى لقومه لما شكوا اليه من الظمأ فاوحى الله تعالى اليه «ان أضرب

بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتاعشرة عينا قد عام كل اناس مشربهم »
(البقرة ـ ٦٠)

ولايعد مثل ذلك نقضا للسنة العامة المذكورة فان حياة بنى اسرائيل في التيه كانت حياة خاصة حرجة غير مشابهة لحياة الاقوام الاخر الذين يقدرون على معايشهم بيسر وسهولة وكسب وكدح . ولاجل ذلك نرى ان رحمته ـ سبحانه ـ شملتهم بوجوه متعددة حكاها الله سبحانه في القرآن الكريم قال تعالى : « وظللنا عليكم الغمام ، وانزلنا عليكم المن والسلوى كلوامن طيبات مارزقناكم وماظلمونا ولكن كانوا انفسم يظلمون » (البقرة ـ ٥٧)

فلاجل الشرائط الحرجة الاستثنائية التي كان يمر بها بنواسرائيل، خصهم سبحانه بالنعم المذكورة فى هذه الايات، وعندما تمكن بنواسرائيل من تحصيل النعم بالكد والكدح ، وسوغت الظروف نيامهم برفع حوائجهم بانفسهم تركهم وشأنهم وطلب منهم القيام بذلك بانفسهم بالكسب والتعاون . قال سبحانه : «واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لناربك يخرج لنا مماتنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذي هوادني بالذي هو خير اهبطوا مصراً فان لكم ماسألتم » (البقرة ـ ٦١)

فقوله سبحانه «فان لكم ماسألتم» يرشد الى أن التنوع الذي طلبوه من الكليم لن يحصل الابقيامهم بالدخول فى مصر ، وتحصيلها منها بالاسباب الطبيعية لان الذي يفرض على النبي ان يقوم ـ للابقاء على حياة قومه ـ انما يتقدر بقدر الضرورة وهوالطعام الواحد، واما الزائد على ذلك فلايحصل الا عن طريق المجاري الطبيعية ، والاسباب المتعارفة .

ولاتقاس تلك الظروف بالاحوال الحاكمة على ارض مكة وسكانها حيث يحكى عنهم سبحانه «وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن

لهم حرما آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقـاً من لدنا ، ولكن اكثرهم لا يعلمون» (القصص - ٥٧)

وهذا البحث أسفرعن ان سؤالهم الوارد في المقطع الاول كان علي وجه لايصح للنبي القيام به لمخالفتها للسنّة الالهيـة الحكيمة في الكون والحياة البشرية .

اما الطلب الثاني: اعني:«كون النبي مالكاً لجنّة من نخيل وعنب ويفجر الانهار خلالها تفجيراً»فليس هذا الا تصوراً باطلا في شأن النبي من انه يجب ان يكون رجلا غنياً ذات ثروة طائلة وقد حكى عنهم سبحانـه تلك المزعمة بقوله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

(الزخرف - ٣١)

فالاجابـة على ذلك السؤال نوع اعتراف بتلك المزعمة، على انه يجب ان يكون بين المطلوب والرسالة رابطة عقلية يستدل بالاول على الثاني وهذا الشرط غير موجود في ذلك السؤال اذ كون الرجل ذا ثروة لايستدل به على صحة قوله وصدق نبوته ورسالته والا يجب ان يكون أصحاب الثروات انبياء اذا ادّعوا النبوة والرسالة .

وأما الطلب الثالث اعني قولهم: « اوتسقط السماء كمازعمت علينا كسفاً» فقولهم : « كمازعمت » يعنون به قوله تعالى « ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفاً من السماء » (السبأ ـ ٩) غير أن القيام بهذا الاقتراح يضاد هدف الاعجاز، فان الغاية من خرق الطبيعة هي هداية الناس الى الدين، ولو كانت نتيجة الاعجاز ابادتهم واهلاكهم لزم نقض الغرض .

وأما الطلب الرابع اعني قولهم : « اوتأتي بالله والملائكة قبيلا» والمراد من قوله «قبيلا » أي كفيلا بماتقول، شاهداً بصحته ، والمعنى: أوتأتي بالله قبيلا

وبالملائكة قبيلا ويمكن ان يكون المراد منه مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر وهذه الاية بمنزلة قولهم حيث حكى عنهم سبحانه بقوله : « لولا أنزل علينا الملائكة اونرى ربنا » (الفرقان ـ ٢١) ومن المعلوم ان مقترحهم امر محال، فان طلب رؤية الله المجرد عن المكان والزمان بهذه الابصار المادية امر غير ممكن وهو تعالى يصف نفسه بقوله : « لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » (الانعام ـ ١٠٣) ومثله طلب رؤية الملائكة باشكالهم الواقعية، كما اوعزنا اليه غيرمرة .

وأما الطلب الخامس: اعني قولهم: «اويكون لك بيت من زخرف» فيرد بماردّ به سؤالهم الثاني .

وأما الطلب السادس اعني قولهم: « اوترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» .

فلحن السؤال يدل على عنادهم وتعنتهم اذ لوكان هدفهم من الطلب هو الاستهداء فيكفي طلبهم الاول اعني رقي النبي الى السماء ولم تكن حاجة لقولهم «ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه» .

وهذه التحليلات العقلية ترشدنا الى ان عدم قيام النبي بهذه الطلبات والمقترحات انما هو لاجل فقدان مقتضي الاجابة، أو لاجل وجود مانعها .

فلننظر بماذا اجابهم سبحانه ، فنرى انه سبحانه ردّ على طلباتهم بأمره بالنبي ان يقول لهم « سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » والدقة في هذه الجملة القصيرة ترشدنا الى الامور التالية :

قوله تعالى: «سبحان ربي» فهو يهدف الى تنزيهه سبحانه عن الرؤية والمجيء اللذين طلبهما القوم حيث قالوا: «أوتأتي بالله»، كما انه يرمي الى ان مشيئته سبحانه لا تتعلق بالمحال الذاتي كما لا تتعلق بالامر الممكن اذا كان على خلاف

الحكمة ، حيث طلبوا منه اهلاكهم وابادتهم مع انه خلقوا للاهتداء والتكامل لااللابادة والهلاك .

وأماقوله: «بشرأرسولا»فيهدف لفظهما الى أن القيام بهذه الطلبات يحتاج الى قدرة قاهرة غيرمتناهية وهي خارجة عن اطار القدرة البشرية ، ولست انا الا بشراً وأما القيام بها بما اني رسول فيتوقف على اذنـه سبحانه المنتفى هنا لماذكرنا من العلل .

فقيام المسؤول بهذه الطلبات اما بلحاظ انه بشر أوبلحاظ انه رسول. فان كان باللحاظالاول فقدرة البشر قاصرة عنالقيام بهذه الامور. وانكان باللحاظ الثاني فهو موقوف على اذنه سبحانه .

قال العلامةالطباطبائي: أمره سبحانه أن يجيب عنماقترحوه عليه وينبههم على جهلهم ومكابرتهم في مالايخفى على ذي نظر، فانهم سألوه اموراً عظاما لايقوى على اكثرها الا القدرة الغيبية الالهيـة ، أضف الى ذلك ان فيها ماهو مستحيـل بالذات، كالاتيان بالله والملائكـة ولم يرضوا بهذا المقدار دون ان جعلوه هو المسؤول المتصدي لذلك، المجيب لماسألوه، فلميقولوا لننؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا وكذا، بلقالوا: لننؤمن لك حتى تفجر أو تسقط اوتأتي بالله اوترقى و .. فان ارادوا منه بما انه بشر فاين البشر من هذه القدرةالمطلقة غيرالمتناهية المحيطة، وان ارادوا منه ذلك بماانه يدعيالرسالة فالرسالة لاتقتضي الا حمل ماحمّله الله من امره وبعثه لتبليغه بالانذار والتبشير لاتفويض القدرة الغيبية اليه ، واقداره على ان يخلق كل مايريد ويوجد كل ما شاؤوا، وهو لايدعي ذلك فاقتراحهم من عجائب الاقتراح »[1] .

* * *

(١) الميزان ج١٣ ص٢١٧ .

الاية الخامسة عشر

قوله سبحانه : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه او لم تأتهم بيّنة مافي الصحف الاولى . ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » (طه ١٣٣ - ١٣٤)

والاستدلال بهذه الاية على مراد المستدل على غرار ماتقدم، غير ان الاستدلال بها على مطلوبهم غير صحيح جداً. فان عدم القيام بما كانوا يقترحونه من الاية كان لاجل العلة التالية : انهم انما اقترحوا آية على النبوة (على عادتهم في التعنت) تحقيراً للمعجزة التى اعطاها الله لنبيّه فلاجل ذلك نرى أن القرآن يجيبهم بقوله :

« اولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى» اى اولم تأتكم آية هي ام الايات وأعظمها في باب الاعجاز، وهو القرآن، فهو برهان مافي سائر الكتب المنزلة ودليل صحته عند الموافقة، لانه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة الى شهادته على صحة مافيها ، افتقار المحتج عليه الى شهادة الحجة .

ويمكن أن تكون الجملة مشيرة الى معنى آخر وهو: انه سبحانه يذكرهم بقوله : اولم يأتهم في القرآن بيان مافي الكتب الاولى من أنباء الامم التي اهلكناهم لما اقترحوا الايات ثم كفروا بها فماذا يؤمّنهم أن يكون حالهم في سؤال الاية كحال اولئك .

فعلى المعنى الاول فعلة الامتناع من الاتيان بآية أخرى هو انهم كانوا بصدد تحقير المعجزة الكبرى فاذا لم يبصروا بها فلا يبصرون بغيرها .

وعلى المعنى الثانى تشير الجملة الى أن الاية لو أتتهم لكذبوها فيعمهم العذاب ويشملهم البلاء وقد عهد سبحانه أن لا يعذبهم ونبيّه فيهم. قال سبحانه: « وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم» (الانفال ـ ٣٣)

ثم أي فائدة لمعجزة توجب ابادة القوم واهلاكهم ؟

* * *

الاية السادسة عشر

قوله سبحانه: « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين» (الانبياء ٥ ـ ٨)

نرى ان أعداء النبي ﷺ رموا قرآنه ومعجزته الكبرى بكونه أضغاث أحلام وتجاوزوا ذلك فاعتبروها فرية اختلقها ونسبها الى الله سبحانه ، ثم استقر رأيهم على انه قول شاعر وهذا قول المتحير الذي بهره ماسمع فمرة يقول: «حلم»، وتارة يقول « فرية »، واخرى بأنه « شعر » ولايجزم على أمر واحد من هذه الامور، فلاجل ذلك يعرض عن الجميع ويستدعي أن يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم اليه بآية كما أتى الاولون من الانبياء مثل الناقة والعصا .

ذلك مبلغهم من العلم والدرك، والقرآن يصف نفسه بأنه « آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ومايجحد بآياتنا الا الظالمون» (العنكبوت ـ ٤٩)

وعندئذ يجب أن نستمع الى مايجيبهم القرآن تجاه هذا الاقتراح، فأجابهم بوجوه اولا بقوله:

١ ـ « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » مشيراً الى انه لم يؤمن قبل هؤلاء الكفار من أهل قرية جاءتهم الايات التي طلبوها أفهم يؤمنون عند مجيئها، مصرحاً بحالهم وان سبيلهم سبيل من تقدم من الامم الذين اقترحوا

على انبيائهم الايات وعاهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فلوأعطينا لهؤلاء أيضاً مايقترحون لكانـوا أنكث منهؤلاء فهل في هذه الحال يصحأن يقوم النبي بالاعجاز والاجابة على الطلبات والاقتراحات ؟!.

٢ ـ ان قوله: « الاّ اهلكناهم » اشارة الى انهم لوخالفوا ولم يؤمنوا بعد المجيء بالايات المقترحة ، لعمّهم الهلاك كما عمّ الامم السابقـة واستحقوا عذاب الاستئصال، فلاجل ذلك لم يأت بالايات المقترحة .

٣ ـ ان قوله: «وماأرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتـم لا تعلمون » اشارة الى جواب ثالث ، وهو : ان الظاهر من قـول المقترحين « فليأتنا بآية كما أرسل الاولون » انهم آمنوا بنبوة موسى وعيسى وصدقـوهما فلاجل ذلك يطلبـون من النبي نفس المعجزات التي جاء بهما الرسولان السابقان فعند ذلك يدعوهم القرآن الى أن يسئلوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعرّفوهم بالبشائر الواردة في حق النبي في الكتب المنزلة قبله، فلو انهم بصدد الحقيقة فلماذا لم يطرقوا هذا الباب ، وهذا آية انهم قوم لجاج وعناد .

٤ ـ ان قوله: «وماجعلناهم جسداً لايأكلون الطعام وماكانوا خالدين» يشير الى عقيدة القوم فكأنهم كانوا ينتظرون من النبي أن يكون ذا قدرة فوق البشرية فلايأكل ولايمشي في الاسواق، ويفعل كل مااقترحوا عليه. مع ان الانبياء في منطق القرآن والعقل فوق هذه المزعمة، فهم لايفعلون، ولايقدرون على شيء الا باذن الله قال سبحانه: «وماكان لنبي أن يأتي بآية الا باذن الله» (الرعد ـ ٣٨) ثم ان الايـة تشتمل على حجتين تقومان على ابطال استدلالهم ببشريتـه على نفي نبوته :

الاولى: نقض حجتهم بالاشارة الى رجال من البشر كانوا انبياء فلامنافاة

بين البشرية والنبوة .

الثانية: حلّها وهو ان الفارق بين النبي وغيره هو الوحي الالهي، وهو كرامة من الله يخصص بها من يشاء من عباده .

فالايـة نظير قوله : « قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكـم بسلطان الا باذن الله » (ابراهيم ١٠ - ١١)

وعلى ذلك كله فامتناع النبي عن القيام بمقترحات القوم، ليس لاجل انه لم يؤت بمعجزة سوى القرآن بل اما لاجل اليأس عن ايمانهم ، واما لاستلزام الانكار ابادتهم واستئصالهم، واما لاجل ان النبي ليس قادراً على كل مايطلبونه منه الا باذن الله ، واذنه سبحانه موقوف على توفر شرائط .

* * *

الاية السابعة عشر

قال سبحانه: « وقالوا لولا انزل عليه آيات مـن ربـه قل انما الايـات عند الله وانما انا نذير مبين » (العنكبوت ـ ٥٠)

وهذه الايـة قد تذرع بها الخصم علـى ان النبي لم يكن مزوداً بمعجزة سوى القرآن وان كل مـاطولب بالمعجزة اجاب بان « الايات عند الله » غير ان الامعان في الايات التـي سبقتها وتأخرت عنها يكشف القناع عن مقصد الاية ومرادها، واليك بيانها :

ان الناظر في الآيات المتقدمة على هذه الاية يجد ان القرآن يبرهن على كونه من الله سبحانه بأن النبي الاتي به امي ماكان يتلو من قبله من كتاب وما

كان يخط بيمينه شيئاً فهذا الكتاب العظيم الذي ينطوي على آفاق من العلوم والمعارف والحكم ، يستحيل أن يكون من نسج الانسان وصنع البشر فلاجل ذلك يصفه بقوله « بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ومايجحد بآياتنا الا الظالمون » ، فبعد ذلك ينقل اقتراحهم بقولـه : « ولولا انزل عليه آيات من ربـه » تعريضا بالكتاب على انه ليس بآيـة معجزة وهذه السخرية نظير قوله: « ياايها الذي نزل عليـه الذكر انك لمجنون لو ماتأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (الحجر ٦ - ٧) ففي هذه الحالة، وهذا الموقف هل يصح للنبي انيقوم بتلبية مقترحهم ليكون عمله نوعاً من الاعتراف بعقيدتهم وتكريساً لاستهزائهم .

ثم انه سبحانـه يأمر نبيّه أن يجيبهم بقولـه : « قل انما الايات عند الله » وهذا جواب عن زعمهم ان من يدعي الرسالـة يجب أن يكون متدرعاً بقوة غيبيـة يقدر بها على كل ماطولب بـه ، وحقيقة الجواب هي التصريح بأنه لا يشارك فـي القدرة على المعاجز معه سبحانه فليس للنبي شيء الا ان يشاء الله وقدتكرر هذا المضمون في القرآن الكريم غيرمرة ، وعلى ذلك فليست الاية بصدد نفي الاعجاز عن النبي، بل هي بصدد بيان حقائق غيرمنكرة في منطق العقل وهي: ان القادر المطلق هو الله سبحانه، ولايشاركـه غيره والنبي لايقوم بخرق العادة الا باذنه، وأين ذلك مايدعيه الخصم .

ويؤكد ذلك ذيل الاية : «وانما أنا نذير مبين».

* * *

الاية الثامنة عشر

قوله سبحانه: « وماكان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله

قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون.) (غافر – ٧٨) .

والاستدلال بهذه الاية على نفي المعجزة من غرائب الاستدلالات اذ ليس فى الاية أي اشعار بذلك فضلا عن الدلالة والتصريح بل مفاد الاية ومرماها كمفاد الاية الثامنة والثلاثين من سورة الرعد اعنى قوله سبحانه «وماكان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ولكل اجل كتاب» .

وعلى ذلك فالايتان تدلان على ان الاعجاز ليس في اختيار النبي حتى يقوم به كيف شاء او كيف ماشاؤا بل يقتفى فى ذلك اذن الله سبحانه وهو موقوف على توفر شرائط غير موجودة الا فى ظروف قليلة .

على ان من المحتمل جداً ان يكون المراد من الاية هي الايات التي تنصر الحق ، وتقضى بين الرسول وأمته وتلك اعم من الاعجاز اعنى النصر فى الحروب والظروف القاسية ، ويؤيد ذلك ذيل الاية اعنى قوله: «فاذا جاء امر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » اي اذا جاء أمر الله بالعذاب قضى بالحق فاظهر الحق وازهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل فى دنياهم بالهلاك وفى آخرتهم بالعذاب الدائم .

حصيلة البحث

وانت ايها القارىء الكريم اذا امعنت فى هذه الايات وماتشابهها فى الهدف والمفاد تقف على ان هذه الايات لاتهدف الى ما يرميه الخصم المعاند الذي يكن للاسلام ونبيه حقداً وعداوة ، ويمهد الطريق للغزو الفكري وزعزعة القلوب عما اعتقدت به .

فان هذه الايات تهدف الى حقيقة ناصعة هي من أجلى الحقائق القرآنية وهي ان للاتيان بالمعجزة قوانين وضوابط ، وانه يتوقف على توفر شرائط

اشرنا اليها فى مستهل البحث الحاضر ، فلو فقدت واحدة من هـذه لما صح للنبي القيام بالاعجاز والاتيان بمقترحات القوم وليس فى الايات اى اشعار بان النبي كان يظهر العجز عن القيام بالاعجاز والاتيان بالاية اويحيل الامر الى الله سبحانه بمعنى انه لم يؤت له آية معجزة سوى القرآن .

كل ذلك دعايات وسفاسف الصقها الكتاب المسيحيون، ومن يمشون فى اثرهم فى الاهداف والغايات بمفاد الايات ومعانيها ، والايات تنادي خـلاف ما ادعوا.

والعجب ان بعض الكتاب قد استدل على مدعاه ببعض الايات التي لاتمس مانحن فيه اصلا مثل قوله سبحانه : ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين» (الملك ٢٥ - ٢٦)

فالاية تهدف الى ان العلم بوقت قيام القيامة يختص به سبحانه ولم يطلع عليه احد سواه ، قال سبحانه : «ان الله عنده علم الساعة» (لقمان ٣٤) ، ومثل ذلك قوله سبحانه: «ولقد رآه بالافق المبين وماهو على الغيب بضنين وماهو بقول شيطان رجيم» (التكوير ٢٣ - ٢٥)

فالاية تهدف الى ان النبي ليس بضنين على الوحي ، بان يكتم بعضه ويبين بعضه ، فالمراد من الغيب هو الوحي ، فلاصلة للاية بالاعجاز كل ذلك يعطي على ان الكاتب كان يخبط خبط عشواء فيأتي فى مقام الاستدلال بشيء لامساس له بالموضوع ابداً .

(٤)

النبى الشفيع

فى القـرآن الكـريم

فى هذا الفصل :

١ ـ الشفاعة وكلمات علماء الاسلام وهي أربعة وثلاثون كلمة .

٢ ـ الايات الوردة حول الشفاعة وهي على سبعة أصناف :

١) الايات النافية للشفاعة ، ٢) مايفند عقيدة اليهود فيها ٣)ماينفي شمول الشفاعة للكفار ٤) ماينفي صلاحية الاصنام للشفاعة ٥) مايعد الشفاعة حقاً مختصاً به سبحانه ٦) مايثبت الشفاعة لغيره سبحانه في شرائط خاصة ٧)مايسمي اسماء من تقبل شفاعتهم .

٣ ـ الشفاعة المرفوضة والشفاعة المقبولة .

٤ ـ آيات اخرى في الشفاعة .

٥ ـ حقيقة الشفاعة وأقسامها الثلاثة التكوينية، والقيادية، والمصطلحة .

٦ ـ لماذا شرعت الشفاعة وماهي مبرراتها ؟

٧ ـ ماهو اثر الشفاعة أهو اسقاط العقاب أوزيادة الثواب ؟

٨ ـ اشكالات مثارة حول الشفاعة وهي عشرة .

٩ ـ الشفاعة في الادب العربي .

١٠ ـ الشفاعة في الاحاديث الاسلامية .

(١)

الشفاعة وعلماء الاسلام

الشفاعة اصل من اصول الاسلام

اجمع العلماء على ان النبي ﷺ احد الشفعاء يوم القيامة مستدلين على ذلك بقوله سبحانه « ولسوف يعطيك ربك فترضى » (الضحى - ٥)

وبقوله سبحانه : « عسى ان يبعثك ربك مقاما محموداً » (الاسراء - ٧٩)

وفسرت الايتان بالشفاعة فالمقام المحمود هو مقام الشفاعة ، والذي أعطى النبي هو حق الشفاعة الذي يرضيه .

ولما كان الاحاطة بمفاد الايتين تتوقف على البحث عن معنى الشفاعة وادلتها وحدودها والتعرف على الشفعاء ، ناسب ان نبحث عن الشفاعة بالاسهاب ، وان كان الهدف الاسمى هو التعرف على احدى صفات النبي ﷺ وهو كونه شفيعا يوم القيامة فنقول :

اتفقت الامة الاسلامية على ان الشفاعة اصل من اصول الاسلام نطق به الكتاب الكريم وصرحت به السنة النبوية والاحاديث من العترة الطاهرة، ولم يخالف في ذلك احد من المسلمين وان اختلفوا في معناها وبعض خصوصياتها «فذهبت الامامية والاشاعرة الى ان رسول الله صلى الله عليه وآله يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من امته وذهبت المعتزلة على خلاف ذلك قائلين بان شفاعة رسول الله للمطيعين دون العاصين وانه لا يشفع في مستحق العقاب من الخلق اجمعين»[1] .

---

١) أوائل المقالات للشيخ المفيد المتوفى عام ٤١٣ ص ١٤ - ١٥ .

والـى ذلك يرجع أيضا اختلافهم في معنى الشفاعة هل هي بمعنى طلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقين للثواب كما ذهبت اليه الوعيدية او اسقاط عقاب الفساق من الامة كما ذهب اليه غيرهم[١] فان مآل النزاعين امر واحد فتارة تطرح المسألة بلحاظ المشفوع له فيقال هل هي للمطيعين او الخاطئين واخرى بلحاظ نفس معنى الشفاعة هل هو طلب زيادة المنافع او اسقاط العقاب .

وعلى كل تقدير فالشفاعة باجمالها موضع اتفاق بين الامة الاسلامية ولا بأس ان نذكر بعض نصوص علماء الاسلام في هذا البحث حتى يكون القارىء على بصيرة من الامر، فنقول :

١ ـ لقد اشار ابو منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندى المتوفى عام ٣٣٣هـ في تفسيره، الى الشفاعة المقبولة، واستدل لها بآية «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» (الانبياء ـ ٢٨) ، وقد اورد قبلها قوله سبحانه : « ولا يقبل منها شفاعة » (البقرة ـ ٤٨) وقال ماحاصله : ان الاية الاولى وان كانت تنفى الشفاعة ولكن هنا شفاعة مقبولة في الاسلام وهي التى تشير اليها هذه الاية »[٢].

٢ ـ قال تاج الاسلام ابو بكر الكلابادي المتوفى عام ٣٨٠هـ اجمعوا على ان الاقرار بجملة ماذكر الله سبحانه وجاءت به الروايات عن النبي في الشفاعة واجب لقوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى» (الضحى ـ ٥) ولقوله : « عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا» (الاسراء ـ ٧٩) وقوله: « ولا يشفعون الا لمن ارتضى» الانبيـاء (ـ ٢٨) .

وقال النبي ﷺ شفاعتى لاهل الكبائر من امتى »[٣].

---

١) كشف المراد للعلامة الحلى المتوفى عام ٧٢٦هـ ص ٢٦٢ .

٢) تفسير الماتريدى المعروف بتاويلات اهل السنه ص ١٤٨ .

٣) التعرف لمذهب اهل التصوف تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ص٥٤ ـ ٥٥

٣ ـ قال المفيد: اتفقت الامامية على ان رسول الله يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من امته ، وان امير المؤمنين يشفع في اصحاب الذنوب من شيعته ، وان ائمة آل محمد يشفعون كذلك، وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين ووافقهم على شفاعة الرسول، المرجئة سوى ابن شبيب وجماعة من اصحاب الحديث،واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعمت ان شفاعة رسول الله ﷺ للمطيعين دون العاصين ، وانه لايشفع في مستحق العقاب من الخلق أجمعين[١].

وقال في موضع آخر ان رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامه في مذنبي امته من الشيعة خاصة فيشفعه الله عزوجل ويشفع امير المؤمنين في عصاة شيعته فيشفعه الله عزوجل ، وتشفع الائمة في مثل ما ذكرناه من شيعتهم فيشفعهم الله ويشفع المؤمن البر لصديقه المؤمن المذنب فتنفعه شفاعته ويشفعه الله وعلى هذا القول اجماع الامامية الامن شذمنهم ، وقد نطق به القرآن ، وتظاهرت به الاخبار قال الله تعالى في الكفار عند اخباره عن حسراتهم وعلى الفائت لهم مما حصل لاهل الايمان:«فمالنا من شافعين ولاصديق حميم،(الشعراء ١٠٠ ـ ١١١)» وقال رسول الله اني اشفع يوم القيامة فأشفع ويشفع علي عليه السلام فيشفع وان ادنى المؤمنين شفاعة يشفع في اربعين من اخوانه[٢].

٤ ـ وقال الشيخ الطوسي: حقيقة الشفاعة عندنا ان يكون في اسقاط المضار دون زيادة المنافع ، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي فيشفعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحقين من اهل الصراط لما روي من قوله عليه السلام : ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي ، وانما قلنا لاتكون في زيادة المنافع لانها لو

١) اوائل المقالات ص١٥ .

٢) اوائل المقالات ص ٥٢ ـ ٥٣ .

استعملت في ذلك لكان احدنا شافعا في النبي اذا سأل الله ان يزيد في كراماته وذلك خلاف الاجماع فعلم بذلك ان الشفاعة مختصة بما قلناه ، والشفاعة ثبت عندنا للنبي وكثير من اصحابه و لجميع الائمة المعصومين و كثير من المؤمنين الصالحين »[١].

٥ ـ يقول القاضي عياض : مذهب اهل السنة هو جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعا بصريح الايات وبخبر الصادق، وقد جاءت الاثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعةفي الاخرة لمذنبي المؤمنين واجمع السلف الصالح ومن بعدهم من اهل السنة عليها،ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين،وامثاله ، وهي في الكفار، واما تأويلهم احاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل والفاظ الحديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم باخراج من استوجب النار[٢] .

٦ ـ قال الامام ابوحفص النسفي : والشفاعة ثابتة للرسل والاخيار في حق أهل الكبائر بالمستفيض من الاخبار خلافا للمعتزلة»[٣] .

٧ ـ وقدايد الفتازاني في شرح العقائد النسفية هذا الرأى وصدقه دون اي تردد وتوقف[٤].

٨ ـ قال الطبرسي في تفسيره : ان الامة اجمعت على ان للنبي شفاعة مقبولة وان اختلفوا في كيفيتها فعندنا هي مختصة بدفع المضار،واسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبي المؤمنين،وقالت المعتزلة هي في زيادة المنافع للمطيعين

---

١) التبيان للشيخ الطوسى المتوفى عام ٤٦٠ج١ ص٢١٣ ـ ٢١٤.
٢) بحار الانوار ج٨ ص٦٢ وشرح صحيح مسلم ج٢ ص٥٨ .
٣و٤) العقائد النسفية ص١٤٨ .

والتائبين دون العاصين وهي ثابتة عندنا للنبي ولاصحابه المنتجبين والائمة من اهل بيته الطاهرين ولصالح المؤمنين وينجي الله تعالى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين ويؤيده الخبر الذي تلقته الامة بالقبول وهو قوله « ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي » وما جاء في روايات اصحابنا رضي الله عنهم مرفوعا الى النبي انه قال : « اني اشفع يوم القيامة فاشفع ويشفع علي عليه السلام فيشفع ويشفع اهل بيتي فيشفعون ، وان ادنى المؤمنين شفاعة ليشفع في اربعين من اخوانه كل قد استوجب النار ، وقوله تعالى مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفائت لهم مما حصل لاهل الايمان من الشفاعة « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » [١].

وقال ايضا : اصل الشفاعة من الشفع الذي هو ضد الوتر فان الرجل اذا شفع بصاحبه فقد شفعه اى صار ثانيه ، ومنه الشفيع في الملك لانه يضم ملك غيره الى ملك نفسه ، واختلفت الامة في كيفية شفاعة النبي يوم القيامة فقالت المعتزلة ومن تابعهم يشفع لاهل الجنة ليزيد الله درجاتهم وقال غيرهم من فرق الامة بل يشفع لمذنبي الامة ممن ارتضى الله دينهم ليسقط عقابهم بشفاعته » [٢].

٩ ـ قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل » (البقره ـ ٤٨) : كانت اليهود تزعم ان آباءهم الانبياء يشفعون لهم فاويسوا فان قلت : هل فيه دليل على ان الشفاعة لاتقبل للعصاة ، قلت : نعم لانه نفى ان تقضى نفس عن نفس حقا اخلت به من فعل اوترك ، ثم نفى ان تقبل منها شفاعة شفيع ، فعلم انها لايقبل للعصاة [٣].

---

(١) مجمع البيان ج١ ص١٠٣ـ ١٠٤ .

(٢) مجمع البيان ج٢ ص٨٣ .

(٣) الكشاف ج١ ص٢١٤ـ٢١٥ وما ذكره صاحب الكشاف في تفسير الشفاعة. ←

١٠ ـ قال الامام ناصر الدين احمد بن محمد بن المنير الاسكندرى المالكى في كتابه الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال :

« واما من جحد الشفاعة فهو جدير ان لاينالها ، واما من آمن بها وصدقها وهم اهل السنة والجماعة فاولئك يرجون رحمة الله ومعتقدهم انها تنال العصاة من المؤمنين وانما ادخرت لهم وليس في الاية دليل لمنكريها ،لان قوله « يوما» في قوله « واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة » اخرجه منكراً ، ولاشك ان في القيامة مواطن ، يومها معدود بخمسين الف سنة فبعض اوقاتها ليس زمانا للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر، عليه افضل الصلاة والسلام »وقد وردت آي كثيرة ترشد الى تعدد ايامها واختلاف اوقاتهامنها قوله تعالى«فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» مع قوله : «واقبل بعضهم على بعض يتساءلون» فيتعين حمل الايتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين احدهما محل للتساؤل والاخر ليس لـه ، وكذلك الشفاعة ، وادلة ثبوتها لانحصى كثرة ورزقنا الله الشفاعة »[1].

وقال الزمخشرى ايضاً فـي تفسير قوله : « يا ايها الذين امنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون»: «لابيع فيه» حتى تبتاعوا ماتنفقونه و«لاخلة» حتى يسامحكم اخلاؤكم به ، وان اردتم ان يحط عنكم مافي ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم في حط الواجبات لان الشفاعة ثم في زيادة الفضل[2]:

ـ راجع الى منهجه الذى هو منهج المعتزلة فى معنى الشفاعة والهدف من نقل كلامه هو الايجاز الى كون اصل الشفاعة امرا متفقاً عليه بين المسلمين واما الخصوصية فسنبحث عنه فى الفصول القادمة .

(١) الانتصاف بهامش الكشاف المطبوع عام ١٣٦٧ ـ ج١ ص٢١٤.

(٢) الكشاف ج١ ص٢٩١.

وقال صاحب الانتصاف : اما القدرية فقد وطنوا انفسهم على حرمان الشفاعة وهم جدير ان يحرموها، وادلة اهل السنة على اثباتها للعصاة من المؤمنين اوسع من ان تحصى وما انكرها القدرية الا لايجابهم مجازاة الله للمطيع على الطاعة وللعاصي على المعصية ، ايجابا عقليا على زعمهم فهذه الحالة في انكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة [١].

وعلى اى تقدير فالحاصل من المناظرة التى دارت بين الفريقين هو اتفاق الامة الاسلامية على الشفاعة وان اختلفوا في تفسيرها .

١١ ـ قال البيضاوى في تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة» (البقرة ـ ٤٨) : تمسكت المعتزلة بهذه الاية على نفى الشفاعة لاهل الكبائر واجيبوا بأنها مخصوصة بالكفار ، للايات والاحاديث الواردة في الشفاعة .

ويؤيده ان الخطاب هنا مع الكفار والاية نزلت رداً لماكانت اليهود تزعم ان آباء هم تشفع لهم » [٢].

١٢ ـ قال الفتال النيسابوري الذي هو أحد علمائنا في القرن السادس : لاخلاف بين المسلمين ان الشفاعة ثابتة الا ان اصحاب الوعيد وهم المعتزلة قالوا : مقتضاها زيادة الثواب والدرجات ، و قلنا مقتضاها : اسقاط المضار والعقوبات [٣] .

١٣ ـ يقول الرصاص الذي هو من علماء القرن السادس في كتابه مصباح

---

(١) الانتصاف بهامش الكشاف ج ١ ص٢٩١.

(٢) انوار التنزيل واسرار التأويل ج١ ص١٥٢.

(٣) روضة الواعظين ص٤٠٦.

العلوم في معرفة الحي القيوم : « ان شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ثابتة قاطعة [١]

١٤ ـ قال الرازي في تفسير قوله : «واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ولاهم ينصرون » . (البقره ـ ١٢٣)

اجمعت الامة على ان لمحمد شفاعة فى الاخرة وذهبت المعتزلة الى ان تأثير الشفاعة هو حصول الزيادة من المنافع على قدرما استحقوه غير ان الحق هوما اتفقت عليه الامة من ان تأثير الشفاعة هو اسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب اما بان يشفع لهم وفي عرصة القيامة حتى لايدخلوا النار اوان دخلوا النار فيشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة ، واتفقوا على انها ليست للكفار [٢] .

١٥ ـ قال المحقق الطوسى : والاجماع على الشفاعة (اي الاجماع قائم على ثبوت الشفاعة)وقيل لزيادة المنافع، ويبطل منّا في حقه ﷺ [٣] .

يريد بقوله : « يبطل » ان الشفاعة لوكانت لطلب زيادة المنافع لكنا شافعين للنبي لانا نطلب زيادة المنافع وهو مستحق للثواب والتالي باطل لان الشفيع أعلى مرتبة من المشفوع له، وهنا ليس كذلك .

ثم استدل المحقق الطوسي على الشفاعة بالحديث المروى : ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتى [٤] .

١٦ ـ وقال العلامة الحلي فى شرحه لعبارة المحقق الطوسي : اتفقت العلماء على ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ ويدل عليه قوله تعالى: « عسى أن يبعثك

---

(١) مصباح العلوم فى معرفة الحى القيوم المعروف بالثلاثين مسألة.

(٢) مفاتيح الغيب ج٣ص٥٦.

(٣) وقوله يبطل اى«لايقع منافى حق النبى».

(٤) شرح تجريد الاعتقاد طبعة صيدا ص٢٦٢ - ٢٦٣.

ربك مقاماً محموداً » قيل انه الشفاعة واختلفوا فقالت الوعيدية انها عبارة عن طلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقين للثواب وذهبت التفضلية الى ان الشفاعة للفساق من هذه الامة فى اسقاط عقابهم وهو الحق[١] .

ويقول أيضاً فى كتابه نهج المسترشدين : يجوز العفو عن الفاسق لانه صلى الله عليه وآله وسلم ثبت له الشفاعة وليست فى زيادة المنافع ، والاّ لكنا شافعين فيه، فثبت فى انتفاء المضار واسقاط العقوبة[٢] .

١٧ ـ قال ابن تيمية الحراني الدمشقي: للنبي فى القيامة ثلاث شفاعات الى أن قال وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار وهذه الشفاعة له ﷺ ولسائر النبيين والصديقين ، وغيرهم فى من استحق النار أن لايدخلها ويشفع فى من دخلها .

ثم قال: وتفاصيل ذلك مذكورة فى الكتب المنزلة من السماء والاثارة من العلم المأثور عن الانبياء وفي العلم الموروث عن محمد [٣] .

وله رسالة اخرى أسماها بالاستغاثة، وقد اعتبر فيها المعتزلة والخوارج الذين أنكروا الشفاعة بمعناها المعروف وهو اسقاط العقوبة ، أهل ضلال وبدعة وقال : وأمّا من أنكر ما ثبت بالتواتر والاجماع فهو كافر بعد قيام الحجة [٤] .

١٨ ـ وقال ابن كثير الدمشقي فى تفسير قوله سبحانه: من ذا الذي يشفع عنده الاّ باذنه » (البقرة ٢٥٦) هذا من عظمته وجلاله، وكبريائه عزوجل انه

---

(١) شرح تجريد الاعتقاد طبعة صيدا ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٢) نهج المسترشدين ص٢٠٥.

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ج١ص٤٠٣ـ ٤٠٤ .

(٤) الاستغاثة فى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ج١ص٤٨١.

لايتجاسر أحد على أن يشفع لاحد عنده الاّ باذنه له فى الشفاعة كمافي حديث الشفاعة عن الرسول ﷺ: «آتى تحت العرش فاخرّ ساجداً، فيدعني ماشاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك وقد تسمع ، واشفع تشفع . قال: فيحدّ لي حداً فادخلهم الجنة [١] .

١٩ ـ قال نظام الدين القوشجي فى شرحه على شرح التجريد: اتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة لقوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» وفسر بالشفاعة .

ثم أشار الى اختلاف المعتزلة والاشاعرة فى معنى الشفاعة واختار المذهب المعروف فيها .

٢٠ ـ قال الفاضل المقداد : فى شرحه لمنهج المسترشدين وأمّا ثبوت الشفاعة فلوجوه: الاول الاجماع والثاني قوله تعالى: استغفر لذنبك وللمؤمنين وللمؤمنات، والفاسق مؤمن لمايجيء فوجب دخوله فى من يستغفر له النبي [٣] .

٢١ ـ قال المحقق الدواني: الشفاعة لدفع العذاب ورفع الدرجات حق لمن اذن له الرحمان من الانبياء عليهم السلام، والمؤمنين بعضهم لبعض لقوله تعالى « يومئذ لاتنفع الشفاعة الاّ لمن أذن له الرحمان ورضى له قولا » [٤] .

٢٢ ـ قال الشعراني فى المبحث السبعين : ان محمداً هو أول شافع يوم القيامة وأول مشفع وأولاه فلاأحد يتقدم عليه ، ثم نقل عن جلال الدين السيوطي : ان للنبي يوم القيامة : ثمان شفاعات ، وله ﷺ يوم القيامة ثمان

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٠٩ .
(٢) شرح التجريد للقوشجي ص٥٠١ .
(٣) ارشاد الطالبين ص٢٠٦.
(٤) شرح العقائد العضدية ج٢ ص٢٧٠ .

شفاعات، وثالثها فيمن استحق دخول النار أن لايدخلها [١].

٢٣ ـ قال العلامة المجلسي : أما الشفاعة فاعلم انـه لاخلاف فيها بين المسلمين بأنها من ضروريات الدين وذلك بأن الرسول يشفع لامته يوم القيامة بل للامم الاخرى غير ان الخلاف انما هو فى معنى الشفاعة وآثارها هل هي بمعنى الزيادة فى المثوبات اواسقاط العقوبة عن المذنبين .

وخصها المعتزلة والخوارج بالمعنى الاول قائلين بأنه يجب عليه سبحانه أن يفي بوعيده فى موارد العقاب وليس بامكان الشفاعة أن تنقض هذه القاعدة المسلمـة. والشيعة ذهبت الى أن الشفاعـة تنفع فى اسقاط العقاب وان كانت ذنوبهم من الكبائر ويعتقدون أيضا بأن الشفاعة ليست منحصرة فى النبي والائمة من بعده بل للصالحين أن يشفعوا بعد أن يأذن الله لهم بذلك[٢] .

٢٤ ـ وقال محمد بن عبـد الوهاب مؤسس المذهب الوهابـي : وثبتت الشفاعة لنبينا محمد يوم القيامة ولسائـر الانبياء والملائكة والاولياء والاطفال حسبما ورد ونسألها من المالك لها والاذن فيها بأن نقول : اللهـم شفع نبينا محمداً فينا يوم القيامة أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين. أوملائكتك أونحو ذلك ممايطلب من الله لا منهم. الى أن قال: ان الشفاعة حق فى الاخرة ووجب على كل مسلـم الايمان بشفاعتـه بل وغيره من الشفعاء الا ان رجاءها من الله فالمتعيّن على كل مسلم صرف وجهه الى ربه فاذا مات استشفع الله فيه نبيّه .

ويظهر من أكثر كلماته انه معتقد بأصل الشفاعة ولكن اختلافه مع غيره من المسلمين فى طلبها، فذهب الى انه لايطلب الاّ من الله لا من الشفعاء[٣] .

---

١) اليواقيت والجواهر ج٢ص١٧٠ .

٢) راجع بحار الانوار ج٨ص٢٩ ـ ٦٣ وحق اليقين ص٤٧٣ .

٣) راجع الهدية السنية الرسالة الثانية ص٤٢ .

٢٥ ـ وقال السيد شبر: اعلم انه لاخلاف بين المسلمين فى ثبوت الشفاعة لسيد المرسلين فى امته بل فى سائر الامم الماضين بل ذلك من ضروريات الدين قال الله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وانما اختلفت فى معناها فالذي عليه الفرقة المحقة وأكثر العامة ان الشفاعة كماتكون فى زيادة الثواب كذلك تكون لاسقاط العقاب عن فساق المسلمين المستحقين للعذاب والخوارج والمعتزلة على انها لا تكون الاّ فى طلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقين للثواب ، ولكن الادلة النقلية والعقلية تبطل مذهبهم فى الواقع [١] .

٢٦ ـ وقال الشيخ محمد عبده: ماورد فى اثبات الشفاعة من المتشابهات وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم وانها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة (عبر عنها سبحانه بهذه العبارة «الشفاعة») ولانحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف فى معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفي ، وأما مذهب الخلف فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على انها دعاء يستجيبه الله تعالى، والاحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا ثم ذكر حديثاً من الصحيحين . وقال فى الهامش بمثل هذا « أي دعاء يستجيبه الله تعالى » قال شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ولم يعدوه تأويلا [٢] .

والعجب ان الاستاذ محمد عبده ـ مع ماله من الاطلاع الوسيع على المعارف الاسلامية وبالاخص فيمايرجع الى تفسير القرآن ـ انه كلمامر على امور يرتبط بأولياء الله مثل الشفاعة والاستشفاع منهم والتوسل والزيارة يضطرب بيانه، ولايعمد الى كشف الحقيقة بحرّية كاملة كماهو دأبه فى سائر

١) حق اليقين ج٢ص١٤٣ .
٢) المنار ج١ص٣٠٧ .

المسائل، ونرى الاستاذ في هذه المسائل يبدو كأنه قد تأثر بمقالة الوهابيين وأغلب الظن ان الاستاذ بريء عن أكثر مانسب اليه بالصراحة في هذه المباحث في التفسير فاني أجله عن النزعة الوهابية، ولعل تلميذه السيد رشيد محمد رضا قد أودع كلمات الاستاذ في قوالب خاصة تتناسب مع نزعاته الوهابية ، ومع ذلك فالعلم عند الله سبحانه [١] اللهم اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان .

ولاجل ذلك نرى تلميذه الكاتب لدروسه يثير اشكالات ثلاثة حول الشفاعة التي هي دون شأن الاستاذ، وهي :

١ ـ ليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث باثباتها فما معناها؟!.

٢ ـ الشفاعة لاتتحقق الا بترك الارادة وفسخها لاجل الشفيع فأما الحاكم العادل فانه لايقبل الشفاعة الا اذا تغير علمه بماكان أراده، أوحكم به، كأن كان قد أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أوالعدل في خلاف ماكان يريده أوحكم به .

٣ ـ ماورد في اثبات الشفاعة من المتشابهات [٢] .

وستوافيك الاجابة عن هذه الاشكالات في فصله الخاص على وجه الاجمال وأما التفصيل فموكول الى الرسالة التي أفردناها في الشفاعة وأبحاثها، وقد نقلت الرسالة الى اللغة العربية بواسطة الاخ الفاضل الشيخ جعفر الهادي دامت افاضاته .

---

(١) نعم ماذكره الاستاذ في تفسير سورة الفاتحة ص٤٦ـ ٤٧ يؤيد ان الاستاذ كان يميل الى الحركة الوهابية التي بلغت موجته الى تلك الديار في ذلك الاوان .

(٢) المنار ج١ص٣٠٧ .

٢٧ ـ وقال السيد سابق: المقصود بالشفاعة سؤال الله الخير للناس فى الاخرة ، فهي نوع من أنواع الدعاء المستجاب ومنها الشفاعة الكبرى ولا تكون الا لسيدنا محمد رسول الله فانه يسأل الله سبحانه أن يقضي بين الخلق ليستريحوا من هول الموقف فيستجيب الله له فيغبطه الاولون والاخرون ، ويظهر بذلك فضله على العالمين وهو المقام المحمود الذي وعد الله به فى قوله سبحانه : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » ثم نقل الايات والروايات المربوطة بالشفاعة والمثبتة لها وقد ذكر بعض شروط قبولها[١] .

٢٨ ـ قال الشيخ الجليل محمدجواد البلاغي: ان الشفاعة قدنفاها القرآن من جهة وهي الشفاعة للمشركين، أوالشفاعة التي يزعمها المشركون للذين يتخذونه آلهة مع الله بزعم أنهم قادرون بالهيتهم بحيث تنفذ شفاعتهم طبعاً وحتماً أو شفاعة الشافع الذي يطاع حتماً كما في سورة ياسين الاية ٢٢ والمؤمن الاية ١٨ والزمر الاية ٤٤ والمدثرالاية ٤٨ ، وأثبتها من جهة اخرى بالاستثناء بل بالاستدراك الدافع لايهام نفيها المطلق عن كل أحد فقال تعالى الا باذنه ، الا من بعد اذنه ، الا من اتخذ عند الله عهداً ، الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا، الا لمن ارتضى، الا لمن أذن له، الا من شهد بالحق ، الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، كمافي سورة البقرة الاية ٢٥٦ ويونس الاية ٦ ومريم الاية٩٠، وطه الاية ١٠٨ ، والانبياء الاية٢٩ وسبا الاية ٢٢ والزخرف الاية٨٦ والنجم الاية٢٧، وان الشفاعة المستثناة والمستدركة فى آيات البقرة ويونس وسبأ مطلقة غير مختصة بيوم القيامة ولا بما قبل وفاة

(١) العقائد الاسلامية ص٧٣ والسيد سابق مؤلف اسلامى مصرى قدير .

الشافع في الدنيا [١] .

٢٩ ـ قال الدكتور سليمان دنيا: « والشفاعة لدفع العذاب ورفع الدرجات حق لمن اذن له الرحمان من الانبياء عليهم الصلاة والسلام، والمؤمنين بعضهم لبعض لقوله تعالى « يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن لـه الرحمن ورضى له قولا » وقوله تعالى «من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه»[٢] .

٣٠ ـ قال الحكيم المتألـه العلاّمة الطباطبائي: أن الايات الواردة حول الشفاعة بينما تحكم باختصاص الشفاعة بالله عزّ اسمـه وبينما مايعمها لغيره تعالى باذنـه وارتضائه ونحو ذلك وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلاريب غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصالـة لله وحده من غيرشريك، وبعضها تثبتها لغيره باذنه وارتضائه .

ثم ذكر وجه الجمع بين الايات الذي سيوافيـك توضيحه عند البحث عن الايات[٣] .

٣١ ـ يقول الاستاذ الشيخ محمد الفقـيّ: وقد أعطى الله الشفاعة لنبيّه ولسائر الانبياء والمرسلين وعباده الصالحين ، وكثير من عباده المؤمنين لانه وان كانت الشفاعة كلها لله كماقال: « قل لله الشفاعة جميعاً » الا انه تعالى يجوز أن يتفضل بها على من اجتباهم من خلقه واصطفاهم من عباده، وكمايجوز أن يعطي من ملكه ماشاء لمن شاء، ولا حرج .

ثم أخذ يستدل علـى الشفاعة بالايات والروايات والاشعار المأثورة عن الصحابة [٤] .

---

١) الاء الرحمان ج١ص٦٢ .

٢) محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ج٢ص٦٢٨ .

٣) الميزان ج١ص١٥٨ .

٤) التوسل والزيارة فى الشريعة الاسلامية ص٢٠٦ ـ ط .مصر

٣٢ ـ قال المحقق الكبير السيد أبوالقاسم الخوئي: يستفاد من القرآن الكريم ان الله تعالى قد اذن لبعض عباده بالشفاعة الا انه لم ينوه بذكرهم عدى الرسول الاكرم فقد قال الله تعالى لايملكون الشفاعة الا من اتخذ عندالرحمن عهداً ، الى أن قال : والروايات الواردة عن النبي الاكرم وعن أوصيائه الكرام فى هذا الموضوع متواترة [١] .

* * *

هذا نزر من كثير وغيض من فيض أتينا بـه ليكون القارىء على بصيرة من موقف علماء الاسلام من الفريقين من هذه المسألة الهامة ، وهي نصوص وتصريحات لا تترك ريباً لمرتاب ولا شكاً لاحد غير انّ لبعض الكتّاب المصريين الذين تأثروا بالموجة الوهابية [٢] التي وصلت اليهم فى أوائل القرن الرابع عشر وقد دعمتها السياسات الراهنة فى ذلك الزمان ، موقفاً آخر يتنافى مع هذا الموقف الاسلامي العام وهانحن نأتي بنص كلامه .

٣٣ ـ قال محمد فريد وجدي فى دائرة معارفه : الشفاعة هي السؤال فى التجاوز عن الذنوب ، وفي الاصطلاح الديني سؤال بعض الصالحين من الله التجاوز عن معاقبة بعض المذنبين ، وقد اضرت هذه العقيدة بأكثر الاديان وما هي الا تحريف تقصده الكهان ليكون لهم شأن عند الناس وقد جاء الاسلام فقوّم عقائد الامم من هذه الجهة فذكر الشفاعة ثم قال: « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » وقال تعالى: « وكأين من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم

---

(١) البيان ج ١ ص ٣٤٢.

(٢) مع ان مؤسس الوهابية لاينكر اصل الشفاعة وانما ينكر جواز طلبها من الشفيع ويقول انه يجوز ان يقال : اللهم شفع رسول الله فى حقى ولايجوز ان يقال: اشفع يا رسول الله فى حقى، وللبحث مع هؤلاء فى هذا الموضوع مقام آخر .

شيئاً آلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » فمتى علم المسلم ان الشافع والمشفع هو الله وان لاأحد يمكنه أن يغنى فتيلا ، رفع وجهه من الاستشفاع بمثله الى الاستشفاع بربه ، وناهيك بهذا بعداً عن الوثنية وقرباً من الديانة الالهية [١] .

لم يكن المتوقع من مثل عالم بارع قد أفنى عمره فى الذب عن الاسلام بتآليفه القيمة أن يتعامل مع الشفاعة بمثل ماتعامل به «فريد وجدي» فان كلامه هذا يكشف عن عدم تدبره فى معنى الشفاعة التي نطق بها القرآن وأثبتها الاحاديث واختارها العلماء فانك ترى انه ينكر الشفاعة فى بدء كلامه ويتلقاها اعتقاداً ضاراً صنعه الكهنة وبثوه بين الامة حيث قال: وقد أضرت هذه العقيدة بأكثر الاديان وماهي الا تحريف يقصده الكهان ليكون لهم شأن عند الناس، ولكنه سيعود فى ذيل كلامه الى العقيدة الوهابية فى باب طلب الشفاعة الظاهرة فى ثبوتها فى نفس الامر غير انه ليس لنا الا أن نطلبها الا من الله سبحانه حيث قال: فمتى علم المسلم ان الشافع والمشفع هو الله وأن لاأحد يمكنه أن يغنى فتيلا، رفع وجهه من الاستشفاع بمثله الى الاستشفاع بربه .

وسوف يوافيك الاثار التربوية للشفاعة الصحيحة التي كشف عنها القرآن وأيده العقل والبرهان، وان مارآه فريد وجدي عقيدة ضارة فماهي الا الشفاعة التي اخترعتها الوثنية أو اليهودية البعيدة عن العقيدة الاسلامية ، وليس من الصحيح فى منطق العقل أن يفسر أصل من أصول الاسلام ببعض العقائد الدارجة بين الاقوام .

٣٤ ـ وليعلم انه ليس الكاتب فريداً فى هذا الخلط والخبط بل تبعه معاصره الشيخ الطنطاوي حيث يعترف فى تفسيره بأن الشفاعة من أصول الاسلام

١) دائرة معارف القرن الرابع عشر ج٥ ص٤٠٢ مادة شفع .

المسلمة وانه لااختلاف بين المعتزلة والفلاسفة وسائر الفرق الاسلامية فى أصل ثبوتها، ولوكان هناك اختلاف فانما الاختلاف فى مفادها ومرماها وحيث انه لم يتمكن من تحليلها بالمعنى الصحيح الذي يؤيده العقل أخذ يفسرها بتفسير بعيد عن واقع الشفاعة، واليك نص كلامه :

ان النبي كالشمس المشرقة وهي مشرقة على اليابسة والبحار والاكام والنبات والشجر والأرض السبخة والارض الطيبة وكل من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده فهكذا الامة التي تتبع نبياً فى أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمزجتها وأخلاقها وعوائدها وبيئتها فلا جرم يختلفون فى قبوله اختلاف أحوالهم وتكون أحوالهم فى الاخرة على مقتضى ذلك الاختلاف الى أن قال :-واعلم ان للشفاعة بذوراً ونباتاً وثمراً فبذورها العلم ونباتها العمل وثمرها النجاة فى الاخرة فالانبياء عليهم السلام علّموا الناس فى الدنيا وفيها غرسوا البذور والناس اذا عملوا بماسمعوا منهم ينالون تلك الثمرة وهي النجاة والارتقاء فمبادىء الشفاعة العلم وأوسطها العمل ونهايتها الفوز والرقيّ فى الاخرة فالشفاعة تابعة للاقتداء فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطّل ماوهب له من بذر الشفاعة [1] .

وقدنسب هذا المقال الى محي الدين بن العربي والامام الغزالي وستوافيك بقية كلامه عند البحث عن الاشكالات .

وماذكره من المعنى للشفاعة لوصحّ لماكان منافياً للمعنى الاخر التي ورد عليها الكتاب وتضافرت الروايات كماستجيء .

ولايخفى أن تفسير الشفاعة بمايتراءى فى كلامه وانكان صحيحاً فى حدّ

---

١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٦٤ - ٦٥ بتخليص منا .

ذاته، ويليق أن يسمى الاول بالشفاعة القيادية، والثانية بالشفاعة العملية غير ان هذين المعنيين لايمتان الى ماتفقت عليه الامة فى معنى الشفاعة بصلة، حيث انهم فسروها بالحديث المتواتر عنه من ادخار شفاعته لاصحاب الكبائر أو للمذنبين من الامة وأين هذا من الشفاعة القيادية التي لاتختص بصنف دون صنف بل هي فيض الهي عام شامل لجميع الناس حيث بعث الله سبحانه نبيّه بشيراً ونذيراً للعالمين كافة .

وكما ان الشفاعة القيادية لا تمت الى الشفاعة المصطلحة بصلة فهكذا الشفاعة بمعنى العمل بالاحكام الالهية والوظائف الدينية فانها وان كانت تنجي الانسان يوم التنادي والعذاب لكنها غير مربوطة بماهو المصطلح في ذاك الباب .

وبالجملة فان الكاتب لما لم يتوفق لحل بعض معضلات الباب أخذ يؤل الشفاعة الى المعنيين الاخرين وليست لهما أية صلة بالمراد من الايات والروايات الواردة فى الباب .

وسيوافيك المعنى الحقيقي للشفاعة بعد سرد الايات وتفسير بعضها ببعض ولاجل ذلك يجب علينا ان نقدم البحث عن مفاد الايات ، وتفسير بعضها ببعض حتى يرتفع الاختلاف الذي يلوح للقارىء لاول وهلة ثم البحث عن معنى الشفاعة ولاجل ذلك أفردنا الفصل التالي .

(٢)

الشفاعة فى القرآن الكريم

قد وردت مادة الشفاعة بصورها المتنوعة ثلاثين مرة فى سور شتى ، ووقعت فيها مورداً للنفى تارة والاثبات اخرى، هذا وكثرة الورود والبحث عنها يتم عن عناية القرآن بهذا الاصل سواء فى مجال النفي أم فى مجال الاثبات

غير ان الاستنتاج الصحيح من الايات يحتاج الى جمع الايات فى صعيد واحد، حتى يفسر بعضها ببعض، ويكون البعض قرينة على الاخرى اذ من الخطأ الواضح أن نقتصر في تفسير الشفاعة وأخواتها بآية واحدة، ونغمض العين عن أختها التي ربما يمكن أن تكون قرينة للمراد، وهذا الاسلوب اي البحث عن آية بمفردها مع الغض عن اختها جر الويل والويلات على الباحثين في الابحاث القرآنية ، وأدى الى ظهور مذاهب مختلفة فى المعارف والعقائد بحيث نرى أن صاحب كل عقيدة يستدل على اتجاهه بآية قرآنية أو بنص نبوي غير انه أخطأ فى الاعتماد على آية قد جاء توضيحها في آيات أخرى وهذا النبي الاكرم ﷺ يقول: «ان القرآن يصدق بعضه بعضاً » ويقول أيضاً ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل أن يصدق بعضه بعضاً وقال أيضاً انما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وانما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه[1] .

---

١) الدر المنثور للحافظ جلال الدين السيوطى ج٢ صفحه ٦ .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض»[١] .

ولاجل ذلك لامناص من طرح جميع الايات المرتبطة بالشفاعة والاستنتاج من جميعها جملة واحدة. ولذلك نقول : ان الايات المربوطة بالشفاعة على أصناف يرمى كل صنف الى هدف خاص فنقول :

الصنف الاول: الايات النافية للشفاعة

لانجد من هذا الصنف الا آية واحدة تنفى الشفاعة في بادىء الامر بقول مطلق وهي قوله سبحانه: «يأيها الذين آمنوا انفقوا ممارزقناكم من قبل ان يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون»(٢٥٤) البقرة .

وهذه الاية بظاهرها تنفي الشفاعة بتاتا ولعل ظاهرها هو المستمسك الوحيد لمن اعتقد بأن الشفاعة عقيدة اختلقها الكهان ليكون لهم شأن عند الناس [٢] ان منشأ الخطأ في تفسير هذه الاية هو الاقتصار على آية واحدة والغض عن ما ورد في موردها من الايات الاخر .

ولاجل ذلك لو نظرنا الى الاية التالية لهذه الاية نجد انها تصرح بوجود الشفاعة عند الله سبحانه اذا كانت مقترنة بأذنه فقال سبحانه: «من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (البقرة ـ ٢٥٥) افبعد هذا التصريح يصح لنا أن نعتقد بنفي الشفاعة بتاتا وننسبها الى القرآن، ونرمى الاعتقاد بالشفاعة الى الكهنة ؟كلا

ثم أن الدليل الواضح على أن مرمى الاية هو نفي قسم خاص من الشفاعة لاجميع اقسامها هو قوله سبحانه: «ولاخلة» فان الظاهر من هذه الكلمة انقطاع

---

١) نهج البلاغة شرح عبده ج٢ ص٣٢ الخطبة ١٤٩ .

٢) لاحظ الفصل السابق ص ١٣٣ .

اواصر الرفاقة يوم القيامة من غير فرق بين المؤمن والكافر والحال أن القرآن يصرح بانقطاعها بين الكفارخاصة حيث يقول:سبحانه: «الاخلاء يومئذبعضهم لبعض عدو الا المتقين » (الزخرف ـ ٦٧) فان الظاهر من الاستثناء وأن كان عدم العداوة بين المتقين الا أن لمتبادرمن مجموع الاية هوبقاء الرفاقة الدنيوية مضافا الى انتفاء العداوة .

قال في الكشاف : تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخاليين في غير ذات الله ، اوتنقلب عداوة ومقتا الاخلة المتصادقين في الله فانها الخلة الباقية المزادة قوة اذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله[١] .

وقال العلامة الطباطبائي: أن من لوام المخالة اعانة أحد الخليلين الاخر في مهام اموره فاذا كانت لغير وجه الله كان نتيجتها الاعانةعلى الشقوة الدائمة والعذاب الخالدكما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة : « ياويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا . لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جائني »
(الفرقان ـ ٢٩)

وأما الاخلاء من المتقين فان خلتهم تتأكد وتنفعهم يومئذ .

وفي الخبر النبوى اذا كان يوم القيامة انقطعت الارحام وقلت الانساب وذهبت الاخوة الا الاخوة في الله، وذلك قوله: «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» [٢] .

وعلى الجملة أن انقلاب المخالة الى العداوة لاجل ماجاء في قوله سبحانه :«لقد اضلني عن الذكر»وهذه العلة منتفية في حق المتقين فاواصر الرفاقة باقية في يوم القيامة».

---

(١) الكشاف ج ٣ص١٠٢ .

(٢) الميزان فى تفسير الاية .

وعلى ذلك فكما أن المنفى هوقسم خاص من المخالة دون مطلقها فهكذا الشفاعة ، فالمنفى بحكم السياق ـ قسم خاص من الشفاعة .

اضف الى ذلك أن الظاهرهونفي الشفاعة في حق الكفار بدليل ماوردفي ذيل الاية حيث قال، «والكافرون هم الظالمون» افبعدهذه الوجوه الثلاثة يصح لنا أن نجعل الاية دليلا على انتفاء الشفاعة من اصلها يوم القيامة ؟كلا .

الصنف الثانى : مايفند عقيدة اليهود فى الشفاعة

هـذا الصنف من الايـات التي ستوافيك نصوصه يهدف الى نفي عقيدة اليهود في الشفاعـة حيث كان لهم في هذا المجال عقيدة خـاصة كشفت عنها الايات القرآنية، وكانوا يعتقدون بأنهم الشعب المختار، وهم ابناء اللهواحباؤه قال سبحانه حاكياً عنهم : « وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه » (المائدة ـ ١٨) .

كانوا يعتقدون بأن الاواصر القوميـة القائمة بينهم وبين انبيائهم هي التي تنجيهم وتدخلهم الجنة وانما يكفي في ذلكمجرد الانتماءالقومي والنسبي الى انبيائهم ، حيث قالوا : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً اونصارى » (البقرة ـ ١١١) .

وقد بلغت مغالاتهم في هذا المجال الى درجة انهم زعموا انهم لاتمسهم النار الا ايامـاً معدودة ، قال سبحانه حاكياً عنهم : « لـن تمسنا النار الا اياماً معدودة » ولاجل ذلك نرى انه سبحانه يرد علىتلك المزعمة فيذيل تلك الاية بقوله : « قل اتخذتم عند الله عهداً » (البقرة ـ ٨٠) .

كما يرد عليهم في آية اخرى بقوله :«تلك (اي عدم دخول الجنة الا من كان هوداً او نصارى) امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من اسلم

وجهه لله وهـو محسن فلـه اجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » (البقرة - ١١١ - ١١٢) .

فهؤلاء كانوا يعتقدون بأن انبيائهم واسلافهم سوف يشفعون لهم وينجونهم مـن العذاب سواء اكانوا عامليـن بشريعتهم ام عـاصين ، وان مجرد الانتماء والانتساب سوف يكفيهم في ذلك المجال .

كانت هذه عقيدتهم في باب الشفاعة ، وفي هذا المجال وردت آيات تندد بعقيدتهم وتشجب وتفند مايذهبون اليه قائلة : « يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولايؤخـذ منها عدل ولاهم ينصرون » (البقرة - ٤٧ - ٤٨) .

وانت ترى ان وحدة السياق تقضي بأن الهدف من نفي قبول الشفاعة هو الشفاعة الخاطئة التي كانت تعتقدها اليهود في ذلك الزمان من دون ان يشترطوا في الشفيع والمشفوع له شرطاً او امراً ، ونظير ذلك قوله سبحانه حيث يقول بعد قوله :« يابني اسرائيل اذكـروا نعمتي » البقرة - ١٢٢ « واتقوا يومـاً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها عدل، ولاتنفعها شفاعة ولاهم ينصرون».

ولاجـل ذلك لايمكن ان يتمسك بهاتين الايتين لنفي اصل الشفاعـة في يوم القيامة .

قال الزمخشري في كشافه : كانت اليهود تزعم ان آباءهم الانبياء يشفعون لهم فأيسوا[1].

وقال الطبرسي : هذه الاية (يريد الاية السابعة والاربعين) مختصة باليهود لانهم قالوا نحن اولاد الانبياء وآباؤنا يشفعون لنا فأيسهم الله عن ذلك فخرج

---

١) الكشاف ج١ ص٢١٥ .

الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك، ان الامة اجتمعت على ان للنبي شفاعة مقبولة وان اختلفوا في كيفيتها[١].

قال في المنار : ان ذلك اليوم ، يـوم تنقطع فيه الاسباب ، وتبطل منفعة الانساب ، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الانسان في اختياره، يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند الامراء، وقد يوجد له فيها انصار ينصرونه بالحق والباطل على سواء ...

كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من امم الجاهلية يقيسون امور الاخرة على امور الـدنيا فيتوهمون انـه يمكن تخلص المجرمين مـن العقاب بفداء يدفع بدلا ، او بشفاعة من بعض المقربين الى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ ارادته[٢].

وهذه الكلمات من اعلام التفسير تكشف القناع عن هدف الاية ومرماها وانها لاتهدف الا الى الشفاعة المزعومة لدى اليهود من قدرة العاصي لبعث الشفيع الى المشفوع عنده على كل تقدير وشرط مع ان الشفاعة الواردة في القرآن تنص على عكس ذلك في كلتا المرحلتين: مرحلة البعث ومرحلة الشرط فلاتتحقق الا ببعث المشفوع عنده ، الشفيع الى الشفاعة لابعث المشفوع لـه كما يظهر حالـه في الابحاث الاتية ، وحتى انه سبحانه ايضاً لايبعث على كل حال وتقدير ، وفي حق كل احد ، بل له شرائط خاصة كما يتوافيك بيانها .

الصنف الثالث: ينفي شمول الشفاعة للكفار

هناك صنف من الايات تصرح بعدم الشفيع للكفار يوم القيامة او ان شفاعة الشافعين لاتنفعهم واليك هذه الايات :

---

(١) مجمع البيان ج١ ص١٠٣.

(٢) المنار ج١ ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

١ - « يقول الذين نسوا من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قدخسروا انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون »(الاعراف- ٥٣.)

وحاصل الاية: ان الذين تركوا الايمان والعمل يعترفون يوم القيامة بأن ماجاءت به الرسل كان حقاً ولكن يتمنون ان يكون لهم شفعاء يشفعون لهم فى ازالة العقاب او يردون الى الدنيا فيعملوا غير الذي كانوا يعملون من الشرك والمعصية ولكنهم قد اهلكوا انفسهم بالعذاب وضل عنهم ماكانوا يفترون على الاصنام من انها آلهة وانها تشفع لهم ، وعلى ذلك فالاية واردة فى حق الكفار وهم الذين لايجدون شفعاء حتى يشفعوا لهم .

٢ - « اذ نسويكم برب العالمين ، وما اضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين . ولاصديق حميم » (الشعراء - ٩٨ - ١٠١) .

وحاصل الاية: ان اهل النار يوم القيامة يقولون بحسرة ويخاطبون جنود ابليس او اصنامهم الذين كانوا سبباً فى ضلالهم : «اذ نسويكم »بالله وعدلناكم به فى توجيه العبادة اليكم ثم يعترفون بأنه مااضلهم الا المجرمون ، ويظهرون الحسرة بقولهم « فمالنا من شافعين » يشفعون لنا ويسألون فى امرنا«ولاصديق حميم » وذي قرابة يهمه امرنا .

٣ - «وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين فماتنفعهم شفاعة الشافعين» (المدثر - ٤٦ - ٤٨) .

وهذه الايات ناظرة الى نفي وجود الشفيع يوم القيامة للكفار الذين انقطعت علاقتهم عن الله لاجل الكفر به وبرسله وكتبه كما انقطعت علاقتهم الروحية عن الشفعاء الصالحين لاجل انهماكهم فى الفسق والاعمال السيئة ، فانه مالم يكن بين الشفيع والمشفوع له،ارتباط روحي لايقدر أولايقوم الشفيع

على انقاذه وتطهيره وتزكيته .

أضف الى ذلك ان الشفاعة منوطة باذنه سبحانه فكيف يصح لله سبحانه أن يأذن للشفيع بأن يشفع فى حق من لاارتباط بينه وبين الله أبداً ؟

ويمكن أن يكون المراد من شفاعة الشافعين في سورة المدثر هو شفاعة الاصنام والاوثان ويعتقدون بشفاعتهم يوم القيامة .

كمايحتمل أن يكون المراد هو شفاعة الملائكة والنبيين .

وعلى كل تقدير فهذا الصنف من الايات ناف للشفاعة فيمورد خاص وهو حالة الكفر، وانفصام الاواصر بين الله والعبد.

الصنف الرابع: ينفى صلاحية الاصنام للشفاعة

وهذا الصنف يرمي الى نفي صلاحية الاصنام للشفاعة وذلك لان العرب الجاهلي كانت تعبد الاصنام لاجل الاعتقاد بشفاعتها عند الله واليك الايات الواردة فى هذا المجال .

١ - « ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقدتقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون» (الانعام - ٩٤)

٢ - « ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل اتنبئون الله بمالايعلم فى السماوات ولا فيالارض سبحانه وتعالى عمايشركون » (يونس - ١٨)

٣ - « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » (الروم - ١٣)

٤ - « ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لوكانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون » (الزمر - ٤٣)

٥ ـ « ءاتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغني عني شفاعتهم شيئاً ولاينقذون » (يس - ٢٣)

وهذه الايات تنفي صلاحية المعبودات الباطلة للشفاعة ، وتبرهن على ذلك بقوله : « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم » (يونس - ١٨) وبقوله: «لايملكون شيئاً ولايعقلون » (الزمر - ٤٣)

وعلى ذلك فبما ان عبدة الاصنام والاوثان كانوا يعتقدون بشفاعتهم، ولاجل ذلك كانوا يعبدونها، جاءت الايات تفند مزعمتهم بأنهم مسلوبوا القدرة والارادة مسلوبوا الخير والضر فلايقدرون على دفع الضر وجلب النفع ولايصلحون للشفاعة .

وهناك بيان للعلامة الطباطبائي حول هذا القسم من الايات نأتي به :

كانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد ان الحياة الاخرة نوع حياة دنيوية يطرد فيها قانون الاسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي فيقدّمون الى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أوالامداد في حوائجهم أويستشفعون بها أو يفدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى انهم كانوا يدفنون مع الاموات أنواع الزخرف والزينة ليكون معهم مايتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح مايدافعون به عن أنفسهم وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها و من الابطال من يستنصر به الميت وتوجد اليوم في المتاحف بين الاثار الارضية عنائق كثيرة من هذا القبيل وقد أبطل القرآن جميع هذه الاراء الواهية والاقاويل الكاذبة فقال عزمن قائل: « والامر يومئذ لله » الانفطار ١٩ ـ ، وقال: «ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب » (البقرة - ١٦٦)

وقال: « ولقد جئتمونا فرادى كماخلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم

وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون» (الانعام - ٩٤)

وقال : « هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ماكانوا يفترون» (يونس - ٣٠) الى غيرذلك من الآيات التي يبين فيها ان ذلك الموطن خال عن الاسباب الدنيوية ، وبمعزل عن الارتباطات الطبيعية، وهذا أصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الاقاويل على طريق الاجمال، ثم فصل القول فى نفي واحدواحد منها وابطاله فقال: « واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون» (البقرة - ٤٨) «ياأيهاالذين آمنوا أنفقوا ممارزقناكم من قبل أنيأتي يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة» (البقرة - ٢٥٥) وقال: «يوم لايغنى مولىعن مولى شيئاً » (الدخان - ٤١)

وقال: «يوم يولون مدبرين مالكم من الله من عاصم» (غافر - ٣٥) وقال: «مالكم لاتناصرون بلهم اليوم مستسلمون» (الصافات- ٢٦)، وقال: «ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلاتنبئون الله بما لايعلم في السماوات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » (يونس - ١٩) وقال: « ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع » (غافر - ١٨) وقال: « ومالنا من شافعين ولا صديق حميم» (الشعراء - ١٠) الى غير ذلك من الآياتالكريمةالنافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والاسباب يومالقيامة[1].

ثم قال: ان الآيات النافية للشفاعة ان كانت ناظرة الى يوم القيامة فانما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال فى الملك والآيات المثبتة تثبتها لله

(١) الميزان ج١ص١٥٦ - ١٥٧ .

سبحانه بنحو الاصالة ولغيره تعالى باذنه وتمليكه[١] .

والحاصل ان القرآن مع انه فنـد العقائد الجاهلية وعقائـد الوثنيين في باب الشفاعة وابطل كون النظام السائد فى الاخرة عين النظام السائد فى الدنيا لم ينكر الشفاعـة من رأسها بل أثبتهـا لاوليائها فى اطار خاص من الشرائط والضوابط وعلـى ذلك فالايات النافيـة ناظرة الى تلك العقيدة السخيفة التي التزمت بها الوثنيـة وزعموا بموجبها وحدة النظاميـن وان تقديم القرابيـن والصدقـات الى الاصنام والخشوع والبكاء لديهم ، يصحح قيامهم بالشفاعة وانهم قادرون على ذلك بتفويض منه سبحانه اليهم ، بحيث صاروا مستقليـن في الفعل والترك .

والايات المثبتة ناظرة الى الشفاعة الصحيحة التي ليست لها حقيقة سوى جريان فيضه سبحانه ومغفرته من طريق أوليائه الى عباده باذنه ومشيئتـه تحت شرائط خاصة. وسيوافيك توضيح حقيقتها في الابحاث القادمة .

الصنف الخامس : يخص الشفاعة له سبحانه

هناك آيات ترى ان الشفاعة مختصة بالله سبحانه لايشاركه فيها غيره وهي عبارة عن الايات التالية :

١ ـ « وأنذر بـه الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولاشفيع لعلهم يتقون» (الانعام ـ ٥١)

٢ ـ « وذر الذين اتخذوا دينهـم لعباً ولهواً وغرتهـم الحياة الدنيا وذكر بـه ان تبسل نفس بماكسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيـع »

(الانعام ـ ٧٠)

---

(١) المصدر ص١٥٩ .

٣ ـ « الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون »

(السجدة ـ ٤)

٤ ـ « قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والارض ثم اليه ترجعون »

(الزمر ـ ٤٤)

وكون الشفاعة مختصة بالله سبحانه لاينافي ثبوتها لغيره باذنه سبحانه ، كماسيوافيك بيانه عند البحث عن القسم السادس من اصناف آيات الشفاعة .

غيرانا نعطف نظر القارى الى نكتة في قوله سبحانه « قل لله الشفاعة جميعاً »

(الزمر ـ ٤٤)

وهذه الاية وان كانت تفيد اختصاصها بالله سبحانه غير ان الحصر هنا حصر اضافى لاحقيقى فهى تهدف الى نفى ثبوت هذا الحق في حق الالهة المزعومة كما تشير اليه الاية المتقدمة على تلك الاية حيث قال « ام اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل اولوا كانوا لايملكون شيئاً ولايعقلون » (الزمر ـ ٤٣)

فانت اذا لاحظت الايتين جملة واحدة تقف على ان الهدف هو حصر حق الشفاعة بالله سبحانه في مقابل الالهة المزعومة التى كانت العرب تزعم انها تملك حق الشفاعة ولاجل ذلك ترد الاية عليهم بقوله : « اولو كانوا لايملكون شيئاً ولايعقلون »

الصنف السادس: يثبت الشفاعة لغيره سبحانه تحت شرائط

ان هذا الصنف من الايات يصرح بوجود شفيع غير الله سبحانه وان شفاعته تقبل عندالله تعالى في اطار خاص وشرائط معينة في الشفيع والمشفوع له ، وهذه الايات و ان لم تتضمن اسماء الشفعاء ، أو اصناف المشفوع له غير انه

يحدد كلا منهما بحدود واردة في الآيات واليك هذا القسم من الآيات :

١ - « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (البقرة - ٢٥٥)

٢ - « مامن شفيع الا من بعد اذنه » (يونس - ٣)

٣ - « ولا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمان عهداً » (مريم - ٨٧)

والضمير المتصل في قوله «ولا يملكون» يرجع الى الالهة التى كانت تعبد ، واشير اليه في قوله سبحانه : «واتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » (مريم - ٨٢/٨١)

٤ - « يؤمئذ لاتنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمان ورضى له قولا » .
(طه - ١٠٩)

٥ - «ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير » (سبأ - ٢٣)

٦ - « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » . (الزخرف - ٨٦)

والضمير المتصل في «يدعون» يرجع الى الالهة الكاذبة كالاصنام والملائكة والمسيح بن مريم فهؤلاء لايملكون الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ، اي شهد بعبودية ربه ووحدانيته كالملائكة والمسيح ويستفاد من هذه الآيات امور تالية :

١ - ان هذه الآيات تصرح بوجود شفعاء يوم القيامة يشفعون تحت شرائط خاصة وان لم تصرح باسمائهم وسائر خصوصياتهم .

٢ - ان شفاعتهم مشروطة باذنه سبحانه حيث يقول : « الا باذنه » .

٣ - يشترط في الشفيع أن يكون ممن يشهد بالحق . أي يشهد بالله سبحانه و وحدانيته وسائر صفاته .

٤ ـ ان لايظهر الشفيع كلاماً يبعث غضب الله سبحانه بل يقول قولامرضيا عنده ويدل عليه قوله : « ورضى له قولا »[١].

٥ ـ ان يعهد الله سبحانه له بالشفاعة كما يشير اليه قوله : « الا من اتخذ عندالله عهداً » .

ثم ان هناسؤالا يطرح في المقام ونظائره وهو كيف يصح الجمع بين هذا الصنف من الايات التي تثبت الشفاعة لغيره سبحانه والصنف الخامس الذي يخصها بالله سبحانه وهذا السؤال مطروح في مقامات كثيرة قد اجبنا عنها في كتاب « معالم التوحيد » واليك خلاصة الجواب .

ان مقتضى التوحيد في الافعال وانه لامؤثر في عالم الكون الاالله سبحانه ، انه لايوجد في الكون مؤثر مستقل سواه ، وان تأثير سائر العلل انما هو على وجه التبعية لارادته سبحانه ومشيئته والاعتراف بمثل العلل التابعة لاينا في انحصار التأثير الاستقلا لى في الله سبحانه ، و من ليس له المام با لمعارف القرآنية يواجه حيرة كبيرة تجاه طائفتين من الايات اذ كيف يمكن ان تنحصر شؤون وافعال ،كالشفاعة والمالكية والرازقية وتوفي الارواح ، والعلم بالغيب، والاشفاء ، بالله سبحانه كما عليه اكثر الايات القرآنية بينما تنسب هذه الافعال في آيات أخرى الى غير الله من عباده فكيف ينسجم هذا الانحصار مع هذه النسبة . غيران الملمين بمعارف الكتاب العزيز يدركون ان هذه الامور على وجه الاستقلال والاصالة قائمه بالله سبحانه مختصة، به فى حين أن هذه الامور تصدر من الغير على وجه التبعية وفي ظل القدرة الالهية .

---

(١) قال الطبرسى اى لاتنفع ذلك اليوم شفاعة احد فى غيره الاشفاعة من اذن الله له فى ان يشفع ورضى قوله فيها من الانبياء والاولياء والصالحين والصديقين والشهداء (مجمع البيان ج٤ ص٣١) .

وقداجتمعت النسبتانفي قولهسبحانه «وما رميت اذ رميتولكن اللهرمى»[١] فهذه الاية عندماينسب الرمى بصراحة الى النبى الاعظم يسلبه عنه وينسبه الى الله سبحانه ، وذلك لان انتساب الفعل الى الله (الذى منه وجود العبد وقوته وقدرته) اقوى بكثير من انتسابه الى العبد بحيث ينبغى ان يعتبر الفعل فعلا لله ولكنشدة الانتساب لاتسلب المسؤولية عنالعبد واليهيشير الحكيم السبزواري في منظومته .

لكن كما الوجود منسوب لنـا والفعل فعل الله وهـو فعلنا[٢]

وعلىذلك فاذا كانت الشفاعة عبارة عن جريان الفيض الالهى (اعنىطهارة العباد عن الذنوب وتخلصهم عن شوائب المعاصى) علىعباده فهيفعلمختص بالله سبحانه لايقدرعليه احد الاباقداره واذنه وبذلك يصح نسبته الىالله سبحانه بالاصالة والى غيره بالتبعية ولامنافاة بين النسبتين ، وهذا كالملكية فالله سبحانه مالك الملك والملكوت، ملك السماوات والارضبايجاده وابداعه ، ثم يملكه العبد منه باذنه ولا منافاة في ذلك لان الملكية الثانية في طول الملكية الاولى ، ونظيرها كتابة اعمال العباد فالكاتب هوالله سبحانه حيث يقول : « والله يكتب ما يبيتون ، (النسا، - ٨١) ، وفي الوقت نفسه ينسبها الى رسله و ملائكته ، ويقول « بلى رسلنا لديهم يكتبون » (الزخرف - ٨٠)

فاذا كانت الملائكة والانبياء والاولياء مأذونين فيالشفاعة فلا مانع من ان تنسب اليهم الشفاعةكما تنسب الى الله سبحانه غير ان احدهما يملك هذا الحق بالاصالة والاخر يملكها بالتبعية .

---

(١) الانفال - ١٧ .

(٢) لاحظمعالم التوحيد ص ٣٦١ - ٣٦٥ وشرح المنظومة للمحقق السبزوارى ص ١٧٥ .

ولاجل ذلك يقول العلامة الطبرسي فى تفسير قوله «لله الشفاعة جميعاً»: اى لايشفع احد الا باذنه ولايملك احد الشفاعة الا بتمليكه [١] .

وقال العلامة الطباطبائي فى تفسير تلك الاية: كل شفاعة مملوكة لله فانه المالك لكل شيء الا ان يأذن لاحد فى شيء منها فيملكه اياها .

وان شئت قلت : ان الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة باذن منه ، والشفاعة تنتهي الى توسط بعض صفاته بينه وبين المشفوع كتوسط الرحمة بينه وبين عبده المذنب، وتخليصه من العذاب[٢] .

وهناك بيان أبسط للعلامة الطباطبائي نأتي به حرفياً :

« ان الايات بينما تحكم باختصاص الشفاعة بالله سبحانه (وقد ذكرت هذه الايات فى الصنف الخامس) وبينما يعمها لغيره تعالى باذنه وارتضائه ونحوذلك، وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلاريب غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصالة لله وحده من غيرشريك وبعضها تثبتها لغيره باذنه وارتضائه وهناك آيات تنفيها فتكون النسبة بين هذه الايات كالنسبة بين الايات النافية لعلم الغيب عن غيره واثباته له تعالى بالاختصاص ولغيره بارتضائه قال تعالى « قل لايعلم من في السموات والارض الغيب الا الله » (النمل - ٦٥)

وقال تعالى: « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو » (الانعام - ٥٩) وقال تعالى: «عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول» (الجن ٢٧) وكذلك الايات الناطقة في التوفي والرزق، والتأثير والحكم والملك ، وغيرذلك فانها شائعة فى اسلوب القرآن، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى ثم يثبته لنفسه ثم يثبته لغيره باذنه ومشيئته،فتفيد ان غيره تعالى من الموجودات

(١) مجمع البيان ج٤ص٥٠١ .

(٢) الميزان ج١٧ص٢٧٠ .

لاتملك ماتملك من هذه الكمالات بنفسها واستقلالها وانما تملكها بتمليك الله لها اياها حتى ان القرآن يثبت نوعاً من المشيئة فيماحكم وفيماقضى عليها بقضاء حتم، كقوله تعالى : « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غيرمجذوذ » (هود - ١٠٦ - ١٠٨) فقد علق الخلود بالمشيئة وخاصة في خلود الجنة مع حكمه بأن العطاء غيرمجذوذ اشعاراً بأن قضاءه تعالى عليهم بالخلود لايخرج الامر من يده ولايبطل سلطانه وملكه عزّ اسمه كمايدل عليه قوله «ان ربك فعال لمايريد» (هود - ١٠٨)

ومن هنا يظهر ان الايات النافية للشفاعة ان كانت ناظره الى يوم القيامة فانما تنفيها عن غيره تعالى بالاستقلال في الملك ، والايات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الاصالة ولغيره تعالى باذنه وتمليكه فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى باذنه [1] .

بقيت هنا نكتتان .

١ - ان الظاهر من الاستثناء الوارد في الايات المتقدمة أعني قوله سبحانه «الا من اتخذ عندالرحمن عهداً» وقوله: « الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا » وقوله: «الا من شهدبالحق وهم يعلمون » انها بصدد بيان شرائط الشفعاء ويؤيد هذا القول قوله سبحانه : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » غير انه ربما يحتمل ان يكون المراد منه هو المشفوع له ، ويكون مآل الايات الى ان الشفاعة لاتجدى الا في حق من اجتمعت فيه هذه الشروط .

٢ - ان الشفيع المأذون ليس له آية استقلال ولا اصالة في امر الشفاعة

(١) الميزان ج١ص١٥٨ - ١٥٩ .

بل هو مظهر لاجراء أمره سبحانه وارادته ومشيئته ولاجل ذلك نرى ان القرآن ينفي وجود الشفيع المطاع بتاتاً، حيث يقول: ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع » (غافر - ١٨) وذلك لان الشفيع ليس صاحب ارادة ومشيئة فهو مطيع لامر الله مأذون من جانبه لامطاع .

الصنف السابع يسمى من يقبل شفاعته

ويتضمن هذا الصنف اسماء وخصوصيات من تقبل شفاعته يوم القيامة ، واليك هذه الايات :

١ - « وقال اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون . يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» (الانبياء - ٢٦ - ٢٨)

وهذه الايات تصرح بان الملائكة التي اتخذها المشركون اولاداً لله سبحانه، معصومون من كل ذنب لايسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يشفعون الا لمن ارتضاه الله سبحانه، وهم مشفقون من خشيته .

٢ - «وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (النجم - ٢٦)

وهذه الاية كالاية السابقة تفيد كون الملائكة ممن ترضى شفاعتهم باذن الله سبحانه في حق من يشاء الله ويرضاه .

٣ - « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » (غافر - ٧)

وهذه الاية تعد حملة العرش ومن حوله ممن يستغفرون للذين آمنوا ، وللاية مطلقة تشمل ظروف الدنيا والاخرة وهل طلب المغفرة الا الشفاعة فى

حق المؤمنين ؟

هذه هي الاصناف السبعة من الايات الواردة حول الشفاعة نفياً واثباتاً، والجميع ناظر الى أمر واحد وهو ان الشفاعة حق خاص بالله سبحانه وان الشفاعة بيده ابتداءاً ونهاية، وهو لايأذن الا لعدة خاصة من مقربي عباده، ولا يأذن لهم أن يشفعوا لهم الا في حق عدة معينة .

وعلى ذلك فتفترق الشفاعة الواردة فى القرآن الكريم عماعليه اليهود حيث لم يجعلوا لها حداً فى الشافع والمشفوع له، بل القرآن وضع لها حدوداً وقيوداً فى الشافع والمشفوع له

كماتفترق عن رأى من رفضها وطردها ولم يثبتها لاحد من أوليائه .

ولاجل ذلك نفصل القول فى الشفاعات المردودة والمقبولة حتى يتميّز الحق عن الباطل .

الشفاعات المرفوضة

١ ـ الشفاعة التي كانت تعتقدها اليهود الذين رفضوا كل قيد وشرط فى جانب الشافع والمشفوع له واعتقدوا أن الحياة الاخروية كالحياة الدنيوية حيث يمكن التخلص من عذاب الله سبحانه بالفداء . وقد ردّ القرآن فى كثير من الايات وقال : « ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون » (البقرة ـ ٤٨) ، وقد مضى هذا الامر فى الصنف الثاني من الاصناف السبعة المذكورة .

٢ ـ الشفاعة فى حق من قطعوا علاقاتهم الايمانية مع الله سبحانه فلم يؤمنوا به أو بوحدانيته أوبقيامته أو أفسدوا في الارض، وظلموا عباده أو غير ذلك ممايوجب قطع رابطة العبد مع الله سبحانه حتى صاروا أوضح مصداق

لقوله سبحانه «نسوا الله فأنساهم أنفسهم» (الحشر - ١٩) وقوله سبحانه « قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (طه - ١٢٦) وقوله سبحانه : فاليوم ننساهم كمانسوا لقاء يومهم هذا» (الاعراف - ٥١) الى غير ذلك من الايات الواردة في حق المشركين والكافرين والظالمين والمفسدين ، وهؤلاء كماقطعوا علاقتهم الايمانية مع الله سبحانه ، كذلك قطعوا علاقاتهم الروحية مع الشافع فلم تبق بينهم وبين الشافعين آية مشابهة تصحح شفاعتهم له .

وقد ورد فى الصنف الثالث من الاصناف السبعة المذكورة مايوضح هذا الامر .

٣- الاصنام التي كانت العرب تعبدها كذباً وزوراً، وقد نفى القرآن ان تكون هؤلاء الاصنام قادرة عن الدفاع عن انفسها فضلا عن الشفاعة فى حق عبّادها. راجع لمعرفة ذلك، الصنف الرابع من الاصناف المذكورة .

هذه هي الشفاعات المرفوضة فى القرآن الكريم .

الشفاعات المقبولة

الشفاعات المقبولة عبارة عماذكره :

١ - الشفاعة التي هي حق مختص بالله سبحانه ولا يمكن لمخلوق ان ينازعه فى هذا الحق أويشاركه فيه. لاحظ الصنف الخامس . من الاصناف السبعة .

٢ - شفاعة قسم خاص من عباد الله سبحانه الذين تقبل شفاعتهم عند الله تحت شرائط خاصة ذكرت في الايات الواردة فى الصنف السادس وان لم تذكر اسماءهم وخصوصياتهم .

٣ - شفاعة الملائكة وحملة العرش ومن حوله حيث يستغفرون للذين

آمنوا، فهؤلاء يقبل استغفارهم الذي هو قسم من الشفاعة. والفرق بين هذا وماتقدم هو انه قد ذكرت اسماء الشفعاء وخصوصياتهم فى هذه الايات دون ماتقدمها .

وبالاحاطة بهذه الاصناف السبعة تقدر على تمييز الشفاعة المرفوضة ، والمقبولة فى لسان القرآن الكريم .

آيات اخرى فى الشفاعة

وهناك آيات اخر فسرت بالشفاعة وهذا الصنف وان لم يكن فى الصراحة فى الموضوع كالايات الماضية الا ان الاحاديث فسرتها بالشفاعة وقد وردت هذه الاحاديث فى المجاميع الحديثية وهذه الايات عبارة عن مانذكره :

١ ـ «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً» (الاسراء ـ ٧٩)

قال فى الكشاف:«ومعنى المقام المحمود المقام، الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق فى كل مايجلب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل : المراد : الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله اللفظ. وعن ابن عباس : مقام يحمدك فيه الاولون والاخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، وليس احد الا تحت لوائك[١] .

وقال الطبرسي : أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة وهو المقام الذي يشفع فيه للناس وهو المقام الذى يعطي فيه لواء الحمد فيوضع فى كفه ويجتمع تحته الانبياء، والملائكة فيكون أول شافع وأول مشفع»[٢].

---

(١) الكشاف ج٢ص٢٤٣ .

(٢) مجمع البيان ج٣ص٤٣٥ .

وقد روى السيوطي في الدر المنثور ج٤ ص١٩٧ والسيد البحراني في تفسير البرهان ج٢ص٤٣٨ ـ ٤٤٠ احاديث متضافرة حول الاية وكلها تجمع على ان المراد من المقام المحمود هو مقام الشفاعة فلاحظها في تلك المراجع

٢ ـ « يوم لايغني مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون، الا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم » (الدخان - ٤١ - ٤٢)

والاستدلال بالاية على الشفاعة يحتاج الى الدقة في مفرداتها .

فقد ورد في الاية لفظة الاغناء والنصر ، والمراد من الاول هو أن يتكفل الغير امر الانسان بكامله ، كما ان المراد من النصر هو أن يتكفل بعض الامور ويكون اكتماله بسبب الانسان نفسه .

فقدنرى أن القرآن ينفي أن يقدر انسان على اغناء انسان آخر يوم القيامة بأن يرفع عن كاهله كل مسئولياته ، ويكون هو المسؤول عن عمل غيره، وهذا ماعبر عنه القرآن في الايات الاخر بقوله : « ولا يؤخذ منها عدل » (البقرة - ٤٨)

كما ان القرآن ينفي نصر انسان لانسان آخر يوم القيامة ولكنه يستثنى من الثاني حالة واحدة معبراً عنها بقوله: « الاّ من رحم الله» (الدخان - ٤٢) أي الذين رحمهم الله من المؤمنين .

ومن مصاديق هذا الاستثناء هو الشفاعة لان الشفاعة لاتحصل الا بأمر الله تعالى واذنه، فعندئذ يسقط عقاب المشفوع له لشفاعته[1] .

قال العلامة الطباطبائي : ان الاغناء يكون فيما استقل المغنى في عمله ، ولايكون لمن يغنى عنه منع في ذلك، والنصرة انما تكون فيماكان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة، ويتم له ذلك بنصرة الناصر .

---

(١) لاحظ مجمع البيان ج٥ص٦٨ .

والوجه فى انتفاء الاغناء والنصر يومئذ ان الاسباب المؤثرة فى نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة قال تعالى: «وتقطعت بهم الاسباب» (البقرة١٦٦) وقال: «فزيلنا بينهم» (يونس - ٢٨)

وقوله «الا من رحم الله» استثناء من ضمير « لاينصرون » والاية من أدلة الشفاعة .

والشفاعة نصرة تحتاج الى بعس أسباب النجاة وهو الدين المرضي»[١]

ولاجل ذلك قلنا ان الشفاعة تحتاج الى وجود رابطة مابين العبد وربه والمشفوع له وشافعه وهي فى جانب الله العلاقة الايمانية، وفي جانب المشفوع له الوشيجة الروحية .

٣ - « وللاخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى »

(الضحى - ٥ - ٦)

وفسرها المفسرون بالشفاعة، قال الطبرسي « وسيعطيك ربك فى الاخرة من الشفاعة والحوض وسائر أنواع الكرامة فيك وفي امتك ماترضى به . وقال محمد بن علي بن الحنفية مخاطباً أهل العراق: ياأهل العراق تزعمون أن أرجى آية فى كتاب الله عزوجل قوله: «ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم» الاية، وانّا أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله ،: « ولسوف يعطيك ربك فترضى وهي والله الشفاعة، ليعطينها فى أهل لااله الاالله حتى يقول ربي رضيت».

وعن الصادق عليه السلام قال : دخل رسول الله على فاطمة وعليها كساء من ثلة الابل ، وهي تطحن بيدها وترضع ولدها فدمعت عينا رسول الله لمأأبصرها ، فقال: يابنتاه، تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الاخرة، فقد أنزل الله علي «ولسوف

(١) الميزان ج١٨ ص١٥٧ .

يعطيك ربك فترضى»[١] .

وقال الرازي : المروى عن علـي بن أبي طالب وابن‌عباس ان هذا هو الشفاعة فى الاية والحمل عليها متعين، ويدل عليه ان مقدمة الاية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول: لااودعك ولاابغضك، بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلبـاً لمرضاتك ، وتطييباً لقلبك فهذا التفسير أوفق لمقدم الاية .

أضف اليه الاحاديث الكثيرة الواردة فى الشفاعة الدالة على أن شفاعة الرسول ﷺ فى‌العفو عن المذنبين وهذه الاية دلت على انه تعالى يفعل كل ما يرضاه فتحصل من مجموع الايـة والخبر ، حصول الشفاعـة وعن جعفـر الصادق عليه السلام وانه قال رضا جدي أن لايدخل النار موحد، وعن الباقر عليه السلام : ان أهل القرآن يقولون: أرجى آية قوله: ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم وانـّا أهل البيت نقول: أرجى آية قوله : ولسوف يعطيك ربك فترضى، والله انها الشفاعة ليعطاها فى أهل لااله الاالله حتى يقول: رضيت[٢] .

---

(١) مجمع البيان ج٥ص٥٠٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ج٨ص٤٢٢ .

(٣)

ماهي حقيقة الشفاعة

ان الوقوف على حقيقة الشفاعة يتوقف على بيان أقسامها ، وتفاسيرها فنقول: ان الشفاعة حسبما يستفاد من القرآن الكريم تطلق على معان أو على أقسام وبعض هذه المعاني أو الاقسام وان كان خارجاً عن الشفاعة المصطلحة بين أئمة علم الكلام والتفسير غير ان الوقوف على مفاد عامة ماورد في القرآن الكريم حول الشفاعة يتوقف على توضيح جميع هذه المعاني أو الاقسام فنقول ان الشفاعة على معان اوعلى أقسام :

١ ـ الشفاعة التكوينية .

٢ ـ الشفاعة القيادية .

٣ ـ الشفاعة المصطلحة .

واليك شرح هذه الاقسام :

١ ـ الشفاعة التكوينية

تشهد النظرة العلمية والفلسفية بقيام النظام الكوني على أساس سلسلة الاسباب والمسببات وارتباط كل ظاهرة من الظواهر الكونية بعلّة وسبب ، وهذا أي كون العالم كعلة خاصة من مجموعة العلل والمعاليل ، مما أثبتته الاصول الفلسفية واعترفت به الايات القرآنية حسبما أوضحناه في الجزء الاول عند البحث عن التوحيد في الخالقية [1] ولانعيدها هنا .

---

(١) معالم التوحيد ص٢٩٩ ـ ٣١٤ .

غير ان الظواهر الكونية بحكم انها ممكنة الوجود ، غير مستقلة في ذاتها كما هى غير مستقلة في عليتها وتأثيرها ، بمعنى انها لاتؤثر الابارادة الله واذنه سبحانه ، ضرورة انها لو كانت مستقلا في التأثير يلزم ان تكون مستقلا في الوجود لبداهة ان الاستقلال في العلية فرع الاستقلال في الوجود ولو سلمنا الاستقلال في التأثير فلا محالة قد سلمناقبله الاستقلال في الذات وهو يساوق كون الشيء واجبا غنيا عن العلة ، وهو خلاف الفرض .

ولاجل ذلك اتفقت الفلاسفة والمتكلمون الا من شذ من المعتزلة على انه لامؤثر مستقل في الوجود غيره سبحانه ، وان غيره مفتقر في الوجود والتأثير اليه سبحانه، ولاجل ذلك صار شعار القرآن فى حق الانسان ، (وحتى غير الانسان أيضاً):قوله «يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد. ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» (فاطر ـ ١٥ ـ ١٧)، وقوله سبحانه : «والله الغنى وانتم الفقراء »(محمد ـ ٣٨) .

وقال سبحانه حاكيا عن نبيه الكريم : «رب انى لما انزلت الى من خير فقير » القصص ـ ٢٤) .

فعالم الكون بما انه عالم امكانى لايملك من لدن ذاته وجوداً ولاكما لا، بل كلما يملك من وجود وكمال فقد افيض اليه من جانبه سبحانه فهو بحكم الامكان موجود مفتقر في عامة شؤونه ، وتأثيره ، وعليته .

والى ما ذكرنا من توقف تأثير كل ظاهرة كونية ، على اذنه سبحانه يشير قوله تعالى : «ان ربكم الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ، مامن شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون .(يونس ـ ٣) .

فان الاية بعدما تصف الله سبحانه بانه خالق السماوات والارض في ستة

أيام وانه استوى بعد ذلك على العرش ، وانه يدبرامر الخلق، تعلن بأن كل ما في الكون من العلل الطبيعية والظواهر المادية يؤثر بعضه في البعض باذنه سبحانه ، وانه ليست هناك علة مستقلة في التأثير بل كل ما في الكون من العلل ، ذاته وتأثيره، قائمان به سبحانه وباذنه ، فالمراد من الشفيع في الاية هو الاسباب والعلل المادية وغيرها ، الواقعة في طريق وجود الاشياء وتحققها وانما سميت العلة شفيعا لاجل ان تأثيرها يتوقف على اذنه سبحانه فهي (مشفوعة الى اذنه سبحانه) تؤثر وتعطى ما تعطي .

وعلى ذلك تخرج الاية عن الدلالة على الشفاعة المصطلحة بين ائمة علم الكلام ، وانما اخترنا هذا المعنى لوجود قرائن في نفس الاية ، فانها تبحث في صدرها عن خلق السماوات والارض وتحدد مدة الخلق والايجاد بستة أيام ثم ترجع الاية وتنص على سعة قدرته على جميع ما خلق واحاطته بهم ،وانه بعد ما خلق السماوات والارض، استوى على عرش القدرة وأخذ يدبر العالم وعند ذلك ينطرح في ذهن القاريء انه اذا كان هو المدبر والمؤثر فما حال سائر المدبرات والمؤثرات التي يلمسها البشر في حياته ، فللاجابة عن هذا السؤال اتى بقوله : «مامن شفيع الا من بعد اذنه» مصرحا بأن كل تأثير وتدبير في سبب من الاسباب فانما هو باذنه ومشيئته ولولا اذنه ومشيئته لما قام السبب بالسببية ولا العلة بالعلية وهذه القرائن توجب حمل هذه الجملة على ما يجري في عالم الكون والوجود من التاثر والعلية ، وتفسيرها بالشفاعة التكوينية وان كل ظاهرة مؤثرة كالشمس والقمر والنار والماء لاتؤثر الا بالاستمداد من قدرته سبحانه والاعتماد على اذنه ومشيئته حتى يتم بذلك التوحيد في الخالقية والتدبير، فلا خالق الا هو، كما لامدبر الا هو ، فما يترائى في صفحة الوجود من الخلق والتدبير فليس على ظاهرهما وانما تقوم سائر العلل بالخلقة والتدبير

مستمداً من حوله وقوته ، فيرجع معنى الاية الى انه لامؤثر في الكون الامن بعد اذنـه، ولاجل ذلك تستنتج الايـة وتخاطب البشر بانه اذا كان هو الخالق والمستولي على عرش القدرة والمدبر لجميع العالم واذا كان تأثير كل ما سواه باذنه فليعبد ذلك الرب سبحانه دون غيره اذ هو اللائق دون ما سواه بالعبادة ، فان منشأ العبادة والخضوع هو الوقوف على الجمال والكمال المطلقين في المعبود بحيث يحمل ذلك الوقوف ، الانسان العارف علـى العبادة والخضوع وليس ذلك الكمال موجوداً الا فيه سبحانه لانه الخالق المستولي المدبر المعطي لكل ما سواه الوجود والتأثير . قال : «ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون» .

اذا وقفت على مـا ذكرنا تقف على أنه لاينا سب حملها علـى الشفاعة المصطلحة التي تدور حول التكاليف والتشريعات وعصيان العباد ومخالفتهم لها، ثم توسيط الشفعاء لغفران ذنوبهم وحط سيئآتهم .

والى ما ذكرنا يشير العلامة الطباطبائي بقوله :«ان ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هـذا العالم المشهود كله سماواته وارضه في ستة أيام ، ثم استوي على عرش قدرته ، وقام مقام التدبير الذي اليه ينتهى كل تدبير وارادة فشرع يدبر امر العالم واذا انتهى اليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد باعضاد، لم يكن لشيء من الاشياء ان يتوسط في تدبير امر من الامور ـ وهو الشفاعة ـ الامن بعد اذنه تعالى، فهو سبحانه هو السبب الاصلى الذي لاسبب بالاصالة دونه وغيره من الاسباب اسباب بتسبيبه وشفعاء من بعد اذنه، واذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذى يدبر أمركم لاغيره مما اتخذتموه اربابا من دون الله وشفعاء عنده وهو المراد بقوله : «ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون» اى لما ذا لاتنتقلون انتقالا فكريا حتى تفهموا ان الله هو ربكم لارب غيره [1] .

---

١) الميزان ج ١٠ ص ٦ ـ ٧.

٢/الشفاعة القيادية

المراد من هذا الصنف هو قيام قيادة الانبياء والاولياء والائمة والعلما و الكتب السماوية مقام الشفيع والشفاعة في تخليص البشر من عواقب اعماله و آثار سيئآته .

وتوضيح ذلك: انهاذا كانت نتيجة الشفاعة المصطلحة يوم القيامة هى تخليص العصاة من عواقب اعمالهم ، وآثار معاصيهم وافعالهم ، فان قيادة الانبياء والاولياء والكتب السماوية والعلماء واقلامهم تقوم بنفس هذا العمل .

غير ان الفرق بين الشفاعتين واضح فان الشفاعة المصطلحة توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له ، وهذه الشفاعة توجب ان لايقع العبد في عداد العصاة حتى يستحق .

وان شئت قلت : ان الشفاعة الاولى تخلص العبد بعد زلته وعثرته وبعد وقوعه في المهالك والمهاوي، ولكن الشفاعة القيادية تمنع عن وقوع العبد في المهالك وزلته الى المهاوي ، فالاولى من قبيل الرفع والثانية من قبيل الدفع، والفرق بينهما واضح، فان الرفع يمنع المقتضى عن التاثير بعد وجوده ،والدفع يمنع عن وجود المقتضى وتكونه .

وعلى ماذكرنا من قيام قيادة الانبياء والائمة مقام الشفيع والشفاعة في تخليص العبد من الوقوع في المهالك ، يظهر أن اطلاق الشفاعة على هذا القسم ليس اطلاقا مجازيابل اطلاق حقيقي . وقد شهد بذلك القرآن والاخبار قال سبحانه:« وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولاشفيع لعلهم يتقون» « الانعام ـ ٥١» والضمير المجرور في «به» يرجع

الى القرآن.[١]

ولاشك ان ظرف شفاعة هذه الامور انما هوالحياة الدنيوية ، فان تعاليم الانبياء وقيادتهم الحكيمة وهداية القرآن وغيره انما تتحقق في هذهالحياة الدنيوية ، وانكانت نتائجها تظهر في الحياة الاخروية ، فمن عمل بالقرآن و جعله امامه في هذه الحياة قاده الى الجنة في الحياة الاخروية ، ولاجل ذلك نرى ان النبي الاكرم (ص) يأمرالامة بالتمسكبالقرآن ويصفهبالشفاعة ويقول: «فاذا التبستعليكمالفتن كقطعالليل المظلم فعليكمبالقرآن فانه شافع مشفع، وما حل مصدق ، ومن جعله امامه قاده الى الجنة ومن جعله خلفة ساقه الى النار ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبرهان »[٢] .

فان قوله : ومن جعله أمامه ، تفسير لقوله :فانه شافع مشفع .

والحاصل : ان الشفاعة القيادية شفاعة بالمعنى اللغوى ، فان المكلفين بضم هداية القرآن وتوجيهات الانبياء والائمة الى اراداتهم وطلباتهم ،يفوزون بالسعادة ويصلون الىارقى المقاماتفيالحياة الاخروية ويتخلصونعن تبعات المعاصى ولوازمها .

فالمكلفوحده لايصل الىهذه المقامات ،ولايتخلصمن تبعات المعاصى، كما ان خطاب القرآنوالانبياء وحدهمن دون ان يكون هناك من يسمع قولهم ويلبي نداءهم لايكون له اثر وانما يؤثر اذا انضمعمل المكلف الى هدايتهم، وهدايتهم الى عمل المكلف فعندئذ يتحقق هذه الغاية .

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٣٠٤

(٢) الكافى ج ٢ ص ٢٣٨

وبهذا تبين ان هذه الشفاعة لغوية ، لاتمت الى الشفاعة المصطلحة بصلة ، وذلك لان جميع هذه الامور اعنى اتباع المكلف وقيادة الانبياء وهداية القرآن غير متحققة الا في الظروف الدنيوية وان كانت تظهر النتيجة التامة في الحياة الاخروية ، والشفاعة المصطلحة عبارة عن تحقق الشفاعة في الحياة الاخروية وظهور نتائجها فيها ، وعندئذيكون بين الشفاعتين بون بعيد .

والدليل على ان ظرف الشفاعة المصطلحة هو الحياة الاخروية ما ورد في القرآن الكريم حيث عرف ظرفها اليوم الاخروي ، اذ قال سبحانه : « واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها شفاعة » (البقرة ـ ٢٤٨) .

و قال تعالى : يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة » وقال سبحانه: «يومئذ لاتنفع الشفاعة (البقرة ـ ٢٥٤) وقال الامن اذن له الرحمان ورضي له قولا» (طه ـ ١٠٩) وقال سبحانه : « يوم لايغني مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون الا من رحم الله » (الدخان ـ ٤١ ـ ٤٢) .

فأنت اذا لاحظت هذه الايات وأمعنت النظر في كلمة « يوم » الذي ورد في هذه الايات مكرراً ، تقف على ان ظرف اعمال الشفاعة وتحققها وظهور نتائجها جميعاً انما هو الحياة الاخروية ، أعني اليوم الموعود الذي وعده الله لجميع الناس .

وأما الشفاعة القيادية فنفس الشفاعة وتحققها وتكونها في الحياة الدنيا وانما تتحقق نتائجها وتظهر آثارها في الحياة الاخروى فكيف يصح أن تفسر احدى الشفاعتين بالاخرى ؟؟.

والذي يكشف عن ذلك هو ان بعض الايات النافية للشفاعة والمثبتة لها انما وردت في نفي عقيدة اليهود القائلين بالشفاعة الباطلة فأراد القرآن بنصوصه

اخراج أمر الشفاعة بصورة صحيحة لاتاباه الفطرة ، ولاتنخرم به الاصول العقلية فبما ان اليهود يعتقدون بأن انتسابهم الى الانبياء يوجب أن لاتمسهم النار يوم القيامة الا أياماً معدودة ، جاء القرآن يفند هذه المزعمة بنفي الشفاعة المطلقة المحررة من كل قيد واثبات شفاعة محدودةومقيدة، وعلى ذلك فالنفي والاثبات في آيات الشفاعة لايردان على المورد الواحد الا بجعل ظرف تلك الشفاعة هو يوم القيامة والحياة الاخروية .

وعلى ذلك لاينبغي لمفسر ارجاع الايات المربوطة بالشفاعة، الى الشفاعة القيادية ، التي لاترتبط عقيدة اليهود في أمر الشفاعة وليس لها ظرف الا هذه الحياة الدنيوية .

أضف الى ذلك ان القرآن يعرف الملائكة بأنهم من الشفعاء ويقول سبحانه : « وكم من ملك في السماوات لاتغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (النجم ـ ٢٦) ، ومن المعلوم انالشفاعة الممكنة من الملائكة في حق الانسان انما هي الشفاعة المصطلحة ، لاالقيادية فانالبشر العادي لايقدر على الاستنارة والاستفادة من الملك ، ولايمكن للملكأنيتكفل قيادة الانسان في هذه الحياة الدنيا .

وهذه الوجوه وغيرها تفند زعم من فسر الشفاعة الواردة في القرآن الكريم بالشفاعة القيادية منهم الشيخ الطنطاوي في تفسيره فانه لما لم يتوفق لحل مشاكل الشفاعة التي اخترعتها بعضالعقول المنحرفة في أمر الولاية،صار الى تفسير آياتها بالشفاعة القيادية، وأخذ يفسرها بتعاليم الانبياء وهدايةالقرآن التي يصل بها الانسان الى الفوز والسعادة ، ويتخلص بها من العذاب حيث قال :

« ان شفاعة الانبياء ليس منقبيل الهبات المالية ولاالوظائف الاداريةوانما

هي نفحات علمية وأخلاق حكمية وآداب نبوية[١] فمن فقه ماقالوه واتبع مارسموه واستثمر من بذور الشفاعة ما بذروه، تمت له الشفاعة ودخل مع الجماعة وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة فان خروج العاصي من النار بالشفاعة أو ابعاده عنها قبل الدخول وكذلك زيادة الحسنات في الاعمال للصالحين كل هذا جاء من شفاعته واتباعه بل كل ثواب فانما هو بسبب ذلك وهكذا كل نجاة فانه ﷺ لو لم يأت لنا بالشريعة لكنا أقرب الى الحيوان فصرنا باتباعه داخلين في شفاعته ولايكون ذلك الا باتباعه ولانناله الا مااستعددنا له .

سؤال وجواب

ولقائل أن يقول: ان القول بمسألة تجسم الاعمال بمعنى ان مايفعله الانسان من صالح الاعمال ومايرتكبه من جرائمها سيجسم في الحياة الاخروية بالوجود المناسب لظرف تلك الحياة ، ربما يدفع تخصيص الشفاعة القيادية بالحياة الدنيوية ، ويوجب عمو ميتها لغير هذا الظرف أيضاً ، وذلك لان التجسم لا يختص بنفس الاعمال بل يعم الروابط الموجودة بين الناس حتى رابطة التابعية والمتبوعية ورابطة الامامة والقيادة الحاكمة في الحياة الدنيوية ، فان صريح الايات هو ان كل اناس يدعي بامامتهم فالقيادة الموجودة في هذه الحياة يمتد وجودها الى الحياة الاخروية فمن كان قائداً في هذا الظرف فهو قائد في الحياة الاخروية قال سبحانه : « يوم ندعو كل اناس بامامهم » (الاسراء - ٧١) فهذه الاية تكشف عن ان القيادة سيمتد وجودها وينجر من هذه الحياة الى الحياة الاخرى ويدل على ذلك بوضوح قوله سبحانه في حق فرعون : « يقدم قومه

(١) تفسير الطنطاوى ج١ ص (٦٩ - ٧٠) .

يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » (هود ـ ٩٨) .

وهذه الاية تدل ـ بوضوح وصراحة ـ على امتداد وجود القيادة من هذه الحياة الى الحياة الاخروية، فالامام الحق يقود امته الى الجنة، والامام الباطل يقدم قومه ويوردهم النار، وعلى ذلك فكل امام سواء كان حقاً أو باطلا شفيع يسوق المشفوع له الى الغاية التي يتوخاها ، ولايختص ظرف تلك الشفاعة بالحياة الدنيوية .

ولكن الاجابة عن هذا السؤال واضحة فان القول بأن حقيقة التجسم امتداد لنفس العمل الدنيوي الى الحياة الاخروية غفلة عن حقيقة التجسم الذي كشف عنه القرآن في بعض آياته .

فان التجسم الذي يعترف به القرآن هو عبارة عن ظهور نفس العمل الدنيوي بالوجود المناسب للعالم الاخروي، فالقيادة في الحياة الاخروية ليست امتداداً للقيادة الحاكمة في الحياة الدنيوية بل هو ظهور تلك القيادة بالوجود المناسب للعالم الاخروي ، والفرق بين الوجودين كالفرق بين الذهب ومعدنه فليس هناك ذهبان بل هناك ذهب واحد يظهر تارة بوجود معدني ، مع ما يرافقه من الشوائب والاغيار واخرى بوجوه المصفى ، والذهب المصبوب المصفى من تلك الزوائد والشوائب ، نفس الذهب في حالته الاولية .

وتدل على ما ذكرناه من ان هنا شيئاً واحداً يظهر بوجودين الايات الواردة حول مسألة التجسم قال سبحانه : « ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربك أحداً » (الكهف ـ ٤٩)، وقال سبحانه : « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً » (آل عمران ـ ٣٠) وصريح الايتين هو ان الحاضر هو نفس العمل كما ان المحضر نفس ماعملته النفس لااستمرار للوجود الدنيوي أو شيء آخر مغاير للوجود الدنيوي .

ويدل بوضوح على ذلك قوله سبحانه في حق مكتنزي الذهب والفضة: « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون » (التوبة ـ ٣٥) فالمحمي الظاهرفي شكل النار هو نفس ماكتنز من الذهب والفضة كما هو صريح قوله : « هذا ماكنزتم » ، وقوله : « فذوقوا ماكنتم تكنزون » لاشيئاً آخر ولاامتداداً لذلك الوجود .

وعلى ذلك فالقيادة الاخروية والشفاعة التي تنتزع من تلك القيادة،صورة اخروية لنفس القيادة والشفاعة الدنيوية، وحقيقة عينية لها فان الله سبحانه يوجد تلك القيادة بالوجود المناسب لهذا الظرف وعلى ذلك فظرف الشفاعة القيادية وموضع تكونها هو الحياة الدنيوية ، ومايظهر من القيادة يوم القيامة ظهور تلك الرابطة لاشيء آخر، وعلى ذلك فلايناسب تفسير آيات الشفاعة أوبعضها بمسألة تجسم العمل وتجسم الروابط والقيادات الموجودة في الحياة الدنيوية للبشر، فسوق فرعون قومه يوم القيامة الى النار هو تجسم للقيادة التي اتخذها فرعون لنفسه في هذه الدنيا وتبعتها امته المسكينة. فهذه القيادة الدنيوية تتمثل في الاخرة بالقيادة الى النار .

* * *

٣/ الشفاعة المصطلحة

وحقيقة هذه الشفاعة لاتعني الا أن تصل رحمته سبحانه ومغفرته وفيضه الى عباده عن طريق اوليائه وصفوة عباده ، وليس هذا بأمر غريب فكما ان الهداية الالهية التي هي من فيوضه سبحانه، تصل الى عباده في هذه الدنيا من طريق أنبيائه وكتبه، فهكذا تصل مغفرته سبحانه وغفرانه الى المذنبين والعصاة

يوم القيامة من عباده عن ذلك الطريق .

وان شئت قلت : ان ارادته الحكيمة جرت في صفحة الوجود أن يتحقق كل شيء من طريق الاسباب الخاصة ، والعلل المعينة فكما ان رحمته التي وسعت كل شيء تصل الى عباده في الحياة الدنيوية ، عن طرق خاصة وعلل طبيعية يلمسها كل من فتح عينه على الكون ، فكذلك رحمته المعنوية ومغفرته الوسيعة تصل في الحياة الاخروية الى عباده عن طريق علل وأسباب خاصة ومن تلك الاسباب،اولياؤه وصفوة خلقه ، ودعائهم وطلباتهم .

وما ذلك الا لأن الله سبحانه قد جعل لكل شيء سبباً وقضى أن لايصدر المسبب الا بتوسط أسبابه،فدار الوجود وصفحة الكون دارالاسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، وقد جرت عليه مشيئته وارادته .

أضف الى ذلك أن وصول فيضه عن طريق أوليائه الى عباده ، تكريم للاولياء ، واظهار لمقامهم ونوع مثوبة لهم بالنسبة الى طاعاتهم وتضحياتهم، في طريق الحق ، وابلاغ رسالاته وأوامره .

ولابعد في أن يصل غفرانه سبحانه الى عباده يوم القيامة عن طريق خيرة عباده فان الله سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيوية سبباً ، ونص بذلك في بعض آياته فنرى ان أبناء يعقوب لما عادوا خاضعين، رجعوا الى أبيهم وقالوا له: « ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا اناكنا خاطئين » (يوسف- ٩٧) ، فأجابهم يعقوب بقوله : «سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم» (يوسف-٩٨).

وليس يعقوب وحيداً في هذا الباب بل النبي الاكرم أحد من يستجاب دعاؤه في حق العصاة قال سبحانه : « ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (النساء - ٦٤) .

وهذه الايات ونظائرها ممالم نذكرها مثل قوله : «وصل عليهم ان صلاتك

سكن لهم » (التوبة - ١٠٣) . تدل على ان مغفرته سبحانه قد تصل الى عباده بتوسيط واسطة كالانبياء وقد تصل بلا توسيط واسطة ، كما يفصح عنه سبحانه بقوله « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » (التحريم - ٨) وقوله : « واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه أن ربي رحيم ودود » (هود - ٩٠) الى غير ذلك من الايات التي تكشف عن أن توبة العبد تجلب المغفرة بلا واسطة أحد وقد تصل بتوسيط واسطة هي من أعز عباده وأفضل خليقته وبريته .

وتتضح هذه الحقيقة اذا وقفنا على أن الدعاء بقول مطلق وبخاصة دعاء الصالحين من المؤثرات الواقعة فى سلسلة نظام العلة والمعلول ، ولاتنحصر العلة في العلل الواقعة فى اطار الحس فان فى الكون مؤثرات خارجة عن احساسنا وحواسنا بل قد تكون بعيدة حتى عن تفكيرنا ، يقول سبحانه : « والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً » (النازعات ١ - ٥)

فما المراد من هذه « المدبرات امراً » أهي مختصة بالمدبرات الطبيعية المادية أوالمراد هوالاعم منها فقد روي عن امير المؤمنين تفسيرها بالملائكة الاقوياء ، الذين عهد الله اليهم تدبير الكون والحياة باذنه سبحانه ، فكما ان هذه المدبرات يجب الايمان بها وان لم تعلم كيفية تدبيرها وحقيقة تأثيرها ، فكذلك الدعاء يجب الايمان بتأثيرها فى جلب المغفرة، ودفع العذاب وان لم تعلم كيفية تأثيرها .

ويشير الى ذلك ماروى عن النبي الاكرم ﷺ حيث سئل عن الاحراز التي يتداولها سواد الناس يقصدون بها الاستشفاء وهل انها تستطيع ان تغير

القدر اولا فأجاب ﷺ: « هى من قدر الله »[١] فأخبر بهذا عن ان الدعاء أيضاً جزء من القدر الالهي، فكما قدر ان يشفى المريض بسبب الدواء كذلك قدر ان يشفى بالدعاء .

ثم ان العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه قد أوضح كيفية تأثير الشفاعة فى جلب الغفران ودفع العذاب بقوله: «ان الشفيع انما يحكّم بعض العوامل المربوطة بالمورد ، المؤثرة فى رفع العقاب مثلا من صفات المشفوع عنده (اي الله سبحانه) على العامل الاخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتب العقاب على مخالفته (الى ان قال :) ومن هنا يظهر ان الشفاعة من مصاديق المسببية فهي توسيط السبب المتوسط القريب بين السبب الاول ومسبّبه .

وان شئت قلت : ان الشفيع يستفيد من صفات الله العليا من الرحمة والخلق والاحياء والرزق وغير ذلك في ايصال أنواع النعم والفضل الى كل مفتقر محتاج من خلقه ، فكما ان الشفاعة التكوينية (التي مر ذكرها وشرحها في القسم الاول من الشفاعة) ليست الا توسط العلل والاسباب بينه وبين مسبباتها في تدبير أمرها وتنظيم وجودها وبقائها كما يفصح عنه قوله سبحانه « يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه » (يونس ـ ٣) فكذلك الشفاعة المصطلحة فان الايات تثبت الشفاعة لعدة من عباده من الملائكة والناس من بعد الاذن والارتضاء فلهم أن يتمسكوا برحمته وعفوه ومغفرته وما أشبه ذلك من صفاته العليا لتشمل عبداً من عباده ساءت حاله بالمعصية وشملته بلية العقوبة ،

---

(١) التاج الجامع للاصول ج٣ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ وروى الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام ـ سئل عن الرقى : اندفع من القدر شيئاً ، فقال: هى من القدر راجع توحيد الصدوق ص٣٨٩ .

ولله الملك وهو القائل عزمن قائل «اولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان ـ ٧٠)[1].

وبذلك ظهر ان الشفاعة المصطلحة قسم من الشفاعة التكوينية ، بمعنى تأثير دعاء النبي ومسألته في جلب الغفران بتوسيط صفاته العليا في هذاالامر.

أضف الى ذلكان تأثير الشفاعة في جلب الغفران ونزول الفيض،لايحتاج الىهذاالتحليل أساساً فان الله سبحانه هومالك يوم‌الدين وله‌الملك وله الامر فكما ان له احباط عمل الكفار والمنافقين اذ يقول سبحانه : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » (الفرقان ـ ٢٣) وقال سبحانه: «فأحبط أعمالهم » (محمد ـ ١٠) فكذلك له أن يغفر من ذنوب عباده ماشاء ولمن شاء وبما شاء اذ يقول : « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (النساء ـ ٤٨ و١١٦) والاية واردة في غير مورد الايمان والتوبة فان الايمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضاً .

فكما ان له تكثير القليل من العمل قال سبحانه : « اولئك يؤتون أجرهم مرتين » (القصص ـ ٥٤) وقال سبحانه « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (الانعام ـ ١٦٠)كذلك له أن يجعل المعدوم من العمل موجوداً قال سبحانه : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء ،كل امري بماكسب رهين » (الطور ـ ٢١) .

وهذه الاية تصرح بأن ثواب العمل يصل الى ذرية الانسان أيضاً وان لم تفعل هي بنفسها .

ولايتوهم من هذه الايات ان المغفرة والعقاب لايخضعان لقانون بل الله يفعل مايفعل بملاكات ومصالح مقتضية خفية علينا ، ولتكن من ذلك شفاعة

---

١) الميزان ج١ ص١٦١ ـ ١٦٣ بتلخيص .

أوليائه وتوسط صفوة عباده في هذا المورد .

* * *

مبررات الشفاعة :

انهناكمبرراتلجعلالشفاعةمنأسباب المغفرةورفع العذاب نذكربعضها:

١ـ ابتلاء الناس بالذنب والتقصير

ربما يقال اذا كان المنقذ الوحيد للانسان يوم القيامة هـو عمله الصالح كماهوصريح الايات فلماذا جعلت الشفاعة وسيلة للمغفرة، وسبباً لرفع العذاب أوليس الله يقول : « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى » (الكهف ـ ٨٨) وقال سبحانه : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » (القصص ـ ٦٧) وقال سبحانه : « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » (القصص ـ ٨٠) وعلى ذلك فلماذا أدخلت الشفاعة في سلسلة العلل لجلب المغفرة .

ولكن الاجابة على هذا السؤال واضحة فان الفوز بالسعادة وان كان يعتمد على العمل أشد الاعتماد غير ان صريح الايات الاخر هو ان العمل بنفسه ما لم تنضم اليه رحمته الواسعة لاينقذ الانسان من تبعات تقصيره قال سبحانـه : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى » (النحل ـ ٦١) وقال سبحانه « ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبواماترك على ظهرها من دابة » (فاطر ـ ٤٥)[1].

---

(١) الايتان بحكم السياق تعنيان الكفار والعصاة فلاتعمان المعصومين من الناس فان الاية المتقدمة على تلك الاية فى سورة النحل تعنى الذين لايؤمنون بالاخرة، وتقول:

وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : « أيها الناس انه ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتيه به خيراً أو يصرف عنه شراً الا العمل ألا لايدعين مدع ولا يتمنين متمن والذي بعثني بالحق لاينجى الا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت »[١].

ولاجل ذلك نرى ان رسول الله ﷺ يقول : انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله كل يوم مأة مرة[٢].

ويدل هذا الحديث على ان كل من كثر قربه منه سبحانه يستفيد من مغفرته وفيضه العام أكثر من غيره .

* * *

٢ ـ سعة رحمته لكل شيىء

ان التدبر في الايات القرآنية يعطي ان رحمة الله سبحانه واسعة تسع كل

«للذين لايؤمنون بالاخرة مثل السوء، ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم» النحل ـ ٦٠ .

كما ان الاية المتقدمة على الواردة فى سورة فاطر تعنى المستكبرين فتقول: «استكباراً فى الارض ومكر السيء ولايحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (فاطر ـ ٤٣) ثم يقول : «أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيىء فى السماوات ولا فى الارض انه كان عليماً قديرا .. ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ...» .

وعلى ذلك فالمنصرف من لفظه « الناس » فى الايتين هو الكفار والمستكبرون .

(١) الشرح الحديدى لنهج البلاغة ج٢ ص٨٦٣ .

(٢) صحيح مسلم الجزء الثامن .. باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ص٧٢ طمحمد على صبيح وللعلماء فى معنى الحديث توجيهات ذكرها القاضى فى الشفاء فى الفصل الاول من الباب الاول من القسم الثالث .

الناس ، الا من بلغ الى حد لايقبل التطهر ، ولاالغفران ، قال سبحانه حاكياً عن حملة العرش الذين يستغفرون للذين تابوا واتبعوا سبيله : «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (غافر ـ ٧) .

نرى ان حملة العرش يدللون طلب غفرانه سبحانه للتائبين والتابعين لسبيله بكون رحمته واسعة وسعت كل شيء .

كما نرى انه سبحانه يأمر نبيه أن يواجه الناس كلهم حتى المكذبين لرسالته بقوله : « فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة » (الانعام ـ ١٤٧) .

ونرى في آية ثالثة يعد الذين يجتنبون الكبائر بالرحمة والمغفرة ويقول: « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم» (النجم ـ ٣٢) وهذه الايات توضح مفاد ماورد في الادعية الاسلامية من قوله عليه السلام يامن سبقت رحمته غضبه .

كيف ونحن نرى ان الله سبحانه يعد القانط من رحمة الله والايس من روحه كافراً وضالاويقول: «ولاتيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون» (يوسف ـ ٨٧) ويقول أيضاً : «ومن يقنط من رحمة ربه الاالضالون» (الحجر ـ ٥٦) ، ويقول سبحانه : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم »(الزمر ـ ٥٣) .

فاذا عرفنا القرآن بأن الله سبحانه ذو رحمة واسعة تفيض على كل شيء فعند ذلك لامانع من أن تفيض رحمته وغفرانه عن طريق أنبيائه ورسله وأوليائه فيقبل أدعيتهم ، وطلبانهم في حق عباده بدافع انه سبحانه ذو رحمة واسعة كما

لامانع أن يعتقد العصاة في شرائط خاصة بغفرانه سبحانه من طرق كثيرة لاجل انه عد القانط ضالا والايس كافراً .

وعلى الجملة فكما يجب على المربي الديني أن يذكر عباد الله بعقوبته وعذابه وماأعد للعصاة والكفارمن سلاسل ونيران، يجب عليه أيضاً انيذكرهم برحمته الواسعة ومغفرته العامة التي تشمل كل شيء الا من بلغ من الخبث والردائة درجة لايقبل معها التطهير كما قال سبحانه : « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (النساء ـ ٨٤) .

* * *

٣ ـ الاصل هو السلامة

دلت التجارب والبراهين العقلية على ان الاصل الاولى في الخليقة هو السلامة وانالمرض والانحراف أمران يعرضان علىالمزاج ويزولان بالمداواة والمعالجة ، وليس هذا الاصل مختصاً بالسلامة من حيث العيوب الجسمانية بل الاصل هو الطهارة من الاقذار والادران المعنوية فقد خلق الانسان على الفطرة النقية السليمة من الشرك والعصيان التيأشار اليها القرآن بقوله: «فطرة الله التي فطر الناس عليها » (عنكبوت ـ ٣٠) وقال النبي الاكرم ﷺ :« كل مولود يولد على الفطرة ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1].

وعلىذلك فلاغروفي أن يزول آثار العصيان عنالانسان بالعلاج والمداواة الخاصة في مواقف شتى حتى تظهر الخليقة الاولى التي فطر عليها .

فقد جعل الله سبحانه المواقف التي يمربها الانسان بعد موته فيالبرازخ ويوم القيامة، وسائل لتطهير الانسان وتصفيته من آثارالذنوب وتبعاتها ولاغرو

---

١) التاج الجامع للاصول ج٤ ص١٨٠ وتفسير البرهان ج٣ ص٢٦١ الحديث٥.

في أن يكـون الشفعاء المرضيون عند الله ، أطباء يعالجون اولئك المرضى ، بتصرفاتهم ونفوسهم القوية حتى يزيلوا عنهم غبار المعصية، ودرن الذنب حتى تعود الجوهرة الانسانية نقية صافية ناصعة فيستحق الانسان نعيم الاخرة ودخول الجنة الا من بلـغ الى حد لايقبل العلاج والتداوي لاجل ان ذاته قد انقلبت الى مايضاد الجوهرة الانسانية النقية التي لاتقبل اية مدواة أوعلاج كما لواتخذ لربه شريكا فاستحق الخلود في النار .

فليس التوقف في البرزخ ولافي المراحل المتنوعة في يوم القيامة ولا الدخول في النار مدة محدودة ولاشفاعة الانبياء والاولياء في حقهم،الا تصرفاً تكوينياً في حقهم حتى تعود الجوهرة الاولية الى حالتها الطبيعية الاولى وتصفو من كل شائبة تعلقت بها نتيجة العصيان والمتمرد .

٤ ـ الاثار البناءة والتربوية للشفاعة

ان تشريع الشفاعة ، والاعتراف بها في النظام الاسلامي انما هـو لاجل غايات تربوية تترتب على ذلك التشريع والاعتقاد به، وذلك لان الاعتقاد بالشفاعة المقيدة بشروط معقولة سيوافيك بيانها ، من شأنه بعث الامل في نفوس العصاة وافئدة المذنبين ، يدفعهم الى العودة عن سلوكهم الاجرامي ، واعادة النظر في منهج حياتهم الشرير ، ويمسكهم عن الاستمرار والتمادي في ماهم عليـه من التمرد والعصيان ، وذلك لانهم اذا رأوا ان الرجوع عن منتصف الطريق الباطل الى طريق الصواب والحق ، ستنقذهم من مايترتب على أفعالهم السيئة التي ارتكبوها مدة من عمرهم، اغتنموا الفرصة بتغيير وضعهم وتعديل سلوكهم الى مافيه رضا ربهم .

وهذا الاعتقاد ـ بالرغم مما اعترض عليه مـن جانب البعض بأنه يوجب

الجرأة ويحيي روح التمرد في العصاة والمجرمين ـ يتسبب في اصلاح سلوك المجرم ويقظته وانابته ، والتخلي عن مايرتكبه من آثام ويقترفه من ذنوب .

وتظهر حقيقة الحال اذا لاحظنا مسألة التوبة التي اتفقت عليه الامة ونص به الكتاب والحديث فانه لوكان باب التوبة موصداً في وجه العصاة والمذنبين واعتقد المجرم بأن عصيانه مرة واحدة أو مرات سيخلده في عذاب الله ، ولا مناص لـه منه ، فلاشك ان هذا الاعتقاد يوجب التمادي في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب لانه يعتقد بأنه لو غير وضعه وسلوكه في مستقبل أمره لايقع ذلك مؤثراً في مصيره وخلوده في عذاب الله ، فلاوجه لان يترك المعاصي ، ويغادر اللذة المحرمة ، ويتحمل عناء العبادة والطاعة بل يستمر على وضعه السابق حتى يوافيه أجله .

وهذا بخلاف ما اذا وجد الجو مشرقاً والطريق مفتوحاً ، والنوافذ مشرعة واعتقد بأنه سبحانه سيقبل توبته اذا كان نصوحاً ، وان رجوعه هذا سيغير مصيره في الاخـرة ، وينقذه من تبعات أعماله ، وأليم العذاب عليها فعند ذاك سيترك العصيان ، ويرجع الى الطاعة ، ويستغفر لذنوبه ، ويطلب الاغضاء عن سيئاته .

فهذا الاعتقاد له الاثر البناء في تهذيب الناس والشباب خاصة ، وكم وكم من شباب اقترفوا السيئات ، وأمضوا الليالي في اللذة المحرمة ، ثم عادوا الى خلاف ماكانوا عليه في ظل التوبة والاعتقاد بأنها تجدي المذنبين ، وبأن أبواب الرحمة والفلاح مفتوحـة بعد لم تغلق ، فعادوا يسهرون الليالي في العبـادة ، ويحيونها بالطاعة .

وليس هذا الا أثر ذلك الاعتقاد ، وذاك التشريع .

ومثل ذاك ، الاعتقاد بالشفاعة المحدودة ، فانه اذا اعتقد العاصي بأن أولياء الله سبحانه قـد يشفعون في حقه في شرائط خاصة اذا لم يهتك الستر ، ولم

يبلغ الى حد لاتنفع معه شفاعة الشافعين، فعند ذاك سوف يعيد النظرفي مسيره ويحاول تطبيق نفسه على شرائط الشفاعة حتى يستحقها ، ولايحرمها .

نعم الاعتقاد بالشفاعة المطلقة ، المحررة من كل قيد ، من جانب الشفيع والمشفوع له ، هو الذي يوجب التجري والتمادي في العصيان وهذه الشفاعة مرفوضة في منطق العقل والقرآن وكأن المعترض قد خلط بين الشفاعة المحدودة والشفاعة المطلقة من كل قيد ، ولم يميز بينهما وبين آثارهما .

فالشفاعة الموجبة للتجري ومواصلة العناد والتمرد ، هي الاعتقاد بأن الانبياء والاولياء سيشفعون في حقه يوم القيامة على كل حال وفي جميع الشرائط وان فعل مافعل ، وارتكب ماارتكب وعند ذلك سيستمر في عمله الاجرامي الى آخر حياته رجاء تلك الشفاعة التي لاتخضع لضابطة وقانون، ولاتتقيد بقيد أو شرط .

واما الشفاعة التي نطق بها الكتاب وأقرت بها الاحاديث واعترف بها العقل فهي الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع ، ومجمل تلك الشرائط هو ان لايقطع جميع علاقاته العبودية مع الله ، ووشائجه الروحية مع الشافعين ولايصل تمرده الى حد القطيعة، ونسف الجسور .

فالاعتقاد بهذا النوع من الشفاعة مثل الاعتقاد بتأثير التوبة في الغفران ماهية واثراً .

ان في التشريعات الجنائية العالمية السائدة في المجتمعات البشرية قانوناً يسمى « بقانون العفو عن السجناء الدائمين » يسمح للمسؤولين بأن يعفوا عن السجناء أويقللوا من مدة عقوباتهم اذا هم غيّروا سلوكهم، وأظهروا الندامة والتوبة ، وهذا القانون ليس من شأنه ان يبعث على الجرأة والعناد بل من شأنه ان يدفع السجين الى ان يصلح نفسه ، ويعدل سلوكه، ويحقق في

نفسه شرائط استحقاق العفو والتخفيف على امل ان ينطبق عليه ذلك القانون ويشمله العفو، وبهذا يكون هذا القانون المنطقي موجباً للاصلاح لاالاصرار، وداعياً الى الاوبة لاالاستمرار .

* * *

٥ ـ الامر بيده سبحانه أولا وآخراً

ماذكرناه من الوجوه هي مبررات الشفاعة والجهات التعليلية لجعلها في صميم العقائـد الاسلامية ، ومع ذلك كله فالامر اليه سبحانـه ان شاء اذن في الشفاعة وان لم‌يشأ لم‌يأذن، فهو القائل سبحانه: « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل لـه من بعده وهو العزيز الحكيم »

(فاطر ـ ٢)

وصفـوة القول : وان الشفيع انما يشفع باذنه وفي اطار مشيئته ، وتحت الشروط التـي يرتضيها ، اذ هو الذي يبعث الشفيع على ان يشفع فـي حق المشفوع له ، وعند ذلك فلاتستلـزم شفاعة الشافعين خروج الامـر عن يده ، وتحديد سلطته تعالى، وملكه، وسيوافيـك بعض القول فى ذلك عند التعرض للاشكالات المتوهمة حول الشفاعة .

(٤)

ماهو أثر الشفاعة

أهو اسقاط العقاب أوزيادة الثواب ؟

قد وقفت على آيات الشفاعة وأهدافها، واقسامها، وان الشفاعة من الاصول الاساسية في العقيدة الاسلامية، غير انه بقى هنا بحث وهو الوقوف على أثر الشفاعة، وان نتيجتها هي حط ذنوب المذنبين واسقاط العقاب والمضار عنهم والعفو عن العصاة، أوهي ازديـاد الثواب ورفع الدرجات، وقد ذهب الى الاول جمهور المسلميـن، والى الثاني الفرقة المعتزلـة وقد وقفت عند نقل الاقوال، على عقائدهم غير ان الواجب هنا هو تعيين الموقف الصحيح من هذا الامر.

ان الاسلوب الصحيح لتفسير القرآن الكريم له هو تجريد المفسر نفسه عن كل رأى سابـق، ووقف النظر على مدلول الايـة والاهتداء الى مرماها باستنطاقها واستنطاق اخواتها التي يمكن ان تقع قرينة لفهم المراد منها، واما تفسير الايات على ضوء الاراء المسبقـة، وتطبيقها على تلك الافكار وجعلها دليلا على صحتها، فهو نفس التفسير بالرأى الذي حذّر عنـه النبي ﷺ في الحديث المتواتر عنه « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[1].

وان شئت قلت: يجب على المفسر ان يتخذ نفس القرآن هادياً لمقصوده سبحانه لاان تكون الاراء المتخذة سلفاً، سبباً لتطبيق القرآن عليها، فان هذا

---

(١) حديث متفق عليه، رواه الفريقان.

هو الافة الكبيرة التي أصابت فرقاً من المسلمين ، ودفعتهم الى اتخاذ مواقف شاذة .

ان الايات الواردة حول الشفاعة ـ مع الاسف ـ لم تتخلص عن هذه الافة عند بعض هذه الفرق فان الايات الواردة حول الشفاعة ليست ناظرة الى ما ذهبت اليه المعتزلة من ان نتيجتها هو رفع الدرجة وزيادة الثواب فقط ، ولا اقل لاتنحصر مداليلها بهذا بل هي ذات مدلول وسيع يعم كلا الامرين من حط الذنوب والعقاب ورفع الدرجة وزيادة الثواب .

لم تكن مسألة الشفاعة فكرة جديدة ابتكرها الاسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين امم العالم من قبل وخاصة بين الوثنيين واليهود ، نعم ان الاسلام قد طرحها مهذبة من الخرافات وممانسج حولها من الاوهام، وقررها على اسلوب يوافق اصول العدل والعقل وصححها تحت شرائط فى الشافع والمشفوع له التي تجر العصاة الى الطهارة من الذنوب ، وكف اليد عن الاثام والمعاصي ، ولاتوجد فيهم جرأة وجسارة على هتك الستر ، حسبما اوضحناه فى الفصل الماضي .

وغير خفي على من وقف على آراء اليهود والوثنيين فى امر الشفاعة ان الشفاعة الدارجة بينهم خصوصاً اليهود كانت مبنية على رجائهم لشفاعة انبيائهم وآبائهم، فى حط ذنوبهم، وغفران آثامهم. ولاجل هذا الاعتقاد كانوا يقترفون المعاصي، ويرتكبون الذنوب تعويلا على ذلك الرجاء .

وفي هذا الموقف يقول سبحانه رداً على تلك العقيدة الباعثة الى الجرأة « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (البقرة ـ ٢٥٥) ، ويقول ايضاً رفضاً لتلك الشفاعة المحررة من كل قيد : « ولايشفعون الا لمن ارتضى »

(الانبياء ـ ٢٨)

وحاصل الايتين ان اصل الشفاعة التي تدعيها اليهود وتلوذ اليها الوثنيون حق ثابت فى الشريعة السماوية، غير ان لها شروطاً أهمها اذنه سبحانه للشافع ورضاؤه للمشفوع له .

وعلى ذلك فكيف يصح لنا تخصيص الايات بقسم خاص من الشفاعة وهي شفاعة الاولياء لرفع الدرجة، وزيادة الثواب ؟

وأوضح دليل على عمومية الشفاعة للقسم الثالث من الاقسام الماضية ما اصفق على نقله المحدثون من قوله ﷺ : « ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي »[1] .

ومع هذه القرائن والاحاديث الكثيرة التي ستمر عليك في فصلها الخاص لايصح تخصيص الايات بالمورد الذي ذهبت اليه المعتزلة .

* * *

دافع المعتزلة الى اتخاذ الرأى الخاص

ان الدافع الوحيد للمعتزلة كلهم أوأكثرهم الى تخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة هو الموقف الذي اتخذوه فى حق العصاة ومقترفي الذنوب فى ابحاثهم الكلامية فانهم قالوا بخلود اهل العصيان فى النار وهذه العقيدة منسوبة الى جميعهم أو أكثرهم، ومن الواضح ان من يتخذ مثل هذا الموقف لايصح له ان يعمم آيات الشفاعة الى العصاة وذلك لان التخليد في النار لايجتمع مع التخلص عنها بالشفاعة .

واليك مانقل عن المعتزلة فى هذا الصعيد : قال المفيد : اتفقت الامامية على ان الوعيد بالخلود فى النار متوجه الى الكفار خاصة دون مرتكبي

(١) ستوافيك مصادر الحديث فى البحث الروائى .

الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى ، والاقرار بفرائضه من اهل الصلاة ، ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة سوى محمدبن شبيب، وأصحاب الحديث قاطبة ، واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك ، وزعموا ان الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار وجميع فساق اهل الصلاة .

واتفقت الامامية على ان من عذب بذنبه من أهل الاقرار والمعرفة والصلاة لم يخلد في العذاب واخرج من النار الى الجنة ، فينعم فيها على الدوام ووافقهم على ذلك من عددناهم ، واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا انه لايخرج من النار أحد دخلها للعذاب[١] .

نعم نسب العلامة الحلي في كشف المراد تلك العقيدة الى بعض المعتزلة لا الى جميعهم[٢]، وكذلك نظام الدين القوشجي في شرحه على التجريد[٣] .

وقد خالفهم ائمة المسلمين وعلماؤهم في هذا الموقف وقالوا بجواز العفو عن العصاة عقلا وسمعاً .

أما العقل فلان العقاب حق لله تعالى فيجوز تركه .

وأما سمعاً فللايات الدالة على العفو فيمادون الشرك قال سبحانه: « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (النساء ـ ٤٨) والاية واردة في حق غير التائب ، لان الشرك مغفور بالتوبة أيضاً ، وقال سبحانه : « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (الرعد ـ ٦) أي تشملهم المغفرة مع كونهم ظالمين .

---

(١) اوائل المقالات ص١٤ .

(٢) كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد ط صيدا ص٢٦١ .

(٣) شرح التجريد للقوشجى ص٥٠١ .

وقال سبحانه: « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً » (الزمر ـ ٥٣) الى غير ذلك من النصوص المتظافرة على العفو في حق العصاة .

ومع ذلك لامانع من شمول أدلة الشفاعة لهم، وأوضح دليل على العفو بدون التوبة قوله سبحانه : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (الشورى ـ ٢٥) فان عطف قوله « ويعفو عن السيئات » على قوله « يقبل التوبة » بـ واو العطف، يدل على التغاير بين الجملتين، وان هذا العفو لايرتبط بالتوبة والاكان اللازم عطفه بالفاء .

وقال سبحانه : « ومأأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (الشورى ـ ٣٠) فان الاية واردة في غير حق التائب ، والا فان الله سبحانه يغفر ذنوب التائب جميعاً لا كثيرها مع انه سبحانه يقول: «ويعفو عن كثير » .

فتلخص من ذلك انه لامانع من القول بجواز العفو في حق العصاة كما لامانع من شمول آيات الشفاعة لهم .

نعم يجب الفات النظر الى نكتة وهي ان بعض الذنوب الكبيرة ربما تقطع العلائق الايمانية بالله سبحانه ، كماتقطع الاواصر الروحية مع النبي الاكرم ﷺ فصاحب هذه المعصية لاتشمله الشفاعة، فيجب عليه ورود النار حتى يتطهر بالعذاب ، ويصفو روحه من آثار العصيان ويصير لائقاً لشفاعة الشافعين .

الى هنا تم الكلام حول آيات الشفاعة واصنافها وحقيقتها وأثرها في المطيع والعاصي . وبقي الكلام حول بعض الاشكالات التي اثارها بعضهم ، فيجب علينا التعرض لها على وجه الاجمال والاجابة عنها بمايقتضي المقام .

﴿ ٥ ﴾

اشكالات مثارة حول الشفاعة

هاهنا اشكالات مثارة حول الشفاعة ناشئة من قياس الشفاعة الواردة في الشريعة الاسلامية على الشفاعة الرائجة في الحياة البشرية المادية والتي تسمى بالوساطة، ولوكان المستشكلون يعرفون حقيقة الشفاعة التي نص بها القرآن والحديث ، لماتفوهوا بتلك الاشكالات التي لاتليق بالبحث والنقد في الكتب العلمية .

غير ان انتشار هذه الاشكالات بين الشباب دعانا الى عقد هذا البحث وافراده عماسبق، واليك الاشكالات واحداً بعد واحد، والاجابة عنها على نحو الاجمال :

* * *

الاشكال الاول

لاشك ان الشفاعة لاتشمل جميع ألوان الجرائم والمعاصي، وعامةأنواع العصاة والمجرمين اذ عندئذ يصير القانون لغواً ، ويعود التكليف بلا أثر وانما الشفاعة في بعض ألوان الجرم ، وفي حق بعض المجرمين دون بعض وعندئذ ينطرح هذا السؤال :

ان حقيقةكل جرم هي التجاوز على الحدود ، وكل مجرم يعتدي على

حدود الله ، فاذن فمامعنى أن يقع بعض أقسام الجرم والمجرمين في اطار الشفاعة دون البعض مع اشتراك الجميع في هدم الحدود ، والتجاوز والعدوان .

الجواب :

ان مازعمه المستشكل من استلزام الشفاعة الترجيح بلامرجح والتفريق في القانون انما يتم اذا كان جميع ألوان الجرم، وأنواع المجرمين في درجة واحدة في الآثار والتبعات والكشف عن النفسيات. وأمااذا كان للجرم مراتب أوكان المجرمون على درجات في النفسيات والروحيات فلاتستلزم الشفاعة ماذكره المستشكل فلايستوي من أحرق منديل أحد عدواناً ، ومن أحرق مصنعاً كبيراً تعيش به مئات من العمال فكلا العملين تجاوز وعدوان ولكن شتان بين الاول والثاني .

ولاجل ذلك تكون العقوبات والتبعات متفاوتة حسب تفاوت مراتب الجرم وحسب كشف العمل عن روحيات المجرم ونفسانياته .

فهناك شاب لايملك نفسه عن النظر الى المرأة الاجنبية نظراً ممزوجاً بالسوء وهناك آخر يعتدي بالعنف عليها . فكلا العملين عدوان على القانون وتجاوز على الحدود وتجاهل للحرمة ولكن يختلف مراتبهما . وعلى ذلك فاذا كان المجرمون مختلفين ومتفاوتين في مراتب الجرم فلا تعد الشفاعة في حق من كان اخف جرما دون الاخر تفريقاً في القانون .

كما ان هناك فرقا بين مجرم قد حافظ على روابطه الايمانية مع الله، وعلى علاقاته الروحية مع الشفيع بحيث لايعد المجرم انسانا اجنبيا عن كلا المقامين ومجرم قد قطع كل علاقاته الايمانية والروحية بحيث صار انسانا اجنبياً عن

الشافع والمشفوع عنده ، فتشريع الشفاعة في حق الاول وقبولها في شأنه دون الثاني لايعد تفريقا في القانون ، وعملا مخالفاً للتسوية فيه .

والذي يوضح ذلك انـه سبحانه قد فرق بين الذنوب واخبر بان بعضها لايغفر أبداً الا مع التوبة وان بعضها يغتفر بدونها أيضاً ، قال سبحانه : «ان الله لايغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما» (النساء/٤٨) .

فهل يسوغ لنا ان نعترض على عدم التسوية بين المشرك وغيره في غفران ذنوب الثاني دون الاول ؟ كلا . فان المشرك قـد قطع جميع علاقاته مع الله سبحانه دون غير المشرك .

وعلى الجملة فهذا الاشكال مبني على الغض عما ورد في الكتاب والسنة من تقسيم الجرائم الى الكبائر والصغائر ، وما ورد من ان الاجتناب عن الكبائر يوجب غفران الصغائر ، قـال سبحانه : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (النساء - ٣١) .

وربما يقرر هذا الاشكال بوجه اخر فيقال : انه جرت مشيئة الله الحكيمة على اجراء القوانين والسنن على نمط واحد قال سبحانه : «فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» (فاطر - ٤٣) ، وعلـى ذلك فقبول الشفاعة في حق بعض المجرمين نوع تغيير في السنن الحكمية الثابتة .

وانت خبير ان هذا الاشكال هو نفس ما تقدم جوهـراً ، وان كان يختلف عنه شكلا ، فان الاساس في التقرير الاول ان الشفاعة تفرقة في القانون ، والاساس في هذا البيان هـو ان الشفاعة تبديل وتحويـل لسنن الله التي لايتطرق اليها التبدل ، والتحول .

والاجابة عن هذا التقرير واضحة جداً ، فكما ان العقاب سنة الهية فكذلك

المغفرة والعفو عن الجرم والمجرم في شرائط خاصة سنة من السنن الالهية ، فلا يعد الاعتراف باحدهما نقضاً لسنته. والقائل جعل العقاب هو الاصل وتخيل ان العفو والمغفرة نوع تغيير في سننه .

وان شئت قلت : ان قوله سبحانه : «فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا»(فاطر ـ ٤٣) لايهدف الى انه ليس له الا شأن واحد وعمل فارد لايتجاوز عنه (وهو عقاب المجرم في كل الاحايين) بل هو سبحانه «كل يوم هو في شأن» (الرحمان ـ ٢٩) وقال سبحانه : «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب» (الرعد ـ ٣٩) .

كيف وان لله سبحانه اسماء وصفات ، ولكل واحد منها تجل وظهور في عالم الكون، فهو بما انه المحيى والمميت، فله تجل في الكون بالاحياء والاماتة وبما انه القاهر والمنتقم والرؤوف والرحيم ، فله أيضاً تجليات في الكون ولايعد كل تجل ناقضا للاخر أو تحويلا لسنته سبحانه ، وما هذا الا لان الكل سنن لا أن هناك سنة واحدة وهو الاحياء حتى تكون الاماتة ناقضة لها .

وهناك قصة قد رواها الاصمعي لاتخلو عن صلة بالمقام . قال الاصمعي كنت في البادية واقرأ القرآن عن ظهر القلب وكانت هناك امرأة من اهلها فقرأت قوله سبحانه هكذا «والسارق والسارقة ، فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم(المائده ـ ٣٨) فاعترضت وقالت بانه سبحانه لو كان غفوراً ورحيماً لما امر بقطع ايديهما قال الاصمعي ففتحت القرآن فرأيت ان في قرائتى لحنا والصحيح عزيز حكيم ووقفت بان الامر بقطع الايدى لايصح أن يقع مظهراً لرحمته وغفرانه هل هو مطهر لعزه وحكمته .

هذه المرأة الربيبة فى البادية تشير بكلامها الى ما ادركه الفلاسفة في ضوء البراهين من ان لله سبحانه اسماء وصفات ، ولكل تجل خاص ، فكما انه يتجلي

كل مجال في التكوين باسم خاص، فهكذا عالم التشريع فيتجلى في كل حكم بما يناسبه من الاسم فالمناسب لقطع يد السارق هو التجلي باسم العزة والحكمة لا الغفران والرحمة . لان كل تجل يتناسب مع اسم خاص .

والعجب ان القائل استدل على ما يهدف اليه من الاشكال من عدم تطرق التحول والتبدل في سنن الله بقوله سبحانه : هذا صراط على مستقيم . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين. (الحجر - ٤١ - ٤٢) مع ان الاية تهدف الى أمر آخر ، ويفسره قوله سبحانه : «وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله » (الانعام ١٥٣) .

وكلتا الايتين تهدفان الى أن طريقه سبحانه صراط مستقيم لاتجد فيه عوجا ولاامتا وهذا بخلاف ما يدعو اليه الشيطان فان فيه كل الاعوجاج .

* * *

الاشكال الثانى :

ان تشريع الشفاعة يجرا لى التمادي في العصيان والتعدي والاستمرار في العدوان ، وان المجرم حسب اعتقاده بالشفاعة سيستمر على عدوانه رجاء غفران ذنوبه بالشفاعة[1]:

---

١ - وفى كلام الكاتب فريد وجدى اشارة الى هذا الاشكال لاحظ ج٥ ص٤٠٢ مادة شفع من دائرة معارفه وقال الطنطاوى : ان الشفاعة بالمعنى الذى يفهمه العامة تقود الامة الى الانتكاس على ام الرأس ، ويبقى الدين من اسباب التاخر لاالرقى لاحظ ج١ ص٦٩ من تفسيره وما ذكره ليس الا خلطا بين الشفاعة السائدة فى المجتمع المادى فى الدنيا عند الرؤساء والمتنفذين فيهم، والشفاعة التى جاء بها القرآن الكريم وسيوافيك الفروق الموجودة بين الشفاعتين .

الجواب :

ان هذا الاشكال ينبع من قياس الشفاعة التي وردت في الكتاب والسنة ، بالشفاعة الرائجة في أوساط الناس ، ولو كان المستشكل واقفا على الفرق الجوهري بينهما لما عد الشفاعة عاملا للجرئة . وذريعة للعصيان . وذلك لانه مردود نقضا وحلا اما الاول فمن وجوه :

١ ـ لو كان تشريع الشفاعة عاملا للجرأة لكان الوعد بالمغفرة عاملا للجرأة أيضا مع أنه سبحانه وعد بها في قوله : «ان الله لايغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» النساء ـ ٤٨ ـ ١١٦) .

لاحظ قوله سبحانه : «وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب » (الرعد ـ ٦) فان لفظ « على ظلمهم » جملة حالية تبين شمول المغفرة للناس في حال كونهم معتدين ومجرمين فلو كان الوعد بالشفاعة عاملا للجرأة لكان الوعد بالمغفرة في هذه الايات عاملا لها أيضاً .

٢ ـ انه سبحانه قد وعد بان الاجتناب عن الكبائر يوجب التكفير عن بعض السيئات ، قال سبحانه . ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (النساء ـ ٣١) فهل يجد المستشكل في نفسه ان هذا التشريع يوجب جرأة العباد على ارتكاب بعض السيئات رجاء غفرانها بالاجتناب من الكبائر ؟

٣ ـ لو كان تشريع الشفاعة مستلزما لما تخيله القائل لكان تشريع التوبة من عوامل الجرأة والاسباب التي تجر العباد الى العصيان والعدوان ، قال سبحانه «يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا» (التحريم ـ ٨) .

هذا وذاك يكشفان عن ان المستشكل لم يقف على مغزي الشفاعة وماتهدف اليه الايات والروايات والالماعد الشفاعة الباعثة للامل في النفوس ، موجبا

للجرئة وسبباللتمادي في العصيان وقداشرنا ـ فيماسبق ـ الى بعض الآثار التربوية البناءة الموجودة في الشفاعة .

هذاكله نقضاً واما حلا فا الاشكال تيغذي من الشفاعة المتصورة في بعض الاذهان وهو ان للانسان ان يفعل ما يريد تعويلا على الشفاعة واغتراراً بها .

واما الشفاعة المحدودة الشاملة لبعض العباد التى لم تنقطع علاقاتهم ـ بالله سبحانه، وباوليائه فلاتبعث الى الجرأة، بل تبعث املا في نفس العاصى ويدفعه الى أن يرجع عن التمادي في المعصية ، ويصلح حاله فيما يأتي من الزمان ، كما اوضحناه فيما سبق ، فلا نعيد . ولكن تأتى هنا ببيان آخر ،وهو ان الشفاعة الموعود بها لو كانت امراً منجزاً ، مطلقاً ،واضحاً من حيث الجرم ،والمجرم متعينا من حيث الوقت ونوع العقوبة ،لكان لما تخيله المستشكل وجه ،ولكن الشفاعة الموعود بها لاجل عدم تنجزها ، واشتراطهابشروط وابهامها من حيث الجرم والمجرم ، وعدم تعينها من حيث الوقت ونوع العقوبة، فلا يستلزم ذلك واليك توضيح ذلك :

ان الشفاعة التي نطق بها القرآن ووعد بها ليس امراً منجزاً ومطلقا من كل قيد وشرط فان الشفاعة مقيدة باذنه سبحانه وكون المشفوع له مرضياعنده، قال سبحانه من ذا الذي يشفع عنده الاباذنه» (البقرة ـ ٢٥٥) وقال سبحانه ، «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» الانبياء (٢٨) وليس من الممكن ان يتيقن المجرم بانه ممن يشمله اذنه وسبحانه وارتضاؤه . اذ ليس في وسع احد ان يدعى انه من العباد الذين تشملهم المغفرة الالهية يوم القيامة بالاذن في الشفاعة في حقهم وكونه من العباد المرضيين كيف وقد قال سبحانه «فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون» (الاعراف ـ ٩٩) .

هذا من وجه، ومن وجه آخر: ان الشفاعة مبهمة من حيث الجرم والمجرم،

اذ لم يرد اى توضيح في موردها وانها تشمل اي جرم من الاعمال الاجرامية واي مجرم من انواع المجرمين فهي مبهمةمن تلك الناحية، وهذاالابهام يصد العاصي عن ان يعتمد على الشفاعة المحتملة في حقه ، بل ربما تدعوه الى التحفظ عن اقتراف بعض المعاصي لئلا يحرم من الشفاعة .

هذا وكما ان الشفاعة مبهمة من تلك الناحية فهي أيضاً مبهمة من ناحية الوقتوانواع العقوبات، فانالايات ناطقة بانيومامن ايام القيامة يمتد امتدادالف سنة أو اكثر ، قال سبحانه «وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» (الحج - ٤٧) وقال سبحانه:«تعرج الملائكةوالروح اليهفي يوم كان مقداره خمسين الف سنة» (المعارج- ٤) وعلى ذلك فللعصاة والطغاة بل العباد كلهم مواقف مختلفة يوم القيامة ، وهي مواقف رهيبة ومخيفة ذات اوضاع تهز القلوب ، ومن المعلوم انه لم يعين وقت الشفاعة ، وانه في اى وقت تتحقق في حق المجرم افبعد هذه الابهامات الثلاثة يبقى مجال لان يعول المجرم على الشفاعةاويتمادي في المعصية .

ان غاية مافي الشفاعة انها بصيص من الرجاء ونافذة من الامل فتحه القرآن في وجه العصاة حتى لاييأسوا من روح الله ، ورحمته ، وان لايغلبهم الشعور بالحرمان من عفوه فيتما دوا في العصيان .

* * *

الاشكال الثالث :

الشفاعة المعروفة عند الناس هي ان يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل اوترك كان اراد غيره ـ حكم به ام لا ـ فلاتتحقق الشفاعة الابترك الارادة وفسخها لاجل الشفيع فاما الحاكم العادل فانه لايقبل الشفاعة الا اذا تغير علمه بما كان

أراده أوحكم به، كأن كان أخطا ثم عرف الصواب ورأى ان المصلحة أوالعدل في خلاف ما كان يريده أو حكم به ، واما الحاكم المستبد الظالم فانه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء وهو عالم بانه ظالم وان العدل في خلافه ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب عنده على العدالة ، وكل من النوعين محال على الله تعالى لان ارادته تعالى على حسب علمه وعلمه ازلي لايتغير .[1]

وحاصل الاشكال ان قبول الشفاعة يستلزم احد امور ثلاثة :

١- اما ان يكون الحاكم في حكمه الاول جائراً عالماً بذلك .

٢- ان يكون الحاكم في حكمه الاول جائراً غير عالم به .

٣- ان يكون الحاكم في حكمه الاول عادلا لكنه يعدل عن هذا الحكم على خلاف المصلحة ونزولا عند رغبة الشفيع .

اما الاول فيستلزم ان يكون الحاكم جائراً غير عادل .

اما الثاني فهو يستلزم ان يكون الحاكم جاهلا بحقيقة حكمه .

اما الثالث فيستلزم ان يكون الحاكم ناقضا للحكم المبني على العدل لاجل شفاعة الشفيع - والكل ممتنع في حقه سبحانه .

الجواب :

لو ان الاستاذ قد أمعن في حقيقة الشفاعة التي نطق بها القرآن الكريم وفسرتها الاحاديث الاسلامية، لماجعل أمر قبول الشفاعة مردداً بين أحد امور ثلاثة ممتنعة في حقه سبحانه ، فان الشفاعة لاترتبط بأحد هذه الامور ، بل هي من واد آخر نشير اليه بتقديم مقدمة وهي :

ان الحكم يتبع موضوعه، فكل موضوع له حكم خاص فمادام الموضوع باقياً على وضعه الاول لاينفك عنه الحكم فاذا تبدل الى موضوع آخر يتبدل

(١) المنار ج ١ ص ٣٠٧

حكمه الى حكم آخر ، أو يصير ذا حكم جديد غير ماحكم به على الموضوع الاول ، مثلا المائع مادام كونه خمراً فهو رجس يجب الاجتناب عنه ، فاذا تبدل الى الخل يتبدل حكمه، اثر تبدل موضوعه ، فيكون محكوماً بالطهارة، ولايعد الحكم الثاني ناقضاً للحكم الاول ، ولايوجب اختلاف الحكم اختلافاً وتبدلا فى علم الحاكم بل للحاكم من أول الامر علمان ، وحكمان، كل مرتبط بموضوعه ، فقد كان الحاكم عـالماً وحاكماً بأن الخمر نجس حـرام ، وان الخل طاهر حلال ، وماحصل من التغيير فانما هو تغيير في المعلوم والموضوع لافى العلم .

ونظير ذلـك العاصي والتائب فان العصيان حالة نفسية في الانسان فلـه حكمه الخاص من العقاب لاجل طغيانه وعدوانه ، كما ان التوبة حالة نفسانية مغايرة للحالة الاولى فلها حكمها الخاص ، فالانسان العاصي محكوم بحكم كما ان الانسان التائب محكوم بحكم آخر ، والاختلاف في الحكم لاجل الاختلاف في الموضوع ، والتبدل في ناحية المعلوم دون العلم والا فالحاكم العادل قد علم وحكم من الازل بحكمين مختلفين على موضوعين متفاوتين ، قال عزمن قائل: «فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تـابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » (التوبة ـ ٥) فقد حكم على الانسان المشرك بـالقتل وعلى الانسان الذي تاب من شركه بالتخلية لسبيلـه واطلاق سراحه وعدم التعرض له ، ولايعد الثاني ناقضاً للحكم الاول .

والمثال لاينحصر بما ذكرناه بل هناك مئات الامثلة وآلاف الشواهد من هذا القبيل ، ولايعد أي عاقل ، الحكم الثاني ، ناقضاً للحكم الاول .

ولنأت بمثال ثالث تتميماً للوضوح : لاشك ان لله سبحانه أوامر جدية ،

واخرى امتحانية ولكل غايته وهدفه الخاص ، والهدف في الاوامر الجدية هو احراز المكلف ما يترتب على الموضوع من المصالح كاقامة الصلاة لاجل كونه ناهياً عن الفحشاء والمنكر،لقوله: «ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت ـ ٤٥) وأما الاوامر الامتحانية فليس الهدف منها الا جعل العبدفي بوتقة الامتحان حتى يتفتح كل مايملك من الكمال بصورة القوة والاستعداد ويدخل الى مرحلة الفعلية ، التي هي الكمال لما هو أمر بالقوة . وهذا كجعل تراب الحديد حديداً خالصاً من خلال التذويب في المصانع الخاصة فتكون المصائب والمتاعب التي يمر بها العبد في طريق امتثاله للاوامر الامتحانية بمثابة الحرارة المتوجهة الى التراب المعدني في ابراز كمالاته ، واخراج جوهرته .

فابراهيم الخليل كان يملك كمالا بالقوة وهو ترك ماسوى الله في طريق أمره سبحانه ، ولكن هذا الكمال كان مكنوناً في ذاته ، مركوزاً في وجوده فأراد الله سبحانه اظهار ذلك الكمال وابرازه من مكمن وجوده الى ساحة الفعلية والتحقق ، فأمره سبحانه بذبح الولد وهوقد أخذ بيد ولده وصار به الى المذبح ، فأراد ذبحه امتثالا لامره سبحانه فأظهر بذلك انه يؤثر طاعته سبحانه على كل مايملك من العواطف القلبية لولده العزيز، فعند ذاك تفتح ذاك الكمال وصار الى مرحلة الظهور ، وتحققت الغاية من أمره تعالى ، وجاء أمره سبحانه مخاطبا اياه « قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » (الصافات ١٠٥ ـ ١٠٧) .

فهناك حكمان على موضوعين مختلفين فالخليل المالك للكمال بالقوة مخاطب بذبح الولد ، والخليل الواصل الى هذه الذروة من الكمال، مخاطب بحكم آخروهو التفدية عنه بذبح عظيم، ولايعد كل ناقضاً للاخر بل الاختلاف في الحكم أثر الاختلاف في الموضوع .

وعلى هذا الأساس تبين ان اختلاف الحكم بالشفاعة في مورد العاصى من قبيل اختلاف الحكم حسب اختلاف الموضوع .

وتوضيح ذلك: ان العاصى بما هو عاص اي مجرداً عن انضمام الشفاعة اليه، محكوم بالعقاب، ولكنه منضمة اليه الشفاعة، محكوم بحكم آخر . واختلاف الحكمين اثر اختلاف الموضوعين بالاطلاق والتقييد .

وان شئت قلت : ان العاصى مجرداً عما يمر عليه في البرزخ من العذاب وما يستتبع ذلك العذاب من الصفاء في روحه ، ومجرداً عن دعاء الشفيع في حقه، محكوم بالحكم الاول، ولكنه منضما الى هذه الضمائم الثلاث محكوم بالمغفرة ، فاذا اردت ان تمثل لتبيين حقيقة الشفاعة فعليك ان تقول : ان نسبة الحكم الثانى الى الحكم الاول ليس كنسبة الحكم الصادر عن محكمة الاستئناف بالنسبة الى حكم المحكمة الابتدائية الذي يعد الثانى ناقضا للحكم الاول بل هو من قبيل الحكم الصادر في حق المجرم اذا جلب رضا المشتكى بالنسبة الى الحكم الصادر في حقه قبل جلب رضاه ، فالاختلاف والتفاوت في الحكم لاجل الاختلاف في الموضوع .

وعلى ذلك فلابد ان يقال ان الشفاعة لايوجب اختلافا في علمه وتغييراً في ارادته، كما لايوجب ان يكون احد الحكمين مطابقاً للعدل والاخر مطابقا للجور بل الحكمان صادران عن مصدر العدل على وفقه .

* * *

الاشكال الرابع :

ما اشار اليه الشيخ محمد عبده ايضا حسب مانقله عنه تلميذه السيد محمد رشيد رضا : ليس في القرآن نص قطعى على وقوع الشفاعة، ولكن ورد الحديث

باثباتها [١].

هذا ويمكن تقرير الاشكال بوجه آخر فنقول : لقدنفيت الشفاعة في بعض الايات على وجه الاطلاق قال سبحانه : « انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة » (البقرة ـ ٢٥٤) كما نفى في بعض الايات نفع شفاعة الشافعين كقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين، (المدثر ـ ٤٨) وقدعلقت في بعض الايات على اذنه سبحانه وارتضائه قال سبحانه : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (البقرة ٢٥٥) وقال سبحانه : « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » (الانبياء ـ ٢٨) غير ان الاستثناء لايدل على وقوع المستثنى اذ له نظائر في القرآن الكريم . قال سبحانه : « سنقرئك فلاتنسى الاماشاء الله» (الاعلى ـ ٧٦) اذمن المحقق ان النبي لاينسى القرآن ، ولم ينسه . ومثله قوله سبحانه : « واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والارض الاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » . (هود ـ ١٠٨)

ومن المعلوم ان الاستثناء الواردفي الاية الاخيرة غير محققة ابداً فانهم مخلدون فيها . نعم يدل الاستثناء على الامكان ، اى امكان اخراجهم من الجنة ، معلنا بان دخولهم الجنة لايلازم نفي القدرة الالهية على امكان اخراجهم منها ، وانه ليس الامرخارجا عن قدرته ، فله ان يخرجهم منهاكما له ان يبقيهم فيها ، فلامانع من ان تكون الايات الواردة في الشفاعة ، خصوصاً ما اشتمل منها على الاستثناء من هذا القبيل ، معلنا بامكان الشفاعة لاوقوعها .

الجواب :

قد اشبعنا البحث حول الايات الواردة في الشفاعة فيما مضى ، وبينا

(١) المنار ج ٧ ص ٢٧٠ .

أصنافها ،و قلنا ان الايات النافية للشفاعة من الاساس، راجعة الى اي قسم منها فلاجل ذلك لانعيد الكـلام فيها . وانما المهم توضيح ما ورد من الاستثناء في الايات المتقدمة فنقـول :

ان البحث عن امكان الشفاعة وامتناعها يشبه الابحاث الفلسفية الدارجة فيها ولايناسب حمل الايات عليها، والتقول بان الايات ناظرة الى امكانها لاوقوعها اشبه شيء بالابحاث الجدلية .

ان البحث عن الامكان والامتناع يناسب المسائل الفلسفية البحتة،والكلامية الخالصة كما في البحث عن امكان تعدد الواجب وامتناعه وماشابه تلك المسأله، فنرى انه سبحانه يبحث عن الامكان والوقوع في قوله : « لـوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (الانبياء ـ ٢٢) وقال سبحانه « وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلابعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (المؤمنون ـ ٩١)

واما المسائل التربويـة او الاجتماعية التى تدور مدار التربية و التوعية الاجتماعية والفردية فالبحث عن الامكان والوقوع فيها ساقط وغير مناسب للاهداف القرآنيه ولايتوجه النظر الا الى قسم واحد، وهو وقوع ما وعد به سبحانه في كتابه من الاستثناء كما في نظائره : « وماكان لنفس ان تموت الاباذن الله كتابا مؤجلا » (آل عمران ـ ١٤٥) وقال سبحانه : « وماكان لنفس ان تؤمن الاباذن الله » (يونس ـ ١٠٠) وما شابه هاتين الايتين .

وعلى ذلك فلا يتبادر من تلك الايات الا وقوع الاذن والارتضاء من الله سبحانـه والحمل علـى الامكان فيما ورد فـي قـوله : « سنقرؤك فلا تنسى الا ماشاء الله » لاجل قرينة خاصة وهى الدلائل المتضافرة على عصمة النبى ، وهذه القرينة تصدنا عن حمل الاية على وقوع الاستثناء وتحققه .

ومثل تلك القرينة موجودة في الاية الاخرى الدالة على خلود المؤمنين في

الجنة اعني قوله: «مادامت السماوات والارض الاماشاء ربك» فان الحمل على الامكان اي امكان عدم الخلود لاجل قرينة قطعية دلت على تحقق الخلود، لاهل النعيم في الاخرة، وهذا العلم يصدنا عن حمل الاستثناء على وقوعه.

هذا كله مع غض النظر عما في نفس الايات من القرائن الدالة على وقوع الاستثناء، واليك تلك القرائن.

الاولى: قال سبحانه: «ولايشفعون الالمن ارتضى» (الانبياء - ٢٨) فان التعبير عن رضاه بالفعل الماضي يدل على تحقق ذلك الرضا، في حق المشفوع له، ورضاه سبحانه لاينفك عن اذنه للشفعاء لان اعلان الرضا بالنسبة الى المشفوع له بلا صدور اذن منه سبحانه للشفيع يعد امراً لغواً، وحمل قوله «الا لمن ارتضى» على وجود الرضا منه سبحانه دون ابلاغه للشفعاء اشبه شيء بالهزل.

الثانية: انه سبحانه يخبر بخبر قطعي عن شفاعة من شهد بالحق ممن كانوا تسبغ عليهم صفة الالوهية كالمسيح والملائكة، قال سبحانه «ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون» (الزخرف - ٨٦) والاستثناء يدل على تملك من شهد بالحق لامر الشفاعة باذن منه سبحانه وتملكه هذا يكشف عن تحقق المراتب المتقدمة عليه من اذنه سبحانه له وارتضائه لمن يستحقها.

اللهم ان يدعي المعترض في ذلك الاستثناء ماادعاه في الايات المشتملة على الاذن والارتضاء في آيات الشفاعة ويحمل مالكية من شهد بالحق للشفاعة على الامكان دون الوقوع، وهو كماترى.

ونظير الاية السابقة قوله سبحانه، «لايملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً، (مريم - ٨٧) والاستثناء ظاهر في تملك من اتخذ عند الرحمان عهداً امر الشفاعة، وتمليكه سبحانه اياها لهم لاينفك عن اذنه وارتضائه.

وان شئت قلت : ان تمليك الشفاعة من جانب الله لفريق خاص دال بالملازمة العرفية على ان هذا التمليك لاجل الاستفادة منه وتنفيذه في مواضع خاصة وحمله على مجرد التمليك من دون أن يقترن بالاذن أبداً تفسير للاية بغير الوجه المعقول، اذ أية فائدة لهذا التمليك الذي لايتلوه الاذن أبداً ، فان هذا أشبه شيء بتمليك الشيء للانسان والمنع عن الاستفادة منه بوجه من الوجوه .

وما ربما يقال من انه سبحانه علّق الشفاعة في بعض الايات على أمر محال، وهو اتخاذ العهد عند الرحمان، قال سبحانه : « لايملكون الشفاعة الاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً » (مريم - ٨٧) مع ان بعض الايات دالة على انه لم يتخذ أحد عند الله عهداً قال سبحانه: « قل أتخذتم عند الله عهداً»؟ (البقرة ٨٠) وقال: «اطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً» (مريم- ٧٨) .

ولكن الاعتراض هذا ساقط جداً ، لان سياق تلك الايات كاشف عن ان الهدف هو نفي اتخاذ العهد في حق جماعة خاصة .

أما الاية الاولى فلانها وردت لنفي دعوى اليهود الوارد في قولهم « وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة فردّ عليهم سبحانه بقوله : « قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده » .

وأما الاية الثانية فلانها واردة أيضاً في مورد خاص، وهو الذي يحكى عنه سبحانه بقوله : « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولداً » فردّ عليه سبحانه بقوله: « اطّلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهداً» .

ومع هذا السياق البارز في الايتين هل يصح أن يقال انه لا عهد بين الله سبحانه وبين أحد من عباده مطلقاً مع انه يصرّح بوجود مثل هذا العهد اذ يقول : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين » (البقرة -

١٢٥)، وقال سبحانه: «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً» (طه - ١١٥) الى غيرذلك من الايات .

* * *

الاشكال الخامس

ماورد في اثبات الشفاعة من الايات المتشابهات ، وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم ، وانها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة ، عبر عنها بهذا المعنى « الشفاعة » ولانحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعنى المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي [1] .

الجواب

ان القرآن كتاب سماوي أنزل لغرض التعليم والتربية، والهداية والتزكية وقد نبه على ذلك سبحانه في آيات كثيرة لا مجال لايرادها هنا، قال سبحانه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (القمر - ١٧) فلوجعلنا الايات الواردة حول الشفاعة التي تقارب ثلاثين آية من المتشابهات يلزم أن تعد أكثر الايات الواردة في الكتاب العزيز من الايات المتشابهة ولازم ذلك جعل الكتاب العزيز غير مفهوم للناس الذين انزل ذلك الكتاب لهدايتهم وتربيتهم .

وكون الاية محتاجة الى التفسير لايكون دليلا على كونها من الايات المتشابهة فان كثيراً من الايات لابتعادنا عن عصر نزولها تحتاج الى التفسير وكم من آية وآيات كتبت حولها رسالة أو رسائل، ومع ذلك لم تعد واحدة منها من الايات المتشابهة .

---

(١) المنار ج١ص٣٠٧ - ٣٠٨ .

ان المراد من الايات المتشابهة ما أحاط بها الابهام حول المراد منها فاشتبه المقصود الواقعي بغيره وهذا الميزان لا ينطبق الا على قليل من الايات .

ثم ان كون الاية من الايات المتشابهة لايستلزم ترك البحث فيها وعدم الاستفادة منها ، بل الايات المتشابهة تفسر بالايات المحكمة بحكم أنها أم الكتاب واصل للمتشابهات، قال سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات » (آل‌عمران ـ ٧) فان قوله سبحانه في شأن الايات المحكمة بأنها أم الكتاب يعرب عن كونها هي الاصل وان المتشابه هو الفرع، ويرد المتشابه الى المحكم كرد الفرع الى الاصل .

وقد عرفت في صدر البحث مجموع الايات الواردة حول الشفاعة وانه ليست هناك آية أحاط بها الابهام وامتنعت على الفهم ، وعلى فرض وجودها لم‌توجد آية لايمكن رفع ابهامها باختها ، أو بالاحاديث الواردة حولها [1] .

وأغلب الظن ان الباعث على وصف هذه‌الايات الواضحة الدلالة والمراد

---

(١) ماذكره « من ان مذهب السلف فى المتشابهات يقضى بالتفويض والتسليم » مبنى على مااختاره فى تفسير الايات المتشابهة من انها عبارة عن المفاهيم الواردة فى القرآن، التى لايمكن أن يقف على حقيقتها الا الله سبحانه كحقيقة ذاته وصفاته وأفعاله من الجنة ونعيمها والجحيم ونارها الى غيرذلك .

غير ان تفسير الايات المتشابهة بهذا المعنى مردود أساساً وقدأوضحنا الكلام فى‌حقيقة‌الايات‌المتشابهة‌فى‌محلها وقلنا انها‌ليست‌الا عبارة عن الايات‌التى يشتبه‌فيها‌المراد بغير المراد والحق بالباطل ويزاح الستر عن وجه الحق ، بالايات المحكمة ولاجل‌ذلك يصف القرآن الكريم ، الايات المحكمة بأنها « أم‌الكتاب » واسه .

بكونها من المتشابه هو تأثر الاستاذ صاحب المنار وتلميذه بالموجة الوهابية فهو الامر الذي دفعهما الى حمل هذه الايات محمل المتشابه، والاعراض عن الاخذ بمدلولاتها الظاهرة الصريحة .

ولعل جعل صاحب المنار آيات الشفاعة من الايات المتشابهة ورميها بهذا الوصف لاجل الاشكال الذي سوف نذكره، وهو تخيل ان الشفاعة التي جاء بها القرآن نوع من الوساطة المتعارفة في الحياة المادية بين الناس ، وسنطرح هذا الاشكال ودفعه من الاساس .

* * *

الاشكال السادس :

ربما يتخيل بأن الشفاعة نوع من الوساطة المتعارفة بين الناس ، ويجب تنزيه المقام الالهي من هذا النوع من الوساطة ، وتوضيحه: ان الخارج على القانون في الحياة الاجتماعية اذا حكم عليه بضرب من العقوبة المالية اوالبدنية يبعث من له مكانة عند الحاكم حتى يقوم بالوساطة عنده ويبعثه على العفو والاغماض عن معاقبته فتصبح النتيجة ان يجرى القانون على من يفقد مثل هذه الواسطة ولايجرى على من يجدها ، وهذا من الظلم الفظيع السائد في الانظمة البشرية، ويجب تنزيه الشريعة الاسلامية المقدسة عن قبول هذا النوع من الوساطة .

الجواب :

ان الاساس لهذا الاشكال هو قياس الشفاعة الواردة في الكتاب العزيز على الشفاعة الدارجة في الحياة الاجتماعية للبشر .

ولوكان معنى الشفاعة هذا فقد رفضه القرآن أشد الرفض اذ هذا النوع من الشفاعة كان من معتقدات عرب الجاهلية حيث كانوا يعبدون الاصنام لهذه الغايـة ، قال سبحانه واصفاً لحالهم : « ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (يونس - ١٨) فالعرب الجاهلي كان يتخيل ان مكانة الالهة الباطلة تكون سبباً لصرف ارادته سبحانه عن معاقبة المجرمين والعصاة، أوتكون سبباً لجلب عنايته بهم، فردّ الله سبحانه على تلك المزعمة بقوله: « قل اتنبئون الله بمالايعلم في السموات ولافي الارض، سبحانه وتعالى عمايشركون » (يونس -- ١٨)

وقال في آية اخرى واصفاً حالهم أيضاً: «والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (الزمر - ٣) ثم رد عليهم بقوله: « ان الله يحكم بينهـم فيما هم فيه يختلفـون ان الله لايهدي من هو كاذب كفار » (الزمر - ٣)

وعلـى ذلك فالشفاعة بهذا المعنى وهو غلبـة ارادة الشفيع علـى ارادة المشفوع عنده، بصرف ارادته عن عقوبتهم أو جلب ارادتـه لرفع منزلتهـم مرفوضـةفي منطق القرآن فانه سبحانه هوالحق المطلق لايؤثر فيه شيء ولايتأثر عن شيء ولايجعل القانون لعبة الشفيع حتى يجري في حق بعض دون بعض وانما الشفاعة التـي دعا اليها القرآن شيء آخـر وهو ايصال الفيض الالهـي اعني المغفرة والعفو الى عباده المستحقين عن طريق أوليائه وأصفيائه، وذلك لان مشيئته الحكيمة جرت على ايجاد المسبّبات عن طريق أسبابها، واحداث الاشياء عن طرقها ، فكما ان لكل ظـاهرة مادية سبباً مادياً توجد بهذا السبب وتصل الى الناس عن هذا الطريق فهكذا الفيوض الالهيـة تصل الى عباد الله عن الطرق الخاصة المعينة ، وهذا كهداية الناس عن طريق الانبياء والرسل ،

فالهادي هو الله سبحانه لكن عن طريق أنبيائه ورسله» وقضت مشيئته الحكيمة بهذا قال سبحانه: «كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» (البقرة - ٢١٣) ترى انه سبحانه يجري فعله أي الحكم بالحق عن طريق بعث النبيين كيف والقرآن المجيد يصدق هذا النظام السائد في الامور المعنوية والمادية قال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » (المائدة - ٣٥)

فان المراد من الوسيلة ما يتوسل به الى الشيء والاية تدعو الى الاتيان بالقربات والقيام بالوظائف التي يتوسل بها الانسان الى مرضاته ورضوانه .

واذا كانت هذه الاية تدعو الى ابتغاء الوسيلة بشكل عام من دون ان تعين شخص الوسيلة، فقد قامت الايات الاخر بتعيين شخص الوسائل التي تتحصل معها مغفرته ورضوانه ، ويكتسب بها عفوه وغفرانه قال سبحانه: «وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم» (التوبة -١٠٣) ترى انه سبحانه يأمر نبيه بان يصلي عليهم حتى تنزل عليهم السكينة التي هي فعله سبحانه ولطفه ، فالسكينة تصل اليهم عن طريق سببه وهو دعاء النبي ، وقال سبحانه : «ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما» (النساء-١٤) ترى ان الاية تدعو المجرمين والعصاة الى ابتغاء الوسيلة للوصول الى غفرانه وهو دعاء النبي واستغفاره في حقهم وليست هذه سنة مخصوصة بالأمة الاسلامية بل جرت عليها مشيئته في الامم السابقة حيث نرى أن ابناء يعقوب عندما شعروا بالاثم راحوا يطلبون من أبيهم استغفاره في حقهم فلما سمع هود عوتهم، وعدهم بالانجاز قال سبحانه : «قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا، انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم» (يوسف- ٩٧، ٩٨) .

وهذه الايات ونظائرها ترشد الباحث على ان للامور المعنوية وتحققها نظاما على غرار النظام السائد في الامور المادية .ولاجل ذلك لايصح للقارىء الكريم ان يتعجب عن وصول فيضه ومغفرته سبحانه يوم القيامة الى عباده المستحقين لها عن طريق الشفعاء ، واوليائه المخلصين .

اضف الى ذلك ان في استجابة دعوة الاولياء (الذين لايدعون ولايطلبون شيئا مخالفا للعدالة الالهية، ومشيئته الحكيمة) نوع تكريم وتبجيل لهم ولمقامهم، ونوع اشادة بهم ، واظهار لفضلهم .

نعم هؤلاء الكرام البررة لايطلبون فيضه وغفرانه الا لمن استحقها، وهو من لم يقطع صلته الايمانية بالله وعلاقته الروحية مع اوليائه، وشفعائه. واذا اردت ان تقف على الفرق الكبير والواضح بين الشفاعتين (الشفاعة السائدة في الجماعات المادية والشفاعة القرآنية) فاستمع لما نتلوه عليك من الفروق الموجودة في الشفاعتين :

الفروق الموجودة فى الشفاعتين

اولا: ان زمام الشفاعة التي نطق بها القرآن بيد الله سبحانه ، فهو الذي يبعث الشفيع ـ لمافيه من الكمال والمعنوية ـ حتى يشفع في حق المجرم الذي له صلاحية المغفرة ، فتصبح النتيجة ان رحمته الواسعة ومغفرته العميمة تصل من طريق الشفيع الى عباده، فعلى ذلك فالامور كلها بيده ، وناشئة منه ،وراجعة اليه ،وهذا على خلاف النظام السائد في الوساطات المادية المتعارفة اذ المجرم فيها هو الذي يبعث الشفيع ليشفع عند الحاكم بحيث لولاه لما تقدم الشفيع بالشفاعة والوساطة عند الحاكم ،فالامر هنا يبدأ من المجرم ويصل الى الشفيع وينتهى الى الحاكم على عكس النظام السائد في الشفاعة الاخروية .

فلو ان القرآن يحث المسلمين على الحضور عند النبي ومطالبته بان يستغفر لهم فليس ذلك الا بامر منه سبحانه وحث منه على هذا الطلب. فلولا امره وحثه سبحانه لما قمنا بذلك ،ولو انا قمنا به لما كان له اثر بلا امر منه سبحانه .وعلى ذلك فلا يصح لقائل ان يستدل بالاية على ان الشفاعة القرآنية على غرار الشفاعة الدنيوية حيث ان المجرم يبعث النبي ،وينتهي الامر الى الله سبحانه ، فان القائل ذهل عن ان كل هذه الامور تتحقق بامره واذنه ، وارشاده وطلبه بحيث لولاه لما كان هناك بعث ، وعلى فرض البعث لما كانت اية فائدة .

* * *

ثانياً: ان الشفيع في الشفاعة الصحيحة يتأثر من المقام الربوبي ويخضع له حيث يأمره المولى الحكيم بالشفاعة والدعاء في حق المجرمين المستحقين له ولكن الامر في الشفاعة الدنيوية على العكس اذ الحاكم يتأثر، هناك بشفاعة الشفيع كما انه نفسه يتأثر من تقدم الشفيع اليه وتكلمه معه .

ثالثاً: ان ماهية الشفاعة الدنيوية وواقعيتها ليست الانوع تفرقة في تطبيق القانون حيث ان نفوذ الشفيع ومكانته عند الحاكم، يوجبان مغلوبية ارادته وغالبية ارادة الشفيع ، فتصبح النتيجة ان يجري القانون في حق الضعيف الذي لا يجد شفيعاً دون القوي الذي يجد شفيعاً وهذا بخلاف الشفاعة الصحيحة فانها لا يحمل ارادته على مشيئة الله ولا تخضع سنته الحكيمة لارادة احد وطلبه ، ولا يوجب التفرقة في التطبيق بل غاية الشفاعة هو جريان مغفرته وفيضه عن طريق اوليائه الى عباده فلو حرم البعض من الشفاعة فليس ذلك لاجل نفاد رحمته بل لاجل عدم لياقته لها فلو أن الله سبحانه يقول في حق المشرك «ان الله لا يغفران يشرك به» (النساء -٤٨و١١٦) فليس ذلك الا لان قلب المشرك كالوعاء المسدود لا يتسرب اليه شيء حتى لو غمس في سبعة ابحر لما تسرب اليه الماء ، او هو كارض مالحة،

التي لاينبت فيها شيء ولوان القرآن يصر على ان الشفاعة لاتتحقق الا باذنه سبحانه للشفيع وارتضائه للمشفوع له فليس ذلك الا لاجل ان المرضي هو اللائق دون غيره ، فلو حرم المشرك من شفاعة الانبياء او حرم بعض العصاة منها فليس ذلك الا لعدم لياقتهم لهذا الفيض .

* * *

الاشكال السابع :

ان المراد من الشفاعة هو الشفاعة القيادية وان الانبياء والاولياء يوصلون عباد الله الى الفوز والسعادة عن طريق الوحى وتبليغ الرسالة فاطلاق الشفاعة على هذا الامر لاجل ان انضمامهم الى الوحي الالهى يمهد الطريق الى السعادة والنجاة . وهذا الاشكال مما اثاره المفسر المعاصر الشيخ الطنطاوي في تفسيره وقام بتفسير الشفاعة بذلك . واليك نص كلامه : «وفي الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فهذا يفيد ان الشفاعة تابعة للاقتداء فالانبياء علموا العلماء، والعلماء علموا الناس وافضل الناس بعد الانبياء ، العلماء فالشهداء فمن لم يعمل بما انزل الله وتجافي عن الحق فقد عطل ماوهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربه ولم ينمه بالعمل فيحرم ثمرته مع انه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في قعوده عن استثماره[1] .

الجواب :

نحن في غني عن الاجابة على هذا الاشكال لما رددنا على هذا في الابحاث

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ج١ صفحه ٦٥ وقد مضى بعض عباراته عند نقل كلمات العلماء .

السابقة حيث قد اشبعنا الكلام عند البحث عن التفسيرات الثلاثة للشفاعة، ونظير هذا الاشكال ما ربما تفسر الشفاعة بالعمل بالواجبات والتجنب عن المحرمات فتفسر آيات الشفاعة بهذه الشفاعة العملية .

ونزيد بيانا هنا على ضعف هذا الاشكال انه لو كان المراد هو المغفرة في ضوء الطاعة العملية فلماذا وعدالله سبحانه في الاية التالية بانه لايغفر الشرك ويغفر مادون ذلك ، قال سبحانه «ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» (النساء ـ ٤٨) فلو كان المراد هو المغفرة في ضوء الايمان والعمل لما صح استثناء الشرك في الاية الكريمة لان الشرك يغفر في هذا الاطار أيضاً وبذلك يعلم ان لله سبحانه مغفرة ورحمة خارجة عن اطار العمل وان رحمته الواسعة كما تصل اليهم من طريق العمل بالاحكام ، تصل اليهم عن طريق آخر وهو كون العبد قابلا للمغفرة والرحمة حافظا لعلاقاته مع الله ومع الشفعاء وان كان قاصراً في العمل .

* * *

الاشكال الثامن :

ان الاعتقاد بشفاعة الشفعاء يستلزم ان يكون الشفيع أشد رأفة بالعباد من الله سبحانه لان المفروض انه لو لا دعاء الشفيع وشفاعته لاترفع العقوبة من المجرم والعاصي .

وان شئت قرر هذا الاشكال بوجه آخر: ان الاعتقاد بوصول مغفرته سبحانه عن طريق الشفعاء يستلزم محدودية فيضه ورحمته بحيث يكون دعاء الشفيع وسيلة لتوسعتها وانبساطها .

الجواب :

ان الاشكال بكلا التقريرين ساقط من الاساس فان الاشكال مبني على تفسير الشفاعة بالوساطة المتعارفة في الحياة البشرية ، واما على ما ذكرنا من معنى الشفاعة في القرآن من انه عبارة عن وصول رحمته وغفرانه الى عباده من طريق أوليائه فلا وجه له لما قررنا من الفوارق الثلاثة بين الشفاعة القرآنية والشفاعة بمعنى الوساطة العرفية وقلنا: ان واقع الشفاعة القرآنيه هو انه سبحانه يبعث الشفيع على الدعاء والشفاعة وهو الذي ياذن له ويرتضى من يشاء من عباده وليس للشفيع هنا أي دخالة، افبعد ذلك يصح للقائل ان يقول ان معنى الشفاعة هو كون الشفيع اشد رأفة بالعباد من الله سبحانه .

واما التقرير الثاني فهو غفلة عما جرت عليه مشيئته سبحانه فانه جرت السنة الالهية على ايصال المسببات عن طريق اسبابها ، فقد جعل لكل شيء سببا من دون ان تقوم هو سبحانه بنفسه مكان الاسباب والعلل ، ولوصح ما زعمه المتشكل لزم ان يكون الاعتقاد بتأثير الاسباب الطبيعية في مسبباتها تحديداً لقدرته ورحمته اذ لولاهذه الاسباب، لما وصلت فيوضاته المادية الى الانسان .

* * *

الاشكال التاسع:

ان الاعتقاد بالشفاعة وتأثير دعاء الشفيع وطلبه في رفع العقوبة ، أو في ارتفاع الدرجة، يتناقض مع الاصل الذي اسسه القرآن الكريم حيث جعل مصير كل احد قيد عمله ورهن سعيه ، قال سبحانه : «وان ليس للانسان الاماسعى» (النجم ـ ٣٩) وقال سبحانه «هل تجزون الا بما كنتم تكسبون» (يونس ـ ٥٢) وقال تعالى أيضاً : «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من

سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (آل عمران ـ ٣٠) فهذه الآيات تجعل الجزاء قيد العمل والسعي وانه هو نتيجة ذلك فكيف يجتمع هذا مع الشفاعة التي ليست لها واقعية كواقعية السعي والعمل بل، هو موجب لفوز الانسان ونجاته بسبب دعاء الغير ، ووجاهته ومكانته من دون سعي صادر من المشفوع له .

الجواب :

ان الجواب على هذا الاشكال يكون بوجهين :

الاول : بالنقض فان القرآن يصرح بان دعاء الغير سبب لمغفرة الذنوب. قال سبحانه في حق حملة العرش «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم» «غافر ـ ٧» وقال سبحانه «ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان» (الحشر ـ ١٠) فلو كان ما ذكره المستشكل صحيحا فكيف يكون دعاء حملة العرش موجبا للمغفرة، ومثله الاية الثانية فبملاحظة هاتين الآيتين وما ورد من الحث والتاكيد على دعاء المؤمن في الفرائض والنوافل ، وفي الجلوات والخلوات ، يتضح ان لايات السعي مفاداً غير ما استنبطه المستدل منها، وسوف يوافيك هذا المعنى في الجواب التالي .

الثاني: بالحل فان الشفاعة في الحقيقة فرع للسعي الذي قام به المشفوع له وتعد من آثاره وتوابعه اذ لو لاعمله وسعيه وجده واجتهاده في الايمان بالله سبحانه واقامة الفرائض والاجتناب عن المحرمات في الجملة ، لما نالته شفاعة الاولياء ، فالسعي الذي قام به طيلة حياته على وجه حفظ به علاقاته مع الله سبحانه ومع اوليائه، هو المصحح للشفاعة والموجب لمغفرته بدعاء الشفيع .

ولاجل ذلك حثت الاحاديث على تحديد شفاعة الاولياء وانه لاتنال عدة من العصاة كتارك الصلاة وعاق الوالدين وغير ذلك .

الاشكال العاشر :

ان طلب الشفاعة من الاولياء والانبياء شرك بالله سبحانه ، أو أمر محرم.

الجواب :

قد اشبعنا الكلام في معنى الشفاعة وحدودها وشرائطها وبقي هنا بحث وهو انه هل يجوز طلب الشفاعة من الشفعاء الحقيقيين أولا ، ذهب ابن تيمية وخريج مدرسته محمد بن عبدالوهاب الى انه لايجوز طلبها من غيره سبحانه لان طلبها من غيره عبادة له ، أو لاأقل من انه امر محرم ، واختار جمهرة المسلمين جوازه من غير فرق بين ان يكون الشفيع حيا أوميتا .

وهذا الاشكال وان لم يكن مربوطا باصل الشفاعة لكنه يمت اليها بنحو من الارتباط، فاردنا ان نبحث عنه في عداد الاشكالات فنقول : اتفق المسلمون على اصل الشفاعة وان هناك عباداً مخلصين واصفياء كرام يشفعون يوم القيامة بل يشفعون في هذه الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وهذا مما لاخلاف فيه بين المسلمين ، الا من شذ ونـدر ممن فسر الشفاعة بغير معناها الصحيح ، الا ان الكلام في انه هل يجوز طلب الشفاعة من المأذون له من الانبياء والاولياء بعد الاتفاق على تحريم ذلك الطلب من غير المأذون، أو لايجوز .

قال ابن تيمية ومن لف لفه من انه لايجوز للمؤمن الا ان يقول : اللهم شفع نبينا محمداً فينا يوم القيامة ، أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك او نحو ذلك مما يطلب من الله لامنهم فلا يقال : يا رسول الله أو يا ولي الله اسئلك الشفاعة أو غيرها مما لايقدر عليه الا الله فاذا طلبت ذلك في أيام البرزخ

كان من اقسام الشرك[١].

ولاجل هذا يجب الغور في هذه المسألة حتى يتضح الحق لمبتغيه باجلى مظاهره .

* * *

ما يدل على جواز طلب الشفاعة :

يمكن الاستدلال على جواز هذا الطلب بوجوه كثيرة نشير الى بعضها:

الاول : ان حقيقة الشفاعة ليست الادعاء النبي والولى في حق المذنب، واذا كانت هذه حقيقته في جميع المواقف أو في بعضها فلا مانع من طلبها من الصالحين لان غاية هذا الطلب هو طلب الدعاء فلو قال القائل: «يا وجيها عند الله اشفع لنا عندالله» يكون معناه : ادع لنا عند ربك ، فهل يرتاب في جواز ذلك مسلم ؟

ولست اراك تشك في ان طلب الدعاء هو نفس الاستشفاع ، وان حقيقة ، الشفاعة هي الدعاء ولاجل ذلك نرى ان العلامة نظام الدين النيسابوري ، صاحب التفسير الكبير ينقل في تفسير قوله سبحانه : «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها » (النساء ـ ٨٥) عن مقاتل قوله : الشفاعة الى الله انما هي دعوة المسلم[١].

وقال الامام الرازي في تفسير قوله سبحانه : «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم»

---

١) الهدية السنية ص٤٢ .

١) تفسير النيسابورى ج١ والمطبوع فى ايران غير مر قم .

(غافر ـ ٧) : ان هذه الاية تدل على حصول الشفاعة للمذنبين ، والاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لاتذكر الا في اسقاط العقاب ، اما طلب النفع الزائد فانه لايسمى استغفاراً . وقال : قوله تعالى «ويستغفرون للذين آمنوا» يدل على انهم يستغفرون لكل أهل الايمان ، فاذا دللنا على ان صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة»[١].

وهذه الجمل تفيد ان الامام الرازي جعل قول الملائكة في حق المؤمنين والتائبين من اقسام الشفاعة ، وفسر قوله : «فاغفر للذين تابوا» بالشفاعة وهذا دليل واضح على ان الدعاء في حق المؤمن، شفاعة في حقه ، وطلبه منه طلب الشفاعة منه ، ويوضح ذلك ويؤيده ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي : «ما من ميت يصلى عليه امة من المسلمين يبلغون مأة كلهم يشفعون له الا شفعوا فيه »[٢] .

وفسره الشارح بقوله ﷺ : « يشفعون له » بقوله : أي يدعون له ، كما فسر قوله ﷺ : «الا شفعوا فيه» بقوله : اي قبلت شفاعتهم .

وروي أيضاً عن عبد الله بن عباس انه قال : سمعت رسول الله يقول: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته اربعون رجلا لايشركون بالله شيئاً الا شفعهم الله فيه [٣] أي قبلت شفاعتهم في حق ذلك الميت فيغفر له .

وعلى ذلك فلا وجه لمنع الاستشفاع من الصالحين اذا كان مآله الى طلب الدعاء، ولو كان للشفاعة معنى آخر من التصرف التكويني في قلوب المذنبين، وتصفيتهم في البرزخ ، ومواقف القيامة فهو امر عقلي لايتوجه اليه الا الاوحدي

---

(١) مفاتيح الغيب ج٧ ص٢٨٥ ـ ٢٨٦ طبعة مصرفى ثمانية اجزاء .

(٢) صحيح مسلم ج٣ ص٥٣ طبعة مصر مكتبة محمد على صبيح واولاده .

(٣) نفس المصدر .

من الناس ، فكل من يطلب من النبى الشفاعة لايقصد منه الا المعنى الرائج .

الثانى : ان الاحاديث الاسلامية وسيرة المسلمين تكشفان عن جواز هذا الطلب ، ووجوده في زمن النبي ﷺ فقد روى الترمذي في صحيحه عن انس قوله : سألت النبي ان يشفع لى يوم القيامة ، فقال : انا فاعل ، قال :قلت يا رسول الله فاين اطلبك ، فقال: اطلبني أول ما تطلبنى على الصراط[١].

فان السائل يطلب بصرافة ذهنه ، وسلامة فطرته من النبي الاعظم ، الشفاعة من دون ان يخطر بباله ان في هذا الطلب نوع عبادة للنبي ﷺ كما زعمه الوهابيون .

وهذا سواد بن قارب ، أحد أصحاب النبي ﷺ يقول مخاطباً اياه :

فكن لي شفيعاً يوم لاذوشفاعة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب[٢]

وروى أصحاب السير والتاريخ ، ان رجلا من قبيلة حمير عرف انه سيولد في أرض مكة نبي الاسلام الاعظم ﷺ، ولماخاف أن لايدركه كتب رسالة وسلمها لاحد أقاربه حتى يسلمها الى النبي ﷺ حينما يبعث، ومماجاء في تلك الرسالة قوله: « وان لم ادركك فاشفع لي يوم القيامة ولاتنسني »[٣] ولمّا وصلت الرسالة الى يد النبي ﷺ قال: « مرحباً بتبّع الاخ الصالح» فان توصيف طالب الشفاعة من النبي ﷺ بالاخ الصالح ، أوضح دليل على انه أمر لايصادم اصول التوحيد .

وروي ان اعرابياً قال للنبي ﷺ: جهدت الانفس وجاع العيال ، وهلك

---

١) صحيح الترمذى ج٤ كتاب صفة القيامة الباب٩ ص٦٢١ .

(٢) نقله « زينى دحلان » عن الطبرانى فى الكبير كمافى التوصل الى حقيقة التوسل ص٢٩٨ .

(٣) المناقب لابن شهرآشوب ج١ص١٢ والسيرة الحلبية ج٢ص٨٨ .

المال فادع الله لنا فانا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله، فسبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : « ويحك ان الله لايستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك.[١] وأنت اذا تدبرت في الرواية ترى ان النبي ﷺ أقره على شيء وأنكر عليه شيئاً آخر أقره على قوله: انا نستشفع بك على الله، وأنكر عليه: نستشفع بالله عليك لان الشافع يسأل المشفوع اليه والعبد يسأل ربه ، ويستشفع اليه ، والرب تعالى لايسأل العبد، ولايستشفع به .

وروى المفيد عن ابن عباس ان أمير المؤمنين عليه السلام لما غسل النبي ﷺ وكفنه كشف عن وجهه وقال : « بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً . . . اذكرنا عند ربك »[٢] .

وروى أنه لماتوفي النبى ﷺ أقبل أبوبكر فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبّله وقال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً اذكرنا يامحمد عند ربك ولنكن من بالك . [٣]

وهذا استشفاع من النبي ﷺ في دار الدنيا بعد موته .

ونقل عن شرح المواهب للزرقاني ان الداعي اذا قال: اللهم اني استشفع اليك بنبيك يانبي الرحمة اشفع لي عند ربك، استجيب له [٤] .

وقد روى الجمهور في أدب الزائر انه اذا جاء لزيارة النبي ﷺ يقول: جئناك لقضاء حقك، والاستشفاع بك فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك فاستغفر

---

(١) كشف الارتياب ص٢٦٤ نقلا عن زيارة القبور ص١٠٠ .

(٢) مجالس المفيد: المجلس الثانى عشر ص١٠٣ .

(٣) كشف الارتياب ص٢٦٥ نقلا عن خلاصة الكلام .

(٤) نفس المصدر .

لنا واشفع لنا [١] .

كل هذه النصوص تدل على أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ كان أمراً جائزاً ورائجاً، وذلك لانهم يرونه مثل طلب الدعاء منه ، ولافرق بينها وبينه الا في اللفظ، وقد عرفت صحة اطلاق لفظ الشفاعة على الدعاء والاستشفاع على طلب الدعاء حتى ان صحيح البخاري عقد بابين بهذين العنوانين :

اذا استشفعوا ليستسقى لهم لم يردهم

اذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط

فنرى ان البخاري يطلق لفظ الشفاعة والاستشفاع على الدعاء وطلبه من الامام في العام المجدب من دون أن يخطر بباله ان هذا التعبير غيرصحيح .

وعلى الجملة ان طلب الشفاعة من النبي ﷺ داخل فيماورد من الايات التالية :

« ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (النساء ـ ٦٤)

« قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا اناكنا خاطئين ، قال سوف استغفر لكم ربي » (يوسف ٩٧ ـ ٩٨) وقوله سبحانه « واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» (المنافقون ـ ٥)

فكلما يدل على جواز طلب الدعاء من المؤمن الصالح يمكن الاستدلال به على صحة ذلك .

وقد عقدالكاتب محمد نسيب الرفاعي مؤسس الدعوة السلفية والمدافع القوي عن الوهابية باباً تحت عنوان : « توسل المؤمن الى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له » . واستدل بالقرآن والسنة الصحيحة ، فاذا كان ذلك

(١) الغدير ج٥ص١٢٤ ـ ١٢٧ وقد نقله عن جمع لايستهان بعدتهم .

جائزاً فلم لايجوز طلب الشفاعة من النبي وآله بعد كون الجميع مصداقاً لطلب الدعاء .

وليعلم ان البحث هنا مركّز على طلب الشفاعة من الاخيار، وأما التوسل بذواتهم أوبمقامهم أوغيرذلك فخارج عن موضوع بحثنا، وقد أفردنا لجواز تلك التوسلات رسالة مفردة أشبعنا الكلام فيها قرآناً وحديثاً وقد طبعت وانتشرت .

اذا وقفت على ذلك فهلّم معي الى مالفقه القوم وزعموه دلائل قاطعة على حرمة طلب الشفاعة عن الاولياء ونحن ننقلها واحداً بعد واحد على سبيل الاجمال وقد أتينا ببعض الكلام في الجزء الاول من هذه الموسوعة [1] .

* * *

مااستدل به على حرمة طلب الشفاعة :

استدل القائلون بحرمة طلب الشفاعة بوجوه :

١ـ ان طلب الشفاعة من الشفعاء عبادة لهم وهي موجبة للشرك، اي الشرك في العبادة ، فانك اذا قلت يامحمد اشفع لنا عند الله ، فقد عبدته بدعائك ، والدعاء مخ العبادة ، فيجب عليك ان تقول : اللهم اجعلنا ممن تناله شفاعة محمد ﷺ .

والجواب عن هذا الاستدلال واضح كل الوضوح بعد الوقوف على ما اوردناه في الجزء الاول من هذه الحلقات، حيث قلنا : ان حقيقة العبادة ليست مطلق الدعاء ، ولامطلق الخضوع ، ولا مطلق طلب الحاجة ، بل هو عبارة عن الدعاء او الخضوع امام من يعتقد بالوهيته وربوبيته وانه الفاعل المختار

(١) راجع معالم التوحيد ص٤٩١ ـ ٥٠١ .

والمتصرف بلا منازع في الأمور التي ترجع الى الله سبحانه .

وان شئت قلت : العبادة هي الخضوع عن اعتقاد بالوهية المسؤول وربوبيته واستقلاله في ذاته او في فعله .

وبعبارة ثالثة : العبادة هي الخضوع اللفظي او العملي امام من يعتقد بانه يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته وعاجله وآجله .

الى غير ذلك من التعابير التي توضح لنا مفهوم العبادة وحقيقتها .

فمن الغريب ان نفسر العبادة بمطلق الخضوع او الخضوع النهائي وان كان غير صادر عن الاعتقاد بالوهية المدعو وربوبيته والا يلزم ان يكون خضوع الملائكة امام آدم ، وخضوع الانسان امام والديه من الشرك الواضح .

وماورد في الحديث من ان الدعاء مخ العبادة فليس المراد منه مطلق الدعاء ، بل المراد دعاء الله مخ العبادة وماورد في الروايات من انه : من اصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان ينطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان ينطق عن غير الله فقد عبد غير الله [1] فليس المراد من العبادة هنا : العبادة المصطلحة ، بل استعيرت في المقام لمن يجعل نفسه تحت اختيار الناطق .

وعلى ذلك فطلب الشفاعة انما تعد عبادة للشفيع اذا كان مقروناً بالاعتقاد بالوهيته وربوبيته ، وانه مالك لمقام الشفاعة أو مفوض اليه ، يتصرف فيها كيف يشاء ، واما اذا كان الطلب مقروناً باعتقاد انه عبد من عباد الله الصالحين يتصرف باذنه سبحانه للشفاعة ، وارتضائه للمشفوع له، فلا يعد عبادة للمدعو بل يكون وزانه وزان سائر الطلبات من المخلوقين ، فلا تعد عبادة بل طلباً محضاً غاية الامر لو كان المدعو قادراً على المطلوب يكون الدعاء أمراً صحيحاً

(١) الكافي ج٦ ص٤٣٤ الحديث ٤ وعيون اخبار الرضا ج١ ص٣٠٣ ، الحديث ٦٣ والوسائل ج١٨ ، الباب العاشر من ابواب صفات القاضي الحديث ٩ و١٣ .

عقلا ، والا فيكون أمـراً لغواً فلو تردّى الانسان وسقط فـي قعر البئر وطلب العون من الواقف عند البئر القادرعلى نجدته وانقاذه، يعد الطلب أمراً صحيحاً ولو طلبه من الاحجار المنضودة حول البئر يكون الدعاء والطلب منها لغواً مع كون الدعاء والطلب هذا غير مقترن بشيء من الالوهية والربوبية فى حق الواقف عند البئر ، ولا الاحجار المنضودة حولها .

هذا من جانب ، ومن جانب آخرنرى انه سبحانه حث على ابتغاء الوسيلة وقال : « يأيها الذيـن آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » (المائدة ـ ٣٥) ومن المعلوم ان المراد من الوسيلة ليست الاسباب الدنيوية الموصلة للانسان الى غاياتها المادية اذ ليس هذا أمراً خفياً على الانسان حتى يحثه عليه القرآن كما انه ليس من الامور التي يكسل عنها الانسان حتى يحض عليه بل المراد: التوسل بالاسباب الموصلة الى الامور المعنوية ومن المعلوم ان أحدالاسباب هو التوسل بدعاء الاخ المؤمن ، والولي الصالح ، وعلى ذلك فيرجع طلب الشفاعة الى طلب الدعاء ، الذي اتفق المسلمون قاطبة على جوازه .

وان شئت قلت انـه سبحانه يقول : « ولايملك الـذين يدعون من دونـه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (الزخرف ـ ٨٦) .

ومن الواضح انجملة «الا من شهد بالحق» تدل على ان الطائفةالموحدة لله تملك الشفاعة باذنه سبحانه، وعندئذ فلماذا لايصح طلبها ممن يملك الشفاعة باذنه؟ غاية الامر ان الطالب لوكان في عداد من ارتضاه سبحانه نفعه الاستشفاع والا فـلا ، ومن العجب قـول محمد بن عبدالوهاب : « ان الله أعطى النبي الشفاعة ونهاك عن هذا وقال : فلاتدعوا مع الله أحداً ، وأيضاً الشفاعة أعطيها غير النبي فصح ان الملائكة والاولياء يشفعون فان قلت : الله أعطاهم الشفاعة،

وأطلبها منهم رجعت الى عبادة الصالحين، التي ذكرها الله تعالى في كتابه[1]»

اذ هـذه الكلمة من العجائب فانه اذا أعطاه الله سبحانه الشفاعـة فكيف يمنع طلبها منه ، وهذا بمنزلة من ملك أحـداً شيئاً ليستفيد منه الاخرون ولكن منع الاخرين عن طلبها منه ، فهذا لو كان صحيحاً عقلا فهو غير متعارف عرفاً .

أضف اليـه انه في أي آية وأي حـديث منع طلب الشفاعة عنهم . وتصور ان طلبها عبادة قد عرفت الاجابة عنها ، وان العبادة عبارة عن الطلب اللفظي أو الخضوع العملي عمن يعتقد بنحو مـن الانحاء بـالوهيته وربوبيته ، وذاك الاعتقاد لاينفك عن الاعتقاد في استقلال المطلوب منه ذاتـاً وفعلا ، وكونـه متصرفاً في الامـور الالهية تصرفـاً بلامنازع ، وليس هذا الاعتقاد موجوداً في الاستشفاعات المتعارفة بين المسلمين .

* * *

٢ ـ انطلب الشفاعة يشبه عمل عبدة الاصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبة الباطلة وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم، قال سبحانه : « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (يونس-١٨) وعلى ذلك فالاستشفاع من غيره سبحانه عبادة لهذا الغير .

والجواب عن هذا بين أيضاً ، فانك اذا أمعنت النظر في مفاد الاية لا تجدفيها أية دلالة على انشركهم كان لاجل الاستشفاع بالاصنام وكان هذا هو المحقق لشركهم وجعلهم في عداد المشركين ، واليك توضيح ذلك فنقول :

ان المشركين كانوا يقومون بعملين : (العبادة) ويـدل عليه «ويعبدون ..» و (طلب الشفاعة) ويدل عليه « ويقولون ..» وكان علة اتصافهم بالشرك هو الاول لاالثاني ، ولـو كان الاستشفاع بالاصنام عبادة لها بالحقيقة، لماكان هناك مبرر

١) كشف الشبهات ص٦ ـ ٩ .

للاتيان بجملة اخـرى أعني قوله : « ويقولون هـؤلاء شفعاؤنا » بعد قولـه : « ويعبدون ..» اذلافائدة لهذا التكرار، وتوهم ان الجملة الثانية توضيح الاولى خلاف الظاهر، فان عطف الجملة الثانية على الاولى يدل على المغائرة بينهما اذن لادلالة للاية على ان الاستشفاع بالاصنام كان عبادة فضلا عن كون الاستشفاع بالاولياء المقربين عبادة لهم .

نعم ثبت بأدلة اخرى (لامن الاية) بأن طلب الاستشفاع بالاصنام يعد عبادة لهم وذلك لماقلنا من ان المشركين كانوا يعتقدون بالوهيتها وربوبيتها واستقلالها في الافعال[1].

* * *

٣ ـ طلب الحاجـة من غيره سبحانه حرام فان ذلك دعـاء لغير الله وهو حرام قال سبحانه : « فلاتدعوامع الله أحداً » (الجن ـ ١٨) واذا كانت الشفاعة ثابتة لاوليائه وكان طلب الحاجة من غيره حراماً فالجمع بين الامرين يتحقق بانحصار جواز طلبها عن الله سبحانه خاصة، ويوضح ذلك قوله سبحانه: «ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» (فاطر ـ ٦٠) ، فقد عبر عن العبادة في الاية بلفظ الدعوة في صدرهـا وبلفظ العبادة في ذيلها ، وهذا يكشف عن وحدة التعبيرين في المعنى ، وقد مر قوله ﷺ: « الدعاء مخ العبادة » .

والجواب بوجوه: أولا ان المراد من الدعاء في قوله تعالى «فلاتدعوامع الله أحداً » ليس مطلق دعوة الغير بل الدعوة الخاصة المضيقة المترادفة للعبادة ويدل عليه قوله سبحانه في نفس هذه الاية « وان المساجد لله » .

---

(١) وان أردت المزيد من التوضيح فلاحظ الجزء الاول من هذه الحلقات : معالم التوحيد فى القرآن ص٤٩٣ ـ ٥٠١ .

وعلى ذلك فيكون المراد من النهي عن دعوة الغير هو الدعوة الخاصة المقترنة بالاعتقاد بكون المدعو ذا اختيار تام في التصرف في الكون وفي شأن من شؤونه سبحانه .

فاذا كان طلب الشفاعة مقترناً بهذه العقيدة يعد عبادة للمشفوع اليه . والا فيكون طلب الحاجة كسائر الطلبات من غيره سبحانه الذي لايشك ذو مسكة في عدم كونها عبادة .

وثانياً : ان المنهي عنه هو دعوة الغير بجعله في رتبته سبحانه كما يفصح عنه قوله : « مع الله » وعلى ذلك فالمنهي هو دعوة الغير ، وجعله مع الله، لا ماإذا دعا الغير معتقداً بأنه عبد من عباده لايملك لنفسه ولالغيره ضراً ولانفعاً ولاحياة ولابعثاً ولانشوراً الا بمايملكه من الله سبحانه ويتفضل عليه باذنه ويقدر عليه بمشيئته ، فعند ذاك فالطلب منه بهذا الوصف يرجع الى الله سبحانه ، وبذلك يظهر أن ماتدل عليه الايات القرآنية من ان طلب الحاجة من الاصنام كان شركاً في العبادة فلاجل ان المدعو عند الداعي كان الهاً أو رباً مستقلافي شأن من شؤون وجوده اوفعله قال سبحانه :«والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون » (الاعراف ـ ١٩٧) وقال سبحانه : « ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » (الاعراف ـ ١٩٤) ترى انه سبحانه يستنكر دعاءهم بقوله : « لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون » وقوله : « عباد أمثالكم » مذكراً بأن عقيدتهم في حق هؤلاء عقيدة كاذبة وباطلة فان الاصنام غير مستطيعة لنصر أحد ، وهذا يكشف عن ان الداعين كانوا على جانب النقيض من تلك العقيدة وكانوا يعتقدون بتملك الاصنام لنصرهم وقضاء حوائجهم من عند أنفسهم .

وثالثاً : ان الدعاء ليس مرادفاً للعبادة وماورد في الاية والحديث من

تفسير الدعاء بالعبادة في ذيلهما لايدل على ما يرتئيه المستدل فان المراد من الدعاء فيهما قسم خاص منه ، وهو الدعاء المقترن باعتقاد الالوهية في المدعو والربوبية في المطلوب منه كما عرفت .

* * *

٤ ـ الشفاعة حق مختص بالله سبحانه لايملكه غيره وعلى ذلك فطلبه من غير مالكها أمر غير صحيح قال سبحانه : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولوكانوا لايملكون شيئاً ولايعقلون قل لله الشفاعة جميعاً » (الزمر ـ ٤٤) .

والجواب : ان المراد من قوله سبحانه « قل لله الشفاعة جميعاً » ليس انه سبحانه هو الشفيع دون غيره اذ من الواضح انه سبحانه لايشفع عند غيره بل المراد ان المالك لمقام الشفاعة هو سبحانه وانه لايشفع أحد في حق أحد الا بأذنه للشفيع وارتضائه للمشفوع له، ولكن هذا المقام ثابت لله سبحانه بالاصالة والاستقلال ولغيره بالاكتساب والاجازة، قال سبحانه: «ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (الزخرف ـ ٨٦) فالاية صريحة في ان من شهد بالحق يملك الشفاعة ولكن تمليكاً منه سبحانه وفي طول ملكه . وعلى ذلك فالاية أجنبية عن طلب الشفاعة من الاولياء الصالحين الذين شهدوا بالحق وملكوا الشفاعة، وأجيزوا في أمرها في حق من ارتضاهم لها.

هذا وكما ان الشفاعة التشريعية مختصة بالله سبحانه وانه المالك لها بالاصالة وانما يملكها الغير بأذن منه هكذا الشفاعة في عالم التكوين وعالم العلل والمعاليل والاسباب والمسببات قال سبحانه « الله الذي خلق السموات والارض ومابينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولاشفيع أفلا تتذكرون » (السجدة ـ ٤) والمراد من الشفيع في الاية هو الشفيع في عالم التكوين بقرينة ان البحث يدور حول خلق السموات والارض ثم

الاستواء على العرش ويعود معنى الاية الى ان الاسباب والمسببات الخارجية اذا كان بعضها شفيعاً لبعض في تتميم الاثر (كالسحاب والمطر والشمس والقمر وغيرها شفعاء للنبات) فموجد الاسباب واجزائها هو الشفيع بالحقيقة التي يتم نقصها ويقيم صلبها فانه سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لاشفيع غيره[1].

وان شئت قلت : ان الاية بصدد نقد عقيدة المشركين حيث كانوا يعتقدون بأن الاصنام والاوثان يملكون الشفاعة فأراد سبحانه أن يوقظ شعورهم بأن مالكيتها لها فرع كونها ذا عقل وشعور حتى يمكن أن تستفيد من هذا الحق في شأن الشفعاء وتلك الالهة لاتعقل ولاتشعر شيئاً كما يدل عليه قوله سبحانه «قل اولو كانوا لايملكون شيئاً ولايعقلون قل لله الشفاعة جميعاً» .

* * *

٥ ـ طلب الشفاعة من الميت أمر باطل ، ولعل هذا آخر سهم في كنانتهم فجعلوا طلب الشفاعة من أوليائه الصالحين أمراً لغواً ، لانهم أموات غير أحياء لايسمعون ولايعقلون .

والاستدلال باطل من وجوه :

أما أولا : فلان البراهين الفلسفية قد أثبتت تجرد النفس الانسانية وبقاءها بعد مفارقة الروح عن البدن، وقد أثبت الفلاسفة ذلك بأدلة كثيرة لامجال لذكرها في هذه الصفحات وقد جئنا ببعضها في ماحررناه حول الروح في رسالة خاصة ولعلنا نقوم ببيانها عند البحث عن المعاد في القرآن الكريم .

وثانياً : ان الايات صريحة في ان المقتولين في سبيل الله أحياء يرزقون قال سبحانه : « ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من

(١) الميزان ج ١٦ ص ٢٥٨ .

خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » (آل عمران ـ ١٦٩ ـ ١٧٠). وهل يجد الوهابي مبرراً لتأويل الاية مع هذه الصراحة التي لاتتصورفوقهاصراحة حيث أخبرت الاية عن حياتهم ورزقهم عند ربهم ومايحل بهم من الافراح وما يقدمون عليه من الاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم ، ومايتفوهون به في حقهم بقولهم: « ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .

وعلى ذلك فلـوكان الشفيع أحد الشهداء في سبيل الله تعالى فهل يكون هذا الطلب لغواً .

وثالثاً : ان القرآن يعد النبي شهيداً على الامم جمعاء ، ويقول سبحانه : « فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاءشهيداً » (النساء ـ ٤١) فالاية تصرح بأن النبي ﷺ شاهد على الشهود الذين يشهدون على اممهم فاذا كان النبي ﷺ شاهـداً على الامم جمعاء أو على شهودهم فهل تعقل الشهادة بدون الحياة، وبدون الاطلاع على ماتجري فيهم من الامور من الكفر والايمان والطاعة والعصيان .

ولايصح لك أن تفسر شهادة النبي بشهادته على معاصريه ومـن زامنوه ، وذلك فلانه سبحانه عد النبي شاهـداً في عداد كونه مبشراً ونذيراً وهل يتصور أحد أن يختص الوصفان الاخيران بمن كان يعاصره النبي ، كلا لا ، فاذن لاوجه لتخصيص كونه شاهداً بالامة المعاصرة للنبي .

فعند ذلك يكون طلب الشفاعة من النبي الاكرم الذي هوحي بنص القرآن أمراً صحيحاً معقولا ، وأنت اذا لاحظت الايات القرآنية تقف على انها تصرح بامتداد حياة الانسان الى مابعد موته ، يقول سبحانه في حق الكافرين «حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » (المؤمنون ـ ٩٩ ـ ١٠٠)

فهذه الاية تصرح بـامتداد الحياة الانسانية الى عـالم البرزخ وان هـذا وعاء للانسان يعذب فيها من يعذب وينعم فيها من ينعم، أماالتنعم فقد عرفت التصريح بـه في الاية الواردة في حق الشهداء وأمـا العقوبة فيقول سبحانـه : « النار يعرضون عليها غدواً وعشيا، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشدالعذاب» (غافر - ٤٦) .

وهناك آيات اخر تدل على امتداد الحياة الى مابعد الموت نرجيء نقلها الى مكانها الخاص بل هناك آيـات تدل بصراحة على ارتباطهم بنا ، وارتباط بعضنا من ذوي النفوس القوية بهم .

وأما الاحاديث الواردة في هذا المورد فحدث عنها ولاحرج ، وقد روى المحدثون قول النبي ﷺ « مامن أحد يسلم عليّ الا رد الله روحي حتى أرد عليه السلام »[1] كما نقلوا قولـه : « ان لله ملائكة سياحين في الارض يبلغوني من امتي السلام »[2].

وفي الختام نرى انه سبحانه يسلم على أنبيائه في آيات كثيرة ، ويقول : « سلام على نوح في العالمين . سلام على ابراهيم . سلام على موسى وهارون سلام على الياسين وسلام على المرسلين» (الصافات ٧٩، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠، ١٨١) .

كما يأمرنا بالتسليم على نبيه والصلوات عليه ويقول بصريح القول: «ان الله وملائكته يصلون على النبي، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» (الاحزاب - ٥٦) فلوكان الانبياء والاولياء أمواتاً غير شاعرين لهذه التسليمات

---

(١) وفاء الوفاء ج٤ص ١٣٤٩ نقله عن أئمة الحديث مثل ابى داود والبيهقى قال وقد صدر به البيهقى باب زيارة قبر النبى .

(٢) المصدر السابق ص١٣٥٠ نقلا عن النسائى وغيره .

والصلوات فأي فائدة في التسليم عليهم ، وفي أمر المؤمنين بالصلوات والسلام على النبي ﷺ ؟ والمسلمون أجمع يسلمـون على النبي في صلواتهم بلفظ الخطاب، ويقولون : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وحمل ذلك على الشعار الاجوف والتحية الجوفاء، أمر لايجتريء عليه من له المام بالقرآن والحديث .

* * *

٦ ـ ان القرآن يصرح بـوضوح ان الموتى لايسمعون ولايبصرون قـال سبحانه : « انـك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الـدعاء اذا ولوا مدبرين » (النمل ـ ٨٠) فالاية تعرف المشركين بأنهم أموات ويشبههم بها ، ومن المعلوم ان صحة التشبيه تتوقف على وجود وجه الشبه في المشبه به بوجه أقوى وليس وجه الشبه الا أنهم لايسمعون ، فعند ذلك تصبح النتيجة : ان الاموات مطلقاً غير قابلين للافهام ويدل على ذلـك أيضاً قوله سبحانه: «ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » (فاطر ـ ٢٢) والاستدلال بالايتين على نسق واحد .

والجواب أولا : ان الايـة تنفي السماع والافهام عن الاموات المدفونين في القبور ، فانهم أصبحوا بعد الموت كالجماد لايفهمون ولايسمعون ، وهذا غير القول بأن الارواح المفارقة عن هذه الابدان غير قابلة للافهام ولاللاسماع والايتـان دالتان على عـدم امكان اسماع الامـوات والمدفونين في القبـور ولاتدلان على عدم امكان تفهيم الارواح المفارقة عن الابدان، العائشة في البرزخ عند ربهم كما دلت عليه الايات السابقة .

ومن المعلوم ان خطاب الزائر النبي بقوله : يا محمد اشفع لنا عند الله لايشير الى جسده المطهر بل الى روحه الزكية الحية العائشة عند ربها الى غير

ذلك من الصفات التي يضفيها عليه القرآن الكريم وعلى سائر الشهداء .

والشاهد على ذلك انا نرى : ان المسلمين مع وقوفهم على هذه الايات وتلاوتهم لها كانوا يتوجهون الى النبي ﷺ بعد وفاته حيث روى الطبراني في الكبير عن عثمان بن حنيف ان رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان ، في حاجة له ، وكان لا يلتفت اليه ولا ينظر في حاجته ، فلقى ابن حنيف فشكى اليه ذلك ، فقال له ابن حنيف : ائت الميضاة ، فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ، ثم قل : اللهم اني اسئلك واتوجه اليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد اني اتوجه بك الى ربك ان تقضى حاجتي وتذكر حاجتك فانطلق الرجل فصنع ما قال ، ثم اتى باب عثمان فجاءه البواب حتى اخذ بيده ، فادخل على عثمان فاجلسه معه على الطنفسة فقال : حاجتك ؟ فذكر حاجته وقضى له ، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها ، ثم ان الرجل خرج من عنده فلقي ابن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت الي حتى كلمته في ، فقال ابن حنيف والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله ، واتاه ضرير فشكى اليه ذهاب بصره ، فقال له النبي ﷺ ان شئت دعوت او تصبر فقال يا رسول الله ، انه ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال له النبي : ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات . قال ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كانه لم يكن بـه ضر [1].

وثانياً : ان الاستدلال بالايتين على ما يرتئيه المستدل غفلة عما تهدف اليه الايتان ، فان الايتين في مقام بيان أمر آخر وهو ان المراد من الاسماع هنا هو الهداية و هي تتصور على قسمين : هداية مستقلة ، وهداية معتمدة على اذنـه

١) وفاء الوفاء ج٤ ص١٣٧٣ ورواه البيهقي من طريقين .

سبحانه ، والايتان بصدد بيان ان النبي غيرقادرعلى القسم الاول من الهدايتين، بل هي من خصائصه سبحانه وانما المقدور له هو الهداية المعتمدة على اذنه تعالى ، ويدل على ذلك نفس الاية الواردة في سورة فاطرحيث يقول : « وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء ، وما انت بمسمع من في القبور . ان انت الانذير » (فاطر - ١٩ - ٢٣)

والمستدل اخذ بالجملة الوسطى اعني قوله « وما انت بمسمع من في القبور » وغفل اوتغافل عن الجملتين الحافتين بها ، فانك اذا لاحظت قوله : « ان الله يسمع من يشاء » تقف على ان المراد من قوله « وما انت بمسمع من في القبور » هو نفي الاسماع او الهداية المستقلة من دون مشيئته سبحانه ، فكانه يقول : لست ايها النبي بقادر على الهداية بل الهادي هو الله سبحانه ، ولاجل ذلك يعود فيصف النبي في الجملة الاخيرة بانه « ليس الانذير» لا المتصرف في عالم الوجود مستقلا ومعتمداً على ارادته .

والحاصل: انكون الاية بصدد بيان أن النبي ليس بقادرعلى اسماع الموتى وهدايتهم، شيء، وكونها بصدد ان النبي لايقدر على الهداية والاسماع مستقلا ومعتمداً على ارادة نفسه، شيء آخر، والاية بصدد الامر الثاني لا الاول ، والذي يفيد المستدل هو الاول ، ويدل على ذلك قوله سبحانه « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » (البقرة - ٢٧٢) وقال سبحانه : « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » (القصص - ٥٦) و قال سبحانه : « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل» (الاحزاب - ٤) فهذه الايات قرينة على ان الغاية التى تهدف اليها تلك الاية هوسلب استقلال النبي بامر الهداية واسماعهم وان كان يقدرعلى ذلك باذنه ، بقرينة قوله : سبحانه « ان تسمع الامن يؤمن بايانا فهم

مسلمون » (النمل ـ ٨١ والروم ـ ٥٣) وقال سبحانه : « وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا » (السجدة ـ ٢٤) بل يصفه سبحانه بقوله : « وانك لتهدي الى صراط مستقيم » (الشورى ـ ٥٢) وبذلك تحصل ان استدلال المستدل غفلة عن هدف الايـة .

وان شئت قلت : ان الظاهر من الايات ان النبي الاعظم ﷺ كان حريصاً على هداية الناس وكان راغباً في اسعادهم كما يحكى عنه قوله تعالى «انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء» (القصص ـ ٥٦) وقال تعالى : « وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف ـ ١٠٣) وقال سبحانه : « ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم او يعذبهم» (آل عمران ـ ١٢٨) وقال سبحانه : «لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين » (الشعراء ـ ٣) كل هذه الايات تشهد على اصرار النبي وعلاقته بهداية امته ، وعلى ذلك فيكون المراد من الايات الناظرة الى ما يطلبه النبي فى امر الامة، هو نفي كون النبي قائما بذلك الامر على وجه الاستقلال ، وعلى نحو الاطلاق، سواء أشاء الله ام لم يشأ، بل انما تنفذ ارادته وعلاقته بهدايتهم اذا وقعت في اطار ارادته سبحانه ومشيئته من غير فرق في ذلك بين الموتى والاحياء ، باسماع الموتى وهداية الاحياء .

وبذلك يظهر ما تهدف اليه آية سورة النمل فان المقصود من قوله : « انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » (النمل ـ ٨٠) هو انك لا تقوم باسماع الميت الواقعى ، او ميت الاحياء كالمشركين والمنافقين مستقلا، وانما المقـدور لك هو ما تعلقت مشيئته سبحانه بهدايتهم ولاجل ذلك يقول : « وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بايانا فهم مسلمون » . (النمل ـ ٨١)

* * *

وقد وقفت في هذا الفصل الذي افردناه عن الفصول السابقة على الاشكالات التي نسجتها الاوهام حول الشفاعة وعرفت ضئالتها بوجه واضح وفي ختام هذا الفصل نعطف نظر القارىء الكريم الى نكتة وهي ان الشفاعة ومايرجع اليها من الابحاث من الامور المسلّمة بين المسلمين ولو كان هناك خلاف فانما هو في اثر الشفاعة وانه هل هو رفع العقاب اوترفيع الدرجة كما انه لو كان هناك خلاف آخر فانما هو في الاشكال العاشر ، فان الوهابيين يمنعون طلب الشفاعة ممن اعطي الشفاعة ، والناظر في ابحاثهم وكلماتهم وتحليلاتهم يقف على انهم اعداء الانسان الكامل ، ولاجل ذلك يصرفون هممهم للحط من شخصيته ، ومكانته ، ويتصورون ان التوحيد لايتم الا بتنقيصهم وكان التوحيد لايتم الا بحط مكانتهم او شخصيتهم ومنازلهم المعنوية .

بقي هنا بحثان يتم بهما بحث الشفاعة :

الاول : الشفاعة فى الادب العربى .

الثانى : الشفاعة فى الاحاديث الاسلامية .

(٦)

الشفاعة فى الادب العربى

لـم يكن شعر السلف الصالح مجرد الفاظ مسبوكة فـي بوتقة النظم ، أو كلمات منضدة على اسلاك القريض فحسب، بل كان شعر هم حافلا للابحاث الراقية من المعارف المستقاة مـن الكتاب والسنة وشاملا لدروس عالية مـن الفلسفة والعبر والموعظة الحسنة والاخلاق [1].

كما ان الشعر يؤرخ الاحداث اصدق تاريخ، ويخلد الوقائع ابعد تخليد، الست عند ماتسمع أحداً ينشد قول الانصار عند طلوع النبي في هجرته الى المدينة:

طلـع البدر علينـا مـن ثنيـات الـوداع

تتذكر قدوم الرسول وهجرته من دار موطنه الى دار هجرته، وتلك الحفاوة الجماهيرية البالغة وذاك الاحتفال العظيم بشكل لايمكـن ان تصوره الكلمات المبعثرة المنثورة .

على ان الشعر الذي يدور حول المعارف الموجودة فى الكتاب والسنة خير مرآة للمراد من الايات والاحاديث الواردة في هذا المضمار فان العرب كانوا بفطرتهم السليمة يفهمون ما هو المقصود من الاية والحديث ثم يصوغونه فـي شعرهم من دون ان يتأثروا فى فهمه بالاراء المسبقة أو الافكار المفروضة عليهم مثلا اتفق المؤرخون علـى ان النبي الاكرم قام في يوم الغدير والقى خطابة في ذلك المحتشد وقال في حق علي عليه السلام :

---

١) اقتباس من ماذكره العلامة المحقق الامينى فى غديره ج٢ ص٣ .

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه» ولكن المتأخرين عن زمن الرسالة اختلفوا فيما يقصده النبي من تلك الجملة في هذا المحتشد العام ، ولكن اذا رجعنا الى ما صاغه حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة حول هذا الموضوع وكان حاضراً في ذلك المشهد، يتجلى مفاد الحديث باجلى مظاهره ويصير شعره مرآة اللغة ، وقرينة على المراد فانه قام- بعد ما القى النبي خطابه التاريخي- والقى شعراً ارتجاليا في محضره وقال :

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم واسمع بالرسول مناديا
فقال : فمن مولاكم ونبيكم فقالوا : وما يبدوهناك التعاميا
الهك مولانا وانت نبينا ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال لهم : قم يا علي فانني رضيتك من بعدي اماما وهاديا

ولاجل ذلك افردنا فصلا لذكر الابيات الواردة حول الشفاعة التي نظمت في العهود السابقة . وبالتدبر فيها يرتفع كثير من الابهامات التي نسجتها اوهام المتأخرين حولها، ويقف على ان الشفاعة كانت امراً مسلما عند السلف الصالح وكان طلبها من اصحابها امراً جائزاً رائجا ولا نأتي في هذا الفصل الا بدليل من كثير فان الاشباع وبسط الكلام لا تتحملهما هذه الرسالة .

ونبدأ بما انشأه عبدالله بن رواحة في محضر النبي ارتجالا وقال :

١ ـ اني تفرست منك الخير اعرفه والله يعلم ان ما خانني البصر
انت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد ازري به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا[1]

٢ ـ قالت صفية بنت عبدالمطلب في قصيدتها التي رثت بها النبي ﷺ:

الا يا رسول الله انت رجاؤنا وكنت بنا براً ولم تك جافياً

(١) الاستيعاب ج٣ ص٨٩٨ .

والمقصود من قولها : انت رجاؤنا كون النبي ﷺ مرجوّ الشفاعة .

٣ ـ قال الشاعر المفلق ابو هاشم اسماعيل بن محمد الحميري الملقب بالسيد المتوفى عام ١٧٣ .

انى امرؤ حميري حين تنسبني ... جدي رعين واخوالى ذوويزن
ثم الولاء الذي ارجو النجاة به ... يوم القيامة للهادي أبي حسن[١]

وقال :

على آل الرسول واقربيه ... سلام كلما سجع الحمام
اليسوا في السماء هم نجوم ... وهم اعلام عز لايرام

(الى ان قال) :

اولئك في الجنان بهم مساغي ... وجيرتى الخوامس والسلام[٢]

وقال :

ان تسأليني بقومى تسألي رجلا ... في ذروة العز من احياء ذي يمن
حولى بها ذوكلاع في منازلها ... وذو رعين وهمدان وذويزن

الى ان قال:

ثم الولاء الذى ارجو النجاة به ... من كبة النار للهادى ابي حسن[٣]

وقال :

يا أهل كوفان اني وامق لكم ... مذ كنت طفلا الى السبعين والكبر
أهواكم وأواليكم وامد حكم ... حتما عليّ كمحتوم من القدر
لحبكم لوصي المصطفى وكفى ... بالمصطفى وبه من سائر البشر

(١) ذكره المرزباني في معجم الشعراء كما في الغدير ج٢ ص٢١٠ .
(٢) ذكره العلامة الاربلي في كشف الغمة كما في الغدير ج٢ ص٢٢٨ .
(٣) الاغاني ج٧ ص٢٥٠ كما في الغدير ج٢ ص٢٣٦ .

هو الامام الذى نرجو النجاة به — من حرنار علـى الاعداء مستعر
عسى الاله ينجيني برحمته — ومدحي الغرر الزاكين من غرر[١]

٤ ـ وقال أبو محمد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي من شعراء اهـل البيت الطاهرين المتقربين اليهم بولائه وشعره المقبولين عندهم لصدق نيته ، وانقطاعه اليهم :

يا سادتي يـا بني علـي — يـا آل طـه وآل صاد
انتم نجوم الهدى اللواتى — خلائف الله فـي البـلاد

الى ان يقول :

وما تزودت غير حبي — ايـاكم وهـو خيـر زاد
وذاك ذخرى الذي عليه — فيعرصة الحشراعتمادي[٢]

ومن شعره أيضاً :

وان ضامنادهـر ، فعذنا بعزكم — فيبعد عنا الضيم لما بكم عذنـا
وان عارضتنا خفية من ذنوبنا — بـراة لنـا منها شفاعتكـم أمنا [٣]

٦ ـ وقال أبو جعفر دعبل بن علي بن رزين الخزاعي في تائيته المعروفة :

مدارس آيات خلت مـن تلاوة — ومنزل وحـي مقفر العرصات
لال رسول الله بالخيف من منى — وبالركن والتعريف والجمرات

الى ان قال :

فياوارثى علم النبي وآله — عليكم سلام دائـم النفحات
لقد أمنت نفسى بكم فى حياتها — وانى لارجوالامن بعد مماتى[٤]

---

(١) الاغانى ج٧ ص٢٧٧ كما فى الغدير ج٢ ص٢٤٧ .
(٢) الغدير ج٢ ص٢٨٠ .
(٣) الغدير ج٢ ص٢٩٢ .
(٤) الغدير ج٢ ص٣٢٢ .

٧ ـ قال الشاعر بقراط بن اشوط الوامق النصرانى :

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة ما في الجنان لها شبه من الشجر
المصطفى اصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح علي سيد البشر
والها شميان سبطاها لها ثمر والشيعة الورق الملتف بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به اهل الروايات في العالي من الخبر
انى بحبهم ارجو النجاة غداً والفوز مع زمرة من احسن الزمر[١]

٨ ـ قال الشاعر ابو الحسن علي بن عباس بن جريح البغدادى الشهير بابن الرومي فى عينيته :

تتجافى جنوبهم عن وطيء المضاجع

الى ان قال :

اعف عنا ذنوبنا للوجوه الخواشع
اعف عنا ذنوبنا للعيون الروامع
انت ان لم تكن لنا شافع غير شافع[٢]

٩ ـ وقال الشاعر أبو القاسم احمد بن محمد الشهير بالصنوبرى فى قصيدته:

وشافع الملك الراجي شفاعته اذ جاءه ملك فى خلق ثعبان[٣]

١٠ ـ قال الشاعر أبو القاسم على بن اسحاق البغدادى :

ابا حسن جعلتك لي ملاذاً الوذبه ويشملنى الذماما
فكن لي شافعاً في يوم حشر وتجعل دار قدسك لي مقاماً[٤]

---

(١) الغدير ج٣ ص١٠.
(٢) الغدير ج٣ ص٤.
(٣) الغدير ج٣ ص٣٢٤.
(٤) الغدير ج٣ ص ٣٤٦.

١١ ـ قال الامير أبو فراس الحارث بن أبي علا الحمداني فى قصيدته :

لست ارجو النجاة من كل ما اخشاه الا بأحمد وعلي
وببنت الرسول فاطمة الطهر وسبطه والامام علي

الى ان قال :

بهموا ارتجي بلوغ الاماني يوم عرضي على الاله العلي [١]

وله أيضاً :

شافعي أحمد النبي ومولاى على والبنت والسبطان [٢]

١٢ ـ قال الشاعر الصاحب كافى الكفاة أبو القاسم اسماعيل بن أبى الحسن عباد :

بمحمد ووصيه وابنيهما وبعابد وبباقرين وكاظم
ثم الرضا ومحمد ثم ابنه والعسكرى المتقى والقائم
ارجو النجاة من المواقف كلها حتى اصير الى نعيم دائم [٣]

وقال فى مقطوعة اخرى :

شفيع اسماعيل فى الاخرة محمد والعترة الطاهرة [٤]

١٣ ـ وقال الشاعر ابو عبد الله الحسين بن احمد الشهير بابن الحجاج البغدادى المتوفى عام ٣٩١ هـ :

يا صاحب القبة البيضاء فى النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفى

الى ان قال :

انى اتيتك يا مولاى من بلدى مستمسكا من حبال الحق بالطرف

(١ ـ ٢) الغدير ج٢ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٣) الغدير ج٤ص٦٠.

(٤) مناقب آل ابى طالب ج٢ص١٦٥.

راج بانك يا مولاى تشفع لى وتسقنى من رحيق شافى اللهف[١]

١٤ - وقال الشاعر ابوالنجيب شداد بن ابراهيم بن حسن الملقب بالطاهر الجزرى المتوفى عام ٤٠١ هـ :

حسبى عليان ان ناب الزمان وان جاء المعاد بما فى القول والعمل

فلى على بن عبدالله منتجع ولى على امير المؤمنين على[٢]

١٥ - وقال الشاعر ابوالحسن مهيار بن مرزويه الديلمى البغدادى المتوفى عام ٤٢٨ هـ :

يزوّر عن حسناء زورة حائف تعرض طيف آخر الليل طائف

الى ان قال :

هواكم هو الدنيا واعلم انه يبيض يوم الحشر سود الصحائف[٣]

١٦ - وقال الشاعر أبو الغارات الملك الصالح المستشهد عام ٥٥٦ هـ :

محمد خاتم الرسل الذى سبقت به بشارة قس وابن ذى يزن

الى ان قال :

ظل الاله ومفتاح النجاة وينبو ع الحياة وغيث العارض الهتن

فاجعله زخرك فى الدارين معتصماً به وبالمرتضى الهادى ابى الحسن[٤]

١٧ - قال الشيخ عبدالله الشبراوى الشافعى المتوفى عام ١١٧٢ فى قصيدته التى انشأها فى حق الحسين عليه السلام التى مطلعها :

آل طه ومن يقل اله طه مستجيراً بجاهكم لايرد

---

(١) الغدير ج٤ ص٧٨ .

(٢) الغدير ج٤ ص١٥٨.

(٣) الغدير ج ٤ ص٢١٦ .

(٤) الغدير ج٤ ص٣١١.

حبكم مذهبى وعقد يقينى ليس لـى مذهـب سواه وعقـد
منكم استمد بـل كل مـن فى الكون من فيض فضلكم يستمد

وله قصيدة اخرى مطلعها :

يا نديمى قم بى الى الصهبا واسقنيها فـى الروضة الغنا

ويقول فى آخرها :

يا ابن بنت الرسول انـى محب فتعطف واجعـل قبول دعائـى
يا كرام الانام يـا آل طـه حبكـم مذهبى وعقد وصلائـى
ليس لى ملجأ سواكـم وذخـر ارتجيه فـى شدتى ورخائى [١]

١٨ ـ قال الجزري الشافعي المتوفى عام٢٠٤ في طبقات القراء ج٢ ص ٩٧ والدعاء عند قبره (أي قبر الشافعي) مستجاب ولما زرته قلت :

زرت الامـام الشافعي لان ذلـك نـافعـي
لانـال منـه شفاعـة أكرم بـه من شافع[٢]

١٩ ـ قال صفي الـدين الحلي المولود عـام٦٧٧ والمتوفى عـام٧٥٢ في قصيدة في حق النبي الاكرم ﷺ مطلعها :

خمـدت لفضل ولادك النيـران وانشق من فـرح بك الايـوان

الى أن قال في آخره :

فـاشفع لعبـد شأنـه عصيانـه ان العبيـد يشينـه العصيـان
فلك الشفاعـة في محبكـم اذا نصب الصراط وعلـق الميـزان
فـلقد تعرض للاجـازة طامعـاً في أن يكون جزاؤه الغفران[٣]

(١) الغدير ج٥ ص١٦٥ ـ ١٦٦ نقلا عن كتابه الاتحاف بحب الاشراف ص٢٥.
(٢) الغدير ج٥ ص١٧٥ .
(٣) الغدير ج٦ ص٣٨ نقلا عن ديوانه ص٤٧ .

٢٠ ـ قال الشيخ مغامس بن داغر الحلي من شعراء القرن التاسع في قصيدة مطلعها :

حيا الاله كتيبة مرتادها يطوى له سهل الفلا ووهادها

الى أن قال :

فتشفعوا لكبائر أسلفتها قلقت لها نفسي وقل رقادها

جرماً لو أن الراسيات حملنه دكت وذاب صخورها وصلادها

هيهات تمنع من شفاعة جدكم نفس وحب أبي تراب زادها

صلى الاله عليكم ما أرعدت سحب واسبل ممطراً أرعادها[1]

وله في قصيدة يمدح بها النبي الاعظم ﷺ ويقول في آخرها :

فهل أنال مفازاً في شفاعتكم ممن احتقبت له في سائر الحقب

فيامغامس احبس في مدائحكم تلك القوافي وأجر الله فاحتسب[2]

٢١ ـ قال الشيخ الحافظ البرسي رضي الدين رجب بن محمد بن رجب البرسي الحلي من شعراء القرن التاسع في مسمطه في حق أهل البيت (صلوات الله عليهم) :

أنتم رجائي وحبكم أملي عليه يوم المعاد متكلي

فكيف يخشى حر السعير ولي و شافعاه محمد و علي

أو يعتريه من شرها شرر[3]

هذه الروائع الشعرية التي تضمنت الولاء الصادق لال البيت عليهم السلام وطلب الشفاعة منهم ومن جدهم ﷺ مما وقفنا عليه في مجلدات الكتاب القيم الغدير

---

(١) الغدير ج٧ ص٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٢ .

(٣) الغدير ج٧ ص٤٩ .

ونقلناها غالباً حسب القرون والاعصار، غير ان هناك نظائر لها تتضمن اظهار الولاء الصادق لاصحابه أو طلب الشفاعة منهم بصريح القول، مما وقفنا عليه في بعض الكتب نذكرها :

٢٢ ـ قال الخطيب ابن الفرار المطيري في قصيدته:

بدين المصطفى أرجو نجاتي وحب المرتضى من يوم شين
بفاطمة البتول أتاك رشداً وبالحسن الزكي وبالحسين
بزين العابدين وصلت حبلي علي بن الحسين ومن كذين[1]

٢٣ ـ وقال أبو الرضا الحسيني في قصيدة مطلعها :

يارب مالي شفيع يوم منقلبي الا الذين اليهم ينتهي نسبي
المصطفى وهو جدي ثم فاطمة امي وشيخي علي الخير وهو أبي[2]

٢٤ ـ وقال كشاجم :

نبيي شفيعي والبتول وحيدر وسبطاه والسجاد والباقر المجد
بجعفر بموسى بالرضا بمحمد بنجل الرضا والعسكريين والمهدي[3]

٢٥ ـ قال أبو الواثق العنبري في مقطوعته :

شفيعي اليك اليوم ياخالق الورى رسولك خير الخلق والمرتضى علي[4]

٢٦ ـ قال زيد المرزكي في مقطوعته :

منهم رسول الله أكرم من وطأ الحصى و اجل من أصف

الى أن يقول :

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣١٨ وكذين بمعنى من كهاذين .
(٢) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٢٢ .
(٣) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٢٦ .
(٤) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٣٠ .

وشفاعة السجاد يشملني وبها من الاثام أكتنف[١]

٢٨ ـ وقال ابن مكي في مقطوعته :

ومحمد يوم القيامة شافع للمؤمنين وكل عبد مقلت[٢]

٢٨ ـ ويقول الشريف الرضي في مقطوعته :

يابني أحمد أناديكم اليوم وأنتم غداً لرب جوابي

ألف باب اعطيتم ثم أفضى كل باب منها الى ألف باب

لكم الامر كله واليكم ولديكم يؤول فصل الخطاب[٣]

٢٩ ـ يقول الزاهي في مقطوعته :

أبا حسن جعلتك لي ملاذاً ألوذ به و يشملني الذماما

فكن لي شافعاً في يوم حشري وتجعل باب قدسك لي مقاما[٤]

٣٠ ـ وقال أبو نواس في قصيدة مطلعها :

يارب ان عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

الى أن يقول :

ثم الشفاعة من نبيك أحمد ثم الحماية من علي أعلم[٥]

٣١ ـ قال الشيخ شعيب الحريفيش في قصيدة مطلعها :

من زار قبر محمد نال الشفاعة في غد

الى أن يقول :

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٣١ .

(٢) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٣١ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ج٢ ص٣٧ .

(٤) مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٦٥ .

(٥) مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٦٥ .

وهو المشفع في الورى من هول يوم الموعد[١]

٣٢ ـ قال العلامة السيد محسن الامين العاملي في ارجوزته التي طبعت آخر كتاب كشف الارتياب :

وكذلكم طلب الحوائج عندها من ربنا أرجى لنيل المقصد[٢]

هذه بعض ماعثرنا عليه في المجامع الادبية والتاريخية مما يتضمن الاعتراف بأصل الشفاعة وطلبها من أصحابها كما يتضمن اظهار الولاء لاصحابه ، الى غير ذلك مما يجده فيها المتدبر . وكلها تعرب عن ان الاعتقاد بالشفاعة وطلبها واظهار الولاء للنبي وآله كان أمراً راسخاً في أذهان المسلمين من أوائلهم الى أواخرهم وماكانوا يرونه أمراً مخالفاً للتوحيد ، ولسائر السنن الاسلامية .

ونود في خاتمة هذا الفصل أن نذكر بفضل الاخ العلامة الشيخ محمد رضا الاميني ابن العلامة الحجة الشيخ عبدالحسين الاميني قدس الله سره حيث تكرم علينا بجمع كثير من هذه الشواهد الشعرية من غدير والده وسائر المصادر فشكراً له ثم شكرا.

(١) الروض الفائق ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) العقود الدرية في رد الشبهات الوهابية المطبوع في ذيل كشف الارتياب ص ١٥.

(٧)

الشفاعة في الاحاديث الاسلامية

لقد اهتم الحديث بأمـر الشفاعة وحدودها وشرائطها وأسبابها وموانعها اهتماماً بالغاً لايوجد له مثيل الا في موضوعات خاصة تتمتع بالاهميةالقصوى وأنت اذا لاحظت الصحاح والمسانيد والسنن وسائر الكتب الحديثية لوقفت على جمهرة كبرى من الاحاديث حول الشفاعة بحيث تدفع الانسان الى الاذعان بأنها من الاصول المسلمة في الشريعة الاسلامية . ولاجل هذا التضافر نرى أنفسنا في غنى عن المناقشة في الاسناد .

نعم لو كانت هناك رواية اختصت بنكتة خاصة غير موجودة في الروايات الاخر فاثبات النكتة الخاصة يحتاج الى ثبوت صحة سندها كما هو المعلوم في علم الحديث .

ولما كانت الاحاديث حـول الشفاعة وفروعها كثيرة جـداً ، ومبثوثة في الكتب جمعناها في هذه الصحائف تحت عناوين خاصة ، ولسنا ندعي اننا قد أحطنا بكل الاحاديث في هـذا المجال وانما ندعي انا قد جئنا بقسم كبير من الاحاديث[1].

* * *

(١) لقد جمع العلامة المجلسي أحـاديث الشفاعة الواردة من طرق أئمة أهـل البيت في موسوعته « بحار الانوار » فلاحظ ج٨ ص ٢٩ ـ ٦٣ كما انه أورد بعضها في الاجزاء التالية من موسوعته : بحار الانوار ج١٠٠ ص١١٦ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ . ٣٤٩ ، ٣٥١ . ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ولاحظ ج١٠١ ←

أحاديث الشفاعة عند أهل السنة(*) :

١ ـ قال رسول‌الله: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي وهي نائلة من مات منهم لايشرك بالله شيئاً»(١).

٢ ـ قال رسول‌الله ﷺ : « اعطيت خمساً ... واعطيت الشفاعة فادخرتها لامتي فهي لمن لايشرك بالله شيئاً » (٢)

←ص٨ ، ٢١١، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٣، ٢٩٧ ، ٢٩٨، ٢٩٩ ، ٣٧٢، ٣٧٤ ، ولاحظ ج ١٠٢ ص٣١ ، ٣٢، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٧، ٧١ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، الى‌غير ذلك من الموارد .

وعقد احمد بن محمد بن خالد البرقي بابا للشفاعة فـي موسوعته « المحاسن » فلاحظ ج١ ص١٨٤ .

(*) وقد عقد العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى المتوفـى ٩٧٥ بابا خاصا للشفاعة نقل فيه طائفة من الاخبار فلا حظ كنز العمال ج٤ ص٦٣٨ ـ ٦٤٠ .

كما عقد الشيخ منصور على ناصف فى كتابه التاج الجامع للاصول ابوابا للشفاعة لاحظ التاج ج٥ ص٣٤٨ـ٣٦٠ وقد جاء فيها باحاديث طوال قد اخذنا موضع الحاجة منها . غير ان ملاحظة مجموع الاحاديث لاتخلو عن فائدة . وعقد النسائى فى سننه ابوابا اربعة خاصاً للشفاعة لاحظ ج٣ص٦٢٢ ط دار احياء التراث الاسلامى .

(١) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٠ ، وبهذا المضمون راجع مسند احمد ج١ ص ٢٨١ ، وموطأ مالك ج١ ص١٦٦ وسنن الترمـذى ج٥ ص٢٣٨ ، وسنن الدارمى ج٢ ص٣٢٨ وصحيح مسلم ج١ ص١٣٠ ، وصحيح البخارى ج٨ ص٨٣ وج٩ ص١٧٠ .

(٢) مسنـد احمد ج١ ص٣٠١ وج٤ص٤١٦ وج٥ص١٤٨ وبهذا المضمون سنن النسائى ج١ص١٧٢، وسنن الدارمى ج١ص٣٢٣، وج٢ص٢٢٤، وصحيح البخارى ج١ ص٩٢و١١٩ .

٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « شفاعتى نائلة إن شاء الله من مات ولايشرك بالله شيئاً » (٣)

٤ ـ قال رسول الله ﷺ فى تفسير قوله : عسى ان يبعثك مقاما محمودا «هو المقام الذى اشفع لامتى فيه » (٤)

٥ ـ قال رسول الله ﷺ : « انا اول شافع واول مشفع » (٥)

٦ ـ قال رسول الله ﷺ (شفاعتى لمن شهدان لا اله الا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه » (٦)

٧ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان شفاعتى يوم القيامة لاهل الكبائر من امتي » (٧)

٨ ـ قال رسول الله ﷺ : « رأيت ماتلقى امتى بعدى (اى من الذنوب) فسألت الله ان يولينى شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل » (٨)

٩ ـ قال رسول الله ﷺ : «اسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لااله الا الله خالصاً من قلبه او نفسه » (٩)

١٠ ـ قال رسول الله ﷺ : «انا اول شافع فى الجنة » (١٠)

---

(٣) مسند احمد ج٢ص٤٢٦.

(٤) مسند احمد ج٢ص٥٢٨ وص٤٤٤ و٤٧٨، وسنن الترمذى ج٣ص٣٦٥ :

(٥) سنن الترمذى ج٥ص٤٤٨ وسنن الدارمى ج١ص٢٦ و٢٧ .

(٦) مسند احمد ج٢ص٣٠٧ و٥١٨ .

(٧) سنن ابن ماجة ج٢ص١٤٤١ وبهذا المضمون مسند أحمد ج٣ص٢١٣ وسنن ابى داود ج٢ص٥٣٧ وسنن الترمذى ج٤ص٤٥ .

(٨) مسند أحمد ج٦ص٤٢٨ .

(٩) صحيح البخارى ج١ص٣٦ .

(١٠) صحيح مسلم ج١ص١٣٠ وسنن الدارمى ج١ص٢٧ .

١١ ـ قال رسول الله ﷺ : « شفاعتى لكل مسلم» (١١).

١٢ ـ قال رسول الله ﷺ : «اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»(١٢) .

١٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « انا سيد ولد آدم واول شافع واول مشفع ولا فـخر » (١٣).

١٤ ـ قال رسول الله ﷺ : « اني لارجو ان اشفع يوم القيامة عدد ما على الارض من شجرة ومدرة»(١٤).

١٥ ـ قال رسول الله ﷺ : « ليخرجن قوم من امتى من النار بشفاعتى يسمون الجهنميين» (١٥).

١٦ ـ قال رسول الله ﷺ: « خيرت بين الشفاعة وبين ان يدخل نصف امتى الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم واكفى، أترونها للمتقين ،لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين »(١٦).

١٧ ـ وحكى ابوذر ان رسول الله ﷺ صلى ليلة فقرأ بآية حتى اصبح يركع بها ويسجد بها : « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفرلهم فانك انت العزيز الحكيم » فلما اصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الاية حتى اصبحت

---

(١١) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٤ .

(١٢) سنن الترمذى ج٥ ص٢٤٧ وسنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٣ .

(١٣) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٤٠ وبهذا المضمون صحيح مسلم ج ٧ ص ٥٩ ومسند احمد ج٢ ص٥٤٠ .

(١٤) مسند احمد ج٥ ص٣٤٧ .

(١٥) سنن الترمذى ج٤ ص١١٤ وسنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٣ وبهذا المضمون مسند احمد ج٤ ص٤٣٤ وسنن ابى داود ج٢ ص٥٣٧ .

(١٦) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤١ .

تركع بها وتسجد بها ، قال : اني سألت ربي عزوجل الشفاعة لامتي فاعطانيها فهى نائلة ان شاء الله لمن لايشرك بالله عزوجل شيئاً [١٧].

١٨ ـ قال رسول الله ﷺ : « يشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار : بقيت شفاعتى »[١٨] .

١٩ ـ قال رسول الله ﷺ ان الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة »[١٩].

٢٠ ـ قال رسول الله ﷺ : « يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء » [٢٠] .

٢١ ـ قال رسول الله ﷺ : « فاذا فرغ الله عزوجل من القضاء بين خلقه واخرج من النار من يريد ان يخرج، امر الله الملائكة والرسل ان تشفع فيعرفون بعلاماتهم : ان النار تأكل كل شيء من ابن آدم الاموضع السجود [٢١].

٢٢ ـ قال رسول الله ﷺ : « ... فيؤذن للملائكة والنبيين والشهداء ان يشفعوا فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من ايمان »[٢٢]

٢٣ ـ قال رسول الله ﷺ « اذا ميز اهل الجنة واهل النار ، فدخل اهل الجنة الجنة ،واهل النار النار قامت الرسل وشفعوا [٢٣] .

٢٤ ـ قال رسول الله ﷺ : «يشفع الانبياء في كل من يشهد ان لااله الا الله

---

(١٧) مسند احمد ج٥ ص١٤٩ .

(١٨) صحيح البخارى ج٩ ص ١٦٠ وبهذا المضمون مسند احمد ج ٣ ص٩٤ .

(١٩) صحيح مسلم ج١ ص١٢٢ وبهذا المضمون صحيح البخارى ج٨ ص١٤٣ .

(٢٠) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٣ .

(٢١) سنن النسائى ج٢ ص١٨١ .

(٢٢) مسند احمد ج٥ ص٤٣ بتلخيص منا .

(٢٣) مسند احمد ج٣ ص٣٢٥ .

مخلصاً ، فيخرجونهم منها »[٢٤].

٢٥ ـ ذكرت الشفاعة عن رسول الله ﷺ فقال : « ان الناس يعرضون على جسر جهنم ... وبجنبتيه الملائكة يقولون : اللهم سلم سلم... »[٢٥] .

٢٦ ـ قال رسول الله ﷺ في حديث : « اما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيى ولكن ناس اصابتهم نار بذنوبهم او بخطاياهم فاماتتهم أماتة حتى اذا كانوا فحماً اذن في الشفاعة فيخرجون ضبائر ضبائر »[٢٦].

٢٧ ـ قال رسول الله ﷺ في حديث « ... فيشفعون حتى يخرج من قال لااله الاالله ممن في قلبه ميزان شعيرة »[٢٧] .

٢٨ ـ قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين انسانا من اهل بيته »[٢٨].

٢٩ ـ قال رسول الله ﷺ : « من تعلم القرآن (من قرأ القرآن) فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه ادخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من اهل بيته كلهم قد وجبت له النار »[٢٩].

٣٠ ـ قال رسول الله ﷺ في حديث : «اذا بلغ الرجل التسعين غفر الله ما

---

(٢٤) مسند احمد ج٣ ص١٢ .

(٢٥) مسند احمد ج٣ ص٢٦ .

(٢٦) مسند احمد ج٣ ص٧٩ وبهذا المضمون سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤١ وسنن الدارمي ج٢ ص٣٢٢ ، ومسند احمد ج٣ ص٥ .

(٢٧) مسند احمد ج٣ ص ٣٤٥ .

(٢٨) سنن ابي داود ج٢ ص١٥ وبهذا المضمون مسند احمد ج٤ ص١٣١ وسنن الترمذي ج٣ ص١٠٦ .

(٢٩) سنن الترمذي ج٤ ص٢٤٥ وسنن ابن ماجة ج ١ ص٧٨ ومسند احمد ج١ ص١٤٨ و ١٤٩ :

تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي اسيرالله في الأرض، وشفع في اهله » [٣٠].

٣١ ـ قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى اكثر من بني تميم » [٣١].

٣٢ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان من أمتي لمن يشفع لا كثر من ربيعة ومضر » [٣٢].

٣٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين اومثل احد الحيين ربيعة ومضر» [٣٣].

٣٤ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان الرجل من أمتى ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة وان الرجل ليشفع للقبيلة ، وان الرجل ليشفع للعصبة ، وان الرجل ليشفع للثلاثة ، وللرجلين ، وللرجل» [٣٤].

٣٥ ـ قال رسول الله ﷺ يصف الناس (اهل الجنة) صفوفا فيمر الرجل من اهل النار على الرجل فيقول يافلان اما تذكر يوم استقيت فسقيتك شربة ؟ قال فيشفع له ، ويمر الرجل فيقول: اما تذكر يوم ناولتك طهوراً فيشفع له» [٣٥].

٣٦ ـ قال رسول الله في حديث : «لايصبر على لأوائها (اي المدينة) وشدتها الاكنت له شفيعا او شهيداً يوم القيامة » [٣٦].

---

(٣٠) مسند احمد ج٢ ص٨٩ وبهذا المضمون ما فى ج٣ ص٢١٨ .

(٣١) سنن الدارمى ج٢ ص٣٢٨ وسنن الترمذى ج٤ ص٤٦ وسنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٤٤ ومسند احمد ج٣ ص٤٧٠ وج٥ ص٢٦٦ .

(٣٢) مسند احمد ج٤ ص٢١٢ .

(٣٣) مسند أحمد ج٥ ص ٢٥٧ .

(٣٤) مسند احمد ج٣ ص٢٠ و٦٣ وسنن الترمذى ج٤ ص٤٦ .

(٣٥) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٢١٥ .

(٣٦) موطا مالك ج ٢ ص٢٠١ ومسند احمد ج٢ ص ١١٩ وص ١٣٣ ومواضع اخرمن هذا الكتاب .

٣٧ ـ قال رسول الله ﷺ لخادمه : « ماحاجتك؟ قال : حاجتى ان تشفع لي يوم القيامة قال : ومن دلك على هذا ؟ قال : ربي، قال : اما فاعني بكثرة السجـود » (٣٧).

٣٨ ـ قال رسول الله ﷺ «من صلى على محمد وقال : اللهم انزله المعقد المقرب عندك يوم القيامة ، وجب له شفاعتي »(٣٨).

٣٩ ـ قال رسول الله ﷺ « من قال حين يسمع النداء « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته » حلت لـه شفاعتى يوم القيامة » (٣٩).

٤٠ ـ قال رسول الله ﷺ : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول . ثم صلوا عليّ فانه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله عزوجل لي الوسيلة فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » (٤٠).

٤١ ـ قال رسول الله ﷺ : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتـى » (٤١).

---

(٣٧) مسند احمد ج٣ ص٥٠٠ وبهذا المضمون ما فى ج٤ ص٥٩ .

(٣٨) مسند احمد ج٤ ص١٠٨ .

(٣٩) صحيح البخارى ج١ ص١٥٩ وبهذا المضمون مافى مسند احمد ج٣ ص ٣٥٤ وسنن ابن ماجة ج١ ص٢٣٩ وسنن الترمذى ج١ ص١٣٦ ، وسنن النسائى ج ٢ ص٢٢ وسنن ابى داود ج١ ص١٢٦

(٤٠) سنن ابى داود ج١ ص١٢٤ وصحيح مسلم ج٢ ص ٤ وسنن الترمذى ج٥ ص٢٤٦ ، و٢٤٧ ، وسنن النسائـى ج٢ ص٢٢ ومسند احمد ج٢ ص١٦٨ .

(٤١) مسند احمد ج١ص ٧٢ ولايتوهم ان هذا الحديث تكريس بالقومية المبغوضة فى الاسلام لان من المعلوم ان المراد العرب المسلميـن فيكون بمنزلة « من غش مسلما فليس بمسلم لان المسلم يوم ذاك كان منحصرا فى العرب » .

٤٢ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان اللعانين لايكونون شهداء ولاشفعاء يوم القيامة » (٤٢).

٤٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن فانه شافع لا صحابه يـوم القيامة » (٤٣) .

٤٤ ـ قال رسول الله ﷺ ان سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفرله وهي تبارك الذي بيده الملك »(٤٤).

٤٥ ـ قال رسول الله : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : اي ربي منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال فيشفعان » (٤٥) .

٤٦ ـ قال رسول الله ﷺ : «ان اقربكم مني غداً واوجبكم على شفاعة: اصدقكم لساناً وأداكم لامانتكم واحسنكم خلقاً ، واقربكم مـن الناس (٤٦) .

٤٧ ـ روى انس بن مالك عن ابيه قال : سألت النبي ﷺ ان يشفع لى يوم القيامة فقال : انا فاعل قلت : يا رسول الله : فاين اطلبك ، قال اطلبنى اول ما تطلبنى على الصراط قلت : فان لم القك على الصراط قـال : فاطلبنى عند الميزان قلت: فانلم القك عند الميزان قال: فاطلبنى عند الحوض فانى لاأخطا هذه الثلاث المواطن»(٤٧).

---

(٤٢) مسند احمد ج٦ ص٤٤٨ ، وصحيح مسلم ج٨ ص٢٤ .

(٤٣) مسند احمد ج٥ ص٢٥١ ، وباختصار يسير فى ج٥ ص٢٤٩ .

(٤٤) مسند احمد ج٢ ص١٩٩ وص٣٢١ وسنن الترمذى ج٤ ص٢٣٨ .

(٤٥) مسند احمد ج٢ ص١٧٤ .

(٤٦) تيسير المطالب فى امالى الامام على بن ابى طالب تأليف السيد يحيى بن الحسين من احفاد الامام زيد المتوفى عام ٤٢٤ ص٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٤٧) سنن الترمذى ج٤ الباب التاسع الحديث ٢٥٥٠ .

٤٨ ـ قال رسول الله ﷺ في حديث : «انا سيد الناس يوم القيامة ... ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ، فارفع رأسي فاقول : ياربي امتي يا ربي امتي يا ربي امتي فيقول يا محمد ادخل من امتك من لاحساب عليه من الباب الايمن من ابواب الجنة (٤٨).

٤٩ ـ قال رسول الله ﷺ : « انا اول الناس يشفع في الجنة وانا أكثر الانبياء تبعاً» (٤٩).

٥٠ ـ اخرج ابن مردويه عن طلق بن حبيب : كنت اشد الناس تكذيبا بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبدالله فقرأت عليه كل آية اقدر عليها يذكر الله فيها خلود اهل النار ، فقال : يا طلق اتراك اقرأ لكتاب الله واعلم لسنة رسول الله مني ؟ ان الذين قرأت هم اهلها هم المشركون ، ولكن هؤلاء قوم اصابوا ذنوباً فعذبوا ثم اخرجوا منها ثم اهوى بيديه الى اذنيه فقال : صمتا ان لم اكن سمعت رسول الله يقول : يخرجون من النار بعد ما دخلوا ، ونحن نقرأ كما قرأت.

وعن ابن ابى حاتم عن يزيد الفقيرقال : جلست الى جابر ابن عبدالله وهو يحدث فحدث ان ناساً يخرجون من النار ، قال وانا يومئذ انكر ذلك فغضبت وقلت : ما اعجب من الناس ولكن اعجب منكم يا اصحاب محمد تزعمون ان الله يخرج ناساً من النار والله يقول : « يريدون ان يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها » فانتهرني اصحابه وكان أحلمهم ، فقال : دعوا الرجل انما ذلك للكفار ، فقرأ «ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة » حتى بلغ « ولهم عذاب مقيم » اما تقرأ القرآن

(٤٨) سنن الترمذى ج٤ الباب العاشر الحديث ٢٥٥١ .

(٤٩) صحيح مسلم ج١ ص١٣٠ .

قلت : بلى قد جمعته ، قال : اليس الله يقول : ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محموداً » فهو ذلك المقام فان الله تعالى يحتبس اقواما بخطاياهم فى النار ماشاء لايكلمهم فاذا اراد انيخرجهم اخرجهم قال : فلم اعد بعد ذلك الى ان اكذب به . » (٥٠)

* * *

هذه خمسون حديثا رواها اهل السنة عن النبى الاعظم ﷺ ولو اضفنا اليها الصور المختلفة لكل حديث لتجاوز عدد الاحاديث المأة حديث ، ولكن اكتفينا بهذا المقدار واشرنا الى المواضع التى نقلت فيها صورها المختلفة والناظر فيها يذعن بان الاعتقاد بالشفاعة كان امراً مسلماً بين جماهير المسلمين كما يذعن بأنها لم تكن عندهم مطلقة عن كل قيد ، بل لها شرائط خصوصاً فى جانب المشفوع له ، وان هناك شفعاء وسنشد فى خاتمه المطاف الى فذلكة الروايات وعصادتها فى الموضع المختلفة .

هلم معى نقرأ ماروته الامامية فى هذا الباب من الاحاديث الكثيرة من النبى الاكرم والائمة المعصومين ولاجل انحطاط على سهولة الارجاع اليها نحافظ على التسلسل المذكور فى الاحاديث السابقة

* * *

أحاديث الشفاعة عند الشيعة الامامية :

٥١ - قال رسول الله ﷺ : «انى لاشفع يوم القيامة واشفّع . ويشفع

---

(٥٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٤ كما فى حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى، ج٣ص٤٧١ - ٤٧٢ .

على فيشفّع ، ويشفع اهل بيتى فيشفّعون »[٥١]

٥٢ ـ قال رسول الله ﷺ : «اعطيت خمساً . . . اعطيت الشفاعة »[٥٢]

٥٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان الله اعطانى مسألة فادخرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من امتى يوم القيامة ففعل ذلك » [٥٣]

٥٤ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان من امتى من سيدخل الله الجنة بشفاعته أكثر من مضر » [٥٤].

٥٥ ـ قال رسول الله ﷺ : « انما شفاعتي لاهل الكبائر من امتي » [٥٥]

٥٦ ـ قال رسول الله ﷺ : « الشفعاء خمسة : القرآن ، والرحم ، و الامانة ، ونبيكم ، وأهل بيت نبيكم » [٥٦].

٥٧ ـ قال رسول الله ﷺ : « يقول الرجل من أهل الجنة يوم القيامة اي ربي عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا ، فشفعني فيه فيقول اذهب فأخرجه من النار فيذهب فيتجسس في النار حتى يخرجه منها »[٥٧].

٥٨ ـ قال رسول الله ﷺ: « ادخرت شفاعتى لاهل الكبائر من امتى» [٥٨]

---

(٥١) مناقب ابن شهرآشوب ج٢ ص١٥ وبهذا المضمون فى مجمع البيان ج١ ص١٠٤ .

(٥٢) من لايحضره الفقيه ج١ص١٥٥ .

(٥٣) امالى الشيخ الطوسى ص٣٦ .

(٥٤) مجمع البيان ج١٠ ص٣٩٢ .

(٥٥) من لايحضره الفقيه ج٣ص٣٧٦ .

(٥٦) مناقب ابن شهر آشوب ج٢ص١٤ .

(٥٧) مجمع البيان ج ١٠ص٣٩٢ .

(٥٨) مجمع البيان ج١ص ١٠٤ ويقول الطبرسى: انهذا الحديث مما قبلته الامة الاسلامية .

٥٩ ـ قال رسول الله ﷺ : « ان ادنى المؤمنين شفاعة ليشفع في اربعين من اخوانه » (٥٩).

٦٠ ـ قال رسول الله ﷺ : « ايما امرأة صلت في اليوم والليلة خمس صلوات ، وصامت شهر رمضان وحجت بيت الله الحرام ، وزكت مالها و اطاعت زوجها ووالت علياً بعدي دخلت الجنة بشفاعة بنتي فاطمة » (٦٠) .

أحاديث الشفاعة عن الامام على (عليه السلام) :

٦١ـ قال علي عليه السلام : « لنا شفاعة ولاهل مودتنا شفاعة » (٦١).

٦٢ـ قال علي عليه السلام : « ثلاثة يشفعون الى الله عز وجل فيشفّعون :الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء » (٦٢).

٦٣ـ قال علي عليه السلام لولده محمد الحنفية: « اقبل من متنصل عذره، فتنالك الشفاعة » (٦٣).

٦٤ـ قال علي عليه السلام : « اعلموا أن القرآن شافع ومشفع وقائل و مصدق، وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه »(٦٤)

٦٥ـ قال علي عليه السلام : « قال رسول الله ﷺ اذا قمت المقام المحمود تشفعت في اصحاب الكبائر من امتي فيشفعني الله فيهم، والله لاتشفعت فيمن آذى ذريتي » (٦٥).

---

(٥٩) مجمع البيان ج١ص١٠٤ .
(٦٠) امالى الصدوق ص٢٩١ .
(٦١) خصال الصدوق ٦٢٤ .
(٦٢) خصال الصدوق ص ١٥٦ .
(٦٣) من لايحضره الفقيه ج٤ ص٢٧٩ .
(٦٤) نهج البلاغة الخطبة ١٧١ .
(٦٥) امالى الصدوق ص١٧٧ .

٦٦ـ قال أمير المؤمنين: أن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون وباب يدخل منه الشهداء والصالحون وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا فلم أزل واقفاً على الصراط أدعـو وأقول : رب سلم شيعتـي ومحبي وانصاري ومن تولاني في دار الدنيا فأذا النداء من بطنان العرش قـد اجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولانـي ونصرني وحارب من حاربني بفعل أوقول في سبعين الفامن جيرانه واقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا اله الا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا اهل البيت .(٦٦)

٦٧ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام : «سمعت النبي يقول : اذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يارسول الله أن الله جل اسمه قد امكنك من مجازاة محبيك ومحبي أهل بيتك الموالين لهم فيك والمعادين لهم فيـك فكافهم بما شئـت فاقول : يارب الجنة فأبوؤهم منها حيث شئت ، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به»(٦٧) .

٦٨ـ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله يأأبتاه أين القاك يوم الموقف الاعظم ويوم الاهوال ويوم الفزع الاكبر ؟قال. يـافاطمة عند باب الجنة ومعـي لواء الحمد وأنـا الشفيع لامتي الى ربي . قالت : ياأبتاه فان لم القك هناك ، قال:القيني على الحوض وأنا أسقي أمتي، قالت ياأبتاه أن لم القك هناك قال: القيني على الصراط وأناقائم أقول رب سلم أمتي قالت: فان لم القك هناك قال القيني وأنا عند الميزان ، أقول: ربي سلم أمتي قالت: فان لم القك هناك قال القيني على شفير جهنم امنع شررها ولهبها

(٦٦) بحار الانوار ج٨ص ٣٩ نقلا عن أمالى الصدوق ص٣٩.

(٦٧) ـ بحار الانوار ج٨ ص ٣٩ـ٤٠ نقلا عن امالى الصدوق ص١٨٧ .

عن أمتي فاستبشرت فاطمة بذلك، صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها [٦٨].

احاديث الشفاعة عن سائر ائمة أهل البيت (ع):

٦٩ـ قال الحسن عليه السلام ان النبي قال في جواب نفر من اليهود سألوه عن مسائل ، وأما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر ماخلا أهل الشرك والظلم ». [٦٩]

٧٠ ـ عن الحسين عليه السلام وهو ينقل كلام جده معه في منامه قائلا : «حبيبى يا حسين كأنى اراك عن قريب مرملا بد مائك مذبوحاً بارض كربلا على ايدى عصابة من امتي وانت مع ذلك عطشان لانسقى ، وظمآن لاتروى ، وهم مع ذلك يرجون شفاعتى لاانا لهم الله شفاعتى يوم القيامة» [٧٠].

٧١ ـ قال على بن الحسين عليه السلام في الدعاء الثانى من صحيفته : «عرّفه فى أهله الطاهرين ، وامته المؤمنين من حسن الشفاعة ، أجل ما وعدته» [٧١].

٧٢ـ قال على بن الحسين عليهما السلام: «اللهم صل على محمد وآل محمد وشرف بنيانه وعظم برهانه ، وثقل ميزانه ، وتقبل شفاعته» [٧٢].

٧٣ـ قال على بن الحسين عليه السلام : « فانى لم آتك ثقة منى بعمل صالح قدمته : ولاشفاعة مخلوق رجوته الاشفاعة محمد واهل بيته عليه وعليهم سلامك» [٧٣].

٧٤ ـ قال على بن الحسين عليه السلام : «الهى ليس لي وسيلة اليك الاعواطف

---

(٦٨) ـ بحار الانوار ج٨ ص٣٥ نقلا عن امالى الصدوق ص١٦٦ .

(٦٩) خصال الصدوق ص٣٥٥ .

(٧٠) مكاتيب الائمة ج٢ ص٤١.

(٧١) الصحيفة السجادية الدعاء الثانى .

(٧٢) الصحيفة السجادية الدعاء الثانى والاربعون .

(٧٣) الصحيفة السجادية الدعاء الثامن والاربعون .

رأفتك ولاذريعة اليك الاعوارف رحمتك ، وشفاعة نبيك نبي الامة»(٧٤).

٧٥ ـ قال علي بن الحسين عليه السلام : «صل على محمد وآله واجعل توسلي به شافعا يوم القيامة نافعاً انك انت ارحم الراحمين»(٧٥).

٧٦ ـ قال محمد بن على الباقر عليه السلام : « ان لرسول الله صلى الله عليه وآله شفاعة في امته»(٧٦).

٧٧ ـ قال محمد بن علي الباقر عليه السلام : «من تبع جنازة مسلم اعطي يوم القيامة اربع شفاعات»(٧٧).

٧٨ ـ قال محمد بن علي الباقر عليه السلام «يشفع الرجل فى القبيلة ويشفع الرجل لاهل البيت ويشفع الرجل للرجلين على قدر عمله، فذلك المقام المحمود»(٧٨).

٧٩ ـ قال محمد بن على الباقر عليه السلام : «ان ادنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين انسانا ، فعند ذلك يقول اهل النار فما لنا من شافعين ، ولاصديق حميم»(٧٩).

٨٠ ـ سئل محمد بن على الباقر عليه السلام عن ارجى آية فى كتاب الله فقال الامام عليه السلام للسائل (بشر بن شريح البصرى) : «ما يقول فيها قومك ؟ قال قلت يقولون : «يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله» ، قال: لكنا أهل البيت لانقول بذلك قال السائل : قلت فاى شيء تقولون فيها ؟ قال

---

(٧٤) ملحقات الصحيفة ص ٢٥٠ .

(٧٥) ملحقات الصحيفة ص٢٢٩ .

(٧٦) المحاسن للبرقى ص١٨٤ ،

(٧٧) التهذيب لشيخ الطائفة الطوسى ج١ ص٤٥٥ .

(٧٨) المناقب لمحمد بن شهر اشوب ج٢ ص١٤ .

(٧٩) الكافى ج٨ ص١٠١ وبهذا المضمون فى تفسير فرات الكوفى ص١٠٨ .

نقول «ولسوف يعطيك ربك فترضى»الشفاعة، والله الشفاعة،والله الشفاعة [٨٠].

٨١ - دخل مولى لامرأة على بن الحسين عليه السلام على ابي جعفر (الباقر) يقال له ابو ايمن فقال : يغرون الناس فيقولون شفاعة محمدقال فغضب ابو جعفر حتى تربد وجهه، ثم قال:ويحك يا ابا ايمن اغرك ان عف بطنك وفرجك ، اما والله لو قد رأيت افزاع يوم القيامة لقد احتجت الى شفاعة محمد ، ويلك وهل يشفع الالمن قد وجبت له النار»[٨١].

٨٢ - عن محمد بن مسلم قال: سمعت ابا جعفر عليه السلام يقول : لفاطمة وقفة على باب جهنم فاذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن او كافر فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه الى النار ، فتقرأ بين عينيه محباً فتقول الهى وسيدي سميتنى فاطمة وفطمت بى من تولانى وتولى ذريتى من النار ووعدك الحق وانت لاتخلف الميعاد، فيقول الله عزوجل صدقت يا فاطمة انى سميتك فاطمة وفطمت بك من احبك وتولاك واحب ذريتك وتولاهم من النار ووعدى الحق ، وانا لااخلف الميعاد وانما امرت بعبدى هذا الى النار لتشفعى فيه فاشفعك ليتبين لملائكتى وانبيائى ورسلي واهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي فمن قرأت بين عينيه مؤمناً فجذبت بيده وادخلته الجنة»[٨٢] .

٨٣ - قال جعفر بن محمد عليهما السلام: «والله لنشفعن لشيعتنا والله لنشفعن لشيعتنا والله لنشفعن لشيعتنا حتى يقوم الناس فما لنا من شافعين ولاصديق حميم»[٨٣].

٨٤-قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام : «لكل مؤمن خمس ساعات يوم القيامة

---

(٨٠) تفسير فرات الكوفى ص١٨ .

(٨١) المحاسن للبرقى ج١ ص١٨٣ .

(٨٢) بحار الانوار ج٨ ص٥١ نقلا عن علل الشرائع ص١٧٨ .

(٨٣) مناقب ابن شهر آشوب ج٢ ص١٤ .

القيامة يشفع فيها»[٨٤].

٨٥ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : «شفاعتنا لاهل الكبائر من شيعتنا واما التائبون فان الله عزوجل يقول : ما على المحسنين من سبيل»[٨٥].

٨٦ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «من انكر ثلاثة اشياء فليس من شيعتنا : المعراج والمساءلة في القبر ، والشفاعة»[٨٦].

٨٧ ـ قال معاوية بن عمار لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : من ذا الذي يشفع عنده الاباذنه ؟ قال : نحن اولئك الشافعون»[٨٧].

٨٨ ـ سئل جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن المؤمن هل يشفع فى اهله قال : نعم المؤمن يشفع فيشفع»[٨٨] .

٨٩ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : «اذا كان يوم القيامة نشفع فى المذنب من شيعتنا واما المحسنون فقد نجاهم الله»[٨٩].

٩٠ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام « نمجد ربنا ونصلي على نبينا ونشفع لشيعتنا فلايردنا ربنا »[٩٠].

٩١ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « ان المؤمن ليشفع لحميمه ، الاّ أن يكون ناصباً ولو ان ناصباً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرّب ما

---

(٨٤) صفات الشيعة للشيخ الصدوق ص١٨١ الحديث ٣٧ .

(٨٥) من لايحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج٣ ص٣٧٦ .

(٨٦) الامالى للشيخ الصدوق ص١٧٧ .

(٨٧) تفسير العياشى ج١ ص١٣٦ وبهذا المضمون فى المحاسن للبرقى ص١٨٣ .

(٨٨) المحاسن للبرقى ص١٨٤ .

(٨٩) فضائل الشيعة للشيخ الصدوق ص١٠٩ الحديث ٤٥ .

(٩٠) المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقى ص١٨٣ وبهذا المضمون فى البحار ج٨ص٤١ عن الامام الكاظم.

شفعوا » (٩١) .

٩٢ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « ان الجار ليشفع لجاره والحميم لحميمه ، ولو ان الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين شفعوا في ناصب ماشفعوا » (٩٢) .

٩٣ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « ان المؤمن ليشفع يوم القيامة لاهل بيته فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه فيقول فيرفع سبابتيه يارب خويدمي كان يقيني الحر والبرد فيشفّع فيه » (٩٣) .

٩٤ ـ كتب جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الى أصحابه : « واعلموا انه ليس يغني عنهم من الله أحد من خلقه شيئاً لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك فمن سره أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله أن يرضى عنه » (٩٤) .

٩٥ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « اذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد فاذا وقفا بين يدي الله عزوجل قيل للعابد انطلق الى الجنة ، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم » (٩٥) .

٩٦ـ قال جعفربن محمد الصادق عليه السلام في تفسير قوله سبحانه: «لايملكون الشفاعة الا من أتخذ عند الرحمان عهداً » لايشفع ولايشفع لهم ولايشفعون

---

(٩١) ثواب الاعمال للشيخ الصدوق المتوفى عام٣٨١ ص٢٥١ .

(٩٢) المحاسن للبرقى ص١٨٤ .

(٩٣) بحار الانوار ج٨ص٥٦ و٦١ نقلا عن الاختصاص للمفيد وتفسير العياشى بتفاوت يسير .

(٩٤) الكافى لمحمدبن يعقوب الكلينى المتوفى عام ٣٢٨ ج٨ص١١ .

(٩٥) بحار الانوار ج٨ص٥٦ نقلا عن عيون اخبار الرضا للشيخ الصدوق .

الا من أذن له بولاية أمير المؤمنين والائمة من ولده فهو العهدعند الله [٩٦].

٩٧ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « يامعشر الشيعة فلا تعودون وتتكلون على شفاعتنا فوالله لاينال شفاعتنا اذا ركب هذا (الزنا) حتى يصيبه ألم العذاب ويرى هول جهنم » [٩٧].

٩٨ ـ سئل جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة قال : نعم فقال له رجل من القوم هل يحتاج المؤمن الى شفاعة محمد ؟ قال نعم : ان للمؤمنين خطايا وذنوباً وما من أحد الا يحتاج الى شفاعة محمد يومئذ»[٩٨].

٩٩ ـ قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أو محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير قوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماًمحموداً » قال هي الشفاعة »[٩٩].

١٠٠ ـ عن سماعة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن شفاعة النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة قال: يلجم الناس يوم القيامة العرق ويقولون انطلقوا بنا الى آدم يشفع لنا عند ربه فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا عند ربك فيقول ان لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيردهم الى من يليه وكل نبي يردهم الى من يليه حتى ينتهون الى عيسى فيقول عليكم بمحمد رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى جميع الانبياء ـ فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول : انطلقوا

---

(٩٦) تفسير علي بن ابراهيم القمي الذى كان حياً الى عام ٣٠٧ ص٤١٧ ونقل عن الامام الباقر ايضاً كمافى البحار ج٨ص٢٧ .

(٩٧) الكافى للشيخ الكلينى ج٥ص٤٦٩ ومن لايحضره الفقيه ج٤ ص٢٨.

(٩٨) تفسير العياشى المعاصر للشيخ الكلينى ج٢ ص٣١٤ وفى المحاسن ج١ ص١٨٤ ومع زيادات فى بحار الانوار ج٨ص٤٨ .

(٩٩) تفسير العياشى ج٢ص٣١٤ .

فينطلق بهم الى باب الجنة ويستقبل باب الرحمان ويخرّ ساجداً فيمكث ماشاء الله فيقول عزوجل ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط وذلك قوله عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً [١٠٠] .

١٠١ ـ عن عيسى بن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام ان اناساً من بني هاشم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا يكون لنا هذا السهم الذي جعله للعاملين عليها فنحن أولى بـه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يابني عبدالمطلب ان الصدقة لاتحل لي ولا لكم ولكني وعدت الشفاعة ثم قال والله اشهد انه قد وعدها فماظنكم يابني عبدالمطلب اذا أخذت بحلقة الباب اتروني مؤثراً عليكم غيركم ثم قال ان الجن والانس يجلسون يوم القيامة في صعيد واحد فاذا طال بهم الموقف طلبوا الشفاعة فيقولون: الى من؟ فيأتون نوحاً فيسألونه الشفاعة فقال: هيهات قد رفعت حاجتي فيقولون الى من فيقال الى ابراهيم..الخ [١٠١] .

١٠٢ ـ عن سماعة عن أبي ابراهيم في قول الله تعالى: «عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً» قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً ويؤمر الشمس فيركب على رؤوس العباد ويلجمهم العرق ويؤمر الارض لاتقبل من عرقهم شيئاً، فيأتون آدم فيتشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على ابراهيم ويدلهم ابراهيم على موسى ويدلهم موسى على عيسى ويدلهم عيسى

---

(١٠٠) بحار الانوار ج٨ص٣٥ ـ ٣٦ نقلا عن تفسير علي بن ابراهيم ص٣٨٧ . الذنب الذى ورد فى الحديث بمعنى مايتبع الانسان لابمعنى المعصية وعلى كل حال فحسنات الابرار سيئات المقربين .

(١٠١) بحار الانوار ج٨ص٤٧ ـ ٤٨ وذيل الحديث موافق لما تقدمه ولاجل ذلك تركناه .

فيقول: عليكم بمحمد خاتم البشر فيقول: محمد أنا لها فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال لـه من هذا ـ والله أعلم ـ فيقول محمد! فيقال افتحـوا له فاذا فتح الباب استقبل ربه فيخر ساجداً فلايرفع رأسه حتى يقال له تكلم وسل تعط واشفع تشفع فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجداً فيقال له مثلها فيرفع رأسـه حتى انه ليشفع من قد احرق بالنار فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الامم أوجه من محمد ﷺ وهو قول الله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »(١٠٢).

١٠٣ ـ قال موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : « لما حضر ابي (جعفر بن محمد) الوفاة قال لي : يابني انه لاينال شفاعتنا من استخف بالصلاة(١٠٣) .

١٠٤ ـ قال موسى بن جعفـر الكاظم عليه السلام « كان رسول الله ﷺ يقـول لاتستخفوا بفقراء شيعة علي فان الرجل منهم ليشفع بعدد ربيعة ومضر»(١٠٤).

١٠٥ ـ قال موسى بن جعفر الكاظم: «شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان ويوالـون أهل البيت ويتبرئون من أعدائهم وان أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر فيشفعه الله فيهم

---

(١٠٢) بحارالانوار ج٨ص٤٨ ـ ٤٩ نقلا عن تفسير العياشي والمراد من «استقبل ربه» استقبل رضوانه أو باب رحمته أو ماينا سب ذلك كماورد فى الحديث المروى عن الامام الصادق .

(١٠٣) الكافـى ج٣ ص٢٧٠ و ج٦ ص٤٠١ والتهذيب ج٩ ص١٠٧ وبهـذا المضمون فى من لايحضره الفقيه ج١ ص١٣٣ ونقله الشيخ فى التهذيب ج٩ص١٠٦ عن الامام الصادق .

(١٠٤) بحار الانوار ج٨ص٥٩ وبهذا المضمون فى امالى الشيخ الطوسى ص٦٣ وبشارة المصطفى ص٥٥ .

لكرامته على الله عزوجل »[١٠٥] .

١٠٦ ـ قال علي بن موسى الرضا عليه السلام ناقلا عن علي عليه السلام : « من كذب بشفاعة رسول الله لم تنله»[١٠٦] .

١٠٧ ـ قال علي بن موسى الرضا عليه السلام: «مذنبوا أهل التوحيد لايخلّدون في النار ويخرجون منها والشفاعة جائزة لهم » [١٠٧].

١٠٨ ـ قال علي بن موسى الرضا عليه السلام : ناقلا عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي والقاضي لهم حوائجهم، والساعي في امورهم عندما اضطروا اليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه »[١٠٨] .

١٠٩ ـ قال علي بن موسى الرضا عليه السلام ناقلا عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي » ثم قال عليه السلام: انما شفاعتي لاهل الكبائر من امتي فأما المحسنون فماعليهم من سبيل ، قال الحسين بن خالد : فقلت للرضا عليه السلام يابن رسول الله فمامعنى قول الله عزوجل ولايشفعون الا لمن ارتضى قال لايشفعون الا لمن ارتضى الله دينه [١٠٩] .

(١١٠) قال علي بن محمد الهادي عليه السلام كمافي الزيارة الجامعة: « ولكم

---

(١٠٥) صفات الشيعة للشيخ الصدوق ص١٦٤ الحديث الخامس .

(١٠٦) عيون أخبار الرضا ج٢ص٦٦ .

(١٠٧) عيون أخبار الرضا ج٢ص١٢٥ .

(١٠٨) عيون أخبار الرضا ج٢ ص٢٤ وباختصار يسير فى بشارة المصطفى ص١٤٠ .

(١٠٩) امالى الصدوق ص٥ .

المودة الواجبة والدرجات الرفيعة والمقام المحمود، والمقام المعلوم عندالله عزوجل والجاه العظيم، والشأن الكبير والشفاعة المقبولة »[١١٠] .

(١١١) قال الحسن بن علي العسكري عليه السلام ناقلا عن أمير المؤمنين عليه السلام في ضمن حديث : « لا يزال المؤمن يشفع حتى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه»[١١١] .

(١١٢) قال الحجة بن الحسن عليه السلام في الصلوات المنقولة عنه: « اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة رب العالمين ، المرتجى للشفاعة »[١١٢] .

هذه هي الاحاديث الواردة عن طرق الشيعة الامامية وأنت اذا أضفتها الى ما رواه أصحاب الصحاح والمسانيد يتجلى لك موقف الشفاعة في الشريعة الاسلامية من القطعية كما يتجلى لك معناها الى غير ذلك من الخصوصيات التي مر بيان الخلاف فيها .

ثم بقيت في المقام روايات مبعثرة في الكتب والصحاح والمسانيد ، يستلزم جمعها افراد رسالة في المقام ولاجل ذلك اكتفينا بما ذكرناه .

---

(١١٠) من لايحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج٢ ص٦١٦ .

(١١١) بحار الانوار ج٨ ص٤٤ .

(١١٢) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٢٨٤ .

بحث وتمحيص

حول الروايات الواردة فى الشفاعة

قدبسطناالكلام في ضوء الروايات التي نقلناهامن الصحاح والمسانيد لاهل السنة والمجاميع الحديثية للشيعة الامامية والواجب هناهو الوقوف على مضمون هذه الروايات على وجه الاختصار واليك ماتدل عليه تلك المأثورات :

١ ـ يستفاد من الروايات المختلفة ان الشفاعة من ضروريات التشيع وان ائمة اهل البيت يجاهرون بذلك فلاحظ الارقام التالية من الاحاديث الماضية ٨٦ ، ١٠٦ ، ١٠٩ .

٢ ـ ان الدقة فيما مر من الروايات المتواترة يقضي ببطلان ماذهب اليه المعتزلة في معنى الشفاعة وان الحق فى الشفاعة هو ما عليه جمهور المسلمين من انه عبارة عن غفران الذنوب الكبيرة ببركة شفاعة الشفيع و دعائه فلاحظ الارقام التالية من الاحاديث الماضية : ١ ، ٧ ، ١٥ ، ١٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ١٠٩ وغيرها من الروايات .

٣ ـ ان الشفاعة كما تحفظ من دخول النار توجب خروج المذنب من النار بعد الدخول فيها فلاحظ الارقام التالية : ٢٦ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ١٠٧ وغيرها .

٤ ـ ان شفاعة الشافعين مشروطة بوجود مؤهلات في المشفوع لهم وقد جاء شروطها في الروايات. منها: ان لايكون مشركا ومنها: انيكون مسلماًومنها ان يكون مؤمناً ومنها ان يكون محباً لاهل البيت لا ناصباً لهم العداء ومنها: ان لا يكون مستخفاً للصلاة،غير ان من كان مؤدياً للامانة ، حسن الخلق وقريباً من

الناس يشفع قبل كل أحد فلاحظ في ذلك كله الارقام التالية : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ .

٥ ـ ان القرآن وان اجمل مسألة الشفيع ولم يصرح في ذلك الافي مورد او موردين غير ان الاحاديث اعطت صورة مفصلة عن الشفعاء واليك اسماءهم مع الاشارة الى الاحاديث الدالة عليها .

الف ـ الرسول الاكرم ﷺ من الشفعاء فلاحظ الارقام التالية من الاحاديث الماضية : ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ١٠٠ ، ١٠١

ب ـ الملائكة من الشفعاء فلا حظ الارقام التالية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .

ج ـ الانبياء من الشفعاء فلا حظ الارقام التالية: ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

د ـ اهل البيت من الشفعاء فلا حظ الارقام التاليه : ٥١ ، ٥٦ .

هـ ـ علي من الشفعاء فلا حظ الرقم التالى : ٦١ .

و ـ فاطمة من الشفعاء فلا حظ : ٦٠ ـ ٨٢ .

ز ـ العلماء من الشفعاء فلا حظ : ٢٠ ، ٦٢ ، ٩٥ .

ح ـ الشهداء من الشفعاء فلا حظ : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٦٢ .

ط ـ القرآن من الشفعاء فلا حظ : ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٤ .

ى ـ متعلم القران والعامل به من الشفعاء فلا حظ : ٢٩ .

ك ـ شيعة اهل البيت من الشفعاء فلا حظ : ٦١ ، ١٠٤ .

ل ـ المؤمن من الشفعاء فلا حظ: ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١١١ ولو اريد من المؤمن المعنى الاخص يرجع مفاد هذا القسم الى القسم المتقدم.

م ـ من بلغ التسعين يشفع لاحظ : ٣٠ .

ن ـ من كان حافظا للرحم مؤديا للامانة يشفع لاحظ : ٥٦ .

ما ذكرناه عصارة هذه الروايات والوقوف على الجزئيات يتوقف على

ملاحظتها واحدة بعد واحدة .

هذا تمام الكلام في بحث الشفاعة حسب الكتاب اولا والسنة ثانيا وقد عرفت حقيقة المقال كما وقفت على الاشواك التى نبتت حولها ممن لاحظ لهم من معارف الكتاب والسنة .

وكان الاولى ارداف البحث عن الشفاعة بالبحث عن الاحباط والتكفير ولكن نرجىء البحث عنهما الى الاونة الاخرى لعدم صلتهما بالنبوة الخاصة التى تدور عليهارحى ابحاثنا فى هذا الجزء وما تقدم .

النبی والرسول

فی القرآن الکریم

فى هذا الفصل :

١ ـ الرسول من اوحي اليه وامر بالتبليغ والنبي من اوحـي اليه سواء امر بالتبليغ لم يؤمر ، ونقد هذا الفرق .

٢ ـ الرسولهو الذى انزل معه كتاب، والنبي هو الذي ينبيء عن اللهوان لم يكن معه كتاب ونقد هذا الفرق .

٣ ـ الرسول من جاء بشرع جديد، والنبي أعم منه ومن جاء لتقريرشرع سابق ونقد هذا الفرق .

٤ ـ الرسول من يعاين الملك ويكلمه مشافهة او يلقى فى روعه ، والنبى من يتلقى الوحي بغير هذا الطريق ونقد هذا الفرق .

٥ ـ النبى من يوحى اليه فى المنام ، والرسول من يشاهد الملك ويكلمه رسول ربه ونقد هذا الفرق .

٦ ـ النبي والرسولمبعوثان الىالناس والرسولهو المرسل برسالةخاصة زائدة على أصل نبأ النبوة ونقد هذا الفرق .

٧ ـ الفرق المختار فى المقام وبيان أدلته .

٨ ـ ما يترتب على هذا الفرق من النتائج .

٩ ـ منصب النبوة اسمى من مقام الرسالة .

١٠ ـ بحث وتنقيب حول الروايات المروية فى هذا المجال .

ما هو الرسول والنبى؟

لقد وصف الله تعالى فـي كتابه الكريم اناساً بالرسالة والنبوة والامامة ، ومدح الذين صدقوهم واقتفوا آثارهم ، وذم العصابة الذين كانوا يكذبونهم ويخالفونهم ، واوعدهم بالعذاب الشديد، فيجب ـ والحالة هذه ـ ان نتعرف عليهم بصفاتهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، وقد اضطربت كلمات المفسرين واصحاب المعاجم في تحديد تلكم المفاهيم القرآنية وجاؤوا، بفروق لايوافق الكثير منها الذكر الحكيم اذ لم يستعينوا فى استيضاح المراد بالرجوع الى نفس القرآن ، ونحن نذكر تلكم الفروق ثم نردفها بما اوصلنا اليه التدبر فى الايات ، وما ننقله عنهم مذكور في كتب القوم تفسيراً ولغة .

لقد اصفق القوم الا من شذ[1] على نفى الترادف بين النبي والرسول ، استناداً الى ظهور كثير من الايات ، واليك منها ما يدل على مغايرتهما :

١ ـ الذين يتبعون الرسول النبي الامى الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل . (الاعراف ـ ١٥٧)

٢ ـ وما ارسلنا من قبلك من رسول ولانبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته . (الحج ـ ٥٢)

٣ ـ واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبيّاً .

(مريم ـ ٥١)

---

(١) فروق اللغة ، للجزائرى ص١٠٧ .

٤ ـ واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً.

(مريم ـ ٥٤)

وهكذا ترى انه سبحانه يذكر النبي بعد الرسول، وهو آية اختلافهمافى المفاد وتوهم انه من قبيل عطف المرادف على مثله خلاف الظاهر ، لاسيما فى قوله سبحانه : وما ارسلنا من رسول ولانبى . . . الاية .

ودونك الفروق المذكوره في كتب القوم [١].

الفرق الاول

الرسول اخص من النبي ، فهو من اوحى اليه وامر بالتبليغ ، والنبى من اوحى اليه، سواء امر بتبليغه اولم يؤمر،وهذا هو المشهور بينهم ، نقله واختاره لفيف من المفسرين [٢].

ولعل القائلين به ، استندوا الى الوجه التالي :

«النبي» صفة مشبهة على زنة اللازم ـ بمعنى ذي النبأ والمطلع عليه ـ وكون الانسان صاحب نبأ وخبر ، لايلازم كونه مأموراً بابلاغه واعلانه ، فيصير عند ذاك أعم من ان يكون مأموراً بتبليغه .

نعم لو قلنا بان «فعيل» بمعنى «فاعل» والنبي بمعنى المنبيء عن الغيب والمبلغ للخبر الخطير،فربما يكون مشعراً بكونه مأموراً باعلانه ولكن الاشعار غير الدلالة، اذ لاملازمة بين الانباء عن الغيب وبين كونه مبعوثاً الى هداية الناس

---

(١) هذه الفروق كلها تشير الى أمر واحد،وهو جعل الرسول اخص من النبى بوجوه مختلفة ، غير انه طبعاً للوضوح بحثنا عن كل واحد مستقلا .

(٢) التبيان ج٧ ص٣٣١ ـ مجمع البيان ج٧ ص٩١ ـ تفسير الجلالين فى تفسير الاية ٥٢ من سورة الحج ـ المنار ج٩ ص٢٢٥ ـ وغيرها .

وانهم ملزمون باطاعته والانقياد اليه فيما يأمر وينهى .

اما «الرسول» فهو عبارة عن من تحمل رسالة من ابلاغ كلام او تنفيذ عمل من جانب مرسله .

قال الراغب : «الرسول» يقال تارة للقول المتحمل ، كقول الشاعر :«الا أبلغ أبا حفص رسولا» وتارة لمتحمل القول والرسالة [1] وعند ذاك فاللفظ بما له من المعنى، يدل على ان الرسول من بعث الى الغير لتنفيذ رسالة كلف بحملها من قبل مرسله .

هذا غاية مايمكن ان يوجه به هذا القول ولكن يمكن مناقشته بوجوه :

١ ـ ان اراد ان النبي لغة كذلك وانه لايلازم كونه مامورا بالتبليغ فله وجه وان اراد ان المراد من «النبي» او « النبيين » في القرآن اعم فهو غير ظاهر لانه سبحانه وصف النبيين عامة بكونهم مبشرين ومنذرين وقال : كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب (البقرة ـ ٢١٣) وظاهر الاية يعطى ان كل نبي كان مبشراً ومنذراً ، فهل التبليغ الا التبشير والانذار، سواء كان التبشير بشريعته اوبشريعة من سبقه من الانبياء .

نعم ان في الاية احتمالا آخر تسقط معه المناقشة، وهوان المراد من النبيين فيها القسم الخاص منهم لاجميعهم ، بقرينة قوله سبحانه « وانزل معهم الكتاب» اذمن المعلوم انه لم يكن لكل نبي كتاب ، فالكتب السماوية محدودة معدودة ، لاتتجاوز مأة واربعة كتاب [1] وعلى هذا فالاية تدل على ان كل نبى انزل عليه كتاب ، يكون مبعوثاً ومأموراً بالتبشير والانذار لاأن كل من كان نبياً وان لم يكن معه كتاب كان مأموراً بالتبليغ والتبشير والانذار .

---

(١) المفردات ص١٩٥ .

(١) سيوافيك ما يدل على ذلك .

فان قلت : لـوكان المراد من النبيين خصوص من انزل معه الكتاب يلـزم استعمال العام وارادة الافراد النادرة ، لان المعروف ان عدد الانبياء عبارة عن ١٢٤٠٠٠ نبي ، والذين انزل معهم الكتاب عبارة عن ١٠٤ نبي وعندئذ تكون نسبة من أنزل معه الكتاب الى مجموع النبيين نسبة الواحد على ١١٩٢ ، ومن المعلوم ان استعمال العام وارادة الافراد النادرة مستهجن .

قلت : ان الاستهجان انما يلزم اذا كان المخصص منفصلا واما اذا كان متصلا فلا ، فلو قلنا اكرم العلماء العدول وكان نسبة العادل منهم الى الفاسق نسبة الواحد الى المأة لما أضر ذلك بالاستعمال ولما عد مستهجنا ، والمقام من هذا الباب .

٢ ـ ان القرآن ينص على عدم خلو نبي عن عدو من المجرمين من الانس والجن ، قال سبحانه : «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً» (الانعام ـ ١١٢) وقال تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيرا » (الفرقان ـ ٣١)

وعلى هذا فكل نبي جاء ذكره في القرآن كان مأموراً بمكافحة الفساد و تطهير المجتمع البشري من كل عمل اجرامي ، فلو لم يكن كل نبي مأموراً بالارشاد والهداية ، ومكافحة الشر والفساد ، لم يكن للحكم بثبوت عدو لكل نبي على نحو الاستغراق الكلي وجه .

وتوهم ان للعداوة عللا واسباباً غير الدعوة الى الحق ، اذان كثيراً من الناس يبغضون من ليس على شاكلتهم وان لم يكن بينه وبينهم أية صلة ، و العصابة الضالة الجاهلية اعداء للصلحاء من الناس ، ولو فرض الصالح حيادياً تجاه فكرتهم العادية وعقيدتهم ، غير متعرض لشيء من اعمالهم وافعالهم من ذم او تنديد .

مدفوع بأن الناس كانوا يبغضون الانبياء من جهة رسالاتهم ومناهجهم لا من جهة انهم ليسوا على شاكلتهم ، والمناظرات التي دارت بينهم اوضح شاهد على ذلك .

٣ - لو كان الرسول اخص من النبي ، لكان اشرف وامثل منه ، وذلك يناسب تقديم لفظ النبي على الرسول عند اجتماعهما في كلام واحد ، لان ذكر الخاص بعد العام اوقع وانسب ، والتدرج من الداني الى العالى او منه الى الاعلى ، احسن وابلغ ، مع ان الوارد في القرآن هو العكس، قال تعالى « واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا » (مريم - ٥١) وقال سبحانه : « انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » (مريم - ٥٤) .

واما قوله سبحانه: «وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » (الصافات-١١٢) فالتدرج فيه من العالى الى الدانى لاجل رعاية فواصل الايات حيث يقول سبحانه قبله « انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين» .

ومما يثير العجب، تفسير النبى فى الايتين بمعنى الرفيع شأناً والاعلى منزلة، اذ فيه انه مشتق من النبأ، لامن النبوة، وعلى فرض صحته فالحمل عليه ضعيف جداً ، لكونه منقولا الى المعنى المصطلح ولم يستعمل هذا اللفظ وما اشتق منه ، وهى النبوة ، فى القرآن ولافى الاحاديث الشريفة ، الافى ما استعملت فيه تلك اللفظة في قوله تعالى : ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله» (آل عمران - ٧٩) .

مضافاً الى ان هذا لايصح في قوله سبحانه «ومارسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته» (الحج - ٥٢) اذ لايصح تفسير النبى فيه الا بالمعنى المصطلح. ثم ان صاحب المنار [1] لما اختار هذا الفرق وجه تقديم الرسول على النبي فى قوله سبحانه « الذين يتبعون الرسول النبى

(١) المنار ج٩ ص ٢٢٥ .

الامى » بكونه اهم واشرف ولكن لو صح ما ذكره فرضا فى قوله سبحانه : « كان رسولا نبيا »[1] اى رسولا عظيم الشأن لايصح فى قوله: «وما ارسلنا من رسول ولانبى ».

٤ ـ ان ماذكر من الوجه لايصح في قوله سبحانه: « وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته » فاذا كان الرسول هو النبي المبعوث الى الناس يكون المقصود من عديله أعني النبي ، غير المبعوث منهم فقط ، فان المبعوث منهم الى الناس داخل في الرسول واذاكان المقصود من « النبي » في الاية غير المبعوث الى الناس لايستقيم معنى الاية ، وينافيه قوله سبحانه : « وما أرسلنا من قبلك » لظهوره في ان الصنفين مرسلان من الله .

الفرق الثانى :

الرسول هو الذي أنزل معه كتاب ، والنبي أعم، فهو الذي ينبىء عن الله وان لم يكن معه كتاب، قال الزمخشري: قوله سبحانه: « وما أرسلنا من رسول ولا نبي ... » دليل بين على تغاير الرسول والنبي، وعن النبي ﷺ انه سئل عن الانبياء فقال: مأة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قيل : فكم الرسول منهم؟ قال: ثلاث مأة وثلاثة عشر جماً غفيراً [2] .

والفرق بينهما ان الرسول من الانبياء من جمع الى المعجزة ، الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر أن يدعو

---

(١) قال العلامة الطباطبائى فى ميزانه : والايتان فى مقام المدح والتعظيم ولا يناسب هذا المقام ، التدرج من الخاص الى العام (الميزان ج ٢ ص١٤٥)

(٢) رواه الصدوق أيضاً فى معانى الاخبار ص٩٥ والخصال ج٢ ص١٠٤ .

الناس الى شريعة من قبله [١] .

وقال في تفسير قوله سبحانه« واذكر في الكتاب موسى... » (مريم ـ ٥١) الرسول: الذي معه الكتاب من الانبياء ، والنبي من ينبىء عن الله عزوجل وان لم يكن معه كتاب كيوشع [٢] .

وهذا الوجه لادليل عليه سوى ماعرفته من تفسير الرسول بكونه ذارسالة، واستلزامها كون المبعوث ذا كتاب، فينتج كون الرسول من انزل معه الكتاب، وهو ضعيف جداً ، فان تخصيص الرسالة بالكتاب ، مع امكان تحملها بغيره لاوجه له .

والاستدلال عليه بقوله سبحانه : لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ...» (الحديد ـ ١٩) بتصور ان ظاهر الاية هو ان كل رسول بعث من قبل الله سبحانه ، قد انزل معه كتاب ، غير تام .

امـا اولا : فلان الاية لاتدل على ان لكل نبي كتابا على وجه العموم الاستغراقى وانما تنظر الاية الى سلسلة الانبياء بنظرة واحدة ويكفى فى صدق قول «وانزلنا معهم الكتاب والميزان » نـزول الكتاب على طائفة خاصة منهم لاعلى كل واحد منهم. وذلك نظير قوله سبحانه في حق بنى اسرائيل »وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت احداً من العالمين (المائـدة ـ ٢٠) مـع انه سبحانه جعل البعض النادر منهم ملكا ، لاكل واحد .

و ثانياً: ان من المحتمل ان المراد من «الكتاب» هو الكتب التشريعية الخمسة التي هـي اساس دعـوة جميع الانبياء والـمراد من انزال الكتب ، هو انزال

---

(١) الكشاف ج٢ ص١٦٥ و ص٣٥٢، تفسير النيسابورى ج٢ ص٥١٣ ونقلـه الرازى فى ج٢٣ص٤٩ والبيضاوى ج٤ص٥٧ والمجلسى فى بحاره ج١١ص٣٢ .

(٢) الكشاف ج٢ص٢٨٢ .

هذه الكتب سواء نزلت على نفس الرسول ، او لرسول قبله وامر المتأخر بترويجه وتطبيق العمل عليه .

وثالثاً : لوصح الاستدلال بهذه الاية على ان لكل رسول كتابا فليصح الاستدلال بقوله « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب» (البقرة ٢١٣) على ان لكل نبى كتاباً وهو واضح البطلان. والجواب في كلتا الايتين واحد.

ورابعاً: انه منقوض من جانب الرسول، فهذا هو القرآن ، وصف اناساً بالرسالة مع انه لم يكن مع واحد منهم كتاب ، قال سبحانه : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا»(مريم- ٥٤)وقال عزمن قائل : « كذب اصحاب الايكة المرسلين ، اذ قال لهم شعيب الاتتقون ، اني لكم رسول امين (الشعراء ١٧٦-١٧٧) وقال سبحانه : اذ قال لهم اخوهم لوط الاتتقون ، اني لكم رسول امين » . (الشعراء - ١٦٦)

فهذه العصابة من الرسل لم يكونوا اصحاب كتب سماوية ولم يذكر أحد من الباحثين القدامى والمتأخرين كتاباً لهم،وماعزى اليهم احدمن اصحاب الملل وكتاب السير والتاريخ، كتاباً وماجاء لكتبهم ذكر فى الاحاديث الشريفة ،وفي مثل هذا المورد ، يصح ان يستدل بعدم الوجدان على عدم الوجود .

وقال سبحانه «ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات فماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون» (التوبة - ٧٠) فقد بعث الله هوداً الى عاد، وصالحاً الى ثمود ، وشعيباً الى مدين، الذين عدتهم الاية من الرسل ولم يثبت لواحد منهم كتاب . نعم نص القرآن على صحف ابراهيم وقال : «صحف ابراهيم

وموسى » (الاعلى ـ ١٩) كما نصت الروايات على كتاب نوح [١] .

وبذلك يظهر المقصود من قوله سبحانه « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ...» (آل عمران ـ ٨١) فالاية اما تنظر الى الانبياء بنظرة واحدة وتصف الجميع بقوله : « لما آتيتكم من كتاب » او المراد هو الكتب التشريعية السماوية التي تعد اساس دعوة الانبياء ويحتمل ان يكون المراد من «النبيين» خصوص اصحاب الشرائع فلاحظ .

وخامساً : ان هذا القول لايتلائم مع ما رواه الفريقان في عدد المرسلين والكتب، عن ابي ذر انه قال: قلت يارسول الله كم النبيون؟ قال: مأة الف، واربعة وعشرون الف نبي، قلت كم المرسلون منهم؟ قال ثلاث مأة وثلاثة عشر جماً غفيراً ... الى ان قال : قلت : يا رسول الله ! كم انزل الله من كتاب قال مأة كتاب واربعة كتب ، وانزل الله تعالى على شيث، خمسين صحيفة ، وعلى ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى ابراهيم، عشرين صحيفة ، وانزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان [٢] .

ولم يذكر فيه كتاب نوح... ولعله لم يكن في مقام الحصر والعد . روى صاحب الاختصاص تلك الرواية بسنده عن الصادق عليه السلام بصورة اخرى تختلف عن ما تقدم في عدد الانبياء قال : يا رسول الله ! كم بعث الله من نبي ؟

---

(١) اخرج الصدوق في عيونه ص٢٣٤ عن ابى الحسن الرضا ... ان كل نبي بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن ابراهيم الخليل ـ راجع البحار ج ١١ ص ٣٤

(٢) معانى الاخبار ص٥٩ الخصال ج٢ ص ١٠٤ ولاحظ العقائد النسفية للتفتازانى ص ١٦٩

قال ﷺ: ثلاث مأة الف وعشرين الف نبي، قال : يا رسول الله! كم المرسلون؟ فقال ثلاث مأة وبضعة عشر ، قال : يا رسول الله كم انزل الله من كتاب ؟فقال: مأة كتاب واربعة وعشرون كتاب ، انزل على ادريس خمسين صحيفة ، وهو«اخنوخ» وهواول من خط بالقلم ، وانزل على نوح [١] وانزل على ابراهيم عشراً ، وانزل التوراة على موسى والزبور على داود ، والانجيل على عيسى والقرآن على محمد ﷺ [٢] .

نعم روى في الاختصاص ايضاً عن ابن عباس انه قال : اول المرسلين آدم وآخرهم محمد ﷺ وكانت الانبياء مأة الف واربعة وعشرين الف نبى ، الرسل منهم ثلاث مأة ... الى ان قال : والكتب التى انزلت على الانبياء مأة كتاب واربعة كتب، منها على آدم خمسون صحيفة وعلى ادريس ثلاثون وعلى ابراهيم عشرون وعلى موسى التوراة وعلى داود الزبور وعلى عيسى الانجيل وعلى محمد ﷺ الفرقان [٣] .

فالرواية على ما نرى، مع أنها متفاوتة في حصر عدد الانبياء والكتب ومن نزلت اليهم هذه الصحف الا انها تنص على قلة الكتب عن الرسل ، وان الرسل كانوا اكثر من الكتب المنزلة باضعاف ، فكيف يمكن القول بان الرسول من انزل عليه كتاب ؟

الفرق الثالث(٤):

الرسول من جاء بشرع جديد ، والنبي يشمل هذا ومن جاء لتقرير شرع

---

(١) كذا فى النسخ

(٢) بحار الانوار ج ١١ ص ٦٠

(٣) بحار الانوار ج ١١ ص ٤٢ ـ الكشاف ج ٢ ص٣٥٢

(٤) وهذا الفرق كسابقيه داخل تحت عنوان واحد وهو كون الرسول اخص من النبى

سابـق [١] .

قـال الرازي : قيل ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شريعة من قبله ، فهو الرسول ، ومن لـم يكن مستجمعاً لهذه الخصال ، فهو النبي، غير الرسول .

قال البيضاوى في تفسير قوله سبحانه « ومـا ارسلنا من قبلك من رسول ولانبى» الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس اليها ، والنبيمن يعمه ومن بعث لتقرير شرع سابق .

ولكن باب المناقشة فيهذا القول واسع، فان الظاهرمن القرآن ونصوص الاحاديث،ان عدد الشرائع لايتجاوز الخمسة ، وبينما تعداد الرسلقد تجاوزها بكثير،فكيف يجوزلنا ان نفسرالرسول بانه المبتديء بوضع الشرائع والاحكام او هو من بعثه الله بشريعة مجددة .

قال سبحانه : « شرع لكم من الدين ماوصىبه نوحاً والذي اوحينا اليك ومـا وصينا بـه ابراهيم وموسى وعيسى ، ان أقيموا الدين ولا تفرقوا فيـه » (الشورى ـ ١٣) فان الاية فيمقام الامتنان على الامة الاسلامية ، من ان شريعتها جامعة لكل ما اشتملت عليه الشرائع السابقة النازلة على السلف من الانبياء ، فلوكانتهناك اصحابشرائعغيرماذكرفيالاية لكان اللازمذكره ليكون الامتنان آكد ، فظاهر الاية ان الشريعة متخصة بـالمذكورين في الاية : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ .

ولكن يمكن القول ان قوله سبحانـه « ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » تفسير«لما شرع لكممن الدين ماوصىبه نوحاً و... » ، ومعناه هوالاخذ بالدين باجمعه والتدين باحكامه وتشريعاته كافة و عدم الاختلاف فيه بأخذ طائفة ببعض

(١) تفسير المراغى ج١٧ ص١٢٧ .

الدين ، وطائفة اخرى ببعضه الاخر، كما فعلته الامم السابقه ، فهذا ماواصى به سبحانه كل من ذكر اسمه في الاية .

وعلى ذلك فلا تدل الاية على ان شريعة الاسلام جامعة للشرائع السابقة وتسقط دلالتها على كون اصحاب الشرائع خمسة ، زعماً بانها في مقام الامتنان لما عرفت من انها ليست الا بصدد الحث على الاخذ بالدين بمجموعه ، وان هذا هو حكم الله سبحانه في جميع الاجيال والازمنة ، لابصدد الامتنان على الامة الاسلامية بان دينهم جامع لما شرع للامم السابقة ، حتى يستدل بالاكتفاء بذكر الاربعة والسكوت عن غيرهم ، على عدمها ، نعم لاتخلو الاية من اشعار بانحصارها في الخمسة ، كما لايخفى .

نعم يؤيد انحصار الشرائع في الخمسة المذكورة ما اثرعن ابى الحسن الرضا عليه السلام انه قال: «انما سمى اولوا العزم، اولى العزم لانهم كانوا اصحاب العزائم والشرائع وذلك ان كل نبي بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه ، وتابعاً لكتابه الى زمن ابراهيم الخليل ، وكل نبي كان في ايام ابراهيم وبعده ، كان على شريعة ابراهيم ومنهاجه ، وتابعا لكتابه الى زمن موسى وكل نبي كان في زمن موسى وبعده، كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه ، الى ايام عيسى وكل نبي كان في ايام عيسى وبعده ، كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه الى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، فهؤلاء الخمسة اولوا العزم، وهم افضل الانبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله لاتنسخ الى يوم القيامة ولانبي بعده الى يوم القيامة ، فمن ادعى بعده نبوة اواتى بعد القرآن بكتاب، فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه[1].

وفي الرواية جهات من البحث يجب تنقيحها في محل آخر، وملخصها :

١ ـ ان تفسير « اولى العزم » بما ذكر فيها ، لايلائم ظاهر الكتاب اعنى

---

(١) بحار الانوار ج١١ ص٣٥ عيون الاخبار ص٢٣٤ .

قوله سبحانه : « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل (الاحقاف ـ ٣٥) اذا الظاهر ان المقصود من العزم فيه هو الثبات على العهد المأخوذ منهم، بقوله سبحانه : « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » (الاحزاب ـ ٧) وقد امر سبحانه نبيه الاعظم بالصبر والثبات اقتداء بمن سبق من اولى العزم من الرسل، حيث قال سبحانه : « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل » (الاحقاف ـ ٣٥) .

وبما ان آدم عليه السلام لم يعهد منه العزم في بعض المواقف ، ونسى العهد المأخوذ منه ، لم يعد من اولى العزم . قال سبحانه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » . (طه ـ ١١٥)

٢ ـ ان موسى عليه السلام وان دعا فرعون وكل قبطى الى توحيده سبحانه، غير ان ما جاء به من الشريعة والاحكام كانت مختصة ببنى اسرائيل فقط ، والى ذلك يشير قوله سبحانه : « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا » (المائدة ـ ٤٤) ولكن المستفاد من الرواية خلافه ، وان شريعته كانت عامة لهم ولغيرهم .

٣ ـ ان المراد من العزائم ما يقابل الرخص، والمراد منها هو الواجبات والمحرمات، فاذا كان الملاك لكونهم من اولى العزم هو كونهم أصحاب فرائض وذوى واجبات ومحرمات اوحيت اليهم فلماذا لم يكن غيرهم كصالح وهود وشعيب ممن اتوا بواجبات ومحرمات ، منهم أيضاً مع كونهم مثلهم .

وروي صاحب المحاسن عن سماعة قال ، قلت لابي عبدالله الصادق عليه السلام قول الله «فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل» فقال : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله قلت : كيف صاروا اولى العزم ؟ قال : لان نوحاً بعث بكتاب وشريعة، فكل من جاء بعد نوح، اخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتى

جاء ابراهيم بالصحف،وبعزيمة ترك كتاب نوح لاكفراً به ، فكل نبي جاء بعد ابراهيم ،جاء بشريعته ومنهاجه وبالصحف ، حتى جاء موسى بالتوراةوبعزيمة ترك الصحف، فكل نبي جاء بعدموسى اخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه، حتى جاء المسيح بالانجيل، وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه ،فكل نبي جاء بعد المسيح اخذ بشريعته ومنهاجه، حتى جاء محمد ﷺ بالقرآن وشريعتهومنهاجه فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة، فهؤلاء اولوا العزم من الرسل[1].

وعلى ذلك جرى شيخنا الصدوق في «الاعتقادات» وقال :

« ان سادة الانبياء خمسة ، الذين دارت عليهم الرحى ، وهم اصحاب الشرائع من اتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدمه ، وهم خمسة :نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ[2].

ركام من الاوهام والاكاذيب :

قد عرفت هذه الفروق المذكورة في كتب التفسير والمعاجم واتضح لك

---

(١) المحاسن ص٢٦٩ - بحار الانوار ج١١ ص٥٦ .

لو كان الملاك بعدهم من اولى العزم ، هو تركل واحدكتاب من قبله بعزيمة ، يلزم ان لايكون نوح منهم اذ لم يكن شريعة ولاكتاب قبله ، حتى يتركها بعزيمة .

اضف الى ذلك ان المسيح لم يترك شريعة موسى ، بل بين لبنى اسرائيل بعض الذى اختلفوا فيه (الزخرف- ٦٣) واحل لهم بعض الذى حرم عليهم (آل عمران- ٥٠) وليس ذلك تركاً للشريعة ورفضاً لهاكما هو ظاهر الرواية ولاجل هذه الجهات تحتاج هذه الرواية وما تقدم عليها ، الى البحث والامعان اكثر من هذا وقد اوضحنا الحال فى الجزء الثالث من هذه السلسلة لاحظ ص ١٠٧ - ١١٥.

(١) اعتقادات الصدوق ص١٠٧- ٩٦١١٥ .

انه لايوافقها الذكرالحكيم، والذي يحصل من الجميع ان الرسول اخص من النبي وهو اعم منه ، ولكن هناك من الضالين من حرف الكلم عن مواضعه[١] فصور المعنى بصورة شوهاء ، وشتان بين كاتب يكتب بدافع الايمان والعقيدة طلباً للحقيقة ، وكاتب مستاجر لاهدف له الادعم مانوى واضمر ، وتحكيم ما أستوجرعليه، وذلك يفرض عليه اختلاق الاوهام ونحت الاكاذيب يتحير عندها العقل والفكر .

نعم حرّف هؤلاء[٢] ما اثر عن القوم في المقام فقالوا : النبي هو الذي ينبيء عن الله وليس معه كتاب ، والرسول هو الذي بعث الى الناس وانزل معه كتاب، أو ان النبي هو الذي يقرر الشريعة السابقة فقط ، والرسول هو الذي يأتي بشريعة مستقلة[٣]. وعلى هذا تصير النسبة بين المفهومين ، هي التباين ، فيختص النبي بمن ليس له كتاب او من يقرر شريعة من قبله .

* * *

(١) ثانى الفروق وثالثها .

(٢) البهائية الضالة .

(٣) الفرائد ص١٣٥ ـ نعم نقل ذاك الفرق الجزائرى فى فروقه ص١٠٦ قولا ولايعبأ بهذا النقل تجاه تلكم التصاريح المضادة له ، واضعف منه ـ مانقله فى تفسير الجلالين فى تفسير قوله تعالى : وما ارسلنا من قبلك من رسول ولانبى، من ان الرسول هو من امر بالتبليغ، ولايخفى شذوذ هذا القول ،كسابقه ، ومضادتهما مع تصاريح أئمة الادب والتفسير.

ومما يثير العجب ما ذكره الطنطاوى بقوله : الرسول هو الذى معه كتاب والنبى ينبيء عن الله وليس معه كتاب ، فمثال الاول موسى والثانى يوشع فيوشع نبى لارسول وانما ينبيء قومه وموسى ينبأ قومه بكتاب معه ارسل به من الله ... الجواهر ج١٠ ص٤٠ـ اذ فيه مع ضعف القول فى نفسه ان ليوشع كتاباً معروفاً طبع مع كتب العهدين .

ومن الواضح انهذا القول باطل تماماً، فهذا هو الذكر الحكيم قدخاطب نبي الاسلام المبعوث بافصح الكتب واحكمها وقد تضمن شريعة مستقلة عن غيرها من الشرائع، بقوله: «يا ايها النبي» فهل يمكن لهؤلاء الكتاب المستأجرين ان ينكروا نزول الكتاب اليه او مجيئه بشريعة مستقله . فدونك نص ما خاطبه سبحانه بلفظ «يا أيها النبي» :

١ ـ يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ... (الاحزاب ـ ٢٨)

٢ ـ يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين ...

(الاحزاب ـ ٥٩)

٣ ـ يا أيها النبي انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ... (الاحزاب ـ ٤٥)

وهكذا ...فعلم مما اوردناه من الايات ان النبوة غير مقيدة بتقرير الشريعة ولا النبي منحصر في كونه غير ذي كتاب .

والغاية من هذا التحريف للقائل هو نفي دلالة قوله سبحانه : «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» على ختم الرسالة والنبوة معاً ، مدعياً انه انما ختمت الثانية، دون الاولى وان كونه ـ ص ـ خاتم النبيين ، لايلازم كونه خاتم الرسل .

وقد عرفت ان كلا الفريقين لايعاضدهما القرآن ، فكيف وقد حرفا وخصص النبي بمن يقرر الشريعة، أو لايأتي بكتاب، اذ انه باطل بنص الكتاب العزيز ، فقد استعمل النبي في أصحاب الشرائع والكتب وبذلك يظهر سقوط ما نقله الطبرسي عن الجاحظ ، انه قال: ان النبي يحفظ شريعة غيره والرسول هو المبتديء بوضع الشرائع والاحكام[1].

---

(١) مجمع البيان ج٧ ص٩١ .

الفرق الرابع (١)

ان العلوم والحقائق التي تفاض على الانسان بواسطة الملك بحيث يعاينه ويشاهده ويكلمه مشافهة أو يلقى في روعه تسمى رسالة ، والانسان الحامل لها رسولا وباعتبار ان مثل هذا الانسان يتلقى رسالة الله بواسطة رسل السماء ، حيث ادوا اليه رسالة ربهم ، يسمى رسولا ، اي ذا رسالة .

واما ما يفاض من العلوم بغير هذا الطريق فيسمى نبوة، والانسان العالم عن هذا الطريق نبياً ، سواء كان بالالهام مثل ما اوحي الله الى نبينا ليلة المعراج وما اوحي الى موسى في طور سيناء ، أو بسماع صوت بلارؤية شخص اوغير ذلك .

وعلى ذلك فالنبوة والرسالة مرتبتان للنفس في أخذ المعارف والحقايق من العلوم العلوية، احداهما مشروطة بحضور الملك ومعاينته ومشافهته للرسول والاخرى مقيدة باخذها من دون توسيط ملك بل بطريق اخرى .

وهذا الوجه هو مختار بعض الاجلة(٢) ولم اجد هذا الفرق برمته في كلام من تقدم عليه ، وما أثر من النقول في المقام يوافقه في بعض ما ذكره لا كله ، بل بعضها يشير الى خامس الفروق الذي سيوافيك بيانه ، وحاصله تخصيص النبوة بالرؤية في المنام .

ودونك بعض كلماتهم .

---

(١) وهذا الفرق يخصص الرسالة بمعاينة الملك واخذ الوحى منه مشافهة . واما النبى فهو مقيد بأخذ الوحى بلا توسيط ملك ، بل باحدى الطرق المألوفة من الرؤية فى المنام وغيره كما سيصرح ، فبينهما تباين فى النسبة .

(٢) العلامة الشيخ محمد باقر الملكى دام ظله .

١ - «ان الرسول هو الذي يرى الملك ويسمع منه ، والنبي يرى في المنام ولا يعاين[١].

وهذة العبارة توافق المذكور في ناحية الرسول فقط ، لا في جانب النبي ولا صراحة لها في ما ادعاه القائل من التعميم في النبي ، اعنى من ياخذ الوحي بغير توسيط ملك سواء أكان بالرؤية في المنام ام بغيرها ، بل هى تحتمل هذا الوجه من التعميم في جانب النبي ، وما يأتي في خامس الوجوه من تخصيص النبوة بالرؤية في المنام .

٢ - « النبي » هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك والرسول هو الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين[٢].

وهذا كما ترى يوافق الفرق المذكور في جانب النبي ويخالفه في ناحية الرسول، اذ لا يخص الرسول بمن يتحمل الرسالة بواسطة الملك بل يعمم الى محتملها بسبب الايحاء في المنام .

٣ - «الرسول» من يأتيه الملك بالوحي عياناً ويشافهه ، و«النبي» يقال لمن يوحى اليه في المنام[٣].

وهذا يوافق الفرق المذكور فى جانب الرسول ويخالفه في ناحية النبي حيث يخصصه بالرؤية في المنام وهو جعل النبي اعم منها، وان كان قيده بعدم توسيط الملك .

٤ - «الرسول» الذى تنزل عليه الملائكة بالوحى ، والنبى الذى يوحى

---

(١) الميزان ج١٥ ص٢٢٢ .

(٢) مجمع البحرين مادة «النبأ» .

(٣) فروق اللغة للجزائرى ص١٠٦ .

اليه في منامه ، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا [١]

ولولا انه قد رتب على كلامه مارتب، لكان ظاهره في بدء الامر موافقاً لما تقدمه غيرانه لما جعل النسبة بينهما اعم واخص مطلقاً ، وفرض ان النبى اعم من الرسول ، فقد خالف الكلام المذكور قبله في جانب النبى وان كان يوافقه من جانب آخر.

وكيف كان فقد استدل على كون النبوة والرسالة مرتبتين مختلفتين ، وان الرسول خصوص من ينزل عليه الملك ، بقوله سبحانه :

« وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جائهم الهدى ، الا ان قالوا ابعث الله بشراً رسولا. قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين[٢] لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (الاسراء ٩٤ - ٩٥)

ومحصل مضمون الايتين ، ان الذى يمنع الناس عن ان يؤمنوا برسالتك انهم يحيلون رسالة البشر من جانب الله (حيث قالوا : ابعث الله بشراً رسولا) وقد أخطأوا في ذلك، فان مقتضى الطبيعة الانسانية والارضية وعناية الله بهداية عباده، ان ينزل الى بعضهم من ابناء جلدتهم ملكا، من السماء رسولا لارشادهم، حتى ان الملائكه ، لو كانوا كالانسان من حيث العيش على سطح هذه الارض، لنزل الله الى بعضهم ملكا من السماء رسولا حاملا لوحيه ،وهذا يعطى ان الرسول انسان ينزل عليه ملك من السماء بدين الله ثم هو يبلغه الى الناس بامر الله [٣] .

---

(١) مجمع البيان ج ٧ ص ٩١

(١) اى يمشون على اقدامهم كما يمشى الانس ولايطيرون باجنحتهم الى السماء فيسمعوا من اهلها ويتعلموا مايلزمهم علمه

(٣) الميزان ج ١٣ ص ٢٢١ .

قال في الكشاف في تفسير قوله: « لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » يعلمهم الخير ويهديهم الرشاد، فاما الانس فماهم بهذه المثابة انما يرسل الملك الى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وارشادهم[1].

الى غير ذلك من الكلمات حول الاية، وهي تفيد ان رسالة اى فرد من البشر او الملائكة القاطنين في الأرض الى امثالهم، لاتستقيم الا بنزول ملك من السماء يحمل رسالة الله الى فرد مختار في الارض يتحملها الى اعداله وامثاله.

ويشعر بذلك ما قاله موسى عليه السلام عند ما خاطبه سبحانه بقوله « ان ائت القوم الظالمين »: «رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فارسل الى هارون » (الشعراء ١٠- ١٢) اى ارسل اليه جبرئيل واجعله رسولا مثلي واشدد عضدي به وقد اجيبت دعوته حيث جعل سبحانه اخاه رسولا مثله بقرينة قوله سبحانه: «فأتياه فقولا انا رسولا ربك، فأرسل معنا بني اسرائيل » (طه -٤٧) وقوله سبحانه، «فأتيا فرعون فقولا أنا رسول رب العالمين (الشعراء- ١٦) وهذا الوجه يؤيده بعض الاحاديث المروية بطرق صحيحة سوف نشير اليها ونترجم رجال اسنادها حسب اقتضاء المقام.

هذا غاية ما يمكن ان يوجه هذا القول، غير ان في دلالة الايتين على كون حقيقة الرسالة متقومة بنزول الملك على الرسول خفاء واضحاً.

فلانها سيقت لرد مزاعم بعض المشركين من امتناع ان يكون البشر رسولا مبعوثاً من الله الي الناس، وانه لابد ان يكون الرسول ملكا لابشراً، بان التماثل بين المرسل والمرسل اليهم اوفق في الغرض الذي لاجله بعث الرسول لان بين المتماثلين من التجاذب والتلاحم ما ليس في غيره، ولاجل ذلك جرت

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٦.

حكمة الله على جعل الرسل بشراً ولو استقرت الملائكة في الارض لجعل رسلهم من جنسهم ايضاً ملائكة، وليست الاية بصدد تحديد مفهوم الرسالة وانها متقومة بنزول الملك الى الرسول .

اضف الى ذلك ان دلالة قوله : « لنزلنا عليهم ملكا رسولا » على مايرتئيه القائل مبنية على ان يكون الملك النازل من السماء، رسولا الى الرسول المختار منهم لارسولا اليهم جميعا ، وعند ذاك يصح ما يراه القائل من كون رسالة الرسول حتى رسالة الملك بين الملائكة ، تتوقف على نزول ملك من السماء اليه، ينبئه باخبار السماء ، مع ان ظاهر الاية خلافه وان الملك النازل هو بنفسه نبي الملائكة ورسولهم لانه ينزل هذا الملك على ملك آخر ليكون هو الاخر رسولا .

واما الاية الثانية فلها اشعار بهذا القول ، ولايبلغ حد الدلالة لان طلب موسى من الله سبحانه ان يرسل جبرئيل الى أخيه ليخلع عليه الرسالة . لايدل على تحديد مفهوم الرسالة بنزول الملك فقط بل هو احد طرقها لاطريقها المنحصر.

الفرق الخامس :

النبي من يوحى اليه في المنام [1] فيطلع على بعض الملاحم والمغيبات ، ولكن الرسول يشاهد الملك ويعاينه ، ويكلمه رسول ربه ويراه.

والموافقة مع هذا القول مشكلة

---

(١) او عزاليه في مجمع البحرين في مادة «النبأ» ونقله قولا في مجمع البيان ج ٧ ص ٩١ ، والرازي في مفاتيحه ج ٦ ص ٣٤٤ ، واختاره صاحب الميزان في مواضع من كتابه ، راجع ج ١ ص ٢٨٠ و ج ١٣ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ و ج ١٤ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ، وما نقلناه من الكلمات في ذيل الفرق الرابع الماضي ربما يمكن ان يشير بعضها الى هذا الوجه .

فان اريد ان النبي عبارة عمن يوحى اليه في المنام ، وان حيثية النبوة قائمة بالا يحاء الى النبى بالمنام فقط ، كما ان الرسالة متقومة بمعاينة الملك ومشاهدته ،فيرده أن النبى صفة مشبهة بمعنى المطلع على الغيب على زنة اللازم اوالمخبر عن الغيب (اذاكان بمعنى الفاعل كما هو ظاهر بعض المعاجم)من اى طريق اتفق، سواءأكان بالايحاء اليه في النوم، اوبالقاء في قلبه وروعه. اوبسماع الكلام من جبل اوشجرة اوبمعاينة الملك ومخاطبته ، فلا دليل على اختصاصه بالاطلاع على الغيب بالايحاء اليه فى المنام .

وقد خاطب الله سبحانه نبيه الكريم في كتابه المجيد بقوله: «يا أيها النبى» في مواضع كثيرة ، او اطلق عليه النبى ، فهل ترى من نفسك ان تقول : ان ذلك الاطلاق انما هو بملاك الايحاء اليه في المنام ، مع ان الايحاء اليه انما كان بنزول الملك ـ دائماً او غالباً ـ كما هو ظهورقوله سبحانه:« نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين» (الشعراء ١٩٤ ـ ١٩٣)

نعم اتفق الايحاء اليه في المنام قليلا،كما يعرب عنه قوله سبحانه: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام ان شاءالله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون» (الفتح ـ ٢٧) وقوله سبحانه: «وماجعلنا الرؤيا التي اريناك الافتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فمايزيدهم الاطغياناً كبيرا» (الاسراء ـ ٦٠)

على انه يمكن ان يقال:انتلك الرؤياوماتقدم عليها وانكان اطلاعاًمنه على الغيب ولكنه لم يكن وحياً مصطلحاً ، وليس مطلق الكشف ومجرد الشهود والرؤيا الصادقة ، وحياً مصطلحاً .

وان اراد ان النبى مطلق من يصل اليه الخبر من جانب الله ويطلع على الغيب بواحد من الطرق التي المحنا اليها ، واليها يشير قوله سبحانه : «وماكان

لبشران يكلمه الله الاوحياً او من وراء حجاب ، اويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاءانه علىّ حكيم» (الشورى - ٥١) وان الايحاء في المنام احدى هذه الطرق، فهو حق في جانب النبى وتعاضده اللغة وموارد الاستعمال فالنبى مطلق المطلع على الغيب او المخبر عنه سواءأكان اطلاعه عليه بالايحاء اليه في المنام اوغيره

واما تخصيصه الرسول بمعاينة الملك فقد استدل عليه ببعض الآيات وايده بعض الروايات الآتية وقد تقدم بيانه .

وقد تمسكت الطائفة الضالة « البهائية » بهذا القول وادعت بان النبى هو خصوص من يوحى اليه في الرؤيا فقط ، وان المختوم انما هو النبوة بهذا المعنى ، لا الرسالة بمعنى مشاهدة الملك ومعاينته قبلا ، فختم النبوة لايلازم ختم الرسالة .

وقد وافاك ان هذا قول مجرد عن البرهنة ، وفارغ عن اى شاهد ، بل هي عبارة عن منصب معنوى يستدعى الاطلاع على الغيب باحدى الطرق التي المحنا اليها فختم هذا الباب وسده يستلزم ختم الرسالة لماسنوضح من ان النبوة اساس الرسالة وان ختم النبوة يلازم ختم الرسالة ، فانتظر .

الفرق السادس :

ان النبي والرسول كليهما مبعوثان الى الناس ، غير ان النبي بعث لينبيء الناس بما عنده من نبأ الغيب لكونه خبيراً بما عندالله ، والرسول هو المرسل برسالة خاصة زائدة على اصل نبأ النبوة كما يشعر به امثال قوله تعالى «ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط» (يونس - ٤٧) وقوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»(الاسراء - ١٥) وعلى هذا فالنبي هو الذى يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من اصول الدين وفروعه على ما اقتضته

عناية الله ، من هداية الناس الى سعادتهم ، هلاكا او عذاباً او نحو ذلك قال تعالى «لئلايكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (النساء ـ١٦٥) وعلى هذا يصير الرسول اخص من النبي كما هو صريح قول القائل «والرسول هو الرسول الحامل لرسالة خاصه » [١] .

وهذا الفرق لايخلو من خفاء ايضاً فان جعل الرسول من له رسالة خاصة تستتبع مخالفة العذاب لم يدل عليه دليل وما استدل به من قوله سبحانه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » لايدل على ان مارآه داخل في حقيقة الرسالة، وانها محددة به ، والدليل على ذلك انه لو قال مكانه «حتى نبعث نبياً » لكان صحيحاً ايضاً ، لتمامية الحجة ، ببعث النبى والرسول كليهما ، كما فى قوله سبحانه : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (البقرة ـ٢١٣) فلولا اتمام الحجة ببعث النبي لماصح توصيفهم بعد البعث ، بكونهم مبشرين ومنذرين .

وعلى اى حال فقد اضطرب رأيه في ابداء الفرق بين اللفظين فاختار في المقام مانقلناه عنه ، وقال في موضع آخر ان النبى هو الذى يرى في المنام ما يوحى به اليه ، والرسول هو الذي يشاهده الملك فيكلمه [٢].

وقد دفعه الى اختيار ثاني النظرين وروده فى الروايات ويظهر منه في موضع ثالث [٣] ما هو المختار عندنا وسوف يوافيك بيانه .

---

(١) الميزان ج ٢ ص ١٤٥ وج ٣ ص ٢١٦ حيث قال : ان النبوة هى منصب البعث والتبليغ ، والرسالة هى السفارة الخاصة التى تستتبع الحكم والقضاء بالحق بين الناس ، اما بالبقاء والنعمة او بالهلاك ... وسيوافيك امكان ارجاع كلامه هذا الى ما هو المعتمد عندنا اعنى سابع الوجوه ، مع تصريحه به فى ج ١٦ ص ٣٤٥ من ميزانه .

(٢) الميزان ج ١٣ ص ٢٢١ وج ١٤ ص ٤٢٩ .

(٣) الميزان ج ١ ص٢٧٤ حيث قال : النبوة معناها تحمل النبأ من جانب الله ←

ما هو المختار عندنا ؟

وقبل الدخول في البحث نقدم اموراً، تلقي الضوء على الحقيقة وتكشف الشك عن محيا الواقع .

الاول : النبأ في العرف العربي[١] الخبر الخطير الذي يستدعي الاهتمام به بالنظر الى غاياته وآثاره فهو اخص من مطلق الخبر ، وبه يسمى النبي نبياً لانه منبىء بما هو خطير من انذار او تبشير . والتنبـوء اخبار بالغيب ، لانه أظهر افراد الخبر الخطير واعظم مصاديق النباء العظيم[٢] .

النبي في اللغة مأخوذ من مادة «النبأ» بمعنى الخبر المهم العظيم الشأن او بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والاول أظهر ، واكثر العرب لاتهمزه ، بل نقل انه لم يهمـزه الا اهل مكة ، وقد انكر النبي على رجل قال له « يا نبيء الله »[٣] حيث روى ان رجلاقال له : «يانبيء الله» فقال: لاتنبر[٤] اسمى ، فانما انا نبي الله .

النبي «فعيل» بمعنى فاعل للمبالغة من النبأ : الخبـر ، لانه ينبيء عن الله ، اى يخبر عنه ، ويجوز فيه تحقيق الهمزة وتخفيفه ، يقال : نبأ ونبا وانبأ ، قـال

ـ والرسالة معناها تحمل التبليغ والمطاعية والاطاعة ونظيره ماافاده فى ج١٦ ص٣٤٥ فقد عد التبليغ من شؤون الرسالة ، مع انه عـده فى الجزء الثالث ص٢١٦ من شـؤون النبوة . والعصمةلله سبحانه ولمن اصطفاه من عباده .

(١) ننقل فى المقام نصوص اهل اللغة والعلم فى تفسير النبى والرسول .

(٢) المعجزة الخالدة ص ٧١ .

(٣) المنار ج ٩ ص٢٢٥ ورواه الصدوق فى معانى الاخبار ص٣٩ .

(٤) اى لاتهمزاسمى ، النبر همز الحروف .

سيبويه : ليس احد من العرب الا ويقول : تنبأمسيلمة بالهمزة غير انهم تركوا الهمزة في النبي ، كما تركوه في الذرية والبرية والخابية الا اهل مكة فانهم يهمزون هذهالأحرفالثلاثة ولايهمزون غيرهاويخالفونالعرب في ذلك كله[١].

قال الجوهري : يقال نبأت علىالقوم اذا طلعت عليهم ، ونبأت من ارض الى ارض ، اذا خرجت منهذه الى هذه . وهذا المعنى اراده الاعرابي بقوله «يا نبيء الله» لانه خرج منمكة الى المدينة فانكر عليه الهمزة ، لانه ليس من لغة قريش، وقيل ان النبي مشتق منالنبأة وهى الشيء المرتفع[٢].

حكى الصدوق في معانيه عن أبي بشر اللغوي انه سمع منه في مدينة «السلام» ان « النبوة » مأخوذ من «النبوة» وهو ما ارتفع من الارض ، فمعنى النبوة : الرفعة ومعنى النبي الرفيع[٣].

قال ابن فارس : ان النبي من النبوة وهو الارتفاع كأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته ،ويقولون: النبي ،الطريقو«النبأ» الخبر ، والمعنى المخبر ومن يهمزالنبي فلانه انبأ عناللهسبحانه[٤]،وقال فيالمعجم الوسيط[٥] :النبوة سفارة بين الله عزوجل وبين ذوى العقول لازاحة عللها ، النبي المخبر عن الله وتبدل الهمزة وتدغم فيقال : النبي .

هذه نصوص ائمة اللغة والتفسير ، ولو اردنا الاستيعاب لخرجنا عما هو المقصود وكلها تهدف الىانلفظ(النبي)لوكان مشتقاًمن «نبو»(الناقصالواوى)

---

(١) النهاية ، لابن الاثير .

(٢) راجع الصحاح مادة «النبأ» .

(٣) معانى الاخبار ص٣٩ .

(٤) المقاييس ، مادة «النبأ» .

(٥) اصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

بمعنى ارتفع ، فهو بمعنى المرتفع منزلة ، وان كان من النبـأ بالهمزة ، فهـو المخبر عن الله وعلى اى تقدير ، فلاترى في كلام واحد من اصحاب المعاجم دخول احد هذه الفروق المذكورة في صلب معناه وجوهره حسب الوضع الاولى، فلودل على شيء منها فانما هو لعلة اخرى كما نشير اليه في آخر البحث .

واما الرسول فقد قال الراغب في مفرداته :«اصل الرسل هو الانبعاث على التؤدة(التأني) يقال ناقة مرسلة،سهلة المسير ، وابل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلا، ومنه «الرسول» المنبعث، وتصور منه تارة الرفق فقيل على رسلك ، اذا أمرته بالرفق وتارة الانبعاث ، فاشتق منه الرسول .

وقال العسكرى في فروقه : أرسلت زيداً الى عمرو ، ويقتضى انك حملته رسالة اليه أو خبراً أو ما أشبه ذلك ... الى ان قال: والنبوة يغلب عليها الاضافة الى النبي فيقال نبوة النبي ،لانه يستحق منها الصفة التى هى على طريقة انفاعل والرسالة تضاف الى الله لانه المرسل بها ، ولهذا قال برسالتي ولم يقل بنبوتى، والرسالة جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤديها الى غيره ، والنبوة تكليف القيام بالرسالة فيجوز ابلاغ الرسالات ، ولا يجوز ابلاغ النبوات[1].

وكلا النصين من الراغب والعسكرى ، يهدفان الى أمر واحد ، وهـو ان الرسالة نحو سفارة من الغير ، لتنفيذ ما تحمله الشخص من جانب مرسله ،وان ما نقل من الفروق من اعلام التفسير وغيره خارج عن جوهرها وصلب معناها فان دل عليها فانما هو لامر آخر ،كما سيوافيك بيانه .

الثانى : المفهوم من التدبر في الايات وما فـي كلمات اعلام اللغة : ان النبي هو الانسان الموحى اليه من الله باحدى الطرق المعروفة ، واما الرسول

---

(١) الفروق اللغوية، الباب الرابع والعشرون ص ٢٢٢ .

فهو الانسان[١] (أو الاعم) القائم بالسفارة من جانب شخص سواء أكان هو الله او غيره[٢] بابلاغ قول او تنفيذ عمل . وان شئت قلت: ان النبوة منصب معنوي وارتقاء للنفس الانسانية ، تستدعى امكان الاطلاع على الغيب باحدى الطرق المألوفة، والرسالة سفارة للمرسل (بالفتح) من جانب المرسل (بالكسر) لتنفيذ ما تحمله منه في الخارج، أو ابلاغه الى المرسل اليهم. وان شئت قلت : النبوة تحمل الانباء والاخبار عن الله والرسالة تحمل التبشير والانذار والتبليغ من جانب أى شخص كان سواء أكان هو الله ام غيره[٣] وتصديق ذلك يتوقف على امعان النظر فيما نقلناه عن الاعلام في تفسير مادتى النبوة والرسالة اللتين اشتق منهما لفظا النبى والرسول .

توضيح ذلك : ان النبي باعتبار اشتقاقه من النبأ بمعنى الخبر[٤] كما عليه جمهور اللغويين عبارة عمن قام به المبدأ وهو «النبأ» فلا مناص في حالة اطلاق النبي علي شخص ، عن اتصافه بمبدئه وقيامه به بنحو من انحاء القيام فهو ـ بما انه واجد لهذا المبدأ أي الاطلاع على النبأ أو الانباء عنه ـ نبي .

ففي أي مورد اطلقت كلمة النبي في كلامه سبحانه او جاءت فى السنة واللغة فلا يراد منها الا من خصص بهذه المكانة، أي مكانة تحمل النبأ وشرف الاتصال بالله والعلم بما عنده والايحاء اليه باحدى الطرق المذكورة في القرآن الكريم اعني سورة الشورى الاية ـ ٥١ .

---

(١) وما اشبه حال اللفظين :النبى والرسول بلفظى «المجتهد» و«المبلغ».

(٢) سيوافيك بيان انه لايشترط فى صدق الرسول كونه مبعوثاً من جانبه سبحانه بل يعم ما لوكان مبعوثاً من شخص عادى ، فانتظر .

(٣) مثل قوله : فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك (يوسف ـ ٥٠) .

(٤) نعم لاكل خبر اوكل نبأ بل النبأ من الله ولو كان فى اللغة موضوعاً للمعنى المطلق لكن المصطلح استقر على استعماله فى النبأ من الله .

ولاجل ذلك نراه سبحانه يقرن لفظ الوحي بلفظ النبيين ويقول: «انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا» (النساء ـ ١٦٣) .

واما قوله سبحانه «وما ارسلنا من قبلك من رسول الانوحى اليه انه لااله الا انا فاعبدون» (الانبياء ـ ٢٥) فانتخاب الرسول دون النبي الذي هو المناسب للوحي انما هو لاجل قوله «ارسلنا» الذي يناسب الرسول كما سيوافيك بيانه، والاية تهدف الى ان الرسالات كلها كانت قائمة على اساس التوحيد ونفي عبادة غيره تعالى .

والمراد من الرسول في قوله سبحانه: «وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه» (الشورى ـ ٥١) هو امين الوحي[1] يعني ان الرسول (الروح الامين) يوحي الى ذلك البشر الذي أراد الله ان يكلمه ، باذنه سبحانه فالرسول في الاية موح لاموحى اليه كما لايخفى.

والى ذلك يشير العلامة اللغوي ـ العسكري حيث يقول في فروقه : «والانباء عن الشيء قد يكون من غير تحمل النبأ ...» فيريد ان النبوة متقومة بتحمل الخبر ولايشترط في صدقها كون النبي مأموراً بابلاغه الى الغير[2] بخلاف الرسالة فانها متقومة بتلك الحيثية .

وأما الرسالة : فحقيقتها عبارة عن القيام بانفاذ عمل أو ابلاغ كلام من جانب الغير سواء أكان هو الله سبحانه او غيره[3] وتحمل التبشير والانذار كما

(١) والا لكان الانسب مع قوله «فيوحي باذنه» لفظ «النبي» لا «الرسول» كما لايخفى.

(٢) نعم دلت ظواهر الايات على ان كل نبي كان مبعوثاً الى الناس كما مضى .

(٣) سيوافيك دليل عمومية الرسالة من جانب المرسل (بالكسر) كما سيوافيك دليل عموميتها من جانب نفس المرسل (بالفتح) .

نقلناه عن الراغب والعسكري .

ويدل على ذلك ان الله سبحانه اذا اراد من نبيه تبليغ كلام عنه او تحقيق عمل في الخارج يخاطبه كثيراً بقوله «يا أيها الرسول» لابلفظ «يا أيها النبي» كقوله سبحانه «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك» (المائدة - ٦٧) وقوله سبحانه: «قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكيا» (مريم - ١٩) وهذا صريح في ان منصب الرسالة هو منصب التبليغ وتنفيذ امر المرسل لا منصب نزول الوحي والانباء عن الله مباشرة .

واوضح منه ، انه سبحانه اذا اراد ان يحدد وظيفة سفرائه ويبين لهم أنهم بعثوا للتبليغ والابلاغ لا الاكراه والالزام، يقول: «فهل على الرسول الا البلاغ المبين» (النحل - ٣٥) وقوله سبحانه: «وما على الرسول الا البلاغ المبين» (العنكبوت - ١٨) وقوله سبحانه «فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين» (التغابن - ١٢) وقوله سبحانه : «الا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابداً» (الجن - ٢٣) .

والنتيجة: انه اذا تعلق غرضه سبحانه بالبلاغ باشكاله المختلفة، يقرنه بالرسالة دون النبوة ويقول سبحانه : «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه» (الاحزاب - ٣٩) ويقول سبحانه : «ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم» (الاعراف - ٦٢) ويقول أيضاً «انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به » (الاحقاف - ٢٣) الى غير ذلك من الايات .

ولذلك ترى المسيح عليه السلام لما أدعى السفارة من الله وانه جاء من عند الله لبيان احكامه ورسالاته خاطب قومه بقوله: «يا بنى اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة» (الصف - ٦) ولم يقل «انى نبى الله».

من كل ذلك يمكننا ان نستنتج ان الرسالة سفارة من المرسل لبيان ما تحمله (اى

فردكان) ونشره بين الناس،وان الحيثية المقومة للرسالة ، أمر يستدعي التبليغ والتنفيذ، واماالنبوة فانماهي منصب يستدعي الاتصال بالله سبحانه والعلم بماعنده من معارف واحكام ، ولاصلة بين الحيثيتين، سوى ان النبوة اساس الرسالة[1]، فلا تستقيم رسالة الانسان من الله الا بارتقائه الى مقام النبوة واتصاله بالمبدء الاعلى فكانت الرسالة من آثار النبوة .

ولكن هذا الامر لايجعل اللفظين مترادفين ومشيرين الى معنى واحد بل كل منهما موضوع لمعنى خاص لايختلط أحدهما بالاخر .

الثالث: ان النبى لم يستعمل في القرآن والحديث الافي الانسان الموحى اليه من الله وبما ان الجهة المقومة للنبوة عبارة عن كونه مطلعاً على الغيب أو منبئاً عنه ، فانه يصير النبي عندئذ عبارة عن الانسان الموحى اليه من جانب الله ، المطلع على الغيب ، أو المنبىء عنه ، فاعتبر فيه قيدان :

١ ـ كونه انساناً .

٢ ـ كونه موحى اليه من جانب الله سبحانه ومتحملا النبأ منه عزوجل

واما الرسول فلماكانت الجهة المقومة لرسالته، تحمل انفاذ عمل او بيان قول من جانب المرسل في اطار التبشير والانذار أو ما يشبهه فلا يلزم ان يكون انساناً بل يمكن ان يكون ملكا او جناً كما لايلزم ان يكون مبعوثاً من جانب الله سبحانه بل اعم منه ومن هنا تجد القرآن يتوسع في استعمال كلمة «الرسول» من ناحيتين :

الاولى : التوسع من ناحية المرسل ـ بالفتح ـ حيث اطلقه على الملك المكلف من قبله تعالى ، بانفاذ عمل كقوله سبحانه : «قالوا يا لوط انا رسل

(١) المراد ، الرسالة من جانب الله فلا ينافى ما سيوافيك من التوسع فى الرسالة.

ربك لن يصلوا اليك» (هود ـ ٨١) وقوله سبحانه : «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» (الحج ـ ٧٥) وقوله سبحانه «:حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون» (الانعام ـ ٦١) وهذا بخلاف النبي فانه لايطلق الاعلى البشر .

الثانية : التوسع من جانب المرسل ـ بالكسر ـ فلا يخصه بالمرسل من ناحيته سبحانه بل يطلقه على مطلق المبعوث من جانب الغير كقوله سبحانه : «وقال الملك ائتوني به فلما جائه الرسول قال ارجع الى ربك» (يوسف ـ ٥٠) ولانفهم من «الرسول» في الاية الا نفس المعنى الذي نفهمه من قوله سبحانه : «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » (المائدة ـ ٦٧) وهذا التوسع[1] في لفظ الرسول في ناحيتي المرسل (بالكسر) والمرسل من خصائص الرسالة ولايوجد شيء منه في النبي، فلايطلقه القرآن الاعلى البشر ـ دون الملك ـ وعلى الذي يوحى اليه من ناحيته سبحانه دون غيره .

نتائج البحث :

يستنتج مما ذكرناه امور :

الاول :

ان النبوة متقومة بالاتصال بالله والانباء عنه ونزول الوحي الى من يسند

(١) بل يجرى نظير هذا التوسع في لفظ المرسل، لقوله سبحانه: «اذا ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا انا اليكم مرسلون » يس ـ ٤١ ، فقد اتفقت كلمة اكثر المفسرين على ان المراد منه في الاية ، الفرقة المبعوثة من جانب المسيح الى ابلاغ دينه وقوله سبحانه: «اني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون» .
(النحل ـ ١٣٥)

اليه منصبها باحدى الطرق ، واما الرسالة فهى متقومة بتحمل الرسول ابلاغ كلام من المرسل الى المرسل اليه ، مثل قوله سبحانه : «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » (المائدة ـ ٦٧) أو تنفيذ أمر في الخارج كما في قوله سبحانه : «قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكيا »(مريم ـ ١٩) .

وعلى هذا فكل ما ذكروه في الفروق بين النبي والرسول سواء أصحت أم لا مما لايدل عليه اللفظان بما لهما من المعنى اللغوى ولاهي داخلة في صلب معناهما ولايدلان عليها باحدى الدلالات الثلاث [١].

فالنبي هو الانسان المتصل بالله سبحانه بسبب الايحاء اليه، بطرقه المعهودة[٢] والرسول الشخص المرسل من جانب المرسل أي فرد كان لتبليغ أمر او انفاذ عمل ، فليس في مفهوم الرسول المصطلح ، انه يوحى اليه ، وانه منبيء عن الله.

وان شئت قلت : النبي: للانسان المنبيء عن الله سبحانه ، او المطلع على الخبر منه سبحانه ، غير مقيد بشيء من هذه الفروق ، كما ان الرسول هو الشخص المرسل من جانب اي شخص كان لتنفيذ امر ، وابلاغ رسالة ، غير محددة بشيء منها ، ولاجل ذلك فان انفرد لفظ النبي بالذكر ، ولم يجمع مع لفظ الرسول لايتبادر منه الى الذهن الا المنبيء عن الله والمطلع على الغيب فقط .

ومثله لفظ الرسول ، اذا لم ينضم اليه لفظ النبي، فلا يتبادر منه الى اذهاننا الا القائم بابلاغ رسالة اوتنفيذ امر فقط ، من دون ان يتوجه الذهن الى احدى هذه الفروق كما لايتوجه الى كونه مرسلا من جانب الله، وعلى هذا فاللفظان مختلفان معنى واما النسبة ، فحيث ان القرآن يتوسع في استعمال الرسول ،

---

(١) دلالة اللفظ على تمام معناه، دلالة مطابقية ، وعلى جزئه تضمنية وعلى لازم معناه التزامية .

(٢) وهذا هو المفهوم من مرادفه فى اللغة الفارسية « پيامبر » او «پيغمبر » .

فيطلقه على الانسان والملك ، بخلاف النبي فلا يستعمله الا في الانسان ، بل يتوسع في استعمال الرسول من جانب المرسل (بالكسر) فيطلقه على المبعوث لامن جانبه سبحانه ، مثل قوله سبحانه : « فلما جائه الرسول قال ارجع الى ربك» (يوسف ٥٠) بخلاف النبي فيخص بالانسان الموحى اليه من ناحيته سبحانه تكون النسبة هي الاعم والاخص مطلقاً ، فليس كل رسول نبياً، لما عرفت من التوسع واما كون كل نبي رسولا فلو قلنا بان كل نبي مبعوث الى تنفيذ رسالة ما يصح ما ذكر من النسبة: فكل نبي رسول ، وليس كل رسول نبياً لما عرفت من التوسع في الجانبين .

واما اذا سلمنا كون بعض النبيين غير مبعوث الى تنفيذ رسالة ، فتنقلب النسبة الى العموم والخصوص من وجه ، فبعض النبيين ليس برسول ، كما ان بعض الرسل كالمبعوث من جانب غيره سبحانه ليس بنبي وقد يجتمعان كما في نبينا وغيره من اصحاب العزائم وغيرهم .

ثم اني وقفت بعد ما حررت ذلك على كلمات تصرح ببعض ماذكرناه :

١ ـ النبوة تحمل النبأ من جانب الله والرسالة معناها تحمل التبليغ[١].

٢ ـ للرسول شرف الوساطة بين الله تعالى وعباده ، وللنبي شرف العلم بالله وبما عنده[٢].

٣ ـ الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله الى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه[٣].

---

(١) الميزان ج١ ص٢٨٤ .

(٢) الميزان ج٢ ص١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ج١٦ ص٣٤٥ . المراد تحديد الرسول المصطلح والافليس في معناه كونه مبعوثاً من جانبه سبحانه وبذلك يظهر حال اكثر الكلمات .

٤ ـ الاقرب انه لافرق بينهما من حيث ان كلا منهما ينبئه الله بما يريد فاذا انبأه وامره بالتبليغ، اطلقت عليه كلمة النبي، لان الله تعالى انبأه، وكلمة الرسول لانه تعالى امره بالتبليغ[١].

٥ ـ الرسول والنبي واحد والاختلاف انما هو بالنظر والاعتبار من حيث انه يحمل رسالة الله، يقال له رسول، ومن حيث انه ينبيء بها الذين ارسل اليهم يقال نبي[٢].

والحاصل ان ماذكر من الفروق سواء أصح ام لافكله في مرتبة متأخرة عن حقيقة الرسالة والنبوة غير مأخوذ في صلب معناهما وانما يصار اليها لقرائن أخر.

ويظهر مما ذكرناه ضعف ما نقلناه عن بعض الاجلة: « ان ماكان من العلوم والحقائق يفاض على الانسان بواسطة الملك بحيث يشاهده ويكلمه مشافهة ويقرأ عليه كلام ربه او يلقى في روعه يسمى رسالة، والانسان الحامل رسولا، واما مايفاض اليه بغير الطريق المذكور يسمى نبوة والانسان العالم بهذا الطريق نبياً »

فانه ينقض عليه: بان كل ما ذكره، وان كان مؤيداً ببعض المأثورات لكنه خارج عن حقيقة معنى النبوة والرسالة حسب الوضع اللغوى، ولم يثبت ان للقرآن اصطلاحاً خاصاً اوحقيقة شرعية في اطلاق اللفظين واستعمالهما، والظاهر أن القرآن جرى في اطلاقه واستعماله مجرى المألوف بين اهل اللسان، ولم يجيء في المقام باصطلاح خاص.

وعلى ذلك فكل ما ذكروه من الفروق، من ان الرسول هومن نزل عليه كتاب اواتى بشريعة جديدة، اوخصوص من كان مأموراً بالتبليغ من الله، او من يتلقى الوحي عن رسل السماء والملائكة، وان النبي على خلافه، فلايشترط

---

(١) الكاشف ج٥ ص٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه ج٧ ص٩١.

فيه نزول الكتاب او مجيئه بشريعة جديدة ، او كونه مأموراً بالتبليغ من الله او غيرذلك ، كلها على فرض صحتها ، خارجة عن صلب معناهما ، اذ لايدل اللفظان على واحد منها اصلا .

وبذلك يظهر ان الرسول وان كان يجب اطاعته فيما يأمروينهى ، لقوله سبحانه : « وما ارسلنا من رسول الاليطاع باذن الله » (النساء ـ ٦٤) أو انه وان كان يتم الحجة على عباده سبحانه ، بحيث تستتبع مخالفته هلاكا وعذاباً ، لقوله سبحانه « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (النساء ـ ١٦٥) غير ان ذلك لايستلزم دخول لزوم الاطاعة واتمام الحجة في صلب معنى الرسول ، فان وزان قوله سبحانه : « وما ارسلنامن رسول الاليطاع باذنه» وزان قوله سبحانه : « وماكان لرسول ان يأتي بآية الاباذن الله » (الرعد ـ ٣٨) بل كلاهما من لوازم الرسالة الالهية التي تحملها الرسل ، فان الهدف الاسمى من ارسال الرسل ، قطع العذر على الناس ، واتمام الحجة عليهم ، وعند ذاك يجب على الناس اطاعتهم فيما يأمرون وينهون من جانبه سبحانه .

ولعل الى ذلك يشير سيدنا الاستاذ بقوله : « ان النبي والرسول كلاهما مرسلان الى الناس ، غير ان النبي بعث لينبىء الناس بما عنده من نبأ الغيب لكونه خبيراً بما عندالله، والرسول هو المرسل برسالة خاصة زائدة على اصل نبأ النبوة ، كمايشعر به امثال قوله تعالى : «ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط (يونس ـ ٤٧) وقوله تعالى: « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الاسراء ـ ١٥) .

وعلى هذا فالنبي هوالذي يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من اصول الدين وفروعه على مااقتضته عناية الله من هداية الناس الى سعادتهم والرسول هوالحامل لرسالة خاصة مشتملةعلى اتمام حجة يستتبع مخالفتهاهلاكاً أوعذاباً

اونحـو ذلك قـال تعالى « لئـلا يكون للناس علـى الله حجة بعد الرسل » «النساء ـ ١٦٤) ولاحظـر من كلامه تعالى في الفرق بينهما ازيـد ممايفيده لفظهما بحسب المفهوم ، ولازمـه هو الذي أشرنـا اليه من ان للرسول ﷺ شرف الوساطة بين الله تعالى وبين عباده ، وللنبي ﷺ شرف العلم بالله وبما عنده »[1] .

* * *

نعم بقى هنا سؤال:

وهو انه اذا سلمنا ان النبي والرسول لايقصد منهما ازيدممايفيده لفظهما بحسب المفهوم ولافرق بينهما الا فى المعنـى الجوهري الذي يدلان عليـه ، وان ماذكر من الفروق كلـها خارج عن صلب المعنى وماوضع لـه اللفظ ، فكيف نفسر قوله سبحانه « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » (مريم ـ ٥٤) وقوله سبحانه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته» (الحج ـ ٥٢)

الجواب:

ان مفاد هذه الايات علـى ماحققناه واضح ، اما فيما اذا وقعا وصفيـن لشخص واحد مثل قوله سبحانه : « وكان رسولا نبياً » (مريم ـ ٥٤) وقوله سبحانه: « الذين يتبعون الرسول النبي الامي » (الاعراف ـ ١٥٧) فالمراد الدلالـة على انه واجد لكلا المنصبيـن ، ومتصف بكلتـا الحيثيتين اذ للفرد الموحى اليه،المبعوث من الله سبحانـه لابلاغ احكامه ، شؤون ومناصب أو

(١) الميزان ج٢ص١٤٥ وقد عرضنا آرائه المختلفة فىماسبق.

صفات وحالات ، فبما انه يوحى اليه وله اتصال بالمبد الاعلى ومطلع على الغيب اومنبيء عنه فهو نبي، وبما انه يتحمل رسالة من الله تعالى ويتم حجته على العباد، ويجب عليه ارشاد الناس وانذارهم، فهو رسول، (رسلا مبشرين ومنذرين» (النساء - ١٦٥).

وأما اذا استعملا على وجه يشيران الى طائفة مثل قوله سبحانه : « وما أرسلنا من رسول ولانبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته» «الحج - ٥٢) قان الظاهر ان كل واحد من اللفظين يشير الى طائفة وجماعة واحدة ولايدل على تعدد الطائفتين مصداقاً، وان الموصوف بالنبوة غير الموصوف بالرسالة حسب الوجود، بل يمكن أن يكون اللفظان بما لهما من المعنى حاكيين عن جماعة واحدة لهم شأن النبوة والرسالة، فيصير هدف الاية : انا ماأرسلنا أحداً من هذه العصابة الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته، غير انه طلباً لجلية الحال وتوخياً فى استيعاب كل واحد منهم بلااستثناء، وان الحكم يعم رسولهم ونبيهم عطف أحدهما على الاخر، طلباً لشمول الحكم لهم جميعاً، وان بلوغهم مرتبة النبوة والرسالة، ماءنعهم عن هذه الهواجس .

وان ابيت الا عن ظهور الاية في تعدد الطائفتين وجوداً ومصداقاً وان هنامجموعتين: انبياءورسلا ويفترق بعضهاعن بعضهافعندئذ نقول: قصارى مايمكن أن يقال ان كل واحد من اللفظين اذا انفرد بالذكر ، لايدل الا على المعنى الذي أشرنا اليه، من دون دلالة على أحد من هذه الفروق، ومن دون أن نلتزم بالتفرقة بينهما بواحد من هذه الفروق، مثلا اذا قال سبحانه: « ياأيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » (الاحزاب - ٤٥) فلايقصد من لفظ النبي ، الاكونه المطلع على الغيب والمنبيء عنه من دون أن يشير الى واحد من هذه الفروق .

واذا قال سبحانه : « يا أيها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك » لا يقصد منه الا صاحب الرسالة والمبعوث الى الناس لابلاغ كلام، أوتنفيذ عمل من دون أن يدل على كونه ذاكتاب، أوشريعة جديدة، أومعايناً للملك وآخذاً منه الوحي، فان واحداً من هذه المعاني لايخطر ببال أي عربي عند سماع هذين اللفظين .

نعم اذا اجتمعافي الذكر، واشارا الى طائفتين مثل قوله سبحانه: «وماأرسلنا من رسول ولانبي » فالاعتراف بظهورالاية فيما ادعاه القائل من دلالة اللفظين على ان هناطائفتين، مختلفتين، لكل منهماصفة وخاصية ، يدفعناالى ابداءالفرق بينهمابأحدمن الوجوه المذكورة في كلمات القوم مضافاً الى مايفيده لفظهما فيكون وزان النبـي والرسول وزان الظرف والجار والمجرور والفقير والمسكين ، «اذا افترقا اجتمعا، واذا اجتمعا افترقا» وقدعرفت حال الوجوه السالفة، وأقربها الى الاعتبار هو الوجه الرابع المؤيد ببعض الروايات .

الثانى :

ان منصب النبوة اسمى من مقام الرسالة، والنبي بماهو نبي ، اشرف من الرسول بما هو رسول، لماعرفت ان الحيثية المقومة للنبوة ، هي الاتصال بالله واستعدادالنفس لوعي ماينزل به الوحي من المبدء الاعلى، والحيثية المقومة للرسالة هي تحمل تنفيـذ عمل أو ابلاغ قول من المرسـل وأين شرف الاتصال بالله والمبدء الاعلى من شرف تحقيق عمل في الخارج أو ابلاغ كلام عن شخص الى الغير ؟

وقد عرفت ان النبي لم يستعمل في القرآن الا في الانسان الموحى اليه، المبعوث من ناحيته سبحانه الى الناس ، وأمّا الرسول فقد توسع فيه القرآن

ولايختص بالانسان الموحى اليه من الله بل يستعمل فى الاعم .

وبذلك يمكن أن يقال : ان النبي فى مصطلح القرآن أفضل من مطلق الرسول فان فى توصيف الشخص بكونه نبياً يدل على كونه قد احتل مكانة مرموقة، وليس كذلك عند وصفه بكونه رسولا، اذيحتمل ان يكون نبياً مرسلا من جانب الله أومن جانب نبيه، أوشخص ثالث ولا يتأتى مثل هذا الاحتمال فى النبي وبذلك يعلم سرّ اطراء عدة من الانبياء بالرسالة أولا وبالنبوة ثانياً، قال سبحانه: «الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل » (الاعراف - ١٥٧) ويقول سبحانه: « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » (مريم - ٥٤) وقال عزاسمه «واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً » (مريم - ٥١) وقال عز من قائل : - « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته » (الحج- ٥٢) .

ترى سبحانه انه عند ماراد اطراء نبي من الانبياء وتوصيفه بمافيه من الصفات، يصفه اولا بكونه رسولا. ثم يردفه بكونه نبياً، وماذك الا لمااوضحناه من سمو مقام النبي وكرامته على مطلق الرسول وأحقيته منه، عند الاطلاق ، فلوكان الامر على ما اشتهر بين الناس من أحقية الرسول وأفضليته، لما صحّ له سبحانه ان يترقى من الوصف العالي الى ماهو أنزل منه، خصوصاً اذا كان فى مقام الاطراء والمدح، كماهو الحال فى الايات كلها غير الرابعة .

* * *

الثالث :

النبوة اساس رسالة الانسان من الله سبحانه ، اذ رسالة الانسان من جانب

الله سبحانه لابلاغ أمره أو زجره لا يتحقق الا باتصاف الرسول بالنبوة وارتقاء نفس النبي الى حد يقدر معه على وعي الوحي، ويصبح به جديراً بنزول كلام الرب عليه، اذا الرسول الذى امرنا الله بوجوب اتباعه واقتفائه، وحرمة التخلف عن امره ونهيه ، كما هو صريح قوله سبحانه :« وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (النساء ـ ٦٤) هو المبعوث من جانب الله ، المبلغ عنه احكامه ودساتيره ، المؤدى عنه سبحانه كل ما يقوله ، من صغير وجليل ، ولا يصير الانسان مؤدياً عنه سبحانه الا اذا استمسك بباب الوحى واعتصم به واستند اليه فى قوله ونقله وابلاغه واتصف بالتنأ به [1]

الرابع

قد تبين فى الأمر المتقدم ، ان القسم الخاص من الرسول [2] ، اعنى الانسان المبعوث من جانب الله سبحانه ، هو نفس النبى مصداقاً وان النسبة بينهما من حيث المصداق هى التساوى، وعلى ذلك ،فلا فرق بين ان تقول : « محمد رسول الله وخاتم النبيين » او تقول : « وخاتم الرسل » للتلازم بين الامرين،من حيث المصداق فلو فرض انه اوصد باب النبوة وختم نزول الوحى الى اى انسان (كما تشير اليه مادة النبأ و النبوة) فعند ذك يختتم باب الرسالة الالهية ايضاً بلا ريب وتردد ، لانها تحقيق ما تحمله النبى من جانب الله عن

---

(١) ويدل على ذلك ما استفاض نقله عن الصادقين (ع) : «ان الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم عبداً قبل ان يتخذه نبياً وان الله تعالى اتخذه نبياً قبل ان يتخذه رسولا : وان الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا ، وان الله تعالى اتخذه خليلا قبل ان يجعله اماماً» (الكافى باب طبقات الانبياء والرسل ص٩٤) .

(٢) قد عرفت ان الرسول فى القرآن هو صاحب الرسالة سواء تحملها من الله ، او من جانب نبيه او من جانب شخص عادى ، ولاجل ذلك خصصنا الكلام بالقسم الخاص.

طريق الوحى ، فاذا انقطع الوحى ، والاتصال بالمبدء الاعلى والاطلاع على ما عنده سبحانه ، فعند ذاك ، فقد احد اركان الرسالة ، أو ركنها الركين ، اى التبليغ من جانب الله مستنداً الى الوحي فتصير الرسالة عندئذ منتفية بانتفاء موضوعها .

فاذا كان محمد ﷺ خاتماً للنبيين ، اى مختوماً به الوحي والاتصال فهو خاتم الرسل والمرسلين [1] طبعاً ، لان رسالة الانسان من جانب الله سبحانه ، عبارة عن بيان وابلاغ ما اخذه منه عن طريق الوحى ، فلا تستقيم رسالة اى انسان من جانبه سبحانه ، اذاانقطع الوحى والاتصال به تعالى ، ولا يقدر ان يتقول اى ابن انثى بالرسالة من ناحيته عزوجل ، اذا كانت النبوة موصدة باعترافه .

وبذلك يعلم ان كلا اللفظين («خاتم النبيين» و «خاتم الرسل») وان كانا مفيدين لمعنى واحد ، الا ان اختيار الاول على الثانى لاجل ان النبوة اساس للرسالة من جانب الله، حيث انه يجب ان يعتمد الرسول فى ابلاغه وانذاره وارشاده، على الوحى والاتصال بالله سبحانه ، ولا يفيده الا لفظ النبى دون غيره. فاذا اصحر المتكلم بانهاء الوحى وانقطاعه من السماء الى الارض الى يوم القيامة وقال : «انه خاتم النبيين» اى انه آخر من يوحى اليه، وانه لن يوحى من بعده الى احد يلزم منه ختم باب الرسالة الخاصة بطريق اولى ، ويكون من باب افادة المقصد ببينة وبرهان ، كما لايخفى [2] ، واما ختم الرسالات الاخر ، كرسالة الملك

---

(١) المراد ، القسم الخاص من الرسالة ، لا الرسالة من جانب النبى ولا من جانب الشخص العادى .

(٢) قال العلامة الطباطبائى دام ظله ـ بعد ما اختار فى معنى الرسالة والنبوة ما اوضحنا ، واقمنا برهانه ـ ما هذا لفظه : ولازم ذلك ان ترتفع الرسالة بارتفاع النبوة فان الرسالة من انباء الغيب فاذا انقطعت الانباء ، انقطعت الرسالة . الميزان ج١٦ ص٣٤٦.

من الله سبحانه فلاصلة له بالبحث ، سواء أكان بابها مفتوحاً ام موصدة ، واما الرسالة من جانب النبى والرسول ، فلانبى بعده ،حتى يكون لهذاالنبى،رسول واما الرسالة من ناحية فرد عادى ، فهو خارج عن المقصود .

هذا ما اوصلنا اليه التد بر فى آيات الذكر الحكيم وكلمات الفطاحل الاعلام ، ونردف المقام بالبحث عن الروايات الواردة عن ائمة اهل البيت عليهم السلام :

* * *

بحث و تنقيب

قد اضطربت الروايات المروية عن أئمة أهل البيت، حول تفسير الرسول والنبي ، اضطراباً يعسر ارجاعها الى امرواحد الا بامعان وتدبر عميق ، وتلك المأثورات على اقسام ننقلها تحت اقسام ، حتى تسهل الاشارة اليها .

الاول:ما يسوق منصبى النبوة والرسالةالى اربع درجاتولايفرق بينهما قدر شعرة :

اخرج الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمدعن أبي يحيى الواسطي[1] عنهشامبن سالم ودرستبن أبي منصورعنه قال أبوعبدالله عليه السلام: « الانبياء والمرسلون على اربع طبقات [2] : «فنبيمنبىءفي نفسه لايعد وغيرها ونبييرى في المنام ويسمع الصوت ولايعاينهفي اليقظه ولميبعث الى احد، وعليه امام ، مثل مـا كان ابراهيم على لوط[3] ونبي يرى في منامه ويسمـع

---

(١) قال الغضائرى : حديثه يعرف تارة وينكر اخرى ، ويجوز ان يخرج شاهداً وقد استثنى ابن الوليدوابن نوح وابن بابويه من روايات «محمد بن احمد بن يحيى» ما رواه عن «ابى يحيى الواسطى وقرره الشيخ فى فهرسه والنجاشى فى رجالـه . راجع قاموس الرجال ج ٥ ص٤٣ .

(٢) ويحتمل ان يكون المراد، انقسام مجموع الصنفين الى اربعة ، لاكل واحد، وعندئذ يخرج الحديث عن الدلالة على هذا القـسم .

(٣) الظاهر من التمثيل: «لوط» من جهة انعليه اماماً ، لامن جهةانه لايعاينه حتى ينافى قوله سبحانه : ولما جائت رسلنا لوطاً سيئ بهم وضاقبهم ذرعاً (هود-٧٧) ولامن جهة انهلم يبعثالىاحد حتىينافىقوله تعالى :وان لوطاً لمن المرسلين(الصافات- ١٣٣)

الصوت ويعاين الملك ، وقد ارسل الى طائفة قلوا أو كثروا ، كيونس ، قال الله تعالى : وارسلناه الى مأة الف أو يزيدون (قال : يزيدون ثلاثين الفاً) وعليه امام ، والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين (الملك) في اليقظة وهو امام مثل اولى العزم[١] وقد كان ابراهيم نبياً وليس بامام حتى قال الله : اني جاعلك للناس اماماً ، قال ومن ذريتي فقال الله: لاينال عهدي الظالمين من عبد صنماً أو وثناً لايكون اماماً»[٢] والرواية مع قطع النظر عما يحتاج الى التوجيه ، كما اشرنا اليه في التعليقة ، يخالف ما استظهرناه من الايات من كون كل نبي مبعوثاً الى الناس ، وانه ليس لنا نبي لايعدو نفسه ، كما هو نص الرواية ، الا على بعض الوجو ، كما هو الحال في بدء الوحى وقبل الامر بانذار ، ولكنه يويد ما أوضحناه من كون النسبة بين الرسول[٣] والنبي هو المساواة حسب المصداق

واما ما اخرجه الكليني بسند موثق عن ابن أبي يعفور ، قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : «سادة النبيين والمرسلين خمسة وهم اولوا العزم من الرسل ، وعليهم دارت الرحى : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم»[٤] فليس من احاديث هذا الباب ، بل غايته ان هناك نبياً ومرسلا ، واما تساوى النبوة والرسالة ، والنبي والرسول فلا يستفاد منه اصلا .

* * *

الثاني : مايخصص النبوة بتجلى الله على نبيه في اليقظة ، ولا يطلقها على

---

(١) قد حددوا اولوا العزم بقيود اربعة : من رؤية فى المنام ، وسماع صوت الملك ، ومشاهدته ، وهو امام .

(٢) الكافى ج ١ باب طبقات الانبياء والرسل والائمة ص ١٧٤، ١٧٥ .

(٣) المراد الرسالة من الله فلا تغفل .

(٤) الكافى باب طبقات الانبياء والرسل ص ٨٤ .

غيره من مراتب الوحى[١] .

روى الصدوق عن زرارة قال، قلت لابي عبدالله عليه السلام جعلت فداك : «الغشية التى تصيب رسول الله اذا انزل عليه الوحى ، قال فقال : ذاك اذا لم يكن بينه وبين الله احد ، ذاك اذا تجلى الله له ، قال ثم قال : تلك النبوة يا زرارة واقبل يتخشع»[٢] .

ويمكن توجيهه بحملها على الدرجة الكاملة من النبوة ، وان كانت النبوة غير منحصرة في هذا القسم ، كما ينبىء عنه قوله عليه السلام تلك النبوة ، فلاينافي ما اوضحناه .

واما حديث الغشية ، فقد اوضحه الامام في رواية اخرى بقوله: « ان جبريل اذا اتى النبى لم يدخل عليه حتى يستأذنه فاذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد ، وانما ذلك عند مخاطبة الله عزوجل اياه بغير ترجمان وواسطة [٣].

الثالث: مايظهر منه اختصاص النبوة بالايحاء في المنام، والرسالة بمعاينة الملك[٤] .

---

(١) وقد نقله قولا فى مجمع البحرين مادة «نبأ» .

(٢) التوحيد للصدوق ص ١١٥ طبعة مكتبة الصدوق .

(٣) راجع البحار ج ١٨ ص١٠٢ .

(٤) الظاهر ان المراد من الملك فى هاتيك الروايات هو جبرئيل ولو كان مطلق من كلمه الملك اورآه رسولا ، يلزم ان تكون سارة زوجة ابراهيم ومريم بنت عمران رسولتين ، بل كل من كلمه الملكان ببابل ، رسولا ، وعند ذلك يمكن ان يقال : ان المراد من الملك فيها هو جبرئيل وله بين الملائكة شأن عظيم وهو رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم امين .

وقد جعل المجلسى فى «مرآة العقول» ج١ ص١٣٤ هذا المعنى احد الاحتمالات

اخرج الكليني عن احمد بن محمد [١] ومحمد بن يحيى [٢] عن محمد بن الحسين [٣] عن علي بن حسان [٤] عن ابى فضال [٥] عن علي بن يعقوب الهاشمي [٦] عن مروان بن مسلم [٧] عن بريد [٨] عن ابى جعفر وابى عبد الله عليهما السلام في قوله عزوجل: «وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث» قلت جعلت فداك: ليست هذه قرائتنا ، فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال : الرسول الذى يظهر له الملك فيكلمه ، والنبي هو الذى يرى في منامه وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد ، والمحدث الذى يسمع الصوت ولايرى الصورة؟ قلت: اصلحك الله كيف يعلم ان الذى راى في النوم حق وانه الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الانبياء [٩].

* * *

الرابع: مايظهر منه ان للنبي شأنين (الايحاء اليه في المنام وسماع صوت الملك بلامعاينة، وللرسول شئون ثلاثة وهي هذان الامران مضافاً الى معاينة الملك:

---

(١) ولعله العاصمي كما احتمله المجلسي في مرآته وليس المراد احمد بن محمد بن عيسى الاشعري لان الكليني لايروى عنه الا بواسطة .

(٢) العطار القمي .

(٣) محمد بن الحسين بن ابى الخطاب وهو ثقة جليل .

(٤) علي بن حسان الواسطي، لاالهاشمي، لانه لايروى الا عن العمش وهو ثقة جليل.

(٥) اى الحسن بن الفضال ، لا ابناه : علي بن الحسن واحمد بن الحسن ، وهو امامي ثقة وكان فطيحاً ولكنه استبصر .

(٦) لم يعنون في كتب الرجال والظاهر من متن الحديث انه كان امامياً ، ولو كان مطعوناً ،لذكر في كتب الرجال .

(٧) ثقة جليل .

(٨) العجلي ثقة جليل عديل زرارة ومحمد بن مسلم ، فالخبر وان لم يكن صحيحاً اصطلاحاً الا انه حجة ومعتبر .

(٩) الكافي ج١ ، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث ص٨٥ .

١ ـ اخرج الكليني عن عدة [١] من اصحابنا، عن احمد بن محمد [٢] عن احمد بن محمد بـن ابى نصر [٣] عن ثعلبة بن ميمون [٤] عن زرارة [٥] قال سألت اباجعفر عن قول الله عزوجل «وكان رسولا نبياً» ما الرسول وما النبى ؟ قال : النبى الذى يرى في منامه ويسمع الصوت ولايعاين الملك، والرسول الذى يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك، قلت : الامام مامنزلته ؟ قال : يسمع الصوت ولايرى ولايعاين ، ثـم تلا هذه الاية : « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولانبى»(ولامحدث).

٢ ـ اخرج الكليني عن محمد بـن يحيى [٦] عن احمد بـن محمد عن الحسن بـن محبوب عـن الاحول [٧] قال : سألت ابا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبي والمحدث ، قـال الرسول هـو الذى يأتيه جبرئيل قبلا ، فيراه ويكلمه

---

(١) العدة التى يروى الكليني بواسطتهم عن احمد بن محمد بـن عيسى الاشعرى عبارة عن محمد بن يحيى العطار ، داود بن كورة ، احمد بن ادريس ، على بن ابراهيم وعلى بن موسى الكمندانى ، صرح بذلك النجاشى فى ترجمة احمد بن محمد بن عيسى الاشعرى والعلامة الحلى فى خاتمة خلاصته، نعم عد صاحب الوسائل«محمد بن موسى» مكان «على بن موسى الكمندانى» وهو من هفوات قلمه الشريف ، قدس الله سره .

(٢) احمد بن محمد بن عيسى الاشعرى ، من اجلاء اصحابنا القميين ،ثقة فقيه .

(٣) البزنطى من اصحاب الرضا والجواد (عليهما السلام) ثقة جليل .

(٤) احد فقهاء الطائفة الاجلاء.

(٥) امره فى الفقاهة والجلالة غنى عن البيان ، فالرواية صحيحة رجالها كلهـم ثقات .

(٦) محمد بن يحيى العطار ثقة جليل .

(٧) مؤمن الطاق ، محمد بن على بن النعمان، ثقة جليل، فالحديث صحيح رجالها كلهم ثقات .

فهذا الرسول[١] .

وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم عليه السلام ونحوماكان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة ، وكان محمد صلى الله عليه وآله حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه جبرئيل ويكلمه بها قبلا ومن الانبياء من جمع له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه ، من غير ان يكون يرى في اليقظةوأماالمحدث فهو الذي يحدث ، فيسمع ولايعاين ولايرى في منامه[٢].

أقول : أثبت الحديث في صدره للنبي أمراً واحداً وهو انه يرىفي منامه لكنه، استدركه في ذيله وأثبت له أمرين وهو انه يرى في منامه ويسمع صوت الملك ولايراه في اليقظة ، ولعل تعريف النبي بالرؤية في المنام ، للايعاز الى أقل ماتتحقق به النبوة ، مثل ماكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرى من أسباب النبوة قبل الوحي .

أضف اليه ان ماأثبته ذاك الحديث للامام من سماع صوت الملك بلا معاينة ولارؤية في المنام ، أثبته الحديث السابق للامام .

ثم ان رفع الاختلاف بين القسمين (الثالث والرابع) سهل ، فان القسم

---

(١) لما كانت الوظيفة المحولة على الرسول اشد واشق من النبى غير الرسول ، وبما انه فى ابلاغ رسالاته مضطر الى ملابسة الناس واحوالهم من جميع المشارب والاذواق والعقليات المختلفة ، وهو معرض لصنوف ثقيلة من الاذى والسخرية والجدال والمشاحنة ، اقتضى ذلك ، اختصاص الرسول بالمعاينة اذ هو عند ذاك فى حاجة الى تقوية روحه وتثبيت جناحه وتشجيعه على التحمل والصبر ومعاينة الملك وربما تزود العاين بكل هذه الاسلحة الروحية لمواجهة هذه المواقف الصعبة ، ولاجله قال (ع) : الرسول الذى يأتيه جبرئيل قبلا فيراه ويكلمه .

(٢) الكافى ج١ باب الفرق بين النبى والرسول والمحدث ص١٧٦ .

الثالث وانأثبت للنبي شأناً واحداً وأثبت ذاك شأنين الا ان الرابع يقدم على الثالث ، لانه تعرض أمراً لم يتعرض به الاخر ، والمثبت مقدم على الساكت ولايعدان متعارضين ، أضف الى ذلك انكثيراً منها ليست في مقام التحديد، بل في مقام ان النبوة تتحقق بالرؤية في المنام ، أو برؤية الملك في اليقظة بلا تكلم معه ، فما يثبت للنبي شأنين ، لاصراحة فيه ، في اجتماعهما معاً ،كما يستفاد ذلك أيضاً ، من رواية « المعروفي » الاتية .

* * *

الخامس : مايظهرمنه ان النبي يعاين الملك ولايسمع كلامه حين المعاينة بخلاف الرسول فانه يعاينه حين التكلم :

أخرج الكليني عن علي بن ابراهيم[١] عن أبيه[٢] عن اسماعيل بن مرار[٣] قال كتب المعروفي الى الرضا عليه السلام جعلت فداك : أخبرني ماالفرق بين الرسول والنبي والامام ؟ قال ان الرسول الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه، وربما رأى في منامه نحو رؤيا ابراهيم، والنبي ربما سمع الكلام وربمارأى الشخص ولم يسمع، والامام الذي يسمع الكلام ولايرى الشخص[٤].

وظأهره ان النبي يعاين الملك وان لم يسمع كلامه وهذا مخالف لماأوردناه في القسمين الماضيين (الثالث والرابع) خصوصاً الاخير ، فان صريحه ان

---

(١) ثقة جليل .

(٢) امامى ممدوح .

(٣) يروى عن يونس بن عبدالرحمان ، قال ابن الوليد :كل ماروى عن يونس صحيح ، غير ماانفرد به العبيدى ، وهذه الجملة من خريط الفن توثيق له على وجه العام فالحديث وان لم يكن صحيحاً لكنه معتبر.

(٤) الكافى ج١ باب الفرق بين النبى والرسول ص١٧٦ .

النبي لايعاين الملك . اللهم الا أن يقال : ان المنفي عنه فيهما معاينته مع سماع كلامه، والثابت له في هذا القسم هو المعاينة مع عدم سماع كلامه، ولم يظهر من القسمين سلبهما عن النبي .

الى هنا تم ماأورده الكليني في هذا الباب، واتضح عدم الفرق الجوهري بين الروايات التي نقلناها في القسم الثالث والرابع والخامس وان مآل الجميع واحد .

* * *

السادس: مايظهر منه ان عدد المرسلين لايعدو عن ثلاثمأة وثلاثة عشر، والنبيين اكثر من المرسلين بكثير :

روى الفريقان عن ابى ذر، انه سأل عن النبي ﷺ قال: قلت يا رسول الله كم النبيون ؟ قال : مأة واربعة وعشرون الف نبى ، قلت كم المرسلون قال ثلاثمأة وثلاثة عشر جماً غفيراً[1].

القضابين هذه المأثورات :

هذه المأثورات عن اهل البيت بين صحاح وحسان لامنتدح للباحث عن التعرض لها وتوضيح مضامينها . فنقول :

اما القسم الاول والثانى فلا تخالف ما احتملناه من ان الرسول [2] والنبي متساويان في الصدق وان لم يكونا مترادفين ، فان القسم الاول يسوق النبيين

---

(١) بحار الانوار ج ١١ ص ٣٢ من الطبعة الحديثة

(٢) المراد من الرسول : الرسول من جانب الله سبحانه ، لامطلق الرسول وقد عرفت ان القرآن يتوسع فى اطلاق الرسول الا ان البحث فى هذه الروايات انما هو عن الرسول الخاص الدائر فى الالسن ، لامطلق الرسول.

والمرسلين معاً الى اربع طبقات من دون ان يفرق بينهما قدرشعرة ، واما على القول بكون النبي اعم- كما هوالحال فى النبي الاعظم فىبدء الوحى ، فلابد من توجيه الرواية على وجه لايخالفه ، كما قلنا ،من ان كلامن اللفظين يشير الى جهة خاصة هى مدلولهما الوضعى على ما اوضحناه .

واماالقسم الثانى فهو وان كان يخص النبوة بتجلى الرب عليه ، الا ان ذلك من باب اطلاق الكلى على الفرد الكامل ، كما في قوله سبحانه : «ذلك الكتاب »

واما القسم السادس فلم يثبت عندنا بسند صحيح يؤخذ به .

بقى القسم الثالث والرابع والخامس ، وقد ارجعناها الى امر واحد وهو « ان النبي من يوحي اليه في المنام ، وربما يسمع بلامعاينة ، وربما عاين بلا تكلم ، واما الرسول فهو حائز لعامة المراتب ، يوحي اليه في المنام ويسمع الصوت بلامعاينة، وربما يراه ويسمع صوته، فالرسول هوالنبيالذى استكملت نفسه حتى استعد مشاهدة رسول ربه [1]

فيجب عند ذاك ملاحظة هذا القسم من الروايات :

فنقول : ان تلك المأثورات الواردة فـي الاقسام الثلاثة تهدف الى امر واحد ، وهوان النبي اعم من الرسول ، ولايشترط فيه الاقل مراتب الاتصال بالله ، بخلاف الرسول ، فهو النبي الذى حرج الـى مكانة مرموقة يقدر معها على معاينة الملك ووعى الوحى عنه . ويترتب على ذلك امور :

١ ـ النبي اعم من الرسول ، وهو اخص منه .

٢ ـ الرسول اشرف من النبي .

---

(١)كما هو ظاهر الحديث الاول من القسم الرابع

٣ـ ختم النبوة يستدعى ختم الرسالة، فان الاختلاف بين المنصبين حسب تنصيص الروايات من قبيل اختلاف درجات حقيقة واحدة ، فلاينال بالدرجة الكاملة ، الا اذا نيل بالناقصة منها ،كما هوالحال في الدرجات العلمية،كشهادة الدكتوراة والليسانس .

فلو اوصد باب الكلية علـى وجوه المستخرجين من الثانوية ، فلا يعقل ان يكون قسم الدكتوراة مفتوحاً عليهم ، فـان الطالب انمايتم دراسة الكلية وما بعدها واحد بعد واحداً .

وهذاالامر الثالث مماصفقنا عليه سواء أقلنا بما في الروايات ، ام قلنا بما استظهرناه من الايات من كون الرسول اعم مـن النبي، والرسول المصطلح يساوق النبي صدقاً ، وان لم يكونا مترادفين .

واما الامر الاول فتمكن الموافقة معه ، فالنبي يمكن ان يكون اعـم من الرسول، امالان النبي ربما لايكون رسولا في بعض الاحوال،كما هوالحال فيه في بدء الوحي،واما لما ذكر في هذه الروايات مـن ان الرسول يسمع كلامه مع معاينته في حال التكلم ، بخلاف النبي .

واما الامر الثاني فالتصافق معه مشكل، اذ لوكان الرسول اشرف من النبي فلما اذ اخر النبي وقدم الرسول في كثير من الايات مع كونها في مقام الاطراء، فهل يصح التدرج من الكامل الى الناقص ؟ وقد قدمنا الايات فلاحظ ، ومنه يظهر الاشكال فـي اخصية الرسول علـى الوجه المذكور في الروايات ، فان لازمه التدرج من الكامل الى الناقص .

المحدث فى السنة

قدوقفت على الفرق بين الرسول والنبي كما وقفت على المراد منهما في

الكتاب والسنة ، وبقي هنا بحث وهو : ماهو معنى المحدث . (بالدال المفتوحة المشددة) فنقول :

اتفق اهل الحديث على أن في الامة الاسلامية اناساً تكلمهم الملائكة بلا نبوة ولارؤية صورة ، اويلهمون ويلقى في روعهم شيء من العلم على وجه الالهام والمكاشفة ، من المبدأ الاعلى اوينكت لهم في قلوبهم من حقائق تخفى على غيرهم او غير ذلك من المعاني التي يمكن ان يراد منه .

وقد ورد هذا المعنى في الكتب الحديثية من الفريقين .

روى البخارى في صحيحه في باب مناقب عمر بن الخطاب ج٢ ص١٩٤، عن ابي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون (بفتح اللام) من غير ان يكونوا انبياء ، فان يكن من امتي منهم أحد فعمر » وعند القوم احاديث في هذا الصدد وفي ما ذكرناه كفاية .

واخرج الكليني عن الاحول قال سألت ابا جعفر عن الرسول والنبي والمحدث فقال : ... واما المحدث (بفتح الدال) فهو الذي يحدث (بفتح الدال) ولا يعاين ولايرى في منامه وفي حديث آخر عن ابى جعفر وابي عبدالله عليهما السلام : قالا : « المحدث (بفتح الدال) الذي يسمع الصوت ولايرى الصورة[1].

وقد روي عن ابن عباس انه كان يقرأ : « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث [2].

وليس المراد هو سقوط تلك اللفظة من الذكر الحكيم، فان ابن عباس أجل ان ينسب اليه التحريف وعلى كل تقدير فالقول بوجود المحدث بين الامة الاسلامية مما اطبقت عليه الروايات .

---

(١) الكافى ج١ ص١٧٦- ١٧٧ .

(٢) ارشاد السارى فى شرح صحيح البخارى ج٦ ص٩٩ .

(٦)

عصمة الرسول الاكرم(ص)

فى القرآن الكريم

في هذا الفصل :

١ ـ ظهور فكرة العصمة في الامة الاسلامية .

٢ ـ ماهي حقيقة العصمة ؟

العصمة هي الدرجة القصوى من التقوى.

٤ ـ العصمة نتيجة العلم القطعى بعواقب المعاصي .

٥ ـ العصمة الاستشعار بعظمة الرب وكماله .

٦ ـ هل العصمة موهبة الهية اوأمراكتسابي ؟

٧ـ هلا العصمة تسلب الاختيار ؟

٨ ـ مراحل العصمة الثلاث .

٩ ـ الايات الدلالة على عصمة الانبياء فى امر الرسالة .

١٠ ـ الايات الدلالة على مصونية الا نبياء عن المعصية .

١١ ـ حجة المخالفين للعصمة .

١٢ ـ ما يستدل به من الايات على عدم عصمتهم في مورد مطلق الانبياء .

عصمة الانبياء في القرآن الكريم

قد استعمل لفظ « العصمة » في القرآن الكريم بصورها المختلفة ثلاث عشرة مرة ، وليس لها الا معنى واحد وهو الامساك والمنع ، ولو استعمل في موارد مختلفة فانما هو بملاحظه هذا المعنى .

قال ابن فارس : « عصم » أصل واحد صحيح يدل على امساك ومنع وملازمة ، والمعنى في ذلك كله معنى واحد ، من ذلك : « العصمة » ان يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه ، « واعتصم العبد بالله تعالى » : اذا متنع ، و « استعصم » : الستجاء ، وتقول العرب : « اعصمت فلانا اى هيأت له شيئاً . يعتصم بما نالته يده . اى يلتجيء ويتمسك به .[1]

ان الله سبحانه يأمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله بقوله: « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا » (ال عمران ـ ١٠٣)

والمراد التمسك والاخذ بـه بشدة وقوة وينقل سبحانه عن امرأة العزيز قولها : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (يوسف ـ ٤٢)

وقد استعملت تلك اللفظة في الاية الاولى فى الامساك والتحفظ ، وفي الاية الثانية في المنع والامتناع ، والكل يرجع الى معنى واحد .

ولا جل ذلك نرى العرب يسمون الحبل الذي تشد به الرحال : «العصام» لانه يمنعها من السقوط والتفرق .

قال المفيد : ان العصمة في اصل اللغة هي ما اعتصم به الانسان من الشيء

---

(١) المقائيس ج ٤ ص ٣٣١

كانه امتنع به عن الوقوع في مايكره ،ومنه قولهم: اعتصم به الانسان من الشيء كانه امتنع به عن الوقوع في ما يكره . ومنه قولهم : «اعتصم فلان بالجبل» اذا امتنع به ، ومنه سميت العصم وهي وعول الجبال لا متناعها بها .

والعصمة من الله هى التوفيق الذي يسلم به الانسان فى ما يكره اذا اتي بالطاعة ، وذلك مثل اعطائنا رجلا غريقا حبلا ليتشبث به فيسلم فهو اذاامسكه واعتصم به، سمي ذلك الشيء عصمة له ، لما تشبث به فسلم به من الغرق ولو لم يعتصم به لم يسم عصمة »[1]

وعلى كل تقدير فالمراد من العصمة مصونية الانسان من الخطاء والعصيان بل المصونية في الفكر والعزم فالمعصوم المطلق من لايخطأ في حياته ، ولا يعصي الله في عمره ولايريد العصيان ولايفكر فيه .

مبدأ ظهور فكرة العصمة

ان الكتب الكلامية ـ قديمها وحديثها ـ مليئة بالبحث عن العصمة ،وانما الكلام في مبدأ ظهور تلك الفكرة بين المسلمين وانه من اين نشاء هذا البحث وكيف التفت علماء الكلام الى هذا الاصل ؟

لاشك ان علماء اليهود ليسوا بالمبدعين لهذه الفكرة ، لانهم ينسبون الى انبيائهم معاصى كثيرة ، والعهد القديم يذكر ذنوب الانبياء التي يصل بعضها الى حد الكبائر ، وربما يخجل القلم عن ذكر بعضها استحياء، فالانبياء عندهم عصاة خاطئون ، وعند ذلك لاتكون احبار اليهود مبدعين لهذه المسألة .

نعم ان علماء النصارى ، وان كانوا ينزهون المسيح من كل عيب وشين،

---

(١) اوائل المقالات ص ١١

ولكن تنزيههم ليس بملاك ان المسيح بشر ارسل لتعليم الانسان وانقاذه ،بل هو عندهم «الا له المتجسد» أو هو ثالث ثلاثة .

وعند ذلك لايمكن ان يكون علماؤهم مبدعين لهذه المسألة في الابحاث الكلامية ، لان موضوع العصمه هو «الانسان» .

ويذكر «دونالدسن» ان فكرة عصمة الانبياء في الاسلام مدينة فـى اصلها واهميتها التى بلغتها بعدئذ، الى تطور«علم الكلام» عند الشيعة وانهم اول من تطرق الى بحث هذه العقيدة ووصف بها ائمتهم،ويحتمل ان تكون هذه الفكرة قد ظهرت في عصر الصادق ، بينما لم يرد ذكر العصمة عند اهل السنة الافى القرن الثالث للهجرة بعد ان كان الكليني قد صنف كتابه « الكافي فـي اصول الدين»[1] واسهب فى موضوع العصمة .

ويعلل «دونالدسن»بان الشيعةلكى يثبتوا دعوى الائمة تجاه الخلفاء السنيين اظهرواعقيدة عصمة الرسل بوصفهم أئمة او هداة[2].

ان هذا التحليل لايبتنى على اساس رصين وانما هو من الاوهام والاساطير التي اخترعتها نفسية الرجل وعدائه للاسلام والمسلمين أولا ، والشيعة وائمتهم ثانياً ، وسيوافيك بيان منشأ ظهور تلك الفكرة .

---

(١) لقد توفى محمد بن يعقوب الكلينى فى العقد الثالث من القرن الرابع اى عام ٣٢٨ ، فلو استفحلت مسألة العصمة فى القرن الثالث عند اهل السنة حسب اعتراف الرجل فكيف يكون كتاب الكافى منشأ لهذه الحركة الفكرية ، افهل يمكن تاثير المتأخر فى المتقدم ، وهل يكون العائش فى القرن الرابع موثراً فى فكر من يعيش فى القرن الثالث اضف اليه ان كتاب الكافى لم يؤلف فى الاصول وحدها ، بل هو كتاب مشتمل على احاديث تربو على ستة عشر الف حديث حول اصول الدين وفروعه .

(٢) عقيدة الشيعة تاليف «المستشرق دونالسن» ص ٣٢٨

القرآن يطرح مسألة العصمة

ان العصمة بمعنى المصونية عن الخطأ والعصيان مع قطع النظر عمن يتصف بها ، قد ورد في القرآن الكريم فقد جاء يصف الملائكة الموكلين على الجحيم بهذا الوصف اذ يقول : «عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون» (التحريم ـ ٦) .

ولايجد الانسان كلمة أوضح من قوله سبحانه «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» في تحديد حقيقه العصمة ، وواقعها ، والفات الانسان المتدبر في القرآن الى هذه الفكرة ، وذاك الأصل .

ان الله سبحانه يصف الذكر الحكيم بقوله : «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (فصلت ـ ٤٢) .

كمايصفه أيضاًبقوله: «انهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين» (الاسراء ـ ٩)

فهذه الاوصاف تنص على مصونية القرآن من كل خطاء وضلال .

وعلى ذلك فالعصمة بمفهومها الوسيع ، مع قطع النظر عن موصوفها ، قد طرحها القرآن والفت نظر المسلمين اليها، من دون ان يحتاج علماؤهم الى أخذ هذه الفكرة من الاحبار والرهبان .

نعم ان الموصوف في هذه الايات وان كان هي الملائكة أو القرآن الكريم والمطروح عند علماء الكلام هو عصمة الأنبياء والائمة ، لكن الاختلاف في الموصوف لايضر بكون القرآن مبدعاً لهذه الفكرة ، لان المطلوب هو الوقوف على منشأ تكون هذه الفكرة ، ثم تطورها عند المتكلمين ، ويكفي في ذلك كون القرآن قد طرح هذه المسألة في حق الملائكة والقرآن .

عصمة النبى فى القرآن الكريم

ان العصمة ذات مراحل أربع ، وقـد تكفل القرآن ببيان تلك المراحل في مورد الانبياء عامة ، ومورد النبي الاكرمﷺ خاصة ، وسيوافيك بيان تلك المراحل ودلائلها القرآنية .

فاذا كان القرآن هو أول من طرح هذه المسألة بمراحلها ودلائلها ، فكيف يصح ان ينسب الى الشيعة ويتصورانهم الاصل في طرح هذه المسألة .

وان كنت في ريب مما ذكرناه ـ هنا ـ فلا حظ قوله سبحانه في حق النبي الاكرم حيث يصف منطقه الشريف بقوله: «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى» . (النجم ٣ ـ ٤)

فترى الايتين تشير ان ـ بوضوح ـ الى ان النبي لاينطق عن ميول نفسانية وان ما ينطق به، وحي القي في روعه واوحي الى قلبه ، ومن لايتكلم عن الميول النفسانية ، وتعتمد في منطقه على الوحي يكون مصونا من الزلل في المرحلتين: مرحلة الاخذ والتلقي ومرحلة التبليغ والتبيين.

علـى ان الايات القرآنية تصف فؤاده وعينه بانهما لايكذبـان ولايزيغان ولايطغيان اذ قال سبحانه: «ماكذب الفؤاد ما رأى ... ما زاغ البصر وماطغى». (النجم ١١ ـ ١٧)

افيصح بعد هذه الايات القرآنية تصديق ما ذكره هذا المستشرق اليهودي او ذاك المستشرق النصراني فيما زعما في كون الشيعة مبدء الطرح العصمة على بساط البحث ، وانه وليد تكامل علم الكلام عند الشيعة في عصر الامام الصادقعليه السلام مع انا نرى ان للمسألة جذوراً قرانية ولا عتب على الشيعة ان يقتفوا اثر كتاب الله سبحانه ، ويصفوا انبياءه ورسله بما وصفهم به صاحب العزة في كتابه .

العصمة من وجهة نظر الامام على(ع)

ان بعض المصريين كأحمد امين ومن حذى حذوه يصرون على ان الشيعة اخذت منهجها الفكرى في العدل والعصمة وغيرهما من الافكار ، من المتعزلة حيث قالوا: ان الشيعة يقولون فى كثير من مسائل اصول الدين بقول المعتزلة فقد قال الشيعة كما قال المعتزلة بان صفات الله عين ذاته ، وبان القرآن مخلوق وبانكار الكلام النفسى ، وانكار رؤية الله بالبصر في الدنيا والاخرة ، كما وافق الشيعة المعتزلة في القول بالحسن والقبح العقليين وبقدرة العبد واختياره وانه تعالى لايصدر عنه قبيح وان افعاله معللة بالاغراض .

وقد قرأت كتاب الياقوت لابي اسحاق ابراهيم من قدماء متكلمي الشيعة الامامية [1] فكنت كأني اقرأ كتابا من كتب اصول المعتزلة الا في مسائل معدودة كالفصل الاخير في الامامة وامامة علي وامامة الاحد عشر بعده ولكن ايهما أخذ من الاخر (؟!) .

أما بعض الشيعة فيزعم ان المعتزلة اخذوا عنهم وان واصل بن عطاء تتلمذ لجعفر الصادق ، وانا ارجح ان الشيعة هم الذين أخذوا من المعتزلة تعاليمهم . ونشؤ مذهب الاعتزال يدل على ذلك ، وزيد بن علي زعيم الفرقة الشيعية الزيدية تتلمذ لواصل ، وكان جعفر «الصادق» يتصل بعمه زيد ويقول أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: كان جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ، ويسوى ثيابه على السرج [2] فاذا صح ما ذكره الشهرستاني وغيره من تتلمذ لواصل

---

(١) قال احمد امين تعليقا على هذه الجملة: وهو مخطوط نادر تفضل صديقي الاستاذ ابو عبدالله الزنجاني فاهدانيه . اقول: ان هذا الكتاب طبع اخيرا في ايران مع شرح العلامة الحلى

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٩٣

فلا يعقل كثيراً ان يتتلمذ واصل لجعفر ،وكثير من المعتزلة كان يتشيع، فالظاهر انه عن طريق هؤلاء تسربت اصول المعتزلة الى الشيعة[١].

مناقشة احمد امين فى مزعمته

ما ذكره الكاتب المصرى اجتهاد في مقابل تنصيص ائمة المعتزلة أنفسهم بانهم اخذوا اصولهم من محمد الحنفية وابنه ابي هاشم وهما اخذا عن علي بن أبي طالب والدهما العظيم ، واليك بعض نصوصهم .

قال الكعبي «والمعتزلة يقال ان لها ولمذهبها اسناداً يتصل بالنبي ليس لاحد من فرق الامة مثله ، وليس يمكن خصومهم دفعهم عنه ، وهو ان خصومهم يقرون بان مذهبهم يسند الى واصل بن عطاء ، وان واصلا يسند الى محمد بن على بن أبى طالب ، وابنه أبي هاشم «عبدالله بن محمد بن علي» وان محمداً أخذ عن أبيه علي وان علياً أخذ عن رسول الله [٢].

وقال أيضاً : وكان واصل بن عطاء من أهل المدينة رباه محمد بن علي بن ابي طالب وعلمه[٣].

وكان مع ابنه أبي هاشم في الكتّاب ثم صحبه بعد موت ابيه، طويلة وحكي عن بعض السلف انه قيل له : كيف كان علم محمد بن علي يقال : اذا اردت ان تعلم ذلك فانظر الى اثره «واصل» .

وهكذا ذكروا في عمرو بن عبيد انه أخذ عن أبي هاشم أيضاً ، وقال القاضي «عبد الجبار» : فأما أبوهاشم عبد الله بن محمد بن علي فلو لم يظهر

---

(١) ضحى الاسلام ص٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ، تحقيق عمر أبو النصر ص٢٢٨ .

(٣) فضل الاعتزال ص٢٣٤.

علمه وفضله الا بما ظهر عن واصل بن عطاء لكفى ، وكان يأخذ العلم عن ابيه وكان واصل بمنزلة كتاب مصنعه أبوهاشم، وكذلك أخوه غيلان بن عطاء يقال انه أخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أخي أبي هاشم[1].

وقال الجاحظ: ومن مثل محمد الحنيفة وابنه ابي هاشم الذي قرأ علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بابي هاشم الاول .

قال ابن ابي الحديد : ان اشرف العلوم هو العلم الالهي ، لان شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه اشرف الموجودات ، فكان هو اشرف ، ومن كلامه (علي) عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، ومنه ابتديء واليه انتهى ، فان المعتزلة ـ الذين هم اصل التوحيد والعدل وارباب النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن ـ تلامذته ، واصحابه ، لان كبيرهم واصل بن عطا تلميذ ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية وابو هاشم تلميذ ابيه وابوه تلميذه .

واما الاشعرية فانهم ينتمون الى ابي الحسن علي بن اسماعيل بن ابي بشر الاشعري وهو تلميذ ابي على الجبائى، وابوعلي احد مشايخ المعتزلة فالاشعرية ينتهون بالاخرة الى استاذ المعتزله ومعلمهم ، وهو علي بن ابي طالب :[2].

وقال المرتضى في أمالية : اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام امير المؤمنين ـ صلوات عليه ـ وخطبه ، فانها تتضمن من ذلك مالازيادة عليه ، ولاغاية ورائه ، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه ، علم ان جميع ما اسهب المتكلمون من بعده في تصنيفه وجمعه انما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الاصول ، وروي عن الائمة من ابنائه عليهم السلام في ذلك مالايكاد يحاط به كثرة ، ومن احب الوقوف عليه وطلبه من مظانه ، اصاب منه الكثير ، الغزير ، الذي

(١) فضل الاعتزال ص٢٢٦ .

(٢) الشرح الحديدى ج١ ص١٧ .

في بعضه شفاء للصدور السقيمة ، ونتاج للعقول العقيمة [١].

وقال العلامة السيد مهدى الروحاني في تعليقه على نظرية أحمدامين : ان احمد امين قد لفق ذلك التوجيه والرد ليقطع انتساب الاعتزال والمعتزلة الى امير المؤمنين ولم نراحداً من الشيعة قال بتتلمذ واصل للامام الصادق عليه السلام حتى يردعليه أن الصادق كان يمسك الركاب لتلميذ واصل،وهو زيد ، فتتلمذه للصادق بعيد ، بل وجه اتصال المعتزلة بامير المؤمنين هوما ذكروه انفسهم (حسب ما عرفت) ، ومجرد امساك الامام الصادق بالركاب لعمه زيد (رحمه الله)لايدل على ان الصادق تتلمذ لعمه زيد،وانما فعل احمد امين ذلك بدافع من هواه المعروف عنه ، والظاهر في كتبه ، وهوان يسلب عن علي ماينسب اليه من الفضائل مهما امكن ولكن بصورة التحقيق العلمي علّ ذلك ينطلي على الناس ... وذلك بعد ما ظهر من الغربيين تقريظات ومقالات فيها تعظيم للمعتزلة وتعريف لهم بانهم اصحاب الفكر الحر،لم تسمح نفس أحمد امين بان تكون جماعة كهولاء ينتسبون في اصول مذهبهم وافكارهم الى علي ، فلفق ذلك التوجيه والرد والاغفال .

كما انه قد انكربلا دليل انتساب علم النحو اليه مع ان ابن النديم قال في الفهرس:زعم اكثر العلماء ان النحو اخذه ابو الاسود عن امير المؤمنين عليه السلام [٢].

* * *

عود الى بدء

فلنرجع الى دراسة وجود جذور عصمة النبي في كلام علي - عليه السلام - حيث

---

(١) غرر الفوائد ودرر القلائد او أمالى المرتضى ج١ ص١٤٨.

(٢) بحوث مع اهل السنة والسلفية ص ١٠٨ وقد نقلنا بعض النصوص السابقة فى حق المعتزلة عن ذلك الكتاب .

انه يصف النبي في الخطبة القاصعة بقوله :

ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره [١].

ودلالة هذه القمة العالية من هذه الخطبة على عصمة النبي في القول والعمل عن الخطا والزلل واضحة ، فان من رباه اعظم ملك من ملائكة الله سبحانه من لدن ان كان فطيماً ، الى أخريات حياته الشريفة ، لاتنفك عن المصونية من الانحراف والخطأ ، كيف وهذا الملك يسلك به طريق المكارم ، ويربيه على محاسن اخلاق العالم ، ليله ونهاره . وليست المعصية الا سلوك طريق المآثم ومساوى الاخلاق ، ومن يسلك الطريق الاول يكون متجنبا عن سلوك الطريق الثاني .

ان الامام امير المؤمنين لايصف خصوص النبي ﷺ بالعصمة في هذه الخطبة ، فقط ، بل يصف آل النبي ﷺ بقوله : « هم عيش العلم، وموت الجهل يخبرهم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لايخالفون الحق، ولايختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لاعقل سماع ودعاية » [٢].

لاحظ هذا الكلام وامعن النظر فيه هل ترى كلمة اوضح في الدلالة على مصونيتهم من الذنوب وعصمتهم عن الاثام من قوله : « لايخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه » اي لايعدلون عن الحق، ولايختلفون فيه ، قولا وفعلا كما يختلف غيرهم من الفرق ، وارباب المذاهب، فمنهم من له في المسألة قولان ، اواكثر،

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ١٨٧ .

(٢) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٢٣٤ .

ومنهم من يقول قولا ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى في اصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه .

ان الامام يصف آل النبي بقوله : «عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية» اي عرفوا الدين، وعلموه ، معرفة من فهم الشيء واتقنه ، ووعوا الدين وحفظوه، وحاطوه ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ودعاية .

وعلى الجملة ان قوله عليه السلام: «لا يخالفون الحق» ودليل على العصمة عن المعصية وقوله، عقلوا الدين عقل وعاية رعاية» دليل على مصونيتهم عن الخطا، وسلامتهم في فهم الدين ووعيه .

والامام لا يكتفي ببيان عصمة آل رسول الله بهذين الكلامين، بل يصف احب عباد الله اليه بعبارات وجمل تساوق العصمة ، وتعادلها ، اذ يقول :

« اعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه ، وأعد القرى ليومه النازل به ، فقرّب على نفسه البعيد، وهون الشديد ، نظر فابصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده فشرب نهلا، وسلك سبيلا جدداً ، قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلي من الهموم الا هما واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة اهل الهوى وصار من مفاتيح ابواب الهدى ، ومغاليق ابواب الردى، قد ابصر طريقه ، وسلك سبيله ، وعرف مناره وقطع غماره ، استمسك من العرى باوثقها، ومن الحبال بامتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، قد نصب نفسه لله سبحانه في ارفع الامور من اصبار كل وارد عليه، وتصيير كل فرع الى أصله، مصباح ظلمات، كشاف عشوات مفتاح مبهمات ، دفاع معضلات، دليل فلوات، يقول فيفهم ، ويسكت فيسلم ، قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادن دينه ، واوتاد ارضه ، قد الزم نفسه العدل فكان اول عدله نفي الهوى عن نفسه ، يصف الحق ويعمل به ، ولا يدع للخير

غاية ، الا أمها ، ولامظنة الاقصدها،قد امكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه، يحل حيث حل ثقله ، وينزل حيث كان منزله [١] .

ولا ارى أحداً نظر في هذه الخطبة ، وامعن النظر في عباراته وجمله ، الا وايقن ان الموصوف بهذه الصفات في القمة الاعلى من العصمة» . فهل ترى من نفسك ان من لا يكون له الا هم واحد وهو الوقوف عند حدود الشريفة ومن الزم على نفسه العدل ونفى الهوى عن نفسه ، ان لايكون مصونا من المعصية، ومعتصماً من الزلل ،كيف وقد امكن القرآن من زمامه ، فهو قائده وامامه يحل حيث حل ، وينزل حيث نزل .

قال ابن أبي الحديد: ان هذا الكلام منه اخذا صحابه علم الطريقة والحقيقة وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله ، والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً مناسبة للنبوة ويختص الله تعالى بها من يقربه اليه من خلقه .

وقال ايضاً ان هذه الصفات والشروط والنعوت التى ذكرها في شرح حال العارف انما يعنى بها نفسه ، وهو من الكلام الذى له ظاهر وباطن ، فظاهره ان يشرح حال العارف المطلق ، وباطنه ان يشرح حال العارف المعين وهو نفسه عليه السلام .

ثم ان الشارح الحديدي اخذفي تفسير هذه الصفات والشروط واحداً بعد آخر ، الى ان بلغ الى الشرط السادس عشر[٢] ومن اراد الوقوف على اهداف الخطبه فليرجع اليه والى غيره من الشروح .

هذه جذور المسألة في الكتاب والسنة ، نعم ان المتكلمين هم الذين عنونوا مسألة العصمة وطرحوه في الأوساط الاسلامية فذهبت العدلية من الشيعة والمعتزلة

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٨٣ .

(٢) الشرح الحديد ج ٦ ص ٣٦٧ ـ ٣٧٠ .

الى جانب النفى والسلب على اقوال وتفاصيل بين طوائفهم ، وقداقام كل فريق دليلا على مدعاه .

ولايمكن ان ينكر ان المناظرات التى دارت بين الامام موسى الرضا واهل المقالات من الفرق الاسلامية قد اعطت للمسألة مكانة خاصة ، فقد ابطل الامام الرضا (عليه السلام) كثيراً من حجج المخالفين في مجال نفى العصمة عن الانبياء عامة والنبي الاعظم خاصة ، ولولا خوف الاطالة لاتينا ببعض هذه المناظرات التى دارت بين الامام عليه السلام واهل المقالات من الفرق الاسلامية ، وان شئت الوقوف عليها فراجع بحار الانوار[1] وسوف نرجع في نهاية المطاف الى تفسير بعض الايات التى تمسك بها المخالف في مجال نفى العصمة عن الانبياء .

* * *

ما هى حقيقة العصمة ؟

عرف المتكلمون العصمة على الاطلاق بانها قوة تمنع الانسان عن اقتراف المعصية والوقوع في الخطأ[2] .

وعرفه الفاضل المقداد بقوله : العصمة عبارة عن لطف يفعله الله في المكلف بحيث لايكون له مع ذلك داع الى ترك الطاعة ولا الى فعل المعصية مع قدرته على ذلك ويحصل انتظام ذلك اللطف بان يحصل له ملكة مانعة من الفجور والاقدام على المعاصى مضافا الى العلم بما في الطاعة من الثواب ، والعصمة من العقاب ، مع خوف المؤاخذة على ترك الاولى ، وفعل المنسي[3] .

---

(١) بحار الانوار ج١١ ص ٧٢ - ٨٥ .

(٢) الميزان ج ٢ ص ١٤٢ طبعة طهران .

(٣) ارشاد الطالبين الى نهج المسترشدين ص ٣٠١ - ٣٠٢ ومن العجب تفسير

اقول : اذاكانت حقيقة العصمة عبارة عن القوة المانعة عن اقتراف المعصية والوقوع في الخطاء ، كما عرفه المتكلمون فيقع الكلام في موردين :

الاول : العصمه عن المعصية .

الثانى : العصمة عن الخطأ .

ولتوضيح حال المقامين من حيث الاستدلال والبرهنة يجب ان يبحث قبل كل شيء عن حقيقة العصمة .

ان حقيقة العصمة عن اقتراف المعاصي ترجع الى احد امور ثلاثة على وجه منع الخلو وان كانت غير مانعة عن الجمع .

١ـ العصمة الدرجة القصوى من التقوى

العصمة ترجع الى التقوي بل هي درجة عليا منها ، فما توصف به التقوى وتعرف به تعرف وتوصف به العصمة .

لاشك ان التقوى حالة نفسانيه تعصم الانسان عن اقتراف كثير من القبائح والمعاصي فاذا بلغت تلك الحالة الى نهايتها تعصم الانسان عن اقتراف جميع قبائح الاعمال ، وذميم الفعال على وجه لاطلاق ، بل تعصم الانسان حتى عن التفكير في المعصية ، فالمعصوم ليس خصوص من لايرتكب المعاصى ويقترفها بل هو من لايحوم حولها بفكره .

ـــ الاشاعره للعصمة على ما يقتضيه اصلهم من استناد الاشياء كلها الى الخالق المختار ابتداءاً : بان لايخلق الله فيهم ذنبا *

أبعد هذا هل يصح ان تعد العصمة كرامة وترك الذنب فضيلة وليس معنى التوحيد فى الخالقية ، سلب التأثير عن سائر العلل وقد اوضحنا الحال فى الجزء الاول من هذه السلسلة عند البحث عن هذا القسم من التوحيد فلاحظ

* ابطال نهج الباطل لفضل بن روزبهان على ما نقله عنه صاحب دلائل الصدق ج ١ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

ان العصمة ملكة نفسانية راسخة في النفس لها آثار خاصة كسائر الملكات النفسانية من الشجاعة والعفة والسخاء ،فاذا كان الانسان شجاعاً وجسوراً ، سخيا وباذلا ، وعفيفا ونزيها ، يطلب في حياته معالى الامور،ويتجنب عن سفاسفها فيطرد ما يخالفه من الاثار كالخوف والجبن والبخل والامساك ، والقبح والسوء ، ولا يرى في حياته اثراً منها .

ومثله العصمة ، فاذا بلغ الانسان درجة قصوى من التقوى ، وصارت تلك الحالة راسخة في نفسه يصل الانسان الى حد لايرى في حياته اثر من العصيان والطغيان ، والتمرد والتجري ، وتصر ساحته نقية عن المعصية .

واما ان الانسان كيف يصل الى هذا المقام وما هو العامل الذي يمكنه من هذه الحاله فهو بحث آخر سنرجع اليه في مستقبل الابحاث .

فاذا كانت العصمة من سنخ التقوى والدرجة العليامنه، يسهل لك تقسيمها الى العصمة المطلقه والعصمة النسبية .

فان العصمة المطلقة وان كانت تختص بطبقة خاصة من الناس لكن العصمة النسبية تعم كثيراً من الناس من غير فرق بين اولياء الله وغيرهم . لان الانسان الشريف الذي لايقل وجوده في اوساطنا ، وان كان يقترف بعض المعاصى لكنه يجتنب عن بعضها اجتناباً تاماً بحيث يتجنب عن تفكيره فضلاعن الاتيان به.

مثلا الانسان الشريف لايتجول عاريا في الشوارع والطرقات مهما بلغ تحريض الاخرين له على ذلك الفعل كما ان كثيراً من الناس لايقوم بالسرقة في منتصف اليل متسلحاً ،لانتهاب شيء رخيص كما لايقومون بقتل الابرياء ولابقتل انفسهم وان عرضت عليهم مكافئات ماديه كبيرة فان الحوافز الداعية الى هذه الافاعيل المنكرة غير موجودة في نفوسهم، أو انها محكومة ومردودة بالتقوى التى تحلوا بها ، ولاجل ذلك صاروا بمعزل عن تلك الافعال القبيحة حتى انهم لايفكرون

فيها ولايحدثون بها انفسهم ابداً .

والعصمة النسبية التى تعرفت عليها تقرب حقيقة العصمة المطلقة في اذهاننا فلو بلغت تلك الحالة النفسانية الرادعة في الانسان مبلغاً كبيراً ومرحلة شديدة بحيث تمنعه عن اقتراف جميع القبائح ،يصير معصوماً مطلقا ،كما ان الانسان في القسم الاول صار معصوماً نسبياً .

وعلى الجملة: اذا كانت حوافز الطغيان والعصيان والبواعث على المخالفة محكومة عند الانسان ، منفورة لديه لاجل الحالة الراسخة، يصير الانسان معصوماً تاماً منزها عن كل عيب وشين .

* * *

٢ ـ العصمة: نتيجة العلم القطعى بعواقب المعاصى

قد تعرفت على النظريّه الاولي فـي حقيقة العصمة وانها عبـارة عن : الدرجة العليا من التقوى ، غير ان هناك نظرية اخرى فـي حقيقتها ، لاتنا في النظرية الاولى ، بـل ربما تعد من علل تحقق الدرجة العليا من التقوى التي عرفنا العصمة بها وموجب تكونها في النفس، وحقيقة هذه النظرية عبارة عن «وجود العلم القطعى اليقيني بعواقب المعاصى والاثام» علماً قطعيا لاتغلب ولايدخله شك ، ولايعتريه ريب ، وهو ان يبلغ علم الانسان درجة يلمس في هذه النشأة لوازم الاعمال وآثارها في النشأة الاخرى وتبعاتها فيها، ويصير على حد يدرك بل يرى درجات اهل الجنة ودركات اهل النار وهذا العلم القطعى هو الذي يزيل الحجب بين الانسان وتوابع الاعمال ، ويصير الانسان مصداقا لقـوله سبحانه، «كلا لوتعلمون علم اليقين لترون الجحيم» (التكاثر ـ ٦/٥) وصاحب هذا العلم هو الذي يصفه الامام على عليه السلام بقوله : «هم والجنة كمن قدرآها ،

وهم منعمون وهم والنار كمن قدرآها وهم فيها معذبون [١]

فاذا بلغ العلم الى هذه الدرجة من الكشف يصد الانسان عن اجتراء المعاصى واقتراف المآثم بل لايجول حولها فكره .

ولتوضيح تاثير هذا العلم في صيرورة الانسان معصوماً من اقتراف الذنب نأتي بمثال :

ان الانسان اذا وقف على أن في الاسلاك الكهر باثية طاقة من شأنها قتل الانسان اذا مسها من دون حاجز اوعائق بحيث يكون المس والموت مقترنان، احجمت نفسه عن مس تلك الاسلاك والاقتراب اليها دون عائق.

هذانظير الطبيب العارف بعواقب الامراض واثار الجراثيم،فانه اذا وقف على ماء اغتسل فيه مصاب بالجذام اوالبرص او السل ، لما اقدم على شربه والاغتسال منه ومباشرته مهما اشتدت حاجته الىذلك لعلمه بمايجر عليه الشرب والاغتسال بذلك الماء الموبىء فاذاوقف الانسان الكامل على ماوراء هذه النشأة منتائج الاعمال وعواقب الفعال ورأى بالعيون البرزخيةتبدل الكنوز المكتنزة من الذهب والفضته الى النار المحماة التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم، امتنععن حبس الاموال والاحجام عن انفاقها في سبيل الله .

قال سبحانه . «والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لانفسكم ، فذوقوا ماكنتم تكنزون » (التوبة ٣٤ - ٣٥)

ان ظاهر قوله سبحانه: «هذا ماكنزتم لانفسكم» هو ان النار التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ، ليست الانفس الذهب والفضة ، لكن

١) نهج البلاغة عبده ج٢الخطبه ١٨٨ص١٨٧

بوجودهما الاخرويين ، وأن للذهب والفضة وجودين اوظهوربن في النشأتين فهذهالأجسام الفلزية، تتجلى في النشأة الدنيوية فيصورةالذهب والفضة ، وفي النشأة الاخروية في صوة النيران المحماة .

فالانسان العادى اللامس لهذه الفلزات المكنوزة وانكان لايحس فيهـا الحرارة ولايرى فيها النار ولالهيبها ، الا ان ذلك لاجل انه يفقد حين المس ، الحس المناسب لدرك نيران النشأة الاخرة وحرارتها ، فلو فرض انسانكامل يمتلك هذا الحس الىجانب بقيه حواسه العادية المتعارفه ويدرك بنحو خاص الوجه الأخرلهذه الفلزات ، وهونيرانها وحرارتها، يحتنب عنها ، كاجتنابه عن النيران الدنيوية ، ولما اقدم على كنزها ، وتكديسها .

وهذا البيان يفيد ان للعلم مرحلة قويّة راسخة تصد الانسان عن الوقوع في المعاصي والاثام ولايكون مغلوبا للشهوات والغرائز

قال جمال الدينمقداد بن عبدالله الأسدى السيوري الحلى في كتابه القيم «اللوامع الالهية» : «ولبعضهم كلام حسن جامع هناقالوا : العصمة ملكةنفسانية يمنع المتصف بها من الفجور مع قدرته عليه، وتتوقف هذه الملكة على العلم بمثالب المعاصى ومناقب الطاعات ، لان العفة متى حصلت في جوهر النفس وانضاف اليها العلمالتام بمافي المعصية من الشقاء، والطاعة من السعادة، صار ذلك العلم موجبا لرسوخها في النفس فتصير ملكة .» [1]

يقول العلامة الطباطبائى في هذا الصدد : ان القوة المسماة بقوة العصمة سبب شعورى علمي غير مغلوب البتة ، ولوكانت من قبيل مانتعارفه من اقسام الشعور والادراك ، لتسرب اليها التخلف ، ولتخبط الانسان على اثره احيانا ، فهذا العلم منغير سنخ سائرالعلوم والادراكات المتعارفة، التي تقبل الاكتساب

١) اللوامع الالهية ص١٧٠

والتعلم ، وقد اشار الله في خطابه الذي خص به نبيه بقوله : «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم» (النساء - ١١٣) وهو خطاب خاص لانفقهه حقيقه الفقه ، اذ لاتذوق لنا في هذا المجال» [١]

وهو قدس سره يشير الى كيفية خاصة من العلم والشعور الذي اوضحناه بماورد حول الكنز وآثاره.

* * *

٣ - الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله

ان هاهنا نظرية ثالثة في تبيين حقيقه العصمة يرجع لبها الى ان استشعار العبد بعظمة الخالق وحبه وتفانيه في معرفته وعشقه له، يصده عن سلوك مايخالف رضاه سبحانه .

وتلك النظرية مثل النظرية الثانيه لاتخالف النظرية الاولى التي فسرناها من ان العصمة هي الدرجة العليا من التقوى ، بل يكون الاستشعار والتفاني دون الحق، والعشق لجماله وكماله، احد العوامل لحصول تلك المرتبة من التقوى، وهذا النحو من الاستشعار لايحصل الا للكاملين في المعرفة الالهية البالغين اعلى قممها .

اذا عرف الانسان خالقه كمال المعرفة الميسورة ، وتعرف على معدن الكمال المطلق وجماله وجلاله، وجد في نفسه انجذابا نحو الحق ، وتعلقا خاصابه بحيث لايستبدل برضاه شيئا ، فهذا الكمال المطلق هو الذي اذا تعرف عليه الانسان العارف، يؤجج في نفسه نيران الشوق والمحبة ، ويدفعه الى ان لايبتغي سواه ، ولايطلب سوى اطاعة امره وامتثال نهيه، ويصبح كل مايخالف امره ورضاه منفوراً

---

[١] الميزان ج ٥ ص ٨١

لديه، مقبوحاً في نظره، اشدالقبح. وعندئذ يصبح الانسان مصونا عن المخالفة، بعيداً عن المعصيه بحيث لايؤثر على رضاه شيئا ، والى ذلك يشير الامام على بن ابى طالب عليه السلام بقوله : « ماعبدتك خوفا من نارك ولا طمعاً في جنتك انما وجدتك اهلاللعبادة» (١)

هذه النظريات الثلاث اوالنظرية الواحدة المختلفة في البيان والتقرير تعرب عن أنالعصمة قوة في النفس تعصمالانسان عن الوقوع فيمخالفةالرب سبحانه وتعالى ، وليست العصمة امراً خارجاً عن ذات الانسان الكامل وهويته الخارجية .

نعم هذه التحاليل الثالثة لحقيقة العصمة ،كلها راجعة الى العصمة عن المعصيةوالمصونيهعن التمرد كما هو واضح لمن اعطى التأمل لها واماالعصمة في مقام تلقى الوحى والتحفظ عليه وابلاغة الى الناس ، اوالعصمة عن الخطاء قي الحياة والامور الفردية اوالاجتماعية فلا بدان توجه بوجوه غير هذهالثلاثة كما سيوافيك بيانها عند البحث عن المقام الثانى اعنى العصمة عن الخطاء والاشتباه، والمهمهو البحث عنالمقام الاول ولذلك قد منا الكلام فيه .

نعم هناك عدة روايات تصرح بان ، هناك «روحا» تعصم الانبياء والرسل عن الوقوع في المهالك والخطايا ، واليك بيانها :

* * *

الروح التى تسدد الاولياء

روى ابو بصير قال: سألت اباعبدالله عنقول الله تبارك وتعالى:«وكذلك اوحينااليك روحاً منامرنا ماكنت تدرىماالكتاب ولا الايمان» قال : خلق من خلقالله عزوجلاعظممنجبرئيلوميكائيل كان معرسولالله يخبره ويسدده وهو

(١) حديث معروف .

مع الائمة من بعده »[١]

وهذه الروايه مع ان ظاهرهالاينطبق على الاية لان الوحى يتعلق بالمفاهيم والالفاظ لابالجواهر والاجسام فالملك الذي هو اعظم من جبرئيل وميكائيل لايمكن ان يتعلق به الوحي ، ويكون هو الموحى به ، وانما يتعلق به الارسال والبعث ونحو ذلك ، لاصلة لها بباب المعاصي بل هي راجعة الى التسديد في تلقي الوحي وابلاغه الى الناس ، وحفظهم عن الخطاء على وجه الاطلاق .

على ان هناك روايات تشعر بان هذا الروح التي تؤيد الانبياء غير خارجة عن ذواتهم، وهذا جابر الجعفى يروى عن الامام الصادق في تفسير قوله سبحانه «وكنتم ازواجا ثلاثة، فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنه واصحاب المشئمة ما اصحاب المشئمة والسابقون السابقون، اولئك المقربون» (الواقعه ـ ٦/١١). فالسابقون هم رسل الله ، وخاصة الله من خلقه جعل فيهم خمسة ارواح ايدهم بروح القدس ، فبه عرفوا الاشياء ، وايدهم بروح الايمان فبه خافوا الله عزوجل، وايدهم بروح القوة فبه قدروا على طاعة الله ، وأيدهم بروح الشهوة ، فبه اشتهوا طاعة الله عزوجل ، وكرهوا معصيته ، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون ، »[٢]

ولايخفى أن الارواح الاربعة غير خارجة عن ذواتهم ، ولايبعدان يكون الخامس وهو روح القدس غير خارجة عن ذواتهم ويكون المراد كمال نفوسهم الى حد يعرفون الاشياء على ماهى عليها .

قال الشيخ صالح المازندراني فى تفسير هذه الارواح الخمسة : جعل الله تعالى بالحكمة البالغة والمصلحة الكاملة في الرسل والخاصة، خمسة ارواح

---

١) الكافى ج ١ ص ٢٧٣ باب «الروح التى يسدد بها الائمة » الحديث ١ و٢

٢) الكافى ج ١ ص ٢٦١ باب «فيه ذكر الارواح التى فى الائمة» الحديث ١ و٢ و٣

لحفظهم من الخطاء وتكميلهم بالعلم والعمل ليكون قولهم صدقاً ، وبرهانا ، والاقتداء بهم رشداً وايقانا كيلا يكون لمن سواهم على الله حجة يوم القيامة ولعل المراد بالارواح هنا النفوس[١]

وعلى اي تقدير فهذه الروايات التي تشهد بتسديد الانبياء بها اما راجعة الى تسديدهم في مقام تلقي الوحي، اوراجعة الى تسديدهم عن الخطاء في الاحكام والموضوعات والكل خارج عن اطار البحث وانما الكلام في صيانتهم عن المعاصي.

هل العصمة موهبة الهية أو امر اكتسابى ؟

قد وقفت على حقيقة «العصمة» والعوامل التى توجب صيانة الانسان عن الوقوع في حبال المعصية ، ومهالك التمرد والطغيان ، غير ان هاهنا سؤالا هاماً يجب الاجابة عنه وهو: ان العصمة سواء أفسرت بكونها هي الدرجة العليا من التقوى ، او بكونها العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي ، ام فسرت بالاستشعار بعظمة الرب وجماله وجلاله وعلى اي تقدير فهو كمال نفساني له أثره الخاص ، وعندئذ يسأل عن ان هذا الكمال هل هو موهوب من الله لعباده المخلصين، أو أمر حاصل للشخص بالاكتساب؟ فالظاهر من كلمات المتكلمين انها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضل بها على من يشاء من عباده بعد وجود ارضيات صالحة وقابليات مصححة لافاضتها عليهم .

قال الشيخ المفيد : العصمة تفضل من الله على من علم انه يتمسك بعصمته[٢].

وهذه العبارة تشعر بأن افاضة العصمة من الله سبحانه امر خارج عن اطار

١) هامش اصول الكافى ص ١٣٦ الطبعة القديمة

٢) شرح عقائد الصدوق ص٦١ .

الاختيار ، غير ان اعمالها والاستفادة منها يرجع الى العبد وداخل في اطار ارادته ، فله ان يتمسك بها فيبقى معصوماً من المعصية ، كما له ان لايتمسك بتلك العصمة .

وقال أيضاً: والعصمة من الله تعالى هي التوفيق الذي يسلم به الانسان مما يكره اذا أتى بالطاعة[١].

وقال المرتضى في اماليه ، العصمة : لطف الله الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع عن فعل قبيح .

ونقل العلامة الحلى عن بعض المتكلمين بانه فسر العصمة بالامر الذي يفعله الله بالعبد من الالطاف المقربة الى الطاعات التي يعلم معها انه لايقدم على المعصية بشرط ان لاينتهي ذلك الى الالجاء .

ونقل عن بعضهم : العصمة لطف يفعله الله تعالى بصاحبها لايكون معه داع الى ترك الطاعة وارتكاب المعصية .

ثم فسر اسباب هذا اللطف بامور أربعة[٢].

وقال جمال الدين مقداد بن عبدالله الشهير بالفاضل السيوري الحلي المتوفى عام ٨٢٦ فى كتابة القيم «اللوامع الالهية في المباحث الكلامية» .

قال أصحابنا ومن وافقهم من العدلية : العصمة لطف يفعله بالمكلف بحيث يمتنع منه وقوع المعصية لانتفاء داعيه ، ووجود صارفه مع قدرته عليه» ثم نقل عن الاشاعرة بانها هي القدرة على الطاعة وعدم القدرة على المعصية[٣].

---

(١) اوائل المقالات ص١١ .

(٢) كشف المراد ص٢٢٨ طبعة صيدا .

(٣) سيوافيك ان العصمة لاتنا فى القدرة ، والهدف من نقل قول الاشاعرة هو اثبات اتفاق القائلين بالعصمة، على انها موهبة الهية .

كما نقل عـن بعض الحكماء ان المعصوم خلقه الله جبلة صافية ، وطينة نقية، ومزاجاً قابلا وخصه بعقل قوى وفكر سوى، وجعل له الطافات زائدة فهو قوى بما خصه على فعل الواجبات واجتناب المقبحات، والالتفات الى ملكوت السماوات، والاعراض عن عالم الجهات، فتصير النفس الامارة ماسورة مقهورة في حيز النفس العاقلة[1].

وقال العلامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الاحزاب ـ ٣٣) : ان الله تستمر ارادته ان يصكم بموهبة العصمة باذهاب الاعتقاد الباطل واثـر العمل السيىء عنكم أهل البيت وايراد ما يزيل أثر ذلك عنكم وهي العصمة»[2].

الى غير ذلك من الكلمات التي تصرح بكون العصمة من مواهبه سبحانه الى عباده المخلصين ، وفـي الايات القرآنية تلويحات واشارات الـى ذلك مثل قوله سبحانه: واذكر عبدنا ابراهيم واسحاق ويقعوب اولى الايدى والابصار انـا اخلصناهم بخالصة ذكرى الـدار . وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار . (ص ـ ٤٥/٤٨) وقوله سبحانه في حق بني اسرائيل والمراد انبياؤهم ورسلهم : «ولقد اخترناهم على علم على العالمين واتيناهم من الايـات ما فيه بلاء مبين» . (الدخان ٣٢ـ ٣٣)

فان قوله «انهم لمن المصطفين الاخيار» وقوله « ولقد اخترناهم على علم على العالمين» يدل على أن النبوة والعصمة، واعطاء الايات لاصحابها من مواهب الله سبحانه الى الانبياء ، ومن يقوم مقامهم من الاوصياء .

---

١) اللوامع الالهية ص١٦٩ .

(٢) الميزان ج١٦ ص٣٣١ .

فاذا كانت العصمة امراً الهياً وموهبة من مواهبه سبحانه فعندئذ ينطرح هاهنا سؤالان تجب الاجابة عنهما ، والسؤالان عبارة عن :

١ ـ لو كانت العصمة موهبة من الله مفاضة منه سبحانه الى رسله وأوصيائهم لم تعد كما لا ومفخرة للمعصوم حتى يستحق بها التحسين والتحميد ، والتمجيد فان الكمال الخارج عن الاختيار كصفاء اللؤلؤ ، لايستحق التحسين والتمجيد فان الحمد والثناء انما يصحان في مقابل الفعل الاختياري ، وما هو خارج عن اطار الاختيار لايصح ان يحمد صاحبه عليه ، اذ هو وغيره في هذا المجال سواء ، ولو افيض ذاك الكمال على فرد آخر لكان مثله .

٢ ـ اذا كانت العصمة تعصم الانسان عن الوقوع في المعصية فالانسان المعصوم عاجز عن ارتكاب المعاصي واقتراف المائم ، وعندئذ لايستحق لترك العصيان مدحاً ولا ثواباً اذ لااختيار له .

والفرق بين السؤالين واضح ، اذ السؤال الاول يرجع الى عدنفس افاضة العصمة مفخرة من مفاخر المعصوم لانه اذا كانت موهبة الهية لما صح عدها كمالا للمعصوم بخلاف السؤال الثاني فانه يتوجه الى ان العصمة تسلب القدرة عن المعصوم على ارتكاب المعاصي فلا يعد الترك كمالا ولا عاملا لاستحقاق الثواب وهذان السؤالان من أهم الاسئلة في باب العصمة واليك الاجابة عن كليهما.

* * *

العصمة المفاضة كمال لصاحبها

ان العصمة الالهية لاتفاض للافراد الابعد وجود ارضيات صالحة في نفس المعصوم تقتضى افاضة تلك الموهبة الى صاحبها ، وأما ما هي تلك الارضيات والقابليات التى تقتضي افاضتها فخارج عن موضوع البحث ،غير

انا نقول على وجه الاجمال : ان تلك القابليات على قسمين : قسم خارج عن اختيار الانسان ، وقسم واقع في اطار ارادته واختياره .

أما القسم الاول ، فهي القابليات التى تنتقل الى النبي من آبائه واجداده عن طريق الوراثة، فان الاولاد كما يرثون اموال الاباء وثرواتهم، يرثون اوصافهم الظاهرية والباطنية ، فترى ان الولد يشبه بالاب أو العم، او الام أو الخال ، وقد جاء في المثل « الولد الحلال يشبه العم أو الخال » .

وعلى ذلك فالروحيات الصالحة أو الطالحة تنتقل من طريق الوراثة الى الاولاد ، فنرى ولد الشجاع شجاعاً ، وولد الجبان جباناً الى غير ذلك من الاوصاف الجسمانية والروحانية .

ان الانبياء كما يحدثنا التاريخ كانوا يتولدون في البيوتات الصالحة العريقة بالفضائل والكمالات، ومازالت تنتقل تلك الكمالات والفضائل الروحية من نسل الى نسل وتتكامل الى ان تتجسد في نفس النبي ويتولد هو بروح طيبة و قابلية كبيرة لافاضة المواهب الالهية اليه .

نعم ليست الوراثة العامل الوحيد لتكوّن تلك القابليات بل هناك عامل آخر لتكوّنها في نفوس الانبياء وهو عامل التربية ، فان الكمالات والفضائل الموجودة في بيئتهم تنتقل من طريق التربية الى الاولاد .

ففي ظل ذينك العاملين « الوراثة والتربية » نرى كثيراً من أهل تلك البيوتات ذوي ايمان وامانة ، وذكاء ودراية ، وما ذلك الا لان العائشين في تلك البيئات والمتولدين فيها يكتسبون جل هذه الكمالات من ذينك الطريقين ، و على ذلك فهذه الكمالات الروحية ارضيات صالحة لافاضة المواهب الالهية الى أصحابها ومنها العصمة والنبوة .

نعم هناك عوامل اخر لاكتساب الارضيات الصالحة داخلة في اطار الاختيار

وحريةالانسان واليك بعضها :

١ ـ ان حياةالانبياء من لدنولادتهم الى زمانبعثتهم مشحونة بالمجاهدات الفردية والاجتماعية ، فقد كانوا يجاهدون النفس الامارة اشدالجهاد،ويمارسون تهذيب انفسهم بل ومجتمعهم فهذا هو يوسف الصديق عليه السلام جاهد نفسه الامارة والجمها بأشد الوجوه عندما راودته من هو في بيتها « وغلقت الابواب وقالت هيت لك » فأجاب بالرد والنفى بقوله : « معاذ الله انه ربي احسن مثواى انه لايفلح الظالمون » (يوسف ـ ٢٣) .

وهذا موسى كليم الله وجد في مدين امرأتين تذودان واقفتين على بعد من البئر ، فقدم اليهما قائلا : ماخطبكما فقالتا: انا لانسقي حتى يصدرالرعاع وابونا شيخ كبير وعند ذلك لم يتفكر في شيء الا في رفع حاجتهما ولاجل ذلك سقى لهما ثم تولي الى الظل قائلا:رب اني لما انزلت الي من خير فقير (القصص٢٣ ـ ٢٤)[1] .

وكم هناك من شواهد تاريخية على جهاد الانبياء وقيامهم بواجبهم ابان شبابهم الى زمان بعثتهم التى تصدى لذكرها الكتب السماوية وقصص الانبياء وتواريخ البشر .

فهذه العوامل، الداخل بعضها في اطار الاختيار والخارج بعضها عن اطاره أو جدت قابليات وارضيات صالحة لافاضة وصف العصمة عليهم وانتخابهم لذلك الفيض العظيم ، فعندئذ تكون العصمة مفخرة للنبي صالحة للتحسين والتبجيل والتكريم .

---

(١) لاحظ قصة موسى فى دفعه القبطى المعتدى على اسرائيلى فى سورة القصص الايات ١٥ ـ ٢٠ وفى ذلك يقول : « رب بما انعمت على فلن اكون ظهير للمجرمين» القصص ـ ١٧ .

وان شئت قلت : ان الله سبحانه وقف على ضمائرهم ونيتاتهم ومستقبل أمرهم ، ومصير حالهم وعلم انهم ذوات مقدسة،لو افيضت اليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وترك المعصية بحرية واختيار، وهذا العلم كاف لتصحيح افاضة تلك الموهبة عليهم بخلاف من يعلم من حاله خلاف ذلك .

يقول العلامة الطباطبائى : «ان الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة، واعتدال الخلقة، فنشأوا من باديء الامر باذهان وقادة، وادراكات صحيحة ونفوس طاهرة ، وقلوب سليمة ، فنالوا بمجرد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الاخلاص ماناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل اعلى وارقي لطهارة داخلهم من التلوث بالواث الموانع والمزاحمات والظاهر ان هؤلاء هم المخلصون (بالفتح) لله في مصطلح القرآن ، وهم الانبياء والائمة ، وقد نص القرآن بان الله اجتباهم ، أي جمعهم لنفسه واخلصهم لحضرته ، قال تعالى : «واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم» «الانعام - ٨٧) وقال : هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج» (الحج - ٧٨)[1] .

وهذه العبارة من العلامة الطباطبائي تشير الى القسم الثاني وهو القابليات الخارجة عن اختيار الانبياء غير ان هناك اموراً واقعة في اختيارهم كما عرفت فالكل يعطي الصلاحية لافاضة الموهبة الالهية على تلك النفوس المقدسة .

كلام للسيد المرتضى

ان للسيد المرتضى كلاماً في الاجابة عن هذا السؤال نأتي بنصه :

«فان قيل اذا كان تفسير العصمة ماذكرتم فألا عصم الله تعالى جميع المكلفين وفعل بهم ما يختارون عنده من القبائح ؟

قلنا : كل من علم الله تعالى أن له لطفاً يختار عنده الامتناع من القبائح

(١) الميزان ج١١ ص١٧٧ .

فانه لابد ان يفعل به وان لم يكن نبيا ولا اماماً، لان التكليف يقتضى فعل اللطف على مادل عليه في مواضع كثيرة غير انه لايمتنع ان يكون في المكلفين من ليس في المعلوم ان شيئاً متى فعل ، اختار عنده الامتناع من القبيح فيكون هذا المكلف لاعصمة له في المعلوم ولالطف ، وتكليف من لالطف له يحسن ولايقبح وانما القبيح منع اللطف في من له لطف مع ثبوت التكليف»[1].

وحاصل ما افاده هو: ان الملاك في افاضة هذا الفيض هو علمه سبحانه بحال الافراد في المستقبل فكل من علم سبحانه انه لو افيض عليه وصف العصمة لاختار عنده الامتناع من القبائح، فعندئذ تفاض عليه العصمة ، وان لم يكن نبياً ولا اماماً واما من علم انه متي افيضت اليه تلك الموهبة لما اختار عندها الامتناع من القبيح لما أفيضت عليه العصمة لانه لايستحق الافاضة .

وعلى ذلك فوصف العصمة موهبة الهية تفاض لمن يعلم من حاله انه ينتفع منها في ترك القبائح عن حرية واختيار .

ولاجل ذلك يعد مفخرة قابلة للتحسين والتكريم ولايلزم ان يكون المعصوم نبيا أو اماماً ، بل كل من ينتفع منها في طريق كسب رضاه سبحانه تفاض عليه.

الى هنا تمت الاجابة على السؤال الاول وبقيت الاجابة على السؤال الثاني واليك ذلك .

* * *

هل العصمة تسلب الاختيار ؟

ربما يتخيل أن المعصوم لايقدر على ارتكاب المعصية واقتراف المآثم فالعصمة تسلب القدرة والاختيار عن صاحبها ، وعند ذاك لايعد ترك العصيان مكرمة .

---

١) امالى المرتضى ج٢ ص٣٤٧ - ٣٤٨ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

وفي هذا الصدد يقول السيد المرتضى:

«ما حقيقة العصمة التى يعتقد وجوبها للانبياء والائمة عليهم السلام وهل هي معنى يضطر الى الطاعة ويمنع عن المعصية ، أو معنى يضام الاختيار فان كان معنى يضطر الى الطاعة ويمنع من المعصية فكيف يجوز الحمد والذم لفاعلها؟ وان كان معنى يضام الاختيار فاذكروه ، ودلوا على صحة مطابقته له[1].

والجواب ، ان العصمة لاتسلب الاختيار عن الانسان بأى معنى فسرت ، سواء أقلنا بانها الدرجه العليا من التقوى، أو أنها نتيجة العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي، اوانها اثر الاستشعار بعظمة الرب والمحبة لله سبحانه وعلى كل تقدير فالانسان المعصوم مختارفي فعله ، قادر على كلي طرفي القضية من الفعل والترك ونوضح ذلك بالمثال الاتي :

ان الانسان العاقل الواقف على وجود الطاقة الكهربائية في الاسلاك المنزوعة من جلدها، لايمسها كذلك، كما ان الطبيب لايأكل سؤر المجدومين والمسلولين لعلمهما بعواقب فعلهما ذلك ، وفي الوقت نفسه يرى كل واحد منهما نفسه قادراً على ذلك الفعل ، بحيث لواغمض العين عن حياته وهيأ نفسه للمخاطرة بها، لفعل مايتجنبه ، غيرانهما لايقومان به لكونهما يحبان حياتهما وسلامتهما .

فان شئت قلت : ان العمل المزبور ممكن الصدور بالذات من العاقل والطبيب ، غيرانه ممتنع الصدور بالعرض والعادة ، وليس صدوره محالا ذاتيا وعقلياً ، وكم فرق بين المحالين ، ففى المحال العادي يكون صدور الفعل من الفاعل ممكنا بالذات ، غيرانه يرجح أحد الطرفين على الاخر بنوع من الترجيح بخلاف الثاني فان الفعل فيه يكون ممتنعاً بالذات ، فلا يصدر لعدم امكانه الذاتى .

---

[1] امالى المرتضى ج٢ ص٣٤٧ .

وان شئت فلاحظ صدور القبيح منه سبحانه فان صدوره منه امر ممكن بالذات، داخل في اطار قدرته فهو يستطيع ان يدخل المطيع في نار الجحيم والعاصي في نعيم الجنة، غير انه لا يصدر منه ذلك الفعل لكونه مخالفا للحكمة ومبائنا لما وعد به واوعد عليه، وعلى ذلك فامتناع صدور الفعل عن الانسان مع التحفظ على الاغراض والغايات، لا يكون دليلا على سلب الاختيار والقدرة .

فالنبى المعصوم قادر على اقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا ، حسب ما اعطي من القدرة والحرية، غير انه لاجل حصوله على الدرجة العليا من التقوى واكتساب العلم القطعى باثار المآثم والمعاصي واستشعاره بعظمة الخالق ، يتجنب عن اقترافها واكتسابها ولا يكون مصدراً لها مع قدرته واقتداره عليها .

ومثلهم في ذلك المورد كمثل الوالد العطوف الذى لا يقدم على قتل ولده ، ولو اعطي له الكنوز المكنوزة والمناصب المرموقة ومع ذلك فهو قادر على قتله، بحمل السكين والهجوم عليه وقطع اوردته ، وفي هذا الصدد يقول العلامة الطباطبائي :

ان هذا العلم اعنى ملكة العصمة لا يغير الطبيعة الانسانية المختارة في افعالها الارادية، ولا يخرجها الى ساحة الاجبار والاضطرار كيف ؟ والعلم من مباديء الاختيار ، ومجرد قوة العلم لا يوجب الا قوة الارادة كطالب السلامة اذا ايقن بكون مائع ما ، سماً قاتلا من حينه فانه يمنع باختياره من شربه قطعا ، وانما يضطر الفاعل ويجبر اذا اخرج المجبر احد طرفى الفعل والترك من الامكان الى الامتناع .

ويشهد على ذلك قوله : « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون » (الانعام - ٨٧ - ٨٨) تفيد الاية انهم في امكانهم ان يشركوا بالله وان كان الاجتباء

اوالهدى الالهي مانعاً من ذلك ، وقوله : « يا ايها النبى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة ـ ٦٧) الى غير ذلك من الايات .

فالانسان المعصوم انما ينصرف عن المعصية بنفسه وعن اختياره وارادته ، ونسبة الصرف الى عصمته تعالى كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية الى توفيقه تعالى .

ولاينا في ذلك ايضاً ما يشير اليه كلامه تعالى و تصرح به الاخبار من ان ذلك من الانبياء والائمة بتسديد من روح القدس، فان النسبة الى روح القدس، كنسبة تسديد المؤمن الى روح الايمان ، ونسبة الضلال والغواية الى الشيطان وتسويله ، فان شيئاً من ذلك لايخرج الفعل عن كونه فعلا صادرا عن فاعله مستنداً الى اختياره وارادته فافهم ذلك .

نعم هناك قوم زعموا ان الله سبحانه انما يصرف الانسان عن المعصية لامن طريق اختياره وارادته بل من طريق منازعة الاسباب ومغالبتها بخلق ارادة اوارسال ملك يقاوم ارادة الانسان فيمنعها عن التاثير اويغير مجراها ويحرفها الى غيرما من طبع الانسان ان يقصده كما يمنع الانسان القوي، الضعيف عما يريده من الفعل بحسب طبعه .

وبعض هؤلاء وان كانوا من المجبرة لكن الاصل المشترك الذي يبتنى عليه نظرهم هذا واشباهه: انهم يرون ان حاجة الاشياء الى الباريء الحق سبحانه انما هي فى حدوثها ، واما في بقائها بعد ما وجدت فلا حاجة لها اليه فهو سبحانه سبب في عرض الاسباب الا انه لما كان اقدر واقوى من كل شيء كان له ان يتصرف في الاشياء حال البقاء أي تصرف شاء ، من منع او اطلاق واحياء او اماتة ومعافاة او تمريض وتوسعة او تقصير الى غير ذلك بالقهر .

فاذا اراد الله سبحانه ان يصرف عبداعن شر مثلا، ارسل اليه ملكا ينازعه في

مقتضى طبعه ويغير مجرى ارادته مثلاعن الشر الى الخير، او اراد ان يضل عبداً لاستحقاقه ذلك ، سلط عليه ابليس فحوله من الخير الى الشر وان كان ذلك لابمقدار يوجب الاجبار والاضطرار .

وهذا مدفوع بما نشاهده من انفسنا فى اعمال الخير والشر مشاهدة عيان انه ليس هناك سبب آخر يغايرنا وينازعنا فيغلب علينا غير انفسنا التى تعمل اعمالها عن شعور بها وارادة مترتبة عليه قائمين بها ، فالذي يثبته السمع والعقل وراء نفوسنا من الاسباب كالملك والشيطان سبب طولى لا عرضي مضافاً الى ان المعارف القرآنية من التوحيد وما يرجع اليه يدفع هذا القول من اصله[1].

---

١) الميزان ج١١ ص١٧٩ ـ ١٨٠ .

مراحل العصمة ودلائلها

قدوقفت على حقيقة العصمة ومايرجع اليهامن المباحث الاستطرادية فيجب الان الوقوف على مراحلها فانها حسب المراحل تنقسم الى المراحل التالية :

١ ـ المصونية في تلقي الوحي والحفاظ عليه وابلاغه الى الناس .

٢ ـ المصونية من المعصية وارتكاب الذنب المصطلح .

٣ ـ المصونية من الخطأ في الامور الفردية والاجتماعية .

هذه هي مراحل العصمة ويمكن تبيين تلك المراحل بصورة أخرى وهي ان متعلق العصمة والمصونية لاتخلو عن احد امور وهو :

اما كفر بالله او عصيانه ومخالفته .

والثاني لايخلو اما ان يكون معصية كبيرة ، اوصغيرة والصغيرة على قسمين: اما ان تكون حاكية عن خسة الفاعل ودنائة طبعه ، كسرقة اللقمة الواحدة اولاوعلى كل حال فصدور المعصية اما عمدى اوسهوى واما صادر قبل البعثة او بعدها.

وقد فصل القاضى عبدالجبار شيخ المعتزلة في عصره مذهب المعتزلة في العصمة فحكم بانه يجب ان يكون النبي منزها عمايقتضى خروجه من ولاية الله تعالى الى عداوته قبل النبوة وبعدها كما يجب ان يكون منزها من كذب او كتمان اوسهو اوغلط الى غير ذلك ومن حقه ان لايقع منه ما ينفر منه عن القبول منه اويصرف من السكون اليه اوعن النظر في علمه، نحو الكذب على كل حال، والتورية والتعمية في ما يؤديه ، والصغائر المستخفة[1].

---

١) المغنى ج١٥ ص ٢٧٩ .

وقال التفتازاني في شرح العقائد النسفية : انهم معصومون عن الكفر قبل الوحى وبعده بالاجماع وكذا من تعمد الكبائر عند الجمهور خلافا للحشوية واما سهواً فجوزه الاكثرون واما الصغائر فيجوز عمداً عند الجمهور خلافا للجبائي واتباعه ويجوز سهواً بالاتفاق الا ما يدل على الخسة[١].

قال الفاضل القوشجي : « ان المعاصي اما ان تكون منافيا لما تقتضيه المعجزة كالكذب في مايتعلق بالتبليغ اولا . والثاني اما ان يكون كفرا اومعصية، وهي اما ان تكون كبيرة كالقتل والزنا اوصغيرة منفرة كسرقة لقمة والتطفيف بحبة، او غير منفرة ككذبه وشتمه وكل ذلك اما عمداً اوسهواً اوبعد البعثة اوقبلها[٢]

فنقول : اما الاول اعني صدور الكفر من المعصومين فلم يجوزه أحد ، وما ربما ينسب الى بعض الفرق كالازارقة من تجويز الكفر على الانبياء فالمراد من الكفر هو المعصية في مصطلح المسلمين ، وانما اطلقوا عليه لفظ الكفر لاجل اعتقادهم بان كل معصية كفر ، قال الفاضل المقداد : اجمعوا على امتناع الكفر عليهم الا الفضيلية من الخوارج فانهم جوزوا صدور الذنب عنهم ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم جواز الكفر عليهم وجوز قوم عليهم الكفر تقية وخوفاً ، ومنعه ظاهر فان اولى الاوقات بالتقية زمان بدء الدعوة لكثرة المنكرين له حينئذ لكن ذلك يؤدي الى خفاء الدين بالكلية[٣].

وقال الفاضل القوشجي: قد جوز الازارقة من الخوارج الكفر بناء على تجويزهم

---

(١) العقائد النسفية ص١٧١ – ونسب فيه للشيعة جواز اظهار الكفر للتقية وهم براء منها .

(٢) شرح التجريد للفاضل القوشجى ص ٤٦٤ .

(٣) اللوامع الالهية ص١٧٠.

الذنب مع قولهم بان كل ذنب كفر[١] وربما يتوهم تجويز اظهار الكفر على النبي لاجل التقية وهو باطل لان للتقية شرائط خاصة تجوز اذا حصلت ولا تقية في هذا المورد وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار الهمداني الاسدآبادي : فان قال: افتجوزون على الرسول التقية في ما يؤديه ؟ قيل له : لايجوز ذلك عليه في ما يلزمه ان يؤديه ، ولو كانت مجوزة لم تعظم مرتبة النبي لانها انما تعظم لانه يتكفل باداء الرسالة، والصبر على كل عارض دونه ـ الى قال : ـ فلو خوف من القتل اذا ادى شريعته فما الحكم فيه؟ قيل له : يلزمه ان يؤديه ويعلم انه تعالى يصرف ذلك عنه[٢] .

واما غير الكفر فتفصيل المذاهب هو ان الشيعة اتفقت على عصمة الانبياء عن المعصية صغيرة كانت او كبيرة ، سهواً كانت او عمداً قبل البعثة أو بعدها . نعم يظهر من الشيخ المفيد تجويز بعض المعاصي الصغيرة على غير عمد على الانبياء قبل العصمة حيث قال : ان جميع انبياء الله (صلى الله عليهم) معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها وبما يستخف فاعله من الصغائر كلها ، واما ماكان من صغير لا يستخف فاعله فجائز وقوعه منهم قبل النبوة وعلى غير عمد وممتنع منهم بعدها على كل حال (ثم قال :) وهذا مذهب جمهور الامامية[٣] .

ويظهر ذلك من المحقق الاردبيلي في تعاليقه على شرح التجريد للفاضل القوشجي حيث ان المحقق الطوسي استدل على العصمة بانه لولاها لما حصل الوثوق بقول الانبياء ، واورد عليه الشارح بان صدور الذنب لاسيما الصغيرة سهواً لايخل بالوثوق ، وعلق عليه الاردبيلي بقوله : « خصوصاً قبل

(١) شرح التجريد للفاضل القوشجي ص ٤٦٤ .
(٢) المغني ج ١٥ ص ٢٨٤ .
(٣) اوائل المقالات ص٢٩ و٣٠

البعثة»[١] .

واما غير الشيعة فقد عرفت نظرية الاعتزال غير ان الفاضل القوشجي يفصل بقوله : الجمهور على وجوب عصمتهم عمانا في مقتضى المعجزة وقد جوزه القاضي سهواً ، زعماً منه انه لايخل بالتصديق المقصود بالمعجزة وكذا عن تعمد الكبائر ، بعد البعثة ، وجوزه الحشوية ، وكذا عن الصغائر المنفرة لاخلالها بالدعوة الى الاتباع ولهذا ذهب كثير من المعتزلة الى نفى الكبائر قبل البعثة ايضاً والمذهب عند محققى الاشاعرة منع الكبائروالصغائرالخسيسة بعد البعثة مطلقا ، والصغائر غير الخسيسة عمداً لاسهواً ، وذهب أمام الحرمين من الاشاعرة وابو هاشم من المعتزلة الى تجويز الصغائر عمدا[٢] .

هذه هي الاقوال المعروفة بين المتكلمين وستعرف شذوذ الكل عن الكتاب والسنة وحكم العقل غير القول الاول فنقول يقع الكلام في مراحل:

* * *

المرحلة الاولى :

عصمة الانبياء فى تبليغ الرسالة

ذهب الاكثرون من الجمهوروالشيعة اجمع الىعصمتهمفي تلك المرحلة ونسب الى الباقلانى تجويز الخطاء في ابلاغ الرسالة سهواً ونسيانا لاعمداً وقصداً وقال ابوالحسن عبدالجبار المعروف بالقاضىرئيس الاعتزال في وقته المتوفا سنة ٤١٥ : لايجوز الكذب في مايؤديه (اى النبي) عن الله تعالى ، لانه تعالى ، مع حكمته ، ومع ان غرضه بالبعثة تعريف المصالح ، لو علمانه

---

١) تعاليق المحقق الاردبيلى على شرح التجريد ص ٤٦٤ .

(٢) شرح التجريد للفاضل القوشجى ص٦٦٤

يختار الكذب في مايؤديه لم يكن ليبعثه لان ذلك ينافي الحكمة ،ولمثل هذه العلة لايجوز ان لايؤديهما حمله من الرسالة ، ولا أن يكتمه أو يكتم بعضه .

(الى أن قال) : انا لانجوز عليه السهو والغلط في ما يؤديه عن الله تعالى لمثل العلة التى تقدم ذكرها لانه لافرق ، في خروجه من ان يكون مؤديا بين ان يسهو أو يغلط أو يكتم أو يكذب فحال الكل يتفق في ذلك ولايختلف .

وانما نجوز ان يسهو في فعل قدبينه من قبل وادى مايلزم فيه حتى لم يغادر منه شيئاً فاذا فعله لمصالحه لم يمتنع ان يقع فيه السهو والغلط ولذلك لم يشتبه على أحد الحال في ان الذي وقع منه من القيام في الثانية هو سهو وكذلك ما وقع منه في خبر ذي اليدين الى غير ذلك[1] .

وفي ما ذكره من تجويز السهو على النبي في الفعل الذي بين حكمه سيأتى الكلام فيه منا .

وقد استدل المحققون من المتكلمين على عصمتهم في تلك المرحلة بوجوه اشار اليه المحقق الطوسي في تجريده بقوله. ليحصل الوثوق بافعاله واقواله، ويحصل الغرض من البعثة وهو متابعة المبعوث اليهم له في اوامره[2] ونواهيه.

وما ذكره من الدليلين وان كان لايختص بهذه المرحلة بل يعم المراحل الاخر ، ولكنه برهان تام يعتمد عليه العقل والوجدان في مسألة عصمة الانبياء، في مجال تبليغ الرسالة . توضيحه:

ان الهدف الاسمى والغاية القصوى من بعث الانبياء هو هداية الناس الى التعاليم الالهيه وشرائعه المقدسه ولاتحصل تلك الغاية الا بايمانهم بصدق

---

(١) المغنى ج١٥ ص٢٨١

(٢) شرح التجريد للفاضل القوشجى ص ٤٦٣ و كشف المراد ص ٢١٧ طبع صيدا

المبعوثين،واذعانهم بكونهم مرسلين من جانبه سبحانه، وان كلامهم واقوالهم، كلامه وقوله سبحانه، وهذا الايمان والاذعان لايحصل الا باذعان آخر وهو الاذعان بمصونيتهم عن الخطاء في المراحل الثلاث في مجال تبليغ الرسالة، وهي المصونية في مقام اخذ الوحي ، والمصونية في مقام التحفظ عليه ، والمصونية في مقام الابلاغ والتبيين. ومثل هذا لايحصل الا بمصونية النبي عن الزلل والخطاء عمده وسهوه. قال القاضي ابو الحسن عبد الجبار:« ان النفوس لاتسكن الى القبول ـ ممن يخالف فعله قوله ـ سكونها الى من كان منزها عن ذلك فيجب ان لايجوز في الانبياء عليهم السلام الا ما نقوله من انهم منزهون عما توجب العقاب والاستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى الى عداوته .

يبين ذلك أنهم لو بعثوا للمنع من الكبائر والمعاصي بالمنع والردع والتخفيف فلا يجوز ان يكونوا مقدمين على مثل ذلك لان المتعالم ان المقدم على الشيء لايقبل منه منع الغير منه للنهي والزجر ، وان هذه الاحوال منه لاتؤثر .. ولوان واعظا انتصب يخوف من المعاصي من يشاهده مقدماً على مثلها لاستخف به وبوعظه[1]

وقال في موضع آخر: ان الواعظ والمذكروان غلب على ظننا من حاله انه مقلع تائب لما اظهره من امارات التوبة والندامة حتى عرفنا من حاله الانهماك في الشرب والفجور من قبل، لم يؤثر وعظه عندنا كتأثير المستمر على النظافة والنزاهة في سائر احواله[2].

وما ذكره اخيراً دليل وجوب العصمة حتى قبل البعثة .

وهذا البرهان لوقرر على الوجه الكامل لكفي برهانا في جميع مراحل

(١) المغني ج ١٥ ص ٣٠٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٥

العصمة التى سنبينها في الابحاث الاتية

هذا منطق العقل ، واما منطق الوحي فهو يؤكد على مصونية النبي في تبليغ الرسالة في المجالات الثلاثة الماضية واليك ببيان ذلك :

القرآن وعصمةالنبى فى مجال تلقى الوحى و ...

هناك آيات تدل على العصمة في ذلك المجال نذكرها واحدة بعدالاخرى

الاية الاولى :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً » (الجن ـ ٢٦) .

الامن ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً »

(الجن ـ ٢٧)

« ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم واحاط بمالديهم وأحصى كل شيء عدداً » (الجن ـ ٢٨)

ان دلالة الآيات هذه على مصونية الرسل والانبياء في مجال تلقي الوحي وما يليه من التحفظ والتبليغ تتوقف على توضيح بعض مفرداته .

١ ـ قوله «فلا يظهر» من باب الافعال بمعنى الاعلام كما في قوله سبحانه «واظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض» . (التحريم ـ ٣)

٢ـ لفظة «من» في قوله «من رسول» بيانية تبين المرضي عندالله، فالرسول هو المرتضى الذي اختاره الله تعالى لتعرفه على الغيب .

٣ ـ والضمير في «انه» في قوله : «انه يسلك» يرجع الى الله ، كما ان ضمير الفاعل في قوله : «يسلك» أيضاً يرجع اليه ، وهو بمعنى : يجعل .

٤ ـ والضمير في «يديه وخلفه» يرجع الى الرسول .

٥ ـ «والرصد» هو الحارس الحافظ يطلق على الجمع والمفرد .

٦ ـ والمراد من : «بين يديه» (اى ما بين يدى الرسول) : ما بينه وبين الناس : المرسل اليهم .

كما ان المراد من «من خلفه» ما بين الرسول وبين مصدر الوحي الذي هو سبحانه .

وعلى ذلك فالنبي مصون ومحفوظ في مجال تلقي الوحي من كلا الجانبين.

وقد اعتبر في هذا التعبير ما يوهمه معنى الرسالة من انه فيض متصل من المرسل (بالكسر) وينتهى الى المرسل اليه (بالفتح) والاية تصف طريق بلوغ الغيب الى الرسل وان الرسول محاط بالرصد والحارس من امامه «ما بين يديه» «وخلفه» ووراثه، فلا يصيبه شيء يباين الوحي.

ومعنى الاية ، ان الله يجعل (يسلك) ما بين الرسول ومن ارسل اليه ،وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة ، وليس جعل الرصد امام الرسول وخلفه الا للتحفظ على الوحي من كل تخليط وتشويش بالزيادة والنقص التي يقع فيها من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها .

ثم انه سبحانه علل جعل الرصد بين يدى الرسول وخلفه بقوله : «ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم» .

والمراد من العلم هو العلم الفعلي بمعنى التحقق الخارجي على حد قوله: «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» . (العنكبوت ـ ٣)

أي ليتحقق ابلاغ رسالات ربهم على ماهي عليه من غير تغيير وتبدل.

٧ ـ قوله: «واحاط بما لديهم » بمنزلة الجملة المتممة للحراسة المستفادة من قوله : «رصداً» .

وعلى الجملة فهذه العبارات الثلاث الواردة في الاية تفيد مدى عناية الباري للحراسة والحفاظ على الوحي الى ان يصل الى المرسل اليهم بلا تغيير وتبديل ، وهذه الجمل عبارة عن :

أ - من بين يديه

ب - ومن خلفه

ج - واحاط بما لديهم

فالجملة الاولى تشير الى وجود رصد بين الرسول والناس .

كما ان الجملة الثانيه تشير الى وجود رصد محافظين بينه وبين مصدر الوحي .

والجملة الثالثة تشير الى وجود الحفظة في داخل كيانهم .

فتصير النتيجة أن الوحي في أمن وامان من تطرق التحريف منذ ان يفاض من مصدر الوحي ويقع في نفس الرسول الى ان يصل الى الناس والمرسل اليهم .

٨ - قوله : « واحصى كل شيء عدداً» مسوق لافادة عموم علمه بكل شيء سواء فى ذلك الوحي الملقى الى الرسول وغيره .

يقول العلامة الطباطبائي : «ان قوله سبحانه : «فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه»الى آخر الايتين يدل على ان الوحي الالهى محفوظ من لدن صدوره من مصدر الوحي الى بلوغه الناس ، مصون في طريق نزوله الى ان يصل الى من قصد نزوله اليه .

اما مصونيته من حين صدوره من مصدره الى أن ينتهى الى الرسول فيكفى في الدلالة عليه قوله «من خلفه» واما مصونيته حين أخذ الرسول اياه وتلقيه من ملك الوحى بحيث يعرفه ولايغلط في اخذه ، ومصونيته في حفظه بحيث يعيه كما اوحي اليه من غير ان ينساه اويغيره أو يبدله .

ومصونيته في تبليغه الى الناس من تصرف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله: « ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم» حيث يدل على ان الغرض الالهى من سلوك

الرصد ان يعلم ابلاغهم رسالات ربهم أي أن يتحقق في الخارج ابلاغ الوحي الى الناس ، ولازمه بلوغه أياهم ولولا مصونية الرسول في الجهات الثلاث المذكورة جميعا لم يتم الغرض الالهي وهو ظاهر .

وحيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقاً غير سلوك الرصد دل ذلك على ان الوحي محروس بالملائكة وهو عند الرسول كما انه محروس بهم في طريقه الى الرسول حتى ينتهى اليه ، ويؤكده قوله بعد : «واحاط بما لديهم» .

واما مصونيته في مسيره من الرسول حتى ينتهى الى الناس فيكفى فيه قوله : « ومن بين يديه » على ما تقدم معناه .

اضف الى ذلك دلالة قوله : «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم» بما تقدم من تقريب دلالته .

ويتفرع على هذا البيان : ان الرسول مؤيد بالعصمة في أخذ الوحى من ربه وفي حفظه وفي تبليغه الى الناس ، مصون من الخطأ في الجهات الثلاث جميعاً لما مرّ من دلالة على ان ما نزله الله من دينه على الناس من طريق الرسالة بالوحي، مصون في جميع مراحله الى أن ينتهي الى الناس ومن مراحله مرحلة اخذ الرسول للوحى وحفظه له وتبليغه الى الناس .

والتبليغ يعم القول والفعل فان في الفعل تبليغاً كما في القول فالرسول معصوم من المعصية باقتراف المحرمات وترك الواجبات الدينية لأن في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصية كما انه معصوم من الخطا في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه قولا .

وقد تقدمت الاشارة الى ان النبوة كالرسالة في دورانها مدار الوحي فالنبي كالرسول فى خاصة العصمة ، ويتحصل بذلك ان اصحاب الوحي سواء كانوا

رسلا أو أنبياء معصومون في أخذ الوحي وفي حفظ ما أوحى اليهم وفي تبليغه الى الناس قولا وفعلا[١].

الاية الثانية

قوله سبحانه : كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانـزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم» .

(البقرة - ٢١٣)

ان الاية تصرح بان الهدف من بعث الانبياء هو القضاء بين الناس في ما اختلفوا فيه وليس المراد من القضاء الا القضاء بالحق وهو فرع وصول الحق الى القاضي بلا تغيير وتحريف.

ثم ان نتيجة القضاء هي هداية من آمن من الناس الى الحق باذنه كما هو صريح قوله : «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه» .

والهادي وان كان هو الله سبحانه في الحقيقة لكن الهداية تتحقق عن طريق النبي، وبوساطته. وتحقق الهداية منه فرع كونه واقفا على الحق ، بلا تحريف وكل ذلك يستلزم عصمة النبى في تلقى الوحي والحفاظ عليه ، وابلاغه الى الناس .

وبالجملة فالاية تدل على ان النبي يقضي بالحق بين الناس ويهدى المؤمنين اليه ، وكل ذلك (أى القضاء بالحق أولا ، وهداية المؤمنين اليه ثانياً) يستلزم كونه واقفاً على الحق على ما هو عليه وليس المراد من الحق الا مايوحى اليه.

---

(١) الميزان ج٢٠ ص١٣٣ .

الاية الثالثة

قوله سبحانه: «وما ينطق عن الهوى ان هوالا وحي يوحى»(النجم ٣-٤)

فالاية تصرح بأن النبي لاينطق عن الهوى ، أى لايتكلم بداعي الهوى . فالمراد اما جميع مايصدرعنه من القول في مجال الحياة كما هو مقتضى اطلاقه أو خصوص ما يحكيه من الله سبحانه فعلى كل تقدير فهو يدل على صيانته وعصمته في المراحل الثلاث المتقدم ذكرها فى مجال ابلاغ الرسالة .

وبما أن عصمة الانبياء في تلك المرحلة تكون من المسلمات عند المحققين من أصحاب المذاهب والملل ، فلنعطف عنان البحث الى ماتضاربت فيه آراء المتكلمين ، وان كان للشيعة فيه قول واحد ، وهو عصمتهم عن العصيان والمخالفة لاوا مره ونواهيه .

المرحلة الثانية :

عصمة الانبياء عن المعصية

لقد وقفت على دلائل عصمة الانبياء في تلقي الوحي وحان الحين للبحث عن عصمتهم عن المعصية . ونبحث في ذلك عن وجهتين: العقلية والقرآنية.؟

العقل وعصمة الانبياء

ان القرآن الكريم يصرح بان الهدف من بعث الانبياء هو تزكية نفوس الناس وتصفيتهم من الرذائل وغرس الفضائل فيها قال سبحانه حاكيا عن لسان ابراهيم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم» (البقرة - ١٢٩) وقال سبحانه : لقد من الله على المؤمنين اذبعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران ـ ١٦٤)

والمراد من التزكية هو تطهير القلوب عن الرذائل وانماء الفضائل وهذا هو ما يسمى في علم الاخلاق بـ«التربية».

ولا شك ان تأثير التربية في النفوس يتوقف على اذعان من يراد تربيته بصدق المربى وايمانه بتعاليمه، وهذا يعرف من خلال عمل المربى بما يقوله ويعلمه والا فلو كان هناك انفكاك بين القول والعمل ، لزال الوثوق بصدق قوله وبالتالى تفقد التربية اثرها ، ولا تتحقق حينئذ الغاية من البعث .

وان شئت قلت: ان التطابق بين مرحلتي القول والفعل ،هو العامل الوحيد لكسب ثقة الاخرين بتعاليم المصلح والمربى ،ولو كان هناك انفكاك بينهما لانفض الناس من حوله قائلين بانه لو كان مذعنا بصحة دعوته لما خالف قوله في مقام العمل

سؤال وجواب

نعم يمكن ان يقال : يكفى في الاعتماد على النبى مصونيته عن معصية واحدة وهي الكذب فالبرهان المذكور على تماميته لايثبت الامصونيته عن خصوص الكذب لامطلقا .

اقول : الاجابة عن هذا السؤال سهلة لان التفكيك بين المعاصي فرضية محضة لايصح ان تقع اساساً للتربية العامة لمافيها من الاشكالات .

اما اولا : فان المصونية عن المعاصي نتيجة احدى العوامل التي اوعزنا اليها عند البحث عن حقيقة العصمة فان تم وجودها اووجود بعضها تحصل المصونية المطلقة للانسان، والا فلايمكن التفكيك بين الكذب وسائر المعاصى

بان يجتنب الانسان عن الكذب طيلة عمره ويركب سائر المعاصي، فان العوامل التي تسوق الانسان الى ارتكابها تسوقه ايضا الى اقتراف الكذب واجتياح التهمة .

واما ثانيا : فلوصح التفكيك بينهما في عالم الثبوت لايمكن اثباته (الداعي لايكذب ابداً وان كان يركب سائر المعاصى) في حق الداعي ومدعي النبوة، اذ كيف يمكن الانسان ان يقف على ان مدعي النبوة مع ركوبه المعاصي واقترافه للمآثم ، لا يكذب اصلا عندما اضطر اليه حتى ولو صرح الداعي الى الاصلاح بنفس هذا التفكيك، لسرى الريب الى نفس هذا الكلام ايضا .

وعلى الجملة: ان الهدف من بعث الرسل وانزال الكتب هو دعوة الناس الى الهداية الالهية التي يقوم باعبائها الانبياء والرسل ولايتحقق ذلك الهدف الابعد اعتماد الناس على حامل الدعوة والقائم بالهداية ، فاقتراف المعاصي ومخالفة مايدعو اليه من القيم والخلق ، يزيل من النفوس الثقة به والاعتماد عليه .

وبهذا البيان تظهر الاجابة عن سؤال لايقصر في الضئالة عن السؤال الماضى. وهو ماربما يقال: ان اقصى مايثبته هذا البرهان هو لزوم نزاهة النبي عن اقتراف المعاصي في المجتمع ، وهذا لايخالف ان يكون عاصيا ومقترفاً للذنوب في الخلوات ، وهذا القدر من النزاهة كاف في جلب الثقة .

والجواب عن هذا السؤال واضح تمام الوضوح فان مثل هذا التصور عن النبي والقول بانه يرتكب المعاصي في السر دون العلن يهدم الثقة به ، اذما الذي يمنعه ـ عندئذ ـ من ان يكذب ويتستر على كذبه، وبذلك تزول الثقة بكل مايقول ويعمل .

اضف الى ذلك انه يمكن خدعة الناس بتزئين الظاهر مدة قليلة لا مدة

طويلة ولاينقضي زمان الاوقد تظهر البواطن ويرتفع الستار عن حقيقته فتكشف سوأته ، ويظهر عيبه .

الى هنا ظهر أن ثقة الناس بالانبياء انما هو في ضوء الاعتقاد بصحة مقالهم وسلامة افعالهم وهو فرع كونهم مصونين عن الخلاف والعصيان في الملا والخلا والسر والعلن من غير فرق بين معصية دون اخرى .

تقرير المرتضى لهذا البرهان

ان السيد المرتضى قدقرر هذا البرهان ببيان آخر نأتي به .

قال ماهذا حاصله: انتجويز الكبائر يقدح في ماهوالغرض من بعث الرسل وهو قبول قولهم وامتثال اوامرهم ولاتكون انفسنا ساكنة الى قبول قوله اواستماع وعظه كسكونها الى من لانجوز عليه شيئاً من ذلك وهذا هو معنى قولنا ان وقوع الكبائر ينفر عن القبول والمرجع فيما ينفر ومالاينفر الى العادات واعتبار ما تقتضيه ، وليس ذلك مما يستخرج بالادلة والمقائيس ، ومن رجع الى العادة علم ماذكرناه ، وانه من اقوى ما ينفر عن قبول القول ، فان حظ الكبائر في هذا الباب ان لم يزد على حظ السخف والمجون والخلاعة لم ينقص عنه .

فان قيل : أليس قد جوّز كثير من الناس على الانبياء عليهم السلام الكبائر مع انهم لم ينفروا عن قبول أقوالهم والعمل بماشرعوه من الشرائع ، وهذا ينقض قولكم : ان الكبائر منفرة قلنا : هذا سؤال من لم يفهم ماأوردناه لانا لم نرد بالتنفير ارتفاع التصديق وان لايقع امتثال الامر جملة وانما أردنا مافسرناه من ان سكون النفس الى قبول قول من يجوز ذلك عليه لايكون على حد سكونها الى من لايجوز ذلك عليه وانا مع تجويز الكبائر نكون أبعد عن

قبول القول، كما أنا مع الامان من الكبائر نكون أقرب الى القبول ، وقد يقرب من الشيء مالايحصل الشيء عنده، كمايبعد عنه مالايرتفع عنده .

ألاترى ان عبوس الداعي للناس الى طعامه وتضجره وتبرّمه منفرٌ في العادة عن حضور دعوته وتناول طعامه وقديقع معماذكرناه الحضوروالتناول ولا يخرجه من ان يكون منفراً ، وكذلك طلاقة وجهه واستبشاره وتبسمه يقرب من حضور دعوته وتناول طعامه وقد يرتفع الحضور مع ماذكرناه ، ولايخرجه من أن يكون مقرباً فدل على ان المعتبر في باب المنفر والمقرب ماذكرناه دون وقوع الفعل المنفر عنه أوارتفاعه .

فان قيل : فهذا يقتضي ان الكبائر لاتقع منهم في حال النبوة فمن اين انها لاتقع منهم قبل النبوة وقد زال حكمها بالنبوة المسقطة للعقاب والذم ولم يبق وجه يقتضي التنفير قلنا: الطريقة في الامرين واحدة لانا نعلم ان من نجوز عليه الكفر والكبائر في حال من الاحوال وان تاب منهما وخرج من استحقاق العقاب به لانسكن الى قبول قوله مثل سكوننا الى من لايجوز ذلك عليه في حال من الاحوال ولا على وجه من الوجوه ، ولهذا لايكون حال الواعظ لنا ، الداعي الى الله تعالى ونحن نعرفه مقارناً للكبائر مرتكباً لعظيم الذنوب وانكان قد فارق جميع ذلك وتاب منه عندنا وفي نفوسنا، كحال من لم نعهد منه الاّ النزاهة والطهارة ، ومعلوم ضرورة الفرق بين هذين الرجلين فيما يقتضي السكون والنفور ، ولهذا كثيراً مايعير الناس من يعهدون منه القبائح المتقدمة بها وان وقعت التوبة منها ويجعلون ذلك عيباً ونقصاً وقادحاً ومؤثراً، وليس اذا كانتجويز الكبائر قبل النبوة منخفضاً عن تجويزهافي حال النبوة وناقصاًعن رتبته في باب التنفير (ولاجل ذلك) وجب أنلايكون فيه شيء من التنفير، لان الشيئين قديشتركان في التنفيروان كان أحدهما أقوى من صاحبه،

الا ترى ان كثرة السخف والمجون والاستمرار عليه والانهماك فيها منفر لا محالة، وان القليل من السخف الذي لايقع الا في الاحيان والاوقات المتباعدة منفر أيضاً، وان فارق الاول في قوة التنفير ولم يخرجه نقصانه في هذا الباب عن الاول من أن يكون منفراً في نفسه .

فان قيل : فمن اين قلتم ان الصغائر لاتجوز على الانبياء عليهم السلام في حال النبوة وقبلها ؟

قلنا: الطريقة في نفى الصغائر في الحالتين هي الطريقة في نفي الكبائر في الحالتين عند التأمل لانا كما نعلم ان من يجوز كونه فاعلا لكبيرة متقدمة قد تاب منها وأقلع عنها ولم يبق معه شيء من استحقاق عقابها وذمها ، لايكون سكوننا اليه كسكوننا الى من لايجوز ذلك عليه ، فكذلك نعلم ان من نجوز عليه الصغائر من الانبياء عليهم السلام أن يكون مقدماً على القبائح مرتكباً للمعاصي في حال نبوته أوقبلها وان وقعت مكفرة لايكون سكوننا اليه كسكوننا الى من نأمن منه كل القبائح ولانجوز عليه فعل شيء منها[1].

اجابة عن سؤال آخر

ربمايقال : ان العقلاء يكتفون في تبليغ برامجهم التعليمية والتربوية بما يغلب صدقه على كذبه، ويكفى في ذلك كون الرسول رجلا صدوقاً عدلا ومن المعلوم ان الصدوق العادل ليس بمعصوم وليس صادقاً مأة بالمأة، وفي نهاية الكمال، ولاجل ذلك لامانع من ان يكتفى سبحانه في تبليغ شرائع الانبياء بأفراد صالحين يغلب حسنهم على قبحهم وثباتهم على زللهم .

هذا هو السؤال، وأما الجواب : فان اكتفاء العقلاء بهذه الدرجة من

(١) تنزيه الانبياء ص٤ ـ ٦

الصلاح والاستقامةلاجل وجهين .

أما لعدم تمكنهم من أفراد كاملين، واما لاكتفائهم في تحقق أهدافهم على الحد الخاص من الواقعيـة وكلا الامرين لايناسب ساحته سبحانـه ، اذ في وسع المولى سبحانـه بعث رجال معصومين ، و تحقيـق أهدافـه على الوجه الاكمل .

يقول العلامـة الطباطبائي في هذا الصدد : ان الناس يتسببـون في أنواع تبليغاتهم واغراضهم الاجتماعية بالتبليـغ بمن لايخلـو عن قصور وتقصيـر في التبليـغ لكن ذلك منهـم لاحد أمرين لايجوز في مانحن فيه ، لمكان المسامحة منهم في الوصول الى الاهداف ، فان مقصودهـم هو البلـوغ الى ماتيسر من المطلوب والحصول علـى اليسير والغض عن الكثير، وهذا لايليـق بساحته تعالى[1] .

ولاجل هذه الوجوه العقليـة نرى القرآن يصرح بعصمة الانبياء تارة ، ويشير اليها أحيانـاً حيث يصفهم بأنهم أفراد مهديون لايضلـون أبداً ، واليك هذه الايات التي تعد من أجلى الشواهد القرآنية على عصمة الانبياء .

* * *

القرآن وعصمة الانبياء من المعصية

انه سبحانه يطرح في كتابه العزيز عصمة الانبياء ويصفهم بهذا الوصف، ويشهد بذلك لفيف من الايات :

الاية الاولى

قال سبحانـه : « ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من

(١) الميزان ج٢ص١٤١

قبل ومن ذريتـه داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلـك نجـزي المحسنين . وزكريـا ويحيى وعيسى واليـاس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا علـى العالميـن . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » .

ثم انـه يصف هذه الصفوة من عباده بقولـه : « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسئلكم عليه أجراً ان هو الا ذكر العالمين »

(الانعام ٨٤ - ٩٠)

والاية الاخيرة تصف الانبياء بأنهم مهديون بهداية الله سبحانه على وجه يجعلهم القدوة والاسوة .

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى انه سبحانه يصرح بأن من شملته الهداية الالهية لا مضل له ويقول: «ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل» (الزمر ٣٦ - ٣٧)

وفي آيـة ثالثة يصرح بأن حقيقـة العصيان هي الانحراف عن الجادة الوسطى بل هي الضلالـة ويقول : « ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان. انه لكم عدو مبين . وان اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيراً. أفلم تكونوا تعقلون » (يس/ ٦٠ - ٦٢)

وبملاحظة هذه الطوائف الثلاث من الايات تظهر عصمة الانبياء بوضوح وتوضيح ذلك :

انه سبحانه يصف الانبياء في اللفيف الاول من الايات بانهم القدوة الاسوة والمهديون من الامة كما يصرح في اللفيف الثاني بان من شملته الهداية الالهية لاضلالة ولا مضل له .

كما هو يصرح في اللفيف الثالث بان العصيان نفس الضلالة أو مقارنه وملازمه

حيث يقول «ولقد اضل منكم» وماكانت ضلالتهم الا لاجل عصيانهم ومخالفتهم لاوامره ونواهيه .

فاذا كان الانبياء مهديون بهداية الله سبحانه ، ومن جانب آخر لا يتطرق الضلال الى من هداه الله ومن جانب ثالث كانت كل معصية ضلالا يستنتج أن من لاتتطرق اليه الضلالة لاتتطرق اليه العصيان .

وان اردت ان تفرغ ماتفيده هذه الايات في قالب الاشكال المنطقية فتقول.

النبى ، من هداه الله

وكل من هداه الله فما له من مضل

ينتج : النبى ما له من مضل

الاية الثانية

انه سبحانه يعد المطيعين لله والرسول بانهم من الذين يحشرون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين انعم الله عليهم اذ يقول :

«ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً» (النساء ـ ٦٩) .

وعلى مفاد هذه الاية فالانبياء من الذين انعم الله عليهم بلاشك ولاريب وهو سبحانه يصف تلك الطائفة أعنى «من انعم عليهم» بقوله :بانهم« غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (الفاتحة ـ ٧)

فاذا انضمت الاية الاولى الواصفة للانبياء بالانعام عليهم، الى هذه الاية الواصفة بانهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين، يستنتج عصمة الانبياء بوضوح لان العاصي من يشمله غضب الله سبحانه ويكون ضالا بقدر عصيانه ومخالفته .

وعلى الجملة : من كان غير المغضوب عليه ولا الضال فهو لايخالف ربه

ولايعصي أمره فان العاصي يجلب غضب الرب ، ويضل عن الصراط المستقيم قدر عصيانه .

الاية الثالثة

انه سبحانه يصف جملة من الانبياء ويقول في حق ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى وهارون واسماعيل وادريس : «اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجداً وبكيا » (مريم ـ ٥٨)

فهذه الاية تصف تلك الصفوة من الانبياء باوصاف اربعة :

١ ـ انعم الله عليهم ٢ ـ هدينا ٣ ـ واجتبينا ٤ ـ خروا سجداً وبكيا .

ثم انه سبحانه يصف في الاية التالية ذرية هؤلاء واولادهم با وصاف تقابل الصفات الماضية ، ويقول: «فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلوة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » . (مريم ـ ٥٩)

نرى انه سبحانه يصف خلفهم باوصاف ثلاثة تضاد اوصاف ابائهم وهي عبارة عن امور ثلاثه : ١ ـ اضاعوا الصلاة ٢ ـ واتبعوا الشهوات ٣ ـ يلقون غياً .

وبحكم المقابلة بين الصفات يكون الانبياء ممن لم يضيعوا الصلاة ولم يتبعوا الشهوات وبالنتيجة لايلقون غيا وكل من كان كذلك فهو مصون من الخلاف ومعصوم من اقتراف المعاصي لان المعاصي لايعصي الا لاتباع الشهوات وسوف يلقى اثر غيه وضلالته .

الاية الرابعة

ان القرآن الكريم يدعو المسلمين الى الاقتفاء باثر النبي بمختلف التعابير

والعبارات يقول سبحانه : قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين» . (آل عمران ٣١ - ٣٢)

ويقول أيضاً : « ومن يطع الرسول فقد اطاع الله» . (النساء - ٨٠)

ويقول في آية ثالثة : «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون» . (النور - ٥٢)

كما انه سبحانه يندد بمن يتصور ان على النبي ان يقتفى الرأي العام ويقول : «واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم». (الحجرات - ٧)

وعصارة القول أن هذه الايات تدعو الى اطاعة النبي والاقتداء به بلا قيد وشرط ، ومن وجبت طاعته على وجه الاطلاق أي بلا قيد وشرط يجب ان يكون معصوماً من العصيان ومصوناً عن الخطأ والزلل .

توضيحه: ان دعوة النبي تتحقق باحد الامرين: اللفظ او العمل . والدعوة بالكتابة ترجع الى أحدهما ، وعند ذلك فلو كان كل ما يدعو اليه النبي بلسانه وفمه وقلمه ويراعه، صادقاً مطابقاً للواقع غير مخالف له قدر شعرة ، لصح الامر بالاقتداء به وان طاعته طاعة الله سبحانه كما قال: «ومن يطع الرسول فقد اطاع الله» . (النساء - ٨٠)

واما لو كان بعض ما يدعو به باللفظ والعمل والقول والكتابة على خلاف الواقع وعلى خلاف ما يرضى به سبحانه يجب تقييد الدعوة الى طاعة النبي بقيد يخرج هذه الصورة .

فالحكم باتباعه على وجه الاطلاق يكشف عن ان دعواته واوامره قولا وفعلا حليفة الواقع، وقرينة الحقيقة لا تتخلف عنه قدر شعرة ، من غير فرق بين الدعوة اللفظية أو العملية .

فان الدعوة عـن طريق العمل والفعل من اقـوى العوامل تأثيراً في مجال التربية والتعليم وارسخها وكل عمل يصدر من الرسل فالناس يتلقونه دعوة عملية الى اقتفاء اثره في ذاك المجال .

فلو كان ما يصدر من النبي طيلة الحياة مطابقاً لرضاه وموافقا لحكمه صح الامر بالاقتفاء فـي القول والفعل ، ولو كانت افعالهم تخالف الواقع في بعض الاحايين وتتسم بالعصيان والخطا، لما صح الامر بطاعته والاقتداء به على وجه الاطلاق .

كيف وقد وصف الرسول بانه الاسوة الحسنة فـي قوله سبحانه : «لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً» . (الاحزاب ـ ٢١)

فكونه اسوة حسنة في جميع المجالات لايتفق الا مـع عصمته المطلقة ، بخلاف من يكون اسوة فـي مجال دون مجال ، وعلى ذلك فهو مصون مـن الخلاف والعصيان ، والخطأ والزلل .

وان شئت قلت : لو صدر عـن النبي عصيان وخلاف فمن جانب يجب علينا طاعته واقتفاؤه واتباعه ، وبما ان الصادر منه أمر منكر يحرم الاقتداء بـه واتباعه وتجب المخالفة ، فعندئذ يلزم الامر بالمتناقضين ، والقول بأنـه يجب اتباعه في خصوص ما ثبت كونه موافقا للشرع أولم تعلم مخالفته له ، خلاف اطلاق الآيات الآمرة بالاتباع على وجه الاطلاق من غير فرق بين فعل دون فعل ، ووقت دون وقت .

وهذا المورد من الموارد التي يستكشف باطلاق الحكم حال الموضوع وسعته وانهامطابق للشرع ، وكم له من مورد في الاحكام الفقهية[1] .

(١) وقدعنونه الاصوليون فى ابحاث العام والخاص فيستكشفون عن اطلاق الحكم ←

الاية الخامسة :

ان الله سبحانه يحكي عن الشيطان الطريد بانه قال : «فبعزتك لاغوينهم اجمعين الاعبادك منهم المخلصين» (ص ٨٣ - ٨٤)

ويقول أيضاً : «ولا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين».

(الحجر ٣٩ - ٤٠)

فهذه الايات ونظائرها تحكى عن نزاهة المخلصين عن اغـواء الشيطان وجره اياهم الى الطرق المظلمة .

توضيحه: ان الغى يستعمل تارة في خلاف الرشد واظلام الامر ، وأخرى في فساد الشيء قال ابن فارس : فالاول الغي وهو خلاف الرشد ، والجهل بالامر والانهماك في الباطل ، يقال غوى يغوى غياً قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لايعدم على الغي لائماً

وذلك عندنا مشتق من الغباية ، وهى الغبرة والظلمة تغشيان كأن ذا الغي قد غشيه ما لايرى معه سبيل حق .

واما الثانى فمنه قولهم : غوي الفصيل اذا اكثر من شرب اللبن ففسد جوفه، والمصدر : الغوى[1].

وعلى ذلك فسواء فسرت الغواية في الايتين بالمعنى الاول كما هو الاقرب او بالمعنى الثانى، فالعباد المخلصون منزهون عن أن تغشاهم الغبرة والظلمة في حيـاتهم او ان يرتكبوا امراً فاسداً ، ونفى كلا الامرين يستلزم العصمـة ، لان

ـ سعة الموضوع كما فى مثل قوله: لعن الله بنى امية قاطبة» فيستدل باطلاقه على سعته وعدم وجود مؤمن فيهم والا لما صح الحكم بالاطلاق .

(١) مقاييس اللغة ج ٤ ص ٣٩٩ - ٤٠٠

العاصي تغشاه غبرة الجهل وظلمة الباطل ، كما انه يفسد علمه بالمخالفة .

نعم اثبات الغواية لايستلزم اثبات المعصية ، فان مخالفة الاوامر الارشادية التي لاتبتني الا النصح والارشاد وان كانت تلازم غشيان الغبرة في الحياة وفساد العمل ، لكنها لاتستلزم التمرد والتجري اللذين هما الملاك في صدق المعصية

وعلى كل تقدير، فما ورد في هذه الطائفة من الايات بمنزلة ضابطة كلية في حق المخلصين ونزاهتهم عن الغواية الملازمة لنزاهتهم عن المعصية .

وهناك آيات أخرى تأتي باسماء المخلصين وتصفهم وتقول «واذكر عبدنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار. انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار. وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار. واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار». (ص ٤٥ - ٤٨)

فقوله سبحانه « انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » خير دليل على ان المعدودين والمذكورين في هذه الايات من ابراهيم وذريته كلهم من المخلصين الذين شهدت الايات على تنزههم من غوايه الشيطان الملازم لنزاهتهم عن العصيان والخلاف .

نعم هذه الطائفة لاتدل على عصمة جميع الانبياء والرسل الا بعدم القول بالفصل حيث ان العلماء متفقون اما علي العصمة اوعلى خلافها وليس هناك من يفصل بين نبي دون نبي بان يثبت العصمة في حق بعضهم دون بعض .

هذا بعض مايمكن الاستدلال به على عصمة الانبياء وبقيت هناك آيات يمكن الاستدلال بها على العصمة ايضاً مثل قوله سبحانه : «واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » (الانعام - ٨٧)

لان المراد من الاجتباء هو الاجتباء بالعصمة وان كان يحتمل ان يكون المراد الاجتباء بالنبوة . والكلام هنا في الاجتباء دون الهداية .

ومثله قوله سبحانه : « وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجداً وبكياً » (مريم - ٥٨)

حجة المخالفين للعصمة

قد تعرفت على الآيات الدالة على عصمة الانبياء في المجالات التالية : «تلقي الوحي . والتحفظ عليه ، وابلاغه الى الناس، والعمل به» غير ان هناك آيات ربما توهم في بادي النظر خلاف مادلت عليه صراحة الآيات السابقة ، وقد تدرع بها بعض الفرق الاسلامية التي جوزت المعصية على الانبياء بمختلف صورها .

وهذه الآيات على طوائف :

الاولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الانبياء .

الثانيه : ما يمس عصمة عدة منهم كآدم ويونس.

الثالثة : ما يتراءى منه عدم عصمة النبي الاكرم .

فعلينا دراسة هذه الاصناف[1] من الآيات حتى يتجلى الحق باجلى مظاهره .

الطائفة الاولى

ومن هذه الطائفة قوله سبحانه :«وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل القري افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الاخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون» (يوسف -١٠٩)

«حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولايرد باسنا عن القوم المجرمين (يوسف - ١١٠)

---

(١) ونكتفى فى هذا الجزء ببيان الطائفة الاولى ونرجىء بيان الطائفتين التاليتين الى الجزء الاتى باذنه سبحانه .

استدل القائل بعدم وجود العصمة في الانبياء بظاهر الاية قائلا بان الضمائر الثلاثة في قوله : «وظنوا أنهم قد كذبوا» ترجع الى الرسل ، ومفاد الاية ان رسل الله سبحانه وانبيائه كانوا ينذرون قومهم ، وكان القوم يخالفونهم اشد المخالفة ،وكان الرسل يعدون المؤمنين بالنصر عن الله والغلبة ويوعدون الكفار بالهلاك والابادة لكن لما تأخر النصر الموعود وعقاب الكافرين « ظن الرسل انهم قد كذبوا » فيما وعدوا به من جانب الله من نصر المؤمنين واهلاك الكافرين ومن المعلوم ان هذا الظن سواء أكانت بصورة الاذعان واليقين او بصورة الزعم والميل الى ذاك الجانب، اعتقاد باطل لايجتمع مع العصمة.

وان شئت تفسير الاية فعليك باظهار مراجع الضمائر بان تقول: لما اخرنا العقاب عن الامم السالفة ظن الرسل ان الرسل قد كذب (بصيغة المجهول) الرسل في ما وعدوا به من النصر للمؤمنين والهلاك للكافرين .

وعلى هذا فكل جواب من العدلية القائلين بعصمة الرسل على خلاف هذا الظاهر يكون غير متين ، بل يجب ان يكون الجواب منطبقاً على هذا الظاهر .

واليك الاجوبة المذكورة في التفاسير :

الاول: ان الضمائر الثلاثة ترجع الى الرسل غير ان الوعد الذي تصور الرسل انهم قد كذبوا (اي قيل لهم قولا كاذباً) هو تظاهر عدة من المؤمنين بالايمان وادعاؤهم الاخلاص لهم فتصور الرسل ان تظاهر هؤلاء بالايمان كان كذباً وباطلا وكانهم تصوروا ان الذين وعدوهم بالايمان من قومهم اخلفوهم وكذبوا في اظهارهم الايمان .[1]

وفيه :ان هذا الجواب وان كان اظهر الاجوبة اذ ليس فيه تفكيك بين الضمائر

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٧١

كما في سائر الاجوبة الاتية لكن الذي يرده هوبعده عن ظاهر الاية ، اذ ليس فيها عن ايمان تلك الثلة القليلة اثر حتى يقع متعلق الكذب في قوله سبحانه : «قد كذبوا» .

وان شئت قلت : ليس في مقدم الاية ولا في نفسها ما يشير الى انه قد آمن بالرسل عدة قليلة وتظاهروا بالايمان غير انه صدر عنهم ما جعل الانبياء يظنون بكذبهم في ما اظهروه من الايمان حتى يصح ان يقال ان متعلق الكذب هو هذا ، وانما المذكور في مقدمها ونفسها هو مخالفة الزمرة الطاغية من اقوام الانبياء وعنادهم ولجاجهم مع رسل الله وانبيائه حيث يقول «افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الاخرة خير للذين اتقوا ، افلا تعقلون» (يوسف ـ ١٠٩)

ومجرد قوله : «ولدار الاخرة خير للذين اتقوا» لايكفي في جعل ايمانهم متعلقا للكذب اذ عندئذ يجب ان تتعرض الاية الى ايمان تلك الشرذمة وصدور ما يوجب ظنهم بخلاف ما تظاهروا به حتى يصح ان يقال ان الرسل ظنوا ان المتظاهرين بالايمان قد كذبوا في ادعاء الايمان بالرسل .

اضف الى ذلك: ان هذه الاجابة لاتصحح العصمة المطلقة للانبياء اذ على هذا الجواب يكون ظن الرسل بعدم ايمان تلك الشرذمة القليلة خطئاً وكان ادعاءهم للايمان صادقا ، وهذا يمس كرامتهم من جانب آخر ، لانهم تخيلوا غير الواقع واقعاً، والمؤمن كافراً .

على ان ذلك الجواب لايناسب ذيل الجملة فانه سبحانه يقول بعد تلك الجملة : جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، مع ان المناسب على هذه الاجابة ان يقول: «بل تبين للرسل صدق ادعاء المؤمنين فنجي من نشاء ولايرد باسنا عن القوم المجرمين» .

الثاني : ان معنى الاية : ظن الامم أن الرسل كذبوا في ما اخبروا به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا الوجه هو المروي عن سعيد بن جبير واختاره العلامة الطباطبائي ، فالاية تهدف الى انه اذا استيئس الرسل من ايمان اولئك الناس ، هذا من جانب ومن جانب آخر ظن الناس لاجل تراخي العذاب ان الرسل قد كذبوا ، اي اخبروا بنصر المؤمنين وعذاب الكافرين كذباً ، جاءهم نصرنا فنجى بذلك من نشاء وهم المؤمنون ولايرد بأسنا اي شدتنا عن القوم المجرمين .

وقد دلت الايات على ان الامم السالفة كانوا ينسبون الانبياء الى الكذب قال سبحانه في قصة نوح حاكياً عن قول قومه : « بل نظنكم كاذبين » (هود - ٢٧) وكذا في قصة هود وصالح .

وقال سبحانه في قصة موسى : « فقال له فرعون : اني لاظنك يا موسى مسحوراً » (الاسراء - ١٠١) [1].

ولا يخفى ما في هذا الجواب من الاشكال ، فان الظاهر هو ان مرجع الضمير المتصل في « ظنوا » هو الرسل المقدم عليه ، وارجاعه الى الناس على خلاف الظاهر ، وعلى خلاف البلاغة وليس في نفس الاية حديث عن هذا اللفظ (الناس) حتى يكون مرجعاً للضمير في « ظنوا » .

اضف الى ذلك ان ما استشهد به مما ورد في قصة نوح لايرتبط بما ادعاه فان معنى « بل نظنكم كاذبين » ان الناس صوروا نفس الرسل كاذبين وانهم قد تعمدوا التقول على خلاف الواقع ، والمذكور في الاية المبحوثة عنها ليس كون الرسل كاذبين بل كونهم مكذوبين اي وعدوا كذبا وقيل لهم

---

(١) الميزان ج١١ ص ٣٠٧ .

قولا غير صادق وانتصوروا انفسهم صادقين في ما يخبرون به ، وبين المعنيين بون بعيد .

الثالث : ماروي عن ابن عباس من ان الرسل لما ضعفوا وغلبوا ظنوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله من النصر وقال كانوا بشراً وتلا قوله:«وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متي نصر الله» .

وقال صاحب الكشاف في حق هذا القول : انه ان صح هذا عن ابن عباس فقد اراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ماعليه البشرية ،واما الظن الذي هو ترجح احدالجائزين على الاخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم اعرف الناس بربهم ، وانه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح [1].

وهذا التفسير مع التوجيه الذي ذكره الزمخشرى وان كان اوقع التفاسير في القلوب غير انه ايضاً لايناسب ساحة الانبياء الذين تسددهم روح القدس وتحفظهم عن الزلل والخطأ في الفكر والعمل ، وتلك الهاجسة وان كانت بصورة حديث النفس وشبه الوسوسة لكنها لاتلائم العصمة المطلقة المترقبة من الانبياء .

الرابع (وهو المختار)

ان المستدل زعم أن الظن المذكور في الاية أمر قلبي اعترى قلوب الرسل، وادركوه بمشاعرهم وعقولهم مثل سائر الظنون التي تحدق بالقلب البشرية وتنقدح فيها .

مع ان المراد غير ذلك بل المراد ان الظروف التي حاقت بالرسل بلغت

(١) الكشاف ج٢ ص١٥٧

من الشدة والقسوة الى حد صارت تحكي بلسانها التكويني عن ان النصر الموعود كأنه نصر غير صادق لأن هذا الظن كان يراود قلوب الرسل، وافئدتهم وكم فرق بين كونهم ظانين يكون الوعد الالهى بالنصر وعداً مكذوبا ، وبين كون الظروف والشرائط المحيطة بهم من المحنة والشدة كانت كأنها تشهد في باديء النظر على انه ليس لوعده سبحانه خبر ولااثر .

فحكاية وضعهم والملابسات التى كانت تحدق بهم عن كون الوعد كذباً أمر، وكون الانبياء قد وقعوا فريسة ذلك الظن غير الصالح امر آخر، والمخالف للعصمة هو الثاني لا الاول ولذلك نظائر في الذكر الحكيم .

منها قوله سبحانه: «وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين» (الانبياء - ٨٧) فان يونس النبي بن متى كان مبعوثاً الى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل الله ان يعذبهم فلما اشرف عليهم العذاب تابوا وآمنوا فكشفه الله عنهم وفارقهم يونس قبل نزول العذاب مغاضبا لقومه ظانا بانه سبحانه لن يضيق عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته وتاديبه لاجل مفارقته قومه مع امكان رجوعهم الى الله سبحانه وايمانهم به وتوبتهم عن اعمالهم .

فما هذا الظن الذي ينسبه سبحانه الى يونس ، هل كان ظنا قائماً بمشاعره فنحن نجله ونجل ساحة جميع الانبياء عن هذا الظن الذي لايتردد في ذهن غيرهم فكيف الانبياء بل المراد ان عمله هذا (أي ذهابه ومفارقة قومه) كان ممثلا بانه يظن ان مولاه لايقدر عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته فكم فرق بين ورود هذا الظن على مشاعر يونس ، وبين كون عمله مجسماً وممثلا لهذا الظن في كل من رآه وشاهده ، فما يخالف العصمة هو الاول لاالثاني .

ومنها: قوله سبحانه في سورة الحشر حاكيا عن بني النضير أحدى الفرق اليهودية الثلاثة التي كانت تعيش في المدينة ، وتعاقدوا مع النبي على أن لايخونوا ويتعاونوا في المصالح العامة ، ولما خدعوا المسلمين وقتلوا بعض المؤمنين في مرأي من الناس ومسمع منهم ضيق عليهم النبي فلجأوا الى حصونهم وفي ذلك يقول سبحانه : «هو الذي اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا و ظنوا انهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» . (الحشر ـ ٢)

فما هذا الظن الذى ينسبه سبحانه الى تلك الفرقة هل كانوا يظنون بقلوبهم ان حصونهم مانعتهم من الله، فان ذلك بعيد جداً فانهم كانوا موحدين ومعترفين بقدرته سبحانه غير ان علمهم والتجاءهم الى حصونهم في مقابل النبي الذي تبين لهم صدق نبوته كان يحكي عن انهم مصدر هذا الظن وصاحبه .

ولذلك نظائر في المحاورات العرفية فانا نصف المتهالكين في الدنيا والغارقين في زخارفها، والبانين للقصور المشيدة والابراج العاجية بانهم يعتقدون بخلود العيش ودوام الحياة ، وان الموت كأنه كتب على غيرهم ، ولاشك ان هذه النسبة نسبة صادقة لكن بالمعنى الذي عرفت أي ان عملهم مبدأ انتزاع هذا الظن ، ومصدر هذه النسبة .

وعلى ذلك فالاية تهدف الى ان البلايا والشدائد كانت تحدق بالانبياء طيلة حياتهم وتشتد عليهم الازمة والمحنة من جانب المخالفين فكانوا يعيشون بين اقوام كانهم اعداء الداء، وكان المؤمنون بهم في قلة فصارت حياتهم المشحونة بالبلايا والنوازل ، والبأساء والضراء ، مظنة لان يتخيل كل من وقف عليها من نبي وغيره، ان ماوعدوابه وعد غير صادق ولكن لم يبرح الوضع على هذا المنوال حتى يفاجئهم نصره سبحانه ، للمؤمنين ، واهلاكه وابادته للمخالفين

كما يقول : « فنجي من نشاء ولايرد باسنا عن القوم المجرمين» .

ويشعر بما ذكرناه قوله سبحانه: «ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب » . (البقرة - ٢١٤)

فالمراد من الرسول هو غير النبي الاكرم من الرسل السابقين ، فعند ما كانت الباساء الضراء تحدق بالمؤمنين ونفس الرسول، وكانت المحن تزلزل المؤمنين حتى انها كانت تحبس الانفاس فعند ذلك كانت تكاد تلك الانفاس المحبوسة والالام المكنونة تنفجر فى شكل ضراعة الى الله ، فيقول الرسول والذين آمنوا معه «متى نصر الله» ؟ فان كلمة « متى نصر الله » مقرونة بالضراعة والالتماس، يقع مظنة تصور استيلاء اليأس والقنوط عليهم لا بمعنى وجودهما في ارواحهم وقلوبهم بل بالمعنى الذي عرفت من كونه ظاهراً من احوالهم لا من اقوالهم.

وما برح الوضع على هذا الى أن كان النصر ينزل عليهم وتنقشع عنهم سحب اليأس والقنوط المنتزع من تلك الحالة .

هذا ما وصلنا اليه في تفسير الاية ولعل القارىء يجد تفسيراً اوقع في النفس مما ذكرناه .

الاية الثانية

«وما ارسلنا من رسول ولانبي الااذا تمنى القى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم» (الحج - ٥١)

ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد» (الحج - ٥٣) .

«وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم

وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم» (الحج - ٥٤)

وهذه الاية او الايات من اوثق الادلة في نظر القائل لعدم عصمة الانبياء، وقد استغلها المستشرقون في مجال التشكيك في الوحي النازل على النبي على وجه سيوافيك بيانه .

وكأن المستدل بهذه الاية يفسر القاء الشيطان في امنية الرسول اوالنبي بالتدخل في الوحي النازل عليه فيغيره الى غير مانزل به .

ثم انه سبحانه يمحو مايلقي الشيطان ويصحح ماانزل على رسوله من الايات فلوكان هذا مفاد الاية فهو دليل على عدم عصمة الانبياء في مجال التحفظ على الوحي او ابلاغه الذي اتفقت كلمة المتكلمين على المصونية في هذا المجال .

وربما يؤيد هذا التفسير بما رواه الطبرى وغيره في سبب نزول هذه الاية، وسيوافيك نصه ومافيه من الاشكال .

فالاولى تناول الاية بالبحث والتفسير حتى يتبين انها تهدف الى غير مافسره المستدل فنقول : يجب توضيح نقاط في الايات .

الاولى : ما معنى امنية الرسول او النبي ؟ والى ما يهدف قوله سبحانه : « اذا تمنى » .

الثالية : مامعنى مداخلة الشيطان في امنية النبي التى يفيده قول الله سبحانه: « القى الشيطان في امنيته »؟

الثالثة : ما معنى نسخ الله سبحانه ما يلقيه الشيطان .

الرابعة : ماذا يريد سبحانه من قوله : « ثم يحكم الله آياته» وهل المراد منه الايات القرآنية ؟

الخامسة : كيف يكون ما يلقيه الشيطان فتنة لمرضى القلوب وقاسيتها ؟ وكيف يكون سبباً لايمان المؤمنين ، واخبات قلوبهم له .

وبتفسيرهذه النقاط الخمس يرتفع الابهام الذي نسجته الاوهام حول الاية ومفادها فنقول :

اما الامنية قال ابن فارس فهى من المنى بمعنى تقدير شيء ونفاذ القضاء به ، منه قولهم : مني له الماني اي قدر المقدر قال الهذلي :

لا تـأمنن وان امسيت فـي حرم حتى تلاقى ما يمني لك الماني

والمنا : القدر ، وماء الانسان : مني اي يقدر منه خلقته . والمنية : الموت لانها مقدرة على كل ، وتمنى الانسان : أمل يقدره، ومنى مكة : قال قوم سمي به لما قدر ان يذبح فيه ، من قولك مناه الله [1].

وعلى ذلك فيجب علينا ان نقف على امنية الرسل والانبياء من طريق الكتاب العزيز ولايشك من سبر الذكر الحكيم انه لم يكن للرسل والانبياء امنية سوى نشر الهداية الالهية بين اقوامهم وارشادهم الى طريق الخير والسعادة ، وكانوا يدأبون في تنفيذ هذا المقصد السامي، والهدف الرفيع ولايألون في ذلك جهداً، وكانوا يخططون لهذا الامر ويفكرون في الخطة بعد الخطة ، ويمهدون له قدر مستطاعهم ، ويدل على ذلك جمع من الايات نكتفى بذكر بعضها :

يقول سبحانه فـي حق النبي الاكرم : « وما اكثر الناس ولـو حرصت بمؤمنين » . (يوسف ـ ١٠٣)

ويقول ايضا : « فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بمايصنعون » (فاطر ـ ٨)

ويقول ايضا : « ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل وما لهم من ناصرين » . (النحل ـ ٣٧)

---

(١) المقاييس ج٥ ص٢٧٦ .

ويقول سبحانه : « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » .
(القصص - ٥٦)

ويقول سبحانه : «فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر» (الغاشية ٢١ - ٢٢)

هذا كله في حق النبي الاكرم ﷺ .

ويقول سبحانه حاكيا عن استقامة نوح في طريق دعوته : « وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا . ثم اني دعوتهم جهاراً ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسراراً » .
(نوح ٧ - ٩)

ويقول سبحانه بعد عدة من الايات : « قال نوح : رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد اضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين الاضلالا » . (نوح ٢١ - ٢٤)

فهذه الايات ونظائرها تنبىء بوضوح عن ان أمنية الانبياء الوحيدة في حياتهم وسبيل دعوتهم هو هداية الناس الى الله ، وتوسيع رقعة الدعوة الى ابعد حد ممكن ، وان منعتهم من تحقيق هذا الهدف عراقيل وموانع ، فهم يسعون الى ذلك بعزيمة راسخة ورجاء واثق .

الى هنا تبين الجواب عن السؤال الاول، وهلم معى الان لنقف على جواب السؤال الثانى ، اعني :

ما معنى القاء الشيطان فى امنية الرسل

وهذا السؤال هي النقطة الحساسة في استدلال المخالف ، وبالاجابة عليها يظهر وهن الاستدلال بوضوح فنقول : ان القاء الشيطان في امنيتهم تتحقق بأحدى صورتين :

١ ـ ان يوسوس في قلوب الانبياء ويوهن عزائمهم الراسخة ، ويقنعهم بعدم جدوى دعوتهم وارشادهم وان هذه الأمة امة غير قابلة للهداية فتظهر بسبب ذلك سحائب اليأس في قلوبهم ويكفوا عن دعوة الناس وينصرفوا عن هدايتهم .

ولاشك أن هذا المعنى لايناسب ساحة الانبياء بنص القرآن الكريم ،لانه يستلزم ان يكون للشيطان سلطانا على قلوب الانبياء وضمائرهم ، حتى يوهن عزائمهم في طريق الدعوة والارشاد ، والقرآن الكريم ينفي تسلل الشيطان الى ضمائر المخلصين الذين هم الانبياء ومن دونهم ، ويقول سبحانه : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » . (الحجر ـ ٤٢ الاسراء ـ ٦٥)

ويقول أيضاً ناقلا عن نفس الشيطان : « فبعزتك لاغوينهم أجمعين الاّ عبادك منهم المخلصين» (ص٨٢ ـ ٨٣)

وليس ايجاد الوهن في عزائم الانبياء من جانب الشيطان الا اغواءهم المنفي بنص الايات .

٢ ـ ان يكون المراد من القاء الشيطان في امنية النبي ﷺ هو اغراء الناس ودعوتهم الى مخالفة الانبياء عليهم السلام والصمود في وجوههم حتى تصبح جهودهم ومخططاتهم عقيمة غير مفيدة .

وهذا المعنى هو الظاهر من القرآن الكريم حيث يحكى في غير مورد ان الشيطان كان يحض أقوام الانبياء عليهم السلام على المخالفة ويعدهم بالاماني ، حتى يخالفوهم .

قال سبحانه : « يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الاّ غروراً

(النساء ـ ١٢)

وقال سبحانه : « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم

فلاتلوموني ولوموا أنفسكم» (ابراهيم - ٢٢)

وهذه الآيات ونظائرها تشهد بوضوح على ان الشيطان وجنوده كانوا يسعون بشدة وحماس في حضّ الناس على مخالفة الانبياء والرسل ، وكانوا يخدعونهم بالعدة والاماني. وعند ذلك يتضح مفاد الاية ، قال سبحانه: « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى (اي اذا فكر في هداية امته، وخطط لذلك الخطط، وهيأ لذلك المقدمات) ألقى الشيطان في أمنيته (بحض الناس على المخالفة والمعاكسة، وافشال خطط الانبياء حتى تصبح المقدمات عقيمة غيرمنتجة) .

* * *

٣ ـ مامعنى نسخه سبحانه مايلقيه الشيطان

اذا عرفت هذا المقطع من الاية يجب أن نقف على مفاد المقطع الاخر منها وهو قوله سبحانه : « فينسخ الله مايلقي الشيطان » ومامعنى هذا النسخ ؟

والمراد من ذلك النسخ ما وعد الله سبحانه لرسله بالنصر ، والعون والانجاح، قال سبحانه : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا »(غافر ـ٥١) وقال سبحانه: «كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز» (المجادلة ـ ٢١) وقال سبحانه : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » (الانبياء ـ ١٨)

وقال سبحانه: « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون» (الصافات ١٧١ - ١٧٣)

وقال في حق النبي الاعظم ﷺ: « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (التوبة ـ ٣٣)

وقال سبحانه : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون» (الانبياء ـ ١٠٥)

الى غيرذلك من الايات الساطعة التي تحكي عن انتصار الحق الممثل في الرسالات الالهية في صراعها مع الباطل وأتباعه .

* * *

٤ ـ مامعنى احكامه‌سبحانه اياته

اذا تبين معنى نسخه‌سبحانه مايلقيه الشيطان، يتبين المراد من قوله‌سبحانه « ثم يحكم الله آياته » .

فالمراد من الايات هي الدلائل الناصعة الهادية الى الله سبحانه والى مرضاته وشرائعه .

وان شئت قلت : اذا نسخ مايلقيه الشيطان ، يخلفه مايلقيه سبحانه الى أنبيائه من الايات الهادية الى رضاه أولا، وسعادة الناس ثانياً .

ومن اسخف القول : ان المراد من الايات ، الايات القرآنية التي نزلت على النبي‌الاكرم، وذلك لان موضوع البحث فيها ليس‌خصوص النبي‌الاكرم بل الرسل والانبياء على وجه الاطلاق ، اضف اليه انه ليس كل نبي ذاكتاب وآيات، فكيف يمكن‌ان يكون ذا قرآن مثله .

ويعود مفاد الجملة الى ان الله سبحانه يحكم دينه وشرائعه وما أنزله الله الى انبيائه وسفرائه من الكتاب والحكمة .

والحاصل : ان في مجال الصراع بين انصار الحق وجنود الباطل يكون الانتصار والظفر للاول،والاندحار والهزيمة للثاني فتضمحل الخطط الشيطانية وتنهزم اذنابه ، بارادة الله سبحانه ، فتخلفها البرامج الحيوية الالهية وآياته

الناصعة ، فيصبح الحق قائماً وثابتا ، والباطل داثراً وزاهقا . قال سبحانه : وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا» . (الاسراء - ٨١)

٥ - ما هي النتيجة من هذا الصراع

قد عرفت ان الاية تعلل الهدف من هذا الصراع بان ما يلقيه الشيطان يكون فتنة لطوائف ثلاث :

١ - الذين في قلوبهم مرض .

٢ - ذات القلوب القاسية .

٣ - الذين أوتوا العلم .

ان نتيجة هذا الصراع تعود الى اختبار الناس وامتحانهم حتى يظهروا مافي مكامن نفوسهم وضمائر قلوبهم من الكفر والنفاق أو من الاخلاص والايمان .

فالنفوس المريضة التي لم تنلها التزكية والتربية الالهية ، والقلوب القاسية التي اسّرتها الشهوات، واعمتها زبارج الحياة الدنيا، تتسابق الى دعوة الشيطان وتتبعه فيظهر ما في مكامنها من الكفر والقسوة ، فيثبت نفاقها ويظهر كفرها .

واما النفوس المؤمنة الواقفة على ان ما جاء به الرسل حق من جانب الله سبحانه فلا يزيدها ذلك الا ايمانا وثباتا وهداية وصموداً .

وهذه النتيجة حاكمة في عامة اختبارات الله سبحانه لعباده ، فان اختباراته سبحانه ليس لاجل العلم بواقع النفوس ومكامنها فانه يعلم بها قبل اختبارها «الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» وانما الهدف من الاختبار هو اخراج تلك القوى والقابليات الكامنة في النفوس والقلوب ، الى عالم التحقق والفعلية وبالتالي تمكين الاستعدادات من الظهور والوجود .

وفي ذلك يقول الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام في معنى الاختبار بالاموال

والاولاد الوارد في قولـه : «واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة» : ليتبين الساخط لرزقه ، والراضي بقسمه، وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ولكن لتظهر الافعال التي بها يستحق الثواب والعقاب»[١].

وقد وقفت بعد ما حررت هذا على كلام لفقيد العلم والتفسير الشيخ محمد جواد البلاغي قدس الله سره وهو قريب مما ذكرناه : قال : المراد من الامنية هو الشيء المتمنى كما هو الاستعمال الشائع في الشعر والنثر ، كما ان الظاهر من التمني المنسوب الى الرسول والنبي ويشهد به سوق الايات، هو ان يكون ما يناسب وظيفتهما ، وهو تمني ظهور الهدى في الناس وانطماس الغوايـة والهوى ، وتأييد شريعة الحق ، ونحو ذلك فيلقي الشيطان بغوايته بين الناس في هذا المتمنى الصالح مايشوشه، ويكون فتنة للذين في قلوبهم مرض ، كما القى بين امة موسى من الضلال والغواية ما القى، والقى بين اتباع المسيح ما اوجب ارتداد كثير منهم، وشك خواصهم فيه واضطرابهم في التعاليم، واحكام الشريعة بعده ، والقى بين قوم رسول الله ما اهاجهم على تكذيبه وحربه وبين امته ما اوجب الخلاف وظهور البدع فينسخ الله بنور الهدى غياهب الضلال وغواية الشيطان فيسفر للعقول السليمة صبح الحق ثـم يحكم الله آياته ويؤيد حججه بارسال الرسل ، أو تسديد جامعة الدين القيم [٢].

وما ذكره قدس الله سره كلام لاغبار عليه وقد شيدنا اساسه فيما سبق .

الى هنا تبين مفاد جميع مقاطع الاية بوضوح وبقي الكلام فـي التفسير السخيف الذي تمسك به بعض القساوسة الطاعنين في الاسلام، ومن حذي حذوهم من البسطاء .

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ٩٣ .

(٢) الهدى الى دين المصطفى ج١ ص١٣٤ .

التفسير الباطل للاية

ثم ان بعض القساوسة الذين ارادوا الطعن فى الاسلام والتنقيص من شأن القرآن ، تمسكوا بهذه الاية وقالوا : بان المراد من الاية هو ان «ما من رسول ولانبي الا اذا تمنى وتلا الايات النازلة عليه تدخّل الشيطان في قرائته فادخل فيها ما ليس منها » واستشهدوا لذلك التفسير بما رواه الطبرى عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس قالا : جلس رسول الله ـ ص ـ في ناد من اندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ ان لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه فانزل الله عليه «والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى» فقرأها ـ ص حتى اذا بلغ «افرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى» القى عليه الشيطان كلمتين : «تلك الغرانقة العلي ، وان شفاعتهن لترتجى» فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً الى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لايقدر على السجود ، فرضوا بما تكلم به وقالوا قدعرفنا: ان الله يحيي ويميت وهو الذى يخلق ويرزق، ولكن الهتنا هذه تشفع لنا عنده اذ جعلت لها نصيباً فنحن معك قالا : فلما امسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين القى الشيطان عليه ، قال : ما جئتك بهاتين ، فقال رسول الله ـص ـ : افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل فاوحي الله اليه : «وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفترى علينا غيره» الى قوله «ثم لاتجد لك علينا نصيراً» فما زال مغموماً مهموما حتى نزلت عليه: «وما ارسلنا من قبلك من رسول ولانبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم» قال فسمع من كان من المهاجرين بارض الحبشة ان

أهل مكة قد اسلموا كلهم فرجعوا الى عشائرهم وقالوا: هم احب الينا فوجدوا قد ارتكسوا حين نسخ الله ما القى الشيطان[١].

ولايخفى ما في هذا التفسير وشأن النزول من الاشكالات التي تسقطه عن صحة الاستناد اليه.

اما اولا: فلانه مبني على ان قوله «تمنى» بمعنى تلا، وان لفظة «امنيته» بمعنى تلاوته. وهذا الاستعمال ليس مأنوساً في لغة القرآن والحديث ولوصح فانما هو استعمال شاذ يجب تنزيه القرآن عنه.

نعم استدل بعضهم بقول حسان على ذاك الاستعمال.

تمنى كتاب الله اول ليلة واخره لاقى حمام المقادر

وقول الاخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمني داوود الزبور على رسل

وهذان البيتان لوصح اسنادهما الى عربي صميم كحسان لايحسن حمل القرآن على لغة شاذة.

اضف الى ذلك ان البيت غير موجود في ديوان حسان، وانما نقله عنه المفسرون في تفاسيرهم وقد نقله ابوحيان في تفسيره (ج ٦ ص ٣٨٢) واستشهد به صاحب المقائيس (ج ٥ ص ٢٧٧).

ولو صح الاستدلال به فرضا فانما يتم في اللفظ الاول دون الامنية لعدم ورودها فيه.

وثانياً: ان الرواية لايمكن ان يحتج بها لجهات كثيرة أقلها انها لاتتجاوز في طرقها عن التابعين ومن هو دونهم الا الى ابن عباس مع انه لم يكن مولوداً في الوقت المجعول للقصة.

---

(١) تفسير الطبرى ج١٧ ص١٣١ ونقله السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الاية.

اضف الى ذلك ، الاضطراب الموجود في متنها فقد نقل بصور مختلفة يبلغ عددالاختلاف الى اربع وعشرين صورة وقد جمع تلك الصور المختلفة العلامة البلاغي في اثره النفيس فلاحظ[1]

وثالثاً : ان القصة تكـذّب نفسها لانها تتضمن ان النبي بعد ما ادخـل الجملتين الزائدتين في ثنايا الايات، استرسل في تلاوة بقية السورة الى آخرها وسجد النبي والمشركون الحاضرون معه ، فرحاً بما جاء في تينك الجملتين من الثناء على آلهتهم .

ولكن الايات التي وقعت بعدهما ، واسترسل النبى في تلاوتهما عبارة عن سبحانه : « تلك اذن قسمة ضيزى ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآبائكم ما انزل الله بها من سلطان» الى آخر الايات

وعندئذ يطرح هذا السؤال وهو انه كيف رضي ريحانة العرب ومنطيقهم وحكيمهم وشاعرهـم : الوليد بن المغيـرة عن النبي ﷺ بهذا الثناء القصير وغفل عن الايات اللاحقة التي تندد بآلهتهم بشدة وعنف ، ويعدّها معبودات خرافية لاتملك من الالوهية الا الاسم والعنوان .

أوليس ذلك دليلا علـى أن جاعل القصة من الوضاعين الكذابين الذى افتعل القصة في موضع غفل عن انـه ليس محلاً لها ، وقد قيـل : لا ذاكرة لكذوب .

ورابعاً ان الله سبحانه يصف فى صدر السورة نبيه الاكرم بقولـه : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » (النجم ٣ ـ ٤) ، وعندئـذ كيف يصح له سبحانه ان يصف نبيه في أول السورة بهذا الوصف ثم يبدر من نبيه

---

(١) الهدى الى الدين المصطفى ج١ ص ١٣٠.

ماينافي هذا التوصيف أشد المنافاة وفي وسعه سبحانه صون نبيه عن الانزلاق الى مثل هذاالمنزلق الخطير .

وخامساً : أن الجملتين الزائدتين اللتين الصقتا بالايات ، تكذبها سائر الايات الدالة على صيانة النبي الاكرم في مقام تلقي الوحي والتحفظ عليه وابلاغه كما مرّ في تفسير قوله سبحانه : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » (الجن - ٢٧)

وقوله تعالى: «ولوتقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . (الحاقة ٤٤ - ٤٦)

وسادساً: ان علماء الاسلام، وأهل العلم والدراية من المسلمين قدوجهوا هذه الحكاية بالرد، فوصفها المرتضى بالخرافة التي وضعوها، [١] .

وقال النسفي : ان القول بها غيرمرضيّ، وقال الخازن في تفسيره : ان العلماء وهّنوا أصل القصة ولم يروها أحد من أهل الصحة ، ولاأسندها ثقة بسند صحيح، أوسليم متصل، وانما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم، والذي يدل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها، وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها[٢] .

هذه هي أهم الاشكالات التي تردعلى القصة وتجعلها في موضع من البطلان قد ذكرها المحققون في الرد على هذه القصة وقد ذكرنا قسماً منها في كتابنا «فروغ ابديت»[٣] ولانطيل المقام بذكرها .

تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس باذنه سبحانه .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

---

(١) تنزيه الانبياء ص١٠٩ .

(٢) الهدى الى دين المصطفى ج١ص١٣٠ .

(٣) كتاب ألف في بيان سيرة النبي الاكرم من ولادته الى وفاته (ص) وقد طبع في جزئين.

فهرس المواضيع المهمة فى هذا الكتاب

الموضوع	الصفحة
كلمة قيمة للاستاذ المحقق والكاتب الاسلامى الكبير : السيد مرتضى العسكرى	٣
رسالة قيمة للكاتب الكبير الحجة : الشيخ سلمان الخاقانى	٧
خطاب للعلامة الحجة الحكيم المتأله الشيخ حسن الاملى	٩
الايمان بالغيب عنصر اساسى في جميع الشرائع السماوية ومناقشة نظريات المنارفي تفسير سورة واحدة	١٠ - ٢٤
(١)	
اجر الرسالة المحمدية	
شعار الانبياء في طريق دعوتهم عدم طلب الاجر	١٩
الايات الدالة على ذلك الشعار	٢٠ - ٢٣
شعار الانبياء وطلب النبي ﷺ المودة في القربى والكلام في مقامات	٢٣
المقام الاول : ما المراد من المودة في القربى	٢٤
نقل كلمات اللغويين والاوائل حول هذا الموضوع	٢٥
السورة مكية فكيف تفسر المودة في القربى بعلي واولاده ؟والاجابة عنه	٣١
المحبة حالة غير اختيارية فكيف تطلب ؟ والاجابة عنه	٣٨
كيف يأمر الرسول بمودة اقربائه مع أن فيهم من يعاديه والاجابة عنه	٤٢
المقام الثانى :التاليف بين طلب المودة والايات النافية للاجر	٤٤
تحقيق حول تقسيم الاستثناء الى المتصل والمنقطع	٤٨
المقام الثالث :كيف يعود نفع المودة الى الناس	٥١
المقام الرابع : المودة في القربى نفس اتخاذ السبيل الى الله	٥٤
وجه الجمع بين الاجرين الظاهريين	٥٦
المقام الخامس في مناقشة الاحتمالات المذكورة حول آيةالمودة	٥٩

احتمالات سبعة ليست لها صلة بظاهر الاية ٥٩
المقام السادس : في سرد الاحاديث الواردة حول الاية ٦٨

(٢)

معاجز النبى الاكرم وكراماته فى القرآن

شبهة حول معاجز النبي طرحت من جانب القساوسة ٧٦
المحاسبة العقليه تفند زعم القساوسة ٧٨
القرآن يثبت للنبي معاجز غير القرآن وهي : ٨٠
أ ـ انشقاق القمر ونقل كلمات المفسرين ٨١
ب ـ معراج النبي وتفسير الاية الواردة فيه ٨٤
ج ـ مباهلة النبي لاهل الكتاب ٨٥
د ـ مطالبة النبي بالمعاجز الواحدة بعد الاخرى ٨٧
هـ ـ وصف معاجز النبي بالسحر ٨٩
و ـ النبي الاعظم وبيناته ٩٠
ز ـ اجبار النبي عن الغيب كالمسيح . ٩١

(٣)

مفاد الايات النافية للمعجزة

الطرق العلمية الثلاثة لاثبات نبوة مدعيها ٩٥
انما يجب القيام بمقترحات الناس اذا توفرت فيها الشروط العشرة ٩٥
١ ـ يجب ان تكون دعوتهم مزودة بالمعجزة لا بما يختاره الناس ٩٦
٢ ـ امكانية الامر المطلوب ٩٩
٣ ـ استعداد الطالبين للاهتداء ٩٩
٤ ـ اذنه سبحانه للاتيان بها ١٠٠

٥ ـ ان لايؤدي الاعجاز الى افناء الناس ١٠١
٦ ـ ان لايؤدي انكار المعجزة الى نزول العذاب ١٠١
٧ ـ ان لايكون موجباً لتحقير المعاجز الاخرى ١٠٢
٨ ـ ان لايكون المطلوب معجزة ملجئة الى الايمان ١٠٢
٩ ـ ان لايكون على خلاف السنة الحكيمة في الكون ١٠٣
١٠ ـ ان تكون هناك رابطة منطقية بين ثبوت النبوة والمعجزة المقترحة ١٠٣
استعراض الايات التي استدل بها القساوسة ١٠٥
توضيح حول الايات الثمانية عشر التي استدل بها القساوسة على عدم تزويد النبي بمعجزة غير القرآن ١٠٦
فقدان أحد الشروط العشرة في الموارد التي لم يقم النبي بالمعاجز المطلوبة منه ١٠٧
حصيلة البحث حول تلك الايات ١٥٣

(٤)

الشفاعة في القرآن الكريم وشفاعة النبي الاعظم

الشفاعة وكلمات علماء الاسلام وهي أربعة وثلاثون كلمة ١٥٧
الايات الواردة حول الشفاعة وهي على أصناف سبعة ١٧٤
الصنف الاول: الايات النافية للشفاعة ١٧٧
الصنف الثاني : مايفند عقيدة اليهود في الشفاعة ١٧٩
الصنف الثالث: ماينفي شمول الشفاعة للكفار ١٨١
الصنف الرابع : ينفي صلاحية الاصنام للشفاعة ١٨٣
الصنف الخامس : يخص حق الشفاعة له سبحانه ١٨٦
الصنف السادس: يثبت الشفاعة لغيره سبحانه تحت شرائط ١٨٧
الصنف السابع: يسمي من يقبل شفاعته ١٩٣

الشفاعة المرفوضة والمقبولة وأقسامهما ١٩٤
آيات أخرى في الشفاعة ١٩٦
ما هي حقيقة الشفاعة ٢٠٠
الشفاعة التكوينيّة ٢٠١
الشفاعة القيادية ٢٠٤
الشفاعة المصطلحة ٢١٠
مبررات الشفاعة ٢١٥
الآثار البناءة والتربوية للشفاعة ٢١٩
ماهو أثر الشفاعة هل هواسقاط العقاب أوزيادة الثواب ؟ ٢٢٣
دوافع المعتزلة الى مخالفة الجمهور ٢٢٥
اشكالات مثارة حول الشفاعة ٢٢٨
١ ـ الشفاعة تجعل القانون لغواً وبلاأثر والاجابة عنه ٢٢٩
٢ ـ تشريع الشفاعة يجر الى التمادي في العصيان والاجابة عنه ٢٣٢
٣ ـ الحاكم العادى لايقبل الشفاعة الا اذا تغير علمه وهومستحيل على الله ٢٣٥
٤ ـ ليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة والاجابة عنه ٢٣٩
٥ ـ آيات الشفاعة من الآيات المتشابهة والاجابة عنه ٢٤٤
٦ ـ الشفاعة لون من الوساطة المتعارفة بين الناس ويجب تنزيهه سبحانه عن ذلك والاجابة عنه ٢٤٦
٧ـ المراد من الآيات الشفاعة القيادية لا الشفاعة المصلحة والجواب عن ذلك ٢٥١
٨ ـ هل الشفيع هواشد رأفة بالعباد من الله والاجابة عن ذلك ٢٥٢
٩ ـ كل انسان قيد عمله ورهن سعيه وهذا لايجتمع مع الشفاعة والاجابة عنه ٢٥٣
١٠ ـ طلب الشفاعة من الأولياء شرك بالله والاجابة عنه ٢٥٥

ما يدل على جواز طلب الشفاعة كتاباً وسنة ٢٥٦
نقد ما استدل على حرمة طلب الشفاعة ٢٦١
الشفاعة في الادب العربي ٢٧٧
الشفاعة في الاحاديث الاسلامية ونقل «١١٢» حديث ٢٨٨
بحث وتمحيص حول الروايات الواردة في الشفاعة ٣١٣

(٥)

ما هو الرسول والنبى فى القرآن الكريم

الفرق الاول : الرسول من امر بالتبليغ والنبي اعم ونقد هذا الفرق ٣١٨
الفرق الثاني: الرسول من انزل معه الكتاب و النبي اعم ونقد هذا الفرق ٣٢٢
الفرق الثالث الرسول من جاء بشرع جديد والنبي اعم ونقد هذا الفرق ٣٢٦
ركام من الاوهام والاكاذيب التي استغلتها الفرقة الضالة البهائية ٣٣٠
الفرق الرابع : الرسول من يعاين الملك والنبي من يتلقى عن غير هذا الطريق ونقده ٣٣٣
الفرق الخامس: النبي من يوحى اليه في المنام والرسول شاهد الملك ونقده ٣٣٧
الفرق السادس: النبي والرسول مبعوثان الى الناس والرسول مرسل برسالة زائدة ونقده ٣٣٩
ما هو المختار عندنا ؟ ٣٤١
نتائج البحث ٣٤٨
بحث وتنقيب حول الروايات الواردة في المقام ٣٦٠
المحدث في السنة، والروايات الواردة في المقام ٣٦٩

(٦)

العصمة فى القرآن الكريم وعصمة الرسول الاكرم

مبدأ ظهور فكرة العصمة في الامة الاسلامية ٣٧٤

المعتزلة اخذوا مبادءهم عن الامام علي ومناقشة احمد امين في نظره ٣٧٩

ماهي حقيقة العصمة والنظريات الثلاث حولها ٣٨٦

الروح التي تسدد الانبياء ٣٩٢

هل العصمة موهبة الهية او اكتسابية ٣٩٤

العصمة كمال لصاحبها ٣٩٧

هل العصمة تسلب الاختيار ؟ ٤٠١

مراحل العصمة ودلائلها ٤٠٦

عصمة الانبياء في تبليغ الرسالة ٤١٤

عصمتهم ومصونيتهم عن المعصية ٤١٤

العقل وعصمة الانبياء وتقرير برهان المرتضى ٤١٦

القرآن وعصمة الانبياء والايات الخمس القرآنية ٤٢٣

حجة المخالفين للعصمة في مورد الانبياء على الاطلاق ٤٣١

تفسير قوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل ... ٤٣٣

تفسير قوله تعالى القى الشيطان في امنيته ٤٣٨

فهرس المواضيع المهمة في هذا الكتاب

VETVS NOVVM TESTAMENTVM
DEI SVB NVMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

الثمن ٧٠٠ ريال